تاريخ المسلمين وحضارتهم

في آسيا الوسطى وبلاد القوقاز

تأليف الدكتور
محمد عبد العظيم أبو النصر

الناشر
شركة نوابغ الفكر

الطبعة الاولى
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩
حقوق الطبع محفوظة للناشر
شركة نوابغ الفكر
19 القطامية (القاهرة)
هاتف:25936402 ،فاكس: 27865553
E-mail: nawabgh_elfekr@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ابو النصر ، محمد عبد العظيم
تاريخ المسلمين وحضارتهم فى اسيا الوسطى وبلاد القوقاز
تاليف/ محمد عبد العظيم ابو النصر
- ط 1 - القاهرة : شركة نوابغ الفكر 2009
320 ص : 24 سم
تدمك : 7-26-6305-977-978
1- الحضارة الاسلامية
2-المسلمين فى اسيا
3-العنوان

ديوى: 301.4529

رقم الايداع : 2008/20623

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾

صدق الله العظيم

آية ٤٦ سورة الشورى

الفصل الأول

آسيا الوسطى

أولا: (الإطار الجغرافى والتاريخى):

آسيا الوسطى شبه منحرف تحده من الجنوب جبال الهمالايا، ومن الجنوب الغربى هضبة البامير ومن الغرب جبال تيان شان ومن الشمال جبال الآلتاى ويابلونى، وستانوفوى، ومن الشرق جبال كنجان وكوكونور.

وتبلغ مساحة آسيا الوسطى المحصورة بين هذه الحدود حوالى ستة ملايين كم٢ هى فى مجموعها سلسلة من الجبال والهضاب الجعدة والمنخفضات ويسكن آسيا عناصر صينية وتركية ومغولية وآسيا الوسى هى تلك البلاد التى أطلق عليها الجغرافيون العرب بلاد ما وراء النهر وهى المنطقة المتحضرة الواقعة فى حوض نهر جيحون - أمودريا وسيحون سيردريا حيث كان نهر (جيحون) القديم يد الحد الفاصل بين الأقوام الناطقة بالفارسية والتركية أى إيران وتوارن، فما كان فى شماله أى ورائه من أقاليم قد سماها العرب ما وراء النهر وهو نهر جيحون أو نهر أمودريا Anu - Darya وكذلك سموها بلاد الهيطل كما أطلق عليها اسم بلا التركستان أى موطن الترك.

والنصف الشمالى من بلاد ما وراء النهر هو ما يطلق عليه اسم آسيا الوسطى أو بلاد التركستان فهو فى الأصل على هيئة سهل يمتد من سلسلة التلال الشرقية التى تعتبر امتداد لجبال تيان شان التى تكاد تصل إلى الغرب ن سمرقند حتى تأخذ فى الانخفاض الشديد لتبلغ بعد ذلك شواطى بحر الخرز (قزوين).

كذلك فإن سلسة الجبال الآسيوية الرئيسية العظمى التى تمتد من الصين شرقا إلى شاطئ البحر المتوسط غربا، والتى تبلغ غايتها من الارتفاع فى بمنطقة التبت، وجبال الهمالايا التى تعرف بسقف الدنيا على وجه التحديد، وهى فى تشعبها وتفريعاتها كانت تسعد بحق قديمات حاجزا بين الشعوب المتحضرة، والبدوية قبل وصول الإسلام إلى إقليم الترك، ولكن الشعوب التى كانت تسكن إلى جنوب من هذه الجبال كان لها دور هام بل أكثر أهمية فى حركة التطور الحضارى والثقافى.

وقد أطلق الجغرافيون العرب والمسلمون القدامى على جمهوريات أسيا الوسطى الإسلامية فى العصور الوسطى بلاد (خراسان وما وراء النهر والتركستان)، ومن هنا كان لابد من تحديد موقعها على خريطة العالم، والإشارة إلى الأسماء القديمة التى تعارفت عليها المصادر القديمة حول مدلول هذه الأسماء الثلاث المشار إليها ونقول: إن الطلاق اسم خراسان فى القرون الهجرية الأولى بل طوال العصور الوسطى جميعها هو ذلك الإقليم الذى يحده جغرافى فى الشرق إقليم السند الهندى، وطخارستان الخراسانية، ومن الغرب إقليم جرجان، ومنم لشمال بلاد الصغد وخوارزم أيضا، ومن الناحية الجنوبية إقليم سحستان، وقد تقسمت هذه البلاد فى العصور الحديثة إلى ثلاث أقسام هى جمهورية إيران الإسلامية، وأفغانستان الحالية، وجمهورية تركمانستان التى تشكل واحدة من جمهوريات أسيا الوسطى الست المستقبلة حديثا عن الاتحاد السوفيتى السابق، أما إقليم خراسان فى العصر الحديث فيطلق على إحدى محافظات الجمهورية الإيرانية الحالية ومساحتها ١/ من مساحة إيران حاليا، ومن هنا فإن خراسان لا تزال موزعة على هذه الجمهوريات الثلاث السابقة الإشارة إليها.

أهم أقاليم ما وراء النهر:

تنقسم بلاد ما وراء النهر إلى عدة أقاليم كان لها أثر كبير فى تاريخ تلك البلاد سواء كان ذلك فى الجوانب السياسية أو الاقتصادية أو العلمية، واهم هذه الأقاليم هى:

١ - إقليم الصغد.
٢ - إقليم خوارزم.
٣ - إقليم اشروسنة.
٤ - إقليم فرغانة.
٥ - إقليم الشاش.
٦ - إقليم الختل.

١ - أقليم الصغد: تشكل هذا الإقليم بواسطة نهر جيحون وروافده، ولعل ما يضفى عليه أهمية بالغة الأثر أنه يضم مدينتين كان لهما باع كبير فى النواحى وسمرقند عاصمته السياسية حتى عهد السامانيين فمدينة بخار ى عاصمته الدينية، النهر قاطبة، فحينما يرتفع الإنسان إلى قلعتها لا يشاهد سوى خضرة متصلة بعضها وكأن السماء مهيأة على بساط أخضر، وكانت بخارى تتمتع بثراء طائل

وتقوم بها الصناعات والتجارات، ويتجلى ذلك بوضوح فى مغانم المسلمين عند الفتح الإسلامى لها ومن أشهر أسواقها (بارزار ماخ روز) أس ماخ، كانت هذه السوق تقام فى العام ولمدة يوم واحد فغى كل مرة، وأهم سلعها الأصنام وبعد ذلك أصبحت أراضى السوق مكانا لعبادة النار حتى جاء الإسلام، وبنى المسلمون فى هذا المكان مسجدا عرف باسم مسجد ماخ.

أما سمرقند فهى تعرف بمدينة المسرات، قصبه اقليم الصعد السياسية تقع أعلى نهر جيحون وهى من أجل البلاد وأعظمها قدرا فيها أسواق كبار وقد لعبت دورا باررا فى تاريخ أسيا السياسى والاقتصادى ومن مدنه الشهيرة أيضا بيكند ونسف والكشانية.

٢ - إقليم خوارزم: يقع هذا الإقليم فى أدنى نهر جيحون وأبرز مدنه شجر كركانج التى سماها العرب الجرجانية وكاث ودرغان وخيوه هذا رسب أى الألف فرس وزمخشر موطن الإمام الزمخشرى.

٣ - اقليم أشروسنه: يحد هذا الإقليم شمالا الشاش وطشقند، وجنوبا كش، والصغانيات، وشرقا فرغانه سمرقند، وتغلب عليه الصفة الصحراوية، أما أهم مدنه فهى بونجكث، وتجاوره جبال ألبتم، وهى التى يكثر بها الذهب والفضة والنشادر، ويلقب ملوك اشروسنة بلقب الافشين ومن أشهر مدنه ذامين، مرسمندة، وساباط وديزك أو جيزك التى اعتبرت رباط للمسلمين.

٤ - إقليم فرغانه: يقع هذا الإقليم على الجانب الأيسر لنهر سيحون، وتحده جنوبا هضبة البامير، وشمالا جبال تيان شان، وشرقا سهول مكشوفة، وغربا ممر ضيق يتصل بباب الإقليم، وتعد مدينة (أخسيكنت) قصبة الإقليم واهم مدنه، وتقع هذه المدينة على شط نهر الشاش يحيطها سور خارجه ربض يحيط به سور أخر، وأبرز ما ينتجه إقليم فرغانه الثياب البيض والآت السلاح والسيوف والنحاس، واهم خاماته الذهب والفضة والزئبق والفيروز والحديد ومن أهم مدنه انديكان وقباونصر آباد وكاسان أوقاشان وباب الحديد.

٥ - إقليم الشاش: يقع هذا الإقليم خلف نهر سيحون على بعد مرحلتين من ثغر اسبيجاب وقد تميز إنتاجه للسروج، والجبال، والمصليات والقطن، فضلا

عن الذهب والفضة ومن أهم مدنه بنكث، ايلاق، الطراز، اسبيجاب - فاراب وكاشغر.

٦ - إقليم الختل: يشتمل هذا الإقليم على كوره واسعة كثيرة المدن خلف نهر جيحون فى القسم الجنوبى الشرقى منه بالقرب من تخوم السند، وتعد هلبك أهم مدنه بالإضافة إلى هلاورد، ولا وكند، واسكنرة، ومنك؟

ومن أهم الممالك التى قامت فى تلك البلاد العصور الوسطى مملكة طخارستان على جانبى نهر جيحون وعاصمتها مدينة بلخ، ومملكة صغاينان شمال نهر جيحون وعاصمتها شومان، ومملكة الصغد كانت تمتد من جيحون إلى سيحون وعاصمتها مدينة سمرقند، وكذلك مملكة فرغانة على جانبى نهر سيحون وعاصمتها خجندة أو كاشان وكان ملكها يلقب بالأخشيد، ثم مملكة خوارزم فى أعالى نهر سيحون وعاصمتها الجرجانية، ثم مملكة أشروسنة فى الشرق من فرغانة، ولقب ملكها بالأخشيد، ثم مملكة الشاش فى شمال نهر سيحون وعاصمتها تاشكند.

ولم تكن هناك حدود ثابتة لهذه الممالك فقد كانت البلاد معرضة للهجوم والعدوان من جانب القبائل التركية أو الإمبراطورية الصينية أحيانا المجاورين لهذه الممالك. وكانت بلاد ما وراء النهر تسمى تركستان الغربية أو هى حاليا تمثل الجمهوريات الإسلامية التى انفصلت عن الاتحاد السوفيتى المنحل فى السنوات الأخيرة عام ١٩٩١م وهذه الجمهوريات هى أوزبكستان وتقع فى الجزء الشرقى من الاتحاد السوفيتى سابقا وتشترك حدودها مع أفغانستان، وجمهورية طاجيكستان وغيرها من الغرب والشمال أوزبكستان، ومن الشرق تركستان الشرقية (الصينية أو إقليم سيكيانج) وجمهورية تركستان أو تركمانيا وتقع غرب أوزبكستان، وجمهورية قيرغيريا وتحيط بها جمهورية أوزبكستان وطاجكستان وتقع شمال أوزبكستان وهذه الجمهوريات تعد المداخل الطبيعية لسهول سيبريا فى الشمال، ومن هنا فإن تركستان هى ما يعرف اليوم بجمهوريات آسيا الوسطى الخمس وهى تجاور سيبريا والصين وإيران والهند وأفغانستان.

وتقع تلك البلاد فى شمالا الدولة الفارسية القديمة وسكانها من العنصر

التركى الذى انحدر إليها من الشرق منذ القرن السادس الميلادى وكونوا لهم عدة ممالك مستقلة فيها، وقد خلدت آثار آرخون أقدم ذكر للسان التركى وقد اكتشفت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى، وهى أهم آثار تركية أنشأها الترك أنفسهم عن تاريخهم، فأصحاب تلك الآثار سموا أنفسهم لأول مرة فى التاريخ باسم الترك وقد ظهروا فى القرن السادس الميلادى واستولوا فى زمن قصير على مساحات تمتد من حدود الصين إلى حدود إيران وبيزنطة.

وإقليم ما وراء النهر من أخصب أقاليم الأرض منزلة وأنزهها وأكثرها خيرا وأهله يرجعون إلى رغبة فى الخير واستجابة لمن دعاهم وفى عامة مساكنهم البساتين والحياض والمياه الجارية، والأشجار الملتفة والثمار الكثيرة والرياض المتصلة مما لا يوجد فى سائل الأمصار وليس من الأقاليم إلا ويقحط أهله مرارا قبل أن يقحط ما وراء النهر.

وتجمع المصادر الجغرافية وكتب الرحالة على أن إقليم ما وراء النهر يتميز عن غيره من الأقاليم بتنوع سطحه بين المناطق الجبلية والصحارى لذلك نجد أن نشاط سكان المدينة قد تنوع بين الزراعة والرعى واستخراج المعادن والصناعة والتجارة ونتيجة لتوفير الموارد الزراعية والمحاصيل والصناعات المتعددة، ووقوع الإقليم بأكمله على أهم طريق تجارى منذ القدم وهو طريق الحرير العظيم، فقد أعتبر إقليم ما وراء النهر من أهم الأقاليم التجارية حيث تمثل التجارة مكانه كبيرة بين اقتصاد ونشاط سكان هذا الإقليم الذى يعتبر أيضا الإقليم الذى أخرج لنا أعظم علماء الإسلام فى الفقه والتفسير والسيرة والتاريخ وغيرها من العلوم.

ولم تخل أى من كتب الجغرافيين المسلمين من ذكر هذا الإقليم فقد وصفوه فى رحلاتهم وأعطوه حقه من المدح والوصف مما أتاح للباحثين فرصة الاطلاع على تاريخ وجغرافيا وعادات وتقاليد شعوبه.

يقول المقدسى صاحب كتاب أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم(هو أجل الأقاليم وأكثرها أجله وعلماء ومعانى الخير ومستقر العلم، وركن الإسلام المحكم وحصنه الأعظم ملكه وأجل الملوك وجنده خير الجنود، ترى به رساتيق جليلة وقرى نفيسة وأشجار ملفتة وأنهار جارية ونعما ظاهرة ونواحى واسعة ودينا

مستقيما، وعدلا مقيما) وهكذا تبوأ هذا الإقليم مكانة عظيمة فى عالم التجارة، وأصبح به العديد من المدن التى أصبحت مراكز تجارية عظيمة تأتى إليها وتخرج منها تجارات إلى غيرها من مدن الإقليم والأقاليم والبلدان المجاورة كالصين وخرسان والعراق وأوربا والهند.

وكانت هذه المراكز التجارية فى آسيا الوسطى كانت تقع على طريق التجارة العالمى فى العصور الوسطى وهو طريق الحرير الذى خطه التجار منذ ما يربو على الألفى عام عندما كان ينقلون النفائس بين الشرق والغرب، وهو الطريق الذى سار عليه الغزاة والفاتحون، كالإسكندر الأكبر والرومان والفرس وجيوش الفتح الإسلامى وجحافل جنكيزخان وهولاكو وتيمورلنك، وحمل هذا الطريق الدعاة والمبشرين والبوذيين واليهود والمسيحيين والمسلمين وعليه سار الرحالة العظام أمثال شيان تسونج وابن بطوطة وماركو بولو،الذين لولاهم لما عرفنا كيف كان حال هذا الطريق فى العصور الوسطى.

وقد شهد طريق الحرير أنواعا شتى من التجارات، لعل أغربها ما عرف بالتجارة الصامتة، حيث كان أحد الطرفين يترك بضاعته فى مكان متفق عليه ثم يأتى الطرف الأخر،بما يريد مقايضته بتلك البضائع ويضعه ويغادر المكان، فإذا عاد الطرف الأول وأعجبه ما تركه الطرف الثانى مقابل بضاعته أخذه وأنصرف، وإلا فإنه يغادر المكان دون أن يأخذ شيئا عندئذ يعود الطرف الأخر ويزيد المقابل ويغادر المكان ليأتى الطرف الأخر ويأخذ البضاعة وينصرف وكانت مطايا تجار طريق الحرير، ودواب حمالهم، وهى الجمال البلخية ذات السنامين، والعربية ذات السنام الواحد، والحمير، والبغال، كذلك شهد الطريق استئناس الحصان، وتوليد سلالات قوية من الخيل استخدمت فى الركوب وجر عربات سريعة أحدثت ثورة فى مواصلات هذا الطريق، وظهرت أساطير عن الخيل أهمها أسطورة الخيول السماوية التى كانت تأتى من فرغانة.

وكان الحرير يوما(ما) أهم سلعة تنقل على هذا الطريق، وخاصة من الصين التى ظلت زمنا طويلا تحتفظ بسر تربية دودة القز وصناعة الحرير، ولم يكن الحرير وحده هو البضاعة التى كان ينقلها التجار على طريق الحرير، فهناك أيضا اليشب

ذلك الحجر شبه الكريم، الذى عشقه الصينيون، والذهب والفضة، والزجاج كما انتقلت عليه سلعة غاية فى الأهمية أنتجتها الصين وهى الورق الذى أحدث ثورة فى عالم الثقافة والمعرفة، خاصة أن الصينيين ابتكروا أيضا طريقة للطباعة بالقوالب الخشبية، وانتقلت هذه الطريقة إلى أوربا بواسطة طريق الحرير.

كان طريق الحرير أقدم خط تجارى يربط أوربا ببلدان آسيا الوسطى مارا بالشام، وغيرها، فعالم حوض البحر المتوسط والغرب الأوربى... إلا أنه فى ذمة التاريخ الآن، لذلك اجتمع فى ١٣مايو١٩٩٦م وفود ٤٠ دولة داخل خيمة فى صحراء إيران بينهم رؤساء دول أسيا الوسطى لإعلان قيام (طريق الحرير الجديد) من خلال خط السكك الحديدية الإيرانية والتركمانية الذى يكمل شبكة سكك حديد آسيا ويحيى طريق الحرير الذى يربط بين بكين شرقا والبحر المتوسط غربا.

***

ثانيا البعد السكانى

السكان: سكان أسيا الوسط

يتألف سكان آسيا الوسطى من خليط من الازوبك والطاجيكك والأتراك والتركمان والأكراد والفرس، وتغيير الاكتشافات الأثرية فى سهل أو نغور فى وادى فرغانه وغيرها من المناطق أن أجداد الأوزبك والطاجيك والتركمان والشعوب الأخرى، قد عاشوا فى منطقة مابين النهرين سيحون وجيحون فى آسيا الوسطى، وأنه مضى نحو خمسة آلاف أو ستة آلاف عام على تعلم هؤلاء السكان فلاحة الأرض وزراعتها، وظهرت المدن الكبيرة والصغيرة وتطورت فى هذه المنطقة الزراعة والحرف والتجارة.

وهناك العديد من الحقائق والمعلومات الوافرة عن سكان آسيا الوسطى وفرتها الحفريات الأثرية التى جرت فى مناطق خوارزم القديمة، والصغد، وفرغانة، والشاش (طشقند الحالية) إلى جانب ما كتبة المؤرخين والجغرافيين الرومان واليونان أمثال هيرودوس ت٤٢٥ق.م، وبومى ترونج ق.م وما كتبه المؤرخين الصينيين أمثال سيم - قسيان(١٤٥ - ١٣٥ق.م)، بان غو(٢٢ - ٩٢م) وتشجين(٥٨٠ - ٦٤٣م).

وطبقا لما ذكرته المصادر السابقة فإن سكان آسيا الوسطى كانوا ينقسمون إلى قسمين :

١ - البدو:

ويطلق عليه اسم مشترك واحد، حيث كانوا يعرفون (بالسقيتين) (الساكتين، أى الذين يعيشون فى وديان الأنهار، وأطلق على القبائل التى تسكن ما وراء قزوين [القوقاز] (المساغيث) أى سكان المناطق الجبلية والثلج الأبيض.

ولقد ترك لنا هيرودوت وسترابون وغيرهم معلومات قيمة عن حياة الساكيين والمساغيت، وعن عادتهم وتقاليدهم، فهم يشبهون بعضهم بملابسهم ونمط حياتهم، فهم يحاربون بالسهام والرمح ويستخدمون الأسلحة التقليدية العادية وبلطات الحرب، أما عادتهم فهم على الرغم من أن الواحد منهم لا يتزوج أكثر من مرة، إلا أنهم يستخدمون زوجاتهم بصورة جماعية مشتركة، ويقتاتون جذور النباتات والثمار البرية ويكسون أجسادهم بلحاء الخشب، ويشربون العصير المستخرج من ثمار الأشجار، ويأكلون الأسماك ولحوم الأغنام التى يحتفظون بها للاستفادة من أصوافها ولبنها حيث كانوا يمارسون حياة القبائل الرحل.

كان لهؤلاء السكان نمط واحد فى الحياة، متشابهة فى مراسيم دفن موتاهم وفى طباعهم وعادتهم ونظام حياتهم اليومى، لا يعترفون بإله أخرى غير الشمس التى يضحون لها بالخيول.

وعن بعض عادتهم فقد كان الجميع ذو روح قتالية، لا يطمعون بجمع الثروات ويتعاملون بعدل ومساواة وكل ما لديهم من النساء والأطفال والأسر مشاع ومشترك بينهم، يتنقلون بواسطة العربات يعيشن على الألبان، لا يسمحون بالملكية الخاصة، فحياتهم مشاعة تماما، وتعود الأملاك كافة إلى الجميع كان السقيتيون سكان آسيا الوسطى القدماء ذوى شأن وقوة عظيمة، وكانوا يعتبرون أنفسهم دائما من أقدم القبائل، ويضاهون المصريين القدماء بقدمهم.

ومن تقاليدهم أيضا أنه إذا أراد أحد الساكيين أن يتزوج فتاة، فعليه أن يصارعها، فإذا تغلبت عليه أصبح أسيرها وخاضعا لإرادتها ومشيئتها خضوعا تاما، وإذا تغلب عليها استطاع إخضاعها لسيطرته.

النوع الثانى من السكان [الحضر]:

أما سكان آسيا الوسطى الحضر المزارعون فكانوا يعرفون بأسماء المناطق التى كانوا يعيشون فيها وينسبون إليها ويطلق عليهم الخوارزميون، البعتيريون، السغديون، التشاتشيون (الطشقن ينون) الفرغانيون وكانوا يزاولون الزراعة، يزرعون الأرز والقمح ويصنعون النبيذ من العنب، كانت لهم العلاقات بإمبراطورية الصين المجاورة، وكانوا تجار مهره ولهم أسواق تتوفر فيها البضائع والسلع المختلفة.

ولكن هؤلاء السكان من الحضر رغم إقامتهم فى المدن والقرى الكبيرة، إلا أنهم كانوا غير متضامنين، ولا تربط بينهم علاقات قوية، الأمر الذى استغله جيرانهم الصينيين، حيث كانت لكل قرية من هذه القرى دولتها ولها قواتها التى تفتقر إلى عدم الاتحاد.

اللغة المستخدمة:

كان لكل قبيلة بدوية أو حضرية لهجتها، فحدث اختلاف كبير جدا بين اللهجات الدارجة إلا أنهم استخدموا فيما يبدوا لغة واحدة هى التركية نظرا لتزايد عملية التتريك فى آسيا الوسطى فى منطقة ما وراء النهر، حيث قدمت لها قبائل عديدة تنطق بالغة التركية، والتى كانت لها علاقات اقتصادية وثقافية مع الصغد والخوارزميين والفرغانيين، مما أدىَ إلى زيادة نشاط الشعب التركى نظرا لانتشار لغته التى أصبحت هى اللغة الرسمية فيما بعد.

ونظرا للحياة القبلية التى عاشتها شعوب آسيا الوسطى، فقد اختلطت اللغة بسمة قبيلة فكثرت اللغات المحلية إلى جانب التركية والفارسية، ثم تغلغلت اللغة الآرامية التى أصبحت أساس اللغتين الصغدية والخوارزمية، إلا أن التركية ظلت هى الغالبة بل كانت هى اللغة الرسمية.

كما وفدت إلى هذه الأقاليم شعوب ناطقة باللغة الإيرانية نزحت من إيران الشرقية جنوب آسيا الوسطى إلا أن اللغة التركية كانت هى السائدة، لأن الأتراك قد قاموا بدور مهم وجوهرى فى تاريخ السلالات البشرية فى آسيا الوسطى، والتى أصبحت المقر الشتوى للأتراك حتى حدود الصين، والدليل على ذلك أن أغلب

المدن حملت أسماء وتركية مثل سمرقند(ساميز قند) أي مدينة المسرات شاش - طشقند - أوزقند - تونقند وكلمة (قند) بالغة التركية تعني مدينة، لأن الأتراك هم الذين بنوا هذه المدن وقاموا بتسميتها، ولا تزال تحمل هذه الأسماء حتى اليوم، رغم أن معظم سكانها من الفرس.

الحياة الاقتصادية للسكان:

مارس الساكتين البدو رعى الأغنام والماشية، وعاشوا حياة البدو الرحل، وكانوا يربون الأغنام والماعز والبقر والخيول والجمال التي كانت توفر لهم المأكل والملبس أما السكان الحضر في بخارى وفرغانه وبامير، وخوارزم وسمرقند وغيرها فكانوا يمارسون الزراعة والصناعات اليدوية والتجارة، لقد كانوا يزرعون الحبوب(القمح - الشعير - الأرز) والقطن والسمسم، والبطيخ، كما كانت بساتين منتشرة في المناطق الحضرية حيث زرع المشمش والخوخ والكروم كما تطورت شبكات الرى، طرأ مزيد من التطور على صناعة النسيج، والخزف، والحلي والتعدين والبناء، وكان حرفي وصناع آسيا الوسطى ينتجون المصنوعات من الذهب والفضة والنحاس المرصعة بالأحجار الكريمة، ويصنعون الآلات والأدوات، والأسلحة، ويبنون القصور الرائعة والقلاع والحصون والجسور ويشقون الطرق، ويتأجرون مع بلدان الشرق والأتراك.

فقد ساعدت ثورات البلاد الطبيعية على تطوير الصناعة والتجارة، فقد كانت البلاد غنية بالمعادن كالذهب والفضة والنحاس والحديد والنفط والكبريت والأحجار الكريمة كالفيروز والقصدير والرخام والنشادر واللازورد وغيرها.

كذلك كانت الصناعات اليدوية متطورة، حيث كانت صناعة التعدين ومهنة صناعة الخشب والفخار والخزف وصناعة الحلي والمجوهرات والنسيج والحياكة، صناعات متطورة أيضا، وكان الحرمينون الفرغانيون يصنعون المصوغات الرائعة الحلي(الخرز والأقراط، والخواتم) من الذهب والفضة والبرونز، وأدوات الزراعة وآلات الحرب مثل السهام والخناجر والدروع، والتروس.

العقائد:

وكان لهم ربان هما الأرض والماء، والـهنان تتجسدان فى شخص مـيترا وأنا خيت، وكان من آلهتهم (نما فوما ردو) نصفه إنسان ونصفه الآخر ثور، وكان يرمز إلى القـوة الكونية التى أوجـدت المخلوقـات كافـة، لكن الشمس كـانت المعبـود الرئيسى والرسمى لاعتقادهم بأنها أسرع الأرباب وأكبرها فهى جديرة بأن يقدم لها أسرع الحيوانات، وهى الخيول.

وعبـد بعضـهم الأرض، وقدسوا الأجـداد والأسلاف، ثم انـتشرت الديانة الزرادشتـية انتشارا كـبيرا فى آسيـا الوسطى، فى الفترة مـا بين القرنين ٦:٧ق.م، وانتشرت حـتى بلغت الهند وبلاد فارس، الزرداشتـية: ديانة تنسب إلى زراداشت تجسـد الصراع بين الخـير الممـثل بآله الخيـر(أهرومزودا) والشـر المتمثل بأنـه الشر أهريمان وتشـجب الزهد، زاعمة أن ذلك يؤدى إلى انـتصار الشر وتعتـرف باليوم الأخر، وتقول أن أنصـار الخير مصيرهم الجنـة، وكتابها المقدس يسمى (الافـسية) ويضم تعـاليم زرداشت يتألف مـن أربعة أجـزاء شعـرا وأناشيـد وأساطيـر دينة، والفكرة الرئيسية فى الكتاب تكمن فى الصراع بين الخير والشر.

ويبدوا أن الزوارشـتيه كـانت دين الطبقة الحـاكمة وفـقا لما كان عليـه الحال بإيران، وكانت البوذية واتباع النساطرة قد تمـتعوا بقدر كاف أيضا من الحرية الدينية فى بلاد ما وراء النهر ولكن بين العـامة، ولقد اكتـسب زعـماء الطوائف الدينية فى أسيا الوسطى مكانه عظيـمة بين أتباعهم، وكان لطبقة الكهنـوت تأثير السـحر على الناس، فـفى أثناء استـيلاء قـتيبـة بن مـسلم البـاهى على مـدينة بـيكند سنة ٨٧هـ/٧٠٦م كان هناك رجلا أعور مهمته اسـتنفار الترك ضد المسلمين، وقد عده المسلمون أشـد خطرا عليهم من القواد العسكريين، فلمـا وقع فى أسرهم وأراد أن يفتدى نفسه بألف درهم، لم يجد هذا المبلغ الضخم فى إغراء المسلمين بإطلاقه بل فضلوا التخلص نهائيا من كيد هذا العدو الدود الذى كان أحد كبار رجال الدين.

الحياة السياسية فى آسيا الوسطى قبل الإسلام

الدول المتعاقبة على حكم آسيا قبل الإسلام:

١) الدولة الأخمينية:

والتى انتهى حكمها فى آسيا الوسطى بقدوم المقدونين سنة ٣٣٠ق.م، وكانت دولة الاخمينين دولة ظالمة عانى سكان آسيا الوسطى فى ظلها الظلم والاستبداد وسلبوا سكانها ثرواتهم الطائلة وهى دولة فارسية.

٢) الدولة المقدونية: آسيا الوسطى تحت حكم الإسكندر المقدونى وخلفاءه:

بدأت حملات الإسكندر المقدونى الذى دار حكمه من ٣٣٦ - ٣٢٣ق.م على الشرق فى عام ٣٣٤ق.م فى طريقة إلى آسيا الوسطى، ألحق الإسكندر عدة هزائم فادحة بالجيش الفارسى إذ دمر خيرة فرسان الاخمنيين، وأسر زوجات الملك الفارسى "دار الثالث" وأفراد أسرته كما أسر قافلته الهاربة إلى دمشق، واستلمت له المدن الكبرى مثل صور، ثم احتل مصر. وبهذا سقطت المنطقة الأكثر أهمية اجتماعيا واقتصاديا واستراتيجيا بالنسبة للدولة الاخمينية وأصبحت بيد المقدونيين، ثم احتل ممالك الفرس إلى أن وصل إلى آسيا الوسطى فاحتل سمرقند وأخضع الصغيين له رغم مقاومتهم الشديدة وبعد هزيمتهم أشركهم الإسكندر فى جيشه كما هاجر هو وقادته العسكريون الأعيان والأمراء المحليين منهم، لهذه السياسة أثرها فى تقريب شعوب آسيا الوسطى منه.

وبعد وفاة الإسكندر سنة ٣٢٣ق.م واصل خليفته على الجزء الشرقى بيرديكا

- القائد الأعلى لخيانة الإسكندر فتوحاته فى آسيا الوسطى والمحافظة عليها، ثم واصل (أنتى بار) القائد المقدونى للسيرة.

ولقد جلب المقدونيون معهم إلى آسيا الوسطى ثقافتهم الرفيعة علميا بالثقافة الهيلانية، وبنو المدن مثل الإسكندرية على شاطئ البحر المتوسط فى مصر وغيرها، وسوزنان فى إيران، وراسة (هرات الحالية) وشيدوا العمارات الشاهقة، وقاموا بعمليات إعادة عماد على نطاق كبير فى آسيا الوسطى فقد ساعدوا على تطوير العلاقات الاقتصادية والسياسية والثقافية بين الشرق والغرب، كما يعدوا على

ظهور العديد من الدول المحلية الجديدة مثل دولة السلوقيين والباريثيين والدولة البقديرية فى آسيا الوسطى وشمال أفغانستان.

٣) آسيا الوسطى ضمن دولة السلوقيين:

هى الدولة التى أسسها سلوقوس الأول - فيكتور (أى الظافر) ابن أحد النبلاء المقدونيين وأحد قادة الإسكندر المقدونى العسكريين، وتعرف بالمملكة السورية، فكانت تخضع لسيطرتها الأرض الممتدة من البحر الأبيض المتوسط إلى إيران الشرقية ثم شملت الهند وسرداريا.

وقد ضم سلوقوس الأول (٣١٣ - ٢٨١ق.م) آسيا الوسطى إلى دولته فأصبحت(ولاية) من ولايتها وقام هو وخليفة انطوخيوس الأول (٢٨١ - ٢٦٠ق.م) بإنشاء مستوطنات يونانية محصنة فى الصغد وخوارزم وخرسان لتحميها ضد أطماع الإمبراطورية الصينية المجاورة، وفى أواخر عهدها استقل الولاة بولاياتهم ومنهم ولاة آسيا الوسطى فى بقتيريا وفرغانه وغيرها مما أدى إلى سقوط الدولة السلوقية.

٤) المملكة اليونانية البقترية فى آسيا الوسطى:

فى عام ٢٢٩ق.م أعلن والى السلوقيين - ديوروت على بقتيريا استقلالة بها وكون مملكة يونانية بقيترية متراحية الأطراف، تضم بقتيريا والصغد وخوارزم، وكانت تلك المملكة على مستوى عال من المدينة والتحدث فقد كانت متطورة جدا فى ميدان الصناعة والتجارة. كما كان سكانها يزاولون مهنة استخراج الثروات الطبيعية وكانت لها علاقات تجارية مع إيران والصين والهند.

وكانت تلك المملكة ذات ثقافة رفيعة، حيث أقترنت فيها ثقافة آسيا الوسطى المحلية بالثقافات الأخرى اليونانية، والإيرانية، والهندية، مكونة ثقافة رفيعة من نوعها عرفت بالثقافة اليونانية البقتيرية، وكان لسكانها كتاباتهم حيث استخدموا الحروف الآرامية واليونانية وكانت المملكة البقتيرية واسعة ذات مدينة راقية فقد ضمت مدن زار ياساب (بلخ) وماروقند (سمرقند) وخجند - وديميترياس(ترمذ) وغيرها من المدن الكثيرة.

٥) دولة باركان (فرغانة):

فرغانه بلاد قديمة عريقة - تقع فى وادى فرغانه الرحب المترامى الأطراف وتبلغ مساحتها ٢٢٠٠٠كم، طولها زهاء ٣٠٠كم وعرضها ١٥٠ - ١٧٠كم، وتحيط بها من ثلاث جهات السلاسل الجبلية ومن الجهة الجنوبية فقط لها ممر ضيق (ممر خجند) يجرى فيه نهر سوداريا سيحون، الذى يعد من أعظم أنهار آسيا الوسطى، ويروى السهوب والأودية وسط السلاسل الجبلية، ويحتل وادى فرغانه بفضل مناخه الجيد وخصوبة أراضيه وموقعه الجغرافى، مكانه هامة جدا اقتصاديا واستراتيجيا، فقد كان يمر بوادى فرغانه أحد فروع طريق الحرير العظيم، الذى كان يربط الصين باليابان ببلدان الشرق الأوسط والأدنى وروسيا وأوربا الشرقية، وكان طول هذا الطريق الفرعى أكثر من ٧٠٠كم وكانت له فروع وادى التاى - بقتريا - فرغانة الجبلية، المعابر الجبلية، فكانت فرغانه بذلك طريقا لحركة تجارية نشطة فى الماضى القديم والعصور الوسطى، ولذا كان وادى فرغانه ولايزال يعتبر من أهم مراكز آسيا الوسطى الاقتصادية.

ويتألف السواد الأعظم لسكان وادى فرغانه من الأوزبك والطاكيك، والقرغيز، وكانت فرغانه منطقة كثيفة السكان ذات ثقافة وحضارة، سكانها حضر، مزارعون يزرعون الأرض الأرز والقمح ويزرعون النبيذ من العنب، وتكثر لديهم الخيول (الفرغانية) التى تتفصد عرقا ممزوجا بالدم، وهى خيول سماوية حسب الأسطورة الصينية.

كانت فرغانه تسمى قديما دوان ذات مدن كبيرة وصغيرة وكثيرا ما اعتدى عليها الصينيون بحكم الجوار نظرا لغناء هذه البلاد، وشهرتها التجارية مع الصين والهند وبلاد الشرق الأقصى فقد شاركت فرغانه مشاركة فعلية فى التجارة الدولية بحكم وقوعها ضمن طريق الحرير العظيم.

٦) دولة كانغلى:

كانت قائمة فى الفترة مابين القرن٣ - ٢ق.م والكانغلى (كانغار، كانغ، كانغو) شعب تركى، يعنى باللغة التركية كانكا أى العربات التى تنقل عليها الغنائم فى الحروب، وكانت عاصمتهم تسمى (كانخا أو كانكا) وكانت مدينة عظيمة قريبة

من مدينة طشقند الحالية، وكانت تجاور إمبراطورية الصين، وكان سكانها يزاولون تربية الماشية، لاسيما الأبقار والخيول والماعز، وفى وديان الأنهار وحول البحيرات كانت الزراعة الحبوب(القمح، الشعير، والعنب) واشتهرت الحرف الصناعية مثل الحدادة والنسيج والحياكة وصناعة الحديد والنحاس والفضة، وأدوات العمل والأسلحة والأدوات المنزلية، كما بلغت صناعة الأقمشة القطنية والثياب والمصنوعات الجلدية والصوفية والقبعات، واشتهرت المنتجات المصنوعة من الغطاء والحديد مثل المناجل والسكاكين والمعادن وكانت التجارة بدورها متطورة على الصعيدين الداخلى والخارجى، إضافة إلى تطور إنتاج الصناعات اليدوية، وقد لعب طريق الحرير العظيم الذى كان يمر من خلال أراضى الكانكيين دورا هاما، فبفضله استطاع سكان آسيا الوسطى إقامة علاقات تجارية وثقافية نشطة مع الهند والصين وإيران وآسيا الصغرى، ومن خلالها مع اليونان ورما وأوربا. وقد سكت دولة كانكا عملة خاصة بها وكانت لهم معابدهم وهم معابد النار كما عبدوا الشمس والحيوانات، كما كانت لهم ثقافتهم فى بناء المدن الحصينة المحاطة بأسوار عالية منيعة، خلفها خنادق عميقة عريضة، مملوءة بالماء كالمواقع دفاعية، بالإضافة إلى التقدم فى فن المسرح والموسيقى والآلات الموسيقية.

٧) دولة كوشان:

دولة كبيرة ضمت فى مرحلة ازدهارها (ق - ١، وبداية - ٣م) معظم أراضى آسيا الوسطى، وأفغانستان، وشمال الهند والجزء الغربى من باكستان الحالية، وقد ظهرت فى حدود القرن الأول الميلادى، بعد مرور أكثر من قرن على تفكك الدولة اليونانية البقيترية وانهيارها وقد بلغت الإمبراطورية الكوشانية ذروة تطورها وازدهارها فى القرن الأول الميلادى، ثم انهيارات فى القرن الثالث الميلادى، وكانت الأوضاع الاجتماعية الاقتصادية فى دولة أوثان متقدمة، وقد كانت العلاقات تجارية نشيطة بالصين، ومملكة البارثيين وحتى روما وغيرها عبر طريق الحرير العظيم الذى كان يمتد من عاصمة الصين القديمة، إلى سوريا ثم مصر التى كانت خاضعة للحكم الرومانى.

وكان أقدم خط تجارى يربط أوربا ببلدان آسيا الوسطى يمر عبر القرات

وهمذان وانطاكيا ومروو وطخارستان وتركستان الشرقية، حتى الصين مرورا بدولة كـوثان وكـان الحرير من السـلع التى تنقل بالدرجـة الأولى من الصـين إلى أوربا والبلدان الأخرى، ومن الهند التوابل والاقاويـة، وكانت سلع آسيا الوسطى وسلع سمرقند وبخارى، وفرغانه تلقى رواجا وإقبالا سكورين فى أوربا وبلاد الشرق.

وقد ضمت الإمـبراطورية الكرثانية سكان ذو لغات وعـادات وتقاليد وأفكار مختلفة، وكان الأمر كذلك يتعلق بالأديان والمعتقدات، فقد عبدوا الشمس والقمر والنار، وصور بوذا وهيـلانية اليونانيـة كما وجدت الكثير من المعابد والمقـدسات الدينية البوذية.

٨) دولة الايغتاليت:

يبدأ حكمهـا لآسيا الوسطى اعتبارا من سنة٤٥٧م حـينما قام ملكهم(وحش النار) بإخضاع طخارستان وبدخشان، ويعرفون باسم الهون البيض، وذلك لكونهم حضرا ذوى بشرة بيضاء، ومتمدنين بالمقارنة مع أبناء الهون الآخرين الرحل.

وقد أقام الايغتاليت دولة قوية لهم فى آسيـا الوسطى خاصة فى أفغانستان، شمـال شرقى الهند وفى جـزء من تركستـان الشرقـية، وقد حـاربوا السـاسـانيين منازعين إياهم على إيران الشرقية وقد انتصروا عليهم انتصارا ساحقا حيث استولى على وادى كابول، البـنجاب، وكاشـغر كمـا اضطر كسـرى انو شروان (٥٣١ - ٥٧٩م) فى بداية حكمه، لدفع إتـاوه للايغتاليت، ولكن فى النهـاية سقطت دولة الايغتـاليت تحت ضـربات الحكام السـاسـانيـين والأتراك والهنود. وكـانت دولة الايغتـاليت دولة إقطاعيـة حيث شكل الإقطـاعيون فـضائل عـسكرية جيـدة وقد تطورت الحـرف اليدوية والتـجارة، وأسـهم الايغتـاليتـيون بفـضل موقع مـدنهم ومستوطنتهم (على طريق الحرير المشهورة) فى التجارة الدولية إسهاما فعالا، إضافة إلى التجارة مع الهند والصين وإيران وبيزنطية، وكـانت المواد الأساسية فى التجارة بين الشرق والغرب، الحرير والزجاج الملون والمـصنوعات المنتجة من هذا الزجاج، والتوابل، والأصـباغ، والأحجـار الكريمة كان الزجـاج الملون يصنع من الأراضى التابعة لسيطرة الدولة الكوثانية، ويصدر إلى الصين.

وكـان الإقطاعيـون الأريسطقـراطين بالوراثة يديرون شـئونهم الاقـتصـادية

باستغلالهم سواد الشعب والعبيد بصورة قاسية لا تطاق مما أدى إلى قيام الثورات ضدهم، فقد كانت السلطة الحقيقية بيد هؤلاء الإقطاعيين المتمركزين فى القطاع وكان الحكام المحليون الذين يدعمهم الإقطاعيون يعيشون فى المدن الكبيرة ويحملون ألقاب الشاه فى خوارزم، ترمذ وخودات فى بخارى (وإخشيد فى سمرقند وكيش وفرغانه) وأغشين فى اشروسنة كانوا جميعا اسميا خاضعين لسلطة الخاقانية التركية الغربية.

٩ - الخاقانية التركية:

الجذور التاريخية للأتراك:

فمن الصعب علينا معرفة تاريخ وجذور الترك الأولى من المصادر التركية، نظرا لعدم توافرها، ونظرا لعدم معرفة الأتراك الأولين بقواعد الكتابة، ويمكن معرفة هذه المعلومات عن طريق العناصر الأخرى التى احتك بها الترك، فمثلا أحوال الترك فى شرق آسيا تعرف عن طريق المصادر الصينية، أما الترك الذين هاجروا إلى الجزء الغربى من آسيا الوسطى وتأثروا بالحضارة الإسلامية فإن أحوالهم إنما تعرف من المصادر العربية والمصادر الفارسية، فالوصول إلى حقائق ثابتة فى موضوع الأصول التاريخية للأتراك، أمر يكاد أن يكون صعبا وعسيرا إذ أن سيرة القبائل البدوية تبدو وكأنها لم تنسق ولم تنظم، فإن أحداث تاريخها بلغت من شدة الاضطراب ما يجعل من المستحيل التماس خيط واحد يضم هذه القبائل بأسرها، فالأحداث التاريخية والحروب التى نشبت بين هذه القبائل والتى لابد للباحث أن يتبعها حتى يقف على ما يجرى بين هذه القبائل من محالفات، كانت من العوامل التى تعوق المؤرخ وتعطله عن المضى قدما فى دراسته.

فهناك مصادر كثيرة كتبت عن تاريخ الترك، ولكنها لا تمدنا بمعلومات كافية عن أصل القبائل التركية والأجناس، والأمراء والشخصيات البارزين فيهم، ومعنى هذا أن التاريخ البدائى للترك، لا يزال يكتنفه الغموض، ويخيم عليه الظلام، ويحيط به الخرافات والأساطير، يقول المؤرخ رشيد الدين، وحيث أن الأقوام الموسمين باسم الترك، مقامهم وسكنهم فى البلاد البعيدة التى طولها وعرضها من ابتداء جيجون وسيحون، إلى انتهاء حدود بلاد المشرق وانتهاء صحراء قبجاق إلى

غاية نواحي جورجية والختل، ويسكنون الجبال والوهاد والاجام ولم يعتادوا السكنى فى القرى والمدن، وكانوا بعيدين عن بلاد إيران، ولم يكن فى تاريخ المتقدمين من أحوالهم ذكر مستوفى والمعروف أن الترك لم يقدموا إلا حديثا إلى التركستان إذ ظهروا فى جبال التاى، فى القرن الأول الميلادى وحلوا فى كاشغر فى القرن التاسع الميلادى وفى إقليم ما وراء النهر، فى القرن الحادى عشر الميلادى.

وتخلد نقوش اورخون أقدم ذكرى للسان التركى وقد ظهر الترك فى أول الأمر فى القرن السادس الميلادى واستولوا فى زمن قصير على مساحات تمتد من حدود الصين إلى إيران وبيزنطة وكانت حكومة أتراك القرن السادس منذ شأنها تحت أمرة أسرة، لا تحت أمرة شخص واحد فقد كان خاناتهم يستقبلون الغزاء يعقدون المعاهدات دون أن يرجعوا إلى الخاقان الأعظم (باشا خاقان) المقيم فى الشرق وعرفت بدولة (كوك - تورك) وكان مؤسسها (بومين - خان) الذى وجد اسمه على نقوش أورخون ولقد كان الترك موجودين منذ أقدم العصور فيذهب المؤرخون فى نسبهم مذاهب شتى، فمنهم من ينسب هؤلاء الترك عامة إلى حادث الطوفان أى إلى أبناء نوح عليه السلام على اعتبار أنهم من ولد يافث بن نوح عليهم السلام وكان هذا النسب مطابقا لفكرة العرب الإسلامية فى تقسيم الشعوب واعتبرهم ابن خلدون من ولد كرومر بن يافث عليه السلام أحد السبعة المذكورين من ولد يافث فى التوراة.

وزعم آخرون أنهم ولد (عابور بن سويد بن يافث)، وقال آخرون أنهم من ولد (ترك بن طوج بن افريد) واختلف المؤرخون حول الترك هل هم من يافث نفسه أم من أحفاده أو أحفاد أولاده فنسبهم ابن خلدون إلى (كورمر) ونسبهم البعض إلى (ترك بن عامور بن سويل بن يافث) واعتبر بن عامور بن سويل بن يافث واعتبر المؤرخون الترك عامة من سلالة (يأجوج ومأجوج) فيقول الإدريسى: أن بلاد الترك بل هم الأتراك على الحقيقة وذلك لأنه لما طغى يأجوج ومأجوج وأكثروا الفساد فى الأرض، وشكى أمرهم إلى الإسكندر فلما قصد أرضهم واختبر أمرهم فوجد منهم أمم عم خيرهم وكثر نسلهم وقل ضررهم وذلك أنهم هاجروا إلى الإسكندر قبل أن يلحق بأرضهم واعترفوا بين يديه أنهم براء من إخوانهم يأجوج ومأجوج وشهد كثير من القبائل لهم بذلك وأنهم يطلبون السلامة، وهم

حريصون على ذلك، فتركهم الإسكندر خارج السد واقطعهم تلك الأرض فسمتهم العرب (تركا) لأنهم من ترك الإسكندر من آل يأجوج ومأجوج، واسكنهم خارج السد، فجميع الترك تركهم الإسكندر خلف السد، فانتشروا فى الأرض وعمروها وكثرت أنسالها وفشت أحوالهم واتصلت خبراتهم ويقال أن ذو القرنين سماهم (ترك مان) بالفارسية، أى هؤلاء أن يشابهون الترك لما رأى شعرهم طويل ولكنهم خففوا إحدى النوين بالحذف لكثرة الاستعمال.

وقال آخرون أن الترك من ولد (ترك بن يافث) الذى جعله أبوه ولى عهده وهو أول من اخترع الخيام والاخبية والحركات للسكنى وعاش الترك ٢٤٠سنة بعد أن ارسى رسوم وعادات جرت بين قبائل الترك إلى اليوم.

ونادى بعض المؤرخين بأن الترك من نسل قنطوراء جارية إبراهيم عليه السلام، حيث قال من نادى بهذا الرأى أن إبراهيم عليه السلام، كانت له جارية تسمى قنطورا حينما تزوج امرأة كنعانية بعد وفاة سارة اسمها قنطوراء ابنه يقطن، وقال بذلك المؤرخون ثقات مثل ابن الأثير فى الكامل وابن قتيبة، فى الأخبار الطوال وغيرها ونسبوا قنطوراء إلى أنها قنطوراء ابنة ملك الترك، وعلى هذا تكون الجارية منسوبة إلى الترك، واستند أصحاب هذا الرأى إلى حديث رسول الله ﷺ (اتركوا الترك ما تركوكم، فإن أول من يسلب متى ملكهم وما خولهم الله بنو قنطوراء) وكذلك حديث الطبرانى عن معاوية أن بنى قنطوراء أول من يسلب امتى ملكهم، ومنها حديث حذيفة بن اليمان (يوشك بن قنطوراء أن يخرجوا أهل العراق من عراقهم كانى بهم خزر العيون عراض الوجوه خنس الانوف) وقال أن بنى قنطوراء هم الترك والتتار، وقيل أنهم من بقايا قوم (تبع) ومن هنا كانوا يسمون أولادهم بأسماء العرب العاربة، فهؤلاء أى الترك ومن كان مثلهم يزعمون أنهم من العرب والسنتهم، أعجمية، وبلدانهم غير عربية، دخلوا إلى بلاد العجم فاستعجموا.

ويعتبرهم بعض العلماء أنهم من الطورانيين وهو اسمهم العام على اعتبار أن الأمم ثلاث كتل، أو مجموعات طورانية وسامية وآرية، فالأوربيون والعجم والأرمن من نسل الآريين، والعرب والسريان والعبرانيون من الأقوام السامانية

والترك من الطورانيين، وهم أمة مستقلة ومتألفة من قبائل كثيرة يشملها هذا الاسم ولما كانت كل أمة تتخذ لها جدا أعلى فقيل أن ترك هو جد الأتراك.

وزعم الترك أنهم من العرب على اعتبار أنهم، من أولاد مذحج، ولذلك قال شاعر الشعوبية للعرب فى قصيدة طويلة:

زعمتم بأن الترك أبناء مذحج وبينكم قربى وبين البرابير
وذلكم نسل ابن ضبة باسل صوفان انسال كثير الجرائر

وقال آخر:

متى كانت الأتراك أبناء مذحج إلا أن فى الدنيا عجيبا لمن عجب

وجماعات الترك عبارة عن عدة أجناس وعدة ممالك ولكل جنس مملكة منفردة بذاتها ويحارب بعضها بعضا، وليس لهم منازل أو حصون وإنما ينزلون القباب التركية المضلعة ومساميرها سيور من جلود الدواب والبقر، وإنما غذاؤهم ألبان الحيوانات، ويأكلون لحومها وأكثر ما يأكلون لحوم الصيد والحديد عندهم قليل وهم يعملون سهام من عظام.

ويعتبر البعض الترك من الشعوب التى تكونت منها الأمم قبلا، وهم سبعة الفرس والكلدانيون واليونان والقبط والترك والهند والصين ثم تفرغ كل واحده من هذه الأمم إلى أمم وتشعبت اللغات وتباينت الأديان، والترك أمة فخمة المملكة وفضيلتهم التى برعوا فيها معاناة الحروب ومعالجة آلاتها فهم أحذق الناس بالفروسية وأبصرهم بالطعن والضرب والرماية.

ولا تؤخذ هذه الروايات حول أنساب الأتراك على سبيل ومجمل التصديق نظرا لإرجاع كثير من المؤرخين القدماء الأمم إلى حادث الطوفان وغيره من الأحداث.

أما المؤرخون المحدثون فيرجعون نشأة الشعب التركى إلى مناطق التبت، والصين فى الشرق، والجنس الآسيوى القديم (السيبرى) فى الشمال، والشعوب الفنلاندية فى الغرب فمن بين هذه الشعوب جميعا، نشأ الشعب التركى فوق سهول سيبريا الشمالية الواسعة، والبوادى القائمة بين بحر الخزر (قزوين) وجبال

آلتاى من جماعات عرقية ولغوية لعلها تنتظم فى العصور الأولية المغول، وكان يتولى قيادة هذا الشعب فى العادة شخصيات حاكمة كبيرة مثل تلك التى نشأت بين ظهرانى الشعوب ذات الوضع القبلى، حتى إذا اندفع الترك من مرتفعات تيان شاه إلى آسيا الوسطى، كانت قد تمت لهم خصائص عرقية متميزة يدعوها علماء الأجناس البشرية بالخصائص الطورانية وتميز أتراك الشمال منهم بملامح مغولية أما أتراك الجنوب فاحتفظوا بشكل جسدى متناسب الأعضاء يميل إلى الكبر بعض الشئ، ووجه متوسط الطول، يتميز بأنف مستقيم بارز وجبهة عالية شديدة الانحدار وشعر كثيف.

ولم يظهر أى أثر واضح للترك يؤخذ به إلا فى القرن السادس الميلادى، حينما وردت كلمة (ترك) أول ما وردت علما على شعب من البدو، وترك بالصينية (توكيو) وقد أقام هؤلاء البدو من الترك دولتان امتدتا من منغوليا وحتى الصين الشمالية حتى البحر الأسود ومؤسس الأولى الشرقية هو بومين ت٥٢٢م ويعرفه أهل الصين باسم تومين أما أخوه الثانى استمى الذى وجه الفتوح ناحية الغرب فقد عاش إلى عام ٥٧٦م ويعرفه أهل الصين باسم(شى تى مى).

وقضت أسرة تانغ الصينية على الدولة الشرقية حوالى سنة ٦٣٠هـ، وعلى الدول الغربية سنة٦٥٩م، ولكن أتراك الشمال ما لبثوا أن خلعوا فيرا الأجنبى سنة٦٨٢م، ليحتفظوا باستقلالهم حتى سنة٧٤٥م، ونجحوا فى ضم بلاد الترك الغربية إلى دولتهم.

واشتهر قبائل الترك الغربية قبائل التركش التى تلقب شيوخها بالخانية فى الأعوام الأخيرة من القرن السابع، وقضى العرب بقيادة نصر بن سيار على مملكة التركش سنة ١٢١هـ، الموافق٧٣٩م.

أما كلمة ترك هذه فإنها لم تكن موجودة قبل القرن السادس ويرى طومسون مكتشف نقوش أورخون، أنها اسم لقبيلة مستقلة أو على الأرجح اسم لأسرة حاكمة، ويحتمل أن يكون المعنى الأول للكلمة بمعنى (تورك) ولكنه يعترض قائلا أنها وردت بمعنى(قوم) فى نقوش أورخون فى موضع، وفى موضع أخر لم ترد بهذا المعنى.

وقد تكون بمعنى المسوى والمهيأ، وقد تكون لها علاقة بكلمة(تور)، التى يكثر استعمالها فى نقوش أورخون بمعنى الجماعة المتحدة بالقانون والتقاليد، واتسع مدلول الكلمة ليشمل كل القبائل التركية، ويحتمل أن يكون المفهوم الحالى لكلمة تورك، اصطلاحا إسلاميا، حيث لاحظ العرب أن أقواما كثيرة من التى حاربوها فى القرنين السابع والثامن الميلاديين كانت تتكلم نفس اللغة التى يتكلمها الأتراك، فأطلقوا عليهم اسم (الترك).

ولقد سعى البعض إلى إثبات وجود لغات تركية فى القرون المتقدمة، فقد ذهب البعض إلى أن خير الشعوب البدوية القديمة هم السكوث أو فريق منهم على الأقل، وقد ذكر أن أخو ملك السكوث ويدعى قاتاسيس، كان يقطن فيما وراء نهر سيحون، وقد يكون هذا الاسم هو عين الكلمة التركية (قرداش) ومعناها أخوه وعلى هذا، تكون هذه هى أول إشارة إلى شعب تركى فى التاريخ.

وقد أورد هيردوت كلمة ربما كانت مرادفه لكلمة طعام فى التركية وهى كلمة آجى أو آجى ومعناها مر، مما يدل على أن الكلمة قديمة، ويقال أن الترك هم قوم (سينى) أو سير التى ذكرتهم، المراجع الصينية، والذين طردوا الهون من بلاد المغول حوالى نهاية القرن الأول الميلادى، وقالت أنهم من جيرانهم من ناحية الشرق، وجرى العرف، على أن السينى قوم أو شعب من شعوب تونغور، وهو أحد الشعوب الناطقة بالتركية.

وكان لهذه الشعوب التركية لغة التآية بدائية، وكانت فى مستوى واحد مع نقوش أورخون، حيث كانت مخارج الحروف أورخونية وكانت كلمة ترك تدل على القوة والبأس، ويبدو أنها كانت تدل فى النقوش أيضا على معنى سياسى أكثر من دلالتها على معنى جنسى.

ولقد انساح الترك فى بقعة من الأرض، ولذلك كانت الفروق بين اللهجات التركية أكبر ومع هذا فإن معظم اللغات واللهجات متشابهة، وليس هناك سوى لهجتين هما لهجة ياقوت ولهجة جوفاش وهما أقدم لهجتين تركيتين.

وقد ذكر جغرافيو العرب فى القرن الثالث الهجرى/التاسع الميلادى إن كلمة ترك لا تستعمل فى المصنفات الجغرافية إلا على طائفة من الشعوب ومزيج من

اللغات ولا تدل كما هو الحال فى النقوش الاورخونية على شعب واحد، أو مملكة واحدة، فقد ذكروا. أن الترك أجناس كثيرة، وشعوب متعددة، وقد ذكرت لنا نقوش أورخون خمسة، شعوب تركية وهذه الشعوب، التغرغز، والخرخير (القرغيز) الكيماك، والغز، أى الاغور والخرلج، أى القرلق، وكانوا يسكنون الأراضى التى تقع على نهر ينيسى الأعلى.

ويعتبر محمود الكشغرى فى ديوانه عن الترك من أكثر المصنفين المسلمين الذين أفاضوا فى ذكر الشعوب التركية ومواطنها وعادتها ولهجاتها فقد جاء فى ديوانه أنه كان عشرون شعبا تركيا منذ الأزل انقسموا إلى فريقين: الشماليون والجنوبيون وكل منهم عشرة شعوب أما شعوب القسم الشمالى فهى: البجاناك، والقفجاق، والاوغور، والكيماك، والباشغرات، والبسمل، والقاق والبياقو، والتتار، والقرلق، أما شعوب القسم الجنوبى فهى: الجكل، والنخس، اليغما، الاغراق، الرجق، الجحل، الاويغور، والتكلت، والختاى.

على أن هذا الرأى قد يبدو غير صحيحا، نظرا لأن هناك قبائل من هذه القبائل المذكورة مثل القرغيز الذين عاشوا على نهر ينيسى، انتقلوا إلى أقصى الشمال الشرقى وإن التتارك قد عاشوا فى(أوتكان) على نهر أورخون، أى أنها أبعد من ذلك شرقا وكان للقاى، والبياقو، والتتار، والبسملة لغات خاصة بها.

ولقد قسم جغرافيو العرب فى القرن العاشر الميلادى بلاد الترك، وشعوبها إلى ثلاث أقوام من الترك فى الأرض الممتدة من بحر الخزر إلى حدود الصين وهؤلاء هم:

١ - الغز وينتشرون فى الأراضى الممتدة من بحر الخرز إلى أواسط مجرى سيرداريا.

٢ - القارلوق وينتشرون فى الأراضى التى تمتد إلى مسيرة عشرين يوما شرقى فرغانه.

٣ - التغزغز أو طوقوز أوغور يسكنون الأراضى التى تبدأ من حدود أراضى القالوق وتمتد حتى الصين.

ويعتبر أواخر القرن السادس الميلادى، وأوائل القرن السابع هو بداية ظهور

شعب جيد فى بلاد ما وراء النهر، طبقا لنقوش أورخون، وإن هذا الشعب اتخذ للمرة الأولى فى تاريخ هذا الإقليم اسم الترك.

وقد كان الترك بدوا فى حياتهم الأولى، لذلك أمعنوا فى البداوة، وأهملوا الزراعة التى لم يعرفوها فى بلادهم الأولى، وكانت هذه الشعوب التركية ليس لها نظام سياسى واقتصادى ثابت، فالبدو عادة لا يفكرون فى أن تضمهم رابطة سياسية غير رابطة القبيلة، وتجرى أمورهم طبقا للعرف الذى تولده علاقات العشائر بعضها ببعض، ولم يكن للأتراك مدينة وحضارة معينة قديمة كما كان للفرس مثلا، إذ كانوا بدوا أو أشبه بالبدو. جاءوا إلى الشرق الإسلامى وعاداتهم وتقاليدهم. لا بحضارتهم وثقافتهم، فقد كانوا من ناحية الحضارة قابلين لا فاعلين.

وعرف هؤلاء البدو من الأتراك بالصلابة، وعدم الاعتناء بالمدينة والحضارة والاهتمام الدينى، فالترك شعب فظ غليظ، خفيف الذكاء وكانوا يسكنون الجبال، وفى مناطق وعرة عسيرة الولوج، وكان كل همهم هو العثور على مرعى طيب لماشيتهم، ذلك لأنهم يعتمدون فى طعامهم اعتمادا مطلقا على الغذاء الحيوانى، الذى كان منه الخيل والبغال، والترك باعتبارهم بدو، فهم كثيرو الترحال لا يقيمون بأرض واحدة أبدا، ولكن متى اقترب الشتاء انتقلوا إلى سهول أدفأ، لكى يجدوا مراعى كافية لماشيتهم، كما أنهم فى الصيف ينتجون المواقع الباردة فى الجبال، التى يتوافر فيها الماء والخضرة والترك أهل نجدة وشدة بأس، وهو فرسان أماجد منذ فجر تاريخهم، وأول أمرهم وقد وسمهم بهذه الصفات بيئة آسيوية من الأحراش والفيافى لا يعيش فيها إلا مقدام يتمتع بعقلية بدائية تمجد القوى تمجيدا، وتستحقر الضعيف استحقارا، فلا تعرف له حقا من الحقوق، ويقال أن ترك بمعنى قوة، كما يسمى الفرس، الغارة الشعواء غارة بالترك، وقد يبلغون حد الشطط، فيطلقون لفظ تركى على المتلصص والفظ، والصعلوك المتجول، ويذكرهم الفرنسيون فى أمثالهم، فيقولون قوى كالتركى، ويقال شاعرهم(لقد مر الترك من هناك، فما بعدهم إلا الدمار والبلاد والهلاك).

ويقضى أفراد القبائل التركية حياتهم اليومية فى الخيام السوداء، وغيرها

المصنوعة من شعر الماعز، الذى تغزله النساء فى القبيلة، وتقوم حيطانها الجانبية العمودية وسقفها المنحدر قليلا على قوائم سميكة، ويمكن أن تنصب الخيمة أو تطوى فى وقت قصير حتى يسهل نقلها من مكان إلى لآخر.

وحياتهم بسيطة للغاية فتفرش أرضهم بالسجاد، أو بواسطة فرش سميكة من اللباد وقد كانت قطعان الماشية هى عماد الحياة اليومية، فهى التى تمنح اللبن والزيت والجبن وتستخدم للمنسوجات القبلية، وهو يقتصدون فى طعامهم على اللحم والجبن واللبن، مع أكل ما تصل أيديهم إليه من الصيد.

ولقد أعطانا الجاحظ فى رسائله إلى الفتح بن خاقان، عن مناقب الترك صورة ربما يكون فيها شىء من المبالغة عن حياة الترك وصفاتهم ومناقبهم فيقول الجاحظ، أن أول الخصال التى يتصف بها التركى هى صدمة الشدة عند أول وهلة، والثانية الصبر والأتراك لهم رماية خاصة على ظهور الخيل، يرمى الوحوش والطير، ويرمى التركى بعشرة أسهم مرة واحدة، وللتركى أربعة أعين، عينان فى وجهه وعينان فى قفاه، وجلوس التركى على ظهر دابته، أكثر من جلوسه على ظهر الأرض، وان أعياه اصطياد الناس الوحوش، وأن احتاج إلى طعام فصد دابة من دوابه وليس احد بقايا اللحم غيره وكذلك دابته تكتفى بالضفر، والعشب لا يظلها من شمس ولا يكنها من برد.

وقد تأصلت الفروسية فى دم التركى نتيجة للبيئة التى يعيش فيها، فهو يتميز بالجرأة فى القتال، فلا يقدم الواحد منهم على شىء ألا بعد أحكام الأمر، والنظر فى العواقب فيهتم الواحد منهم بدابته، وأدواتها، وبسلاحه، أنواعه فالتركى على قول الجاحظ، أقوم الناس تقويما لبروزته، فهو الذى استنتجه ورباه، فإذا دعاه تبعد وأن ركب جرى خلفه، وإذا ركب صار طوع إشارته، وإذا بلغ الناس واديا من الوديان أو نهر من الأنهار، لم ينتظر التركى دوره، ولا ينفك التركى أثناء سيره أن يركب خلف الظباء وأرانب لصيدها، وإذا أراح التركى واحدة من دوابه ركب الثانية من غير أن ينزل إلى الأرض.

والتركى صبور للغاية فهو الراعى والسائس، والرائض، وهو النحاس والبيطار وهو الفارس، والتركى الواحد أمة على حدة، فإذا سار التركى فى غير

عساكر الترك، فسار القوم عشرة أميال، سار التركى عشرين ميلا، ولا يسير التركى فى خط مستقيم، والتركى لا يحارب على دين ولا ملك ولا عصبية، بل على غيره دون الحرمة والمحرم، ولا على وطن ومنع دار ومال، وإنما يقاتل للسلب والخيار فى يده، قال عنهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه (عدو شديد طلبه، قليل سلبه) ونهى عن التعرض لهم.

وحرص التركى على أن يتولى بنفسه إعداد سلاحه وسيفه الذى يتقلده فهو الذى يذيب حديد سيفه، ويصفيه ويهذبه، ويرهفه، ويصنع غمده، ويجلد هذا الغمد ويجليه، ويخرز خمائله، وهو الذى يصنع ذلك كله بنفسه، وكذا سائر آلته الحربية من سرج فرسه ورمحه وسهامه وجعبته، فلا يستعين بصديق، ولا يفزع إلى صديق.

ومن الصفات التى اشتهر بها الترك طاعتهم لكبرائهم، فإذا تفرقوا فى حادث من الحوادث رجعوا كلهم إلى مكان واحد.

وكان نظام الترك السياسى يخضع لحاكم يدعى (الخان أو الخاقان)، الذى يمثل رمز السلطة، والذى باستطاعته أن يضم عدة شعوب إلى طاعته، وكان الخان لا يستطيع إخضاع قومه إلا بعد معارك دامية، وقد اشتد النزاع بين الطبقات وبين القبائل البدوية حيث عرف الترك بأنهم أعراب العجم، كما أن هزيلا، أكراد العرب، فلم تشغلهم الصناعات والتجارات والطب والهندسة حيث كان همهم هو الغزو والغارة والصيد وركوب الخيل وطلب الغنائم.

ولقد أوردت لنا نقوش أورخون نتفا من المعلومات عن النظم الداخلية للدولة التركية من حيث أسماء أصحاب المناصب المختلفة فمثلا، لقب (شاد)، وهو لقب أعضاء أسرة الخان الذين يرأسون القبائل أورد فى نقوش أورخون، وربما يكون فارسيا بمعنى شاة أى ملك.

وكان للترك تقويم قديم عرف بتقويم (الاثنى عشر حيوانا) ويربط الكشغرى بين نهر أيلة وبين ظهور هذا التقويم، فيروى أسطورة خلاصتها أن ملك الترك خرج للصيد فجرت الحيوانات التى تبعها، وألقت بنفسها فى نهر أيلة، وعبرته بالترتيب، وكان هذا الترتيب فيما بعد هو ترتيب الحيوانات فى ذلك التقويم،

وتزعم الترك أن فى كل سنة فيها حكمة، ويتفاءلون بها فيقولون إذا كانت سنة (أوديلى) أى سنة البقر تكثر فيها الحروب، حيث أن البقر نطاحا، وإذا دخلت سنة الدجاج يكثر فيها البرد والثلج والفتن، ولقد كانت غالبية أسماء رجالات التركمان التى وصلت هى أسماء حيوانات من جوارح وطيور وغيرها، من ذلك جغرى أى الصقر، وطغرل، وهو طائر أعلى منزلة من الصقر، وأرسلان أى الأسد.

أما عن عقائد الترك الأولى:

فقد اعتقد الترك بحكم فطرتهم البدوية كغيرهم من قبائل البدو فى كل الطبيعة ولذلك عبدوا السماء والأرض فكثيرا ما صادف طومسون فى نقوش اورخون عبارة (تورك كوكى) أى أسماء الترك، وعبارة (تورك يرصوى) وكانت الأرض والسماء والماء يكونون آلهة بالنسبة للترك فى بدايتهم.

وكانت خيمة ملك الترك تفتح نحو الشرق تبجلا لتلك الجهة من السماء التى تشرق منه الشمس وفى كل عام يقوم المتيسرون من الأتراك بتقديم الضحايا والقرابين على قبور آبائهم وإنهم أيضا يحجون فى الأيام العشر الثمانية من الشهر الخامس، بالتارى خالصينى إلى جبل الذهب وهو النون - داغ بالصينية - حيث تسكن روح السماء والتى يسمونها بالتركية - تنجرى.

ولقد عبد الترك الشمس والقمر والجبال والأنهار والعناصر التى عبدوها خمسة هى الأرض والخشب والمعدن والنار والماء وفى القرن السادس الميلادى كمانوا التوكيو (الترك) الغربيون يقدسون الهواء والماء ولقد قدست هذه الشعوب بعض العناصر الأخرى كالماء الجاري، فعندما دخل المغول بلاد الإسلام منعوا المسلمين من الجداول والمياه الجارية وجعلوا لذلك عقوبات قاسية، كما قدست هذه الشعوب المعدن القوى الذى يصنع منه السلاح وآلات الحرب وهو الحديد بدليل أسمائهم الوطنية القديمة مثل تيمور واتيلا وتيموجين التى لها معنى الحديد، ذات الأصل الدينى وتحولت عبادة العناصر المتعددة إلى عبادة ثنائية اقتصرت على السماء والأرض فأصبحوا لا يقدسون إلا السماء المرتفعة أو الأرض العالية مثل الجبال، وعبادة السماء هى المعروفة بالسمنية، ففى مخيلة العامة أن السماء والأرض تمتلأن بالأرواح والجان والشياطين مما دعاهم أن يتوجهوا بعبادتهم نحو السماء.

واهتم الترك بموتاهم وتقديسهم وتقديم القاربين لهم، وكانو يحزنون حزنا شديدا موتاهم لاعتقادهم فى خلود الروح وان الحياة الأخرى هى كل شىء وكانوا يدورن حول بيت المبيت على الخيل سبع مرات ويصرخون صرخات حزينة وعندما يقفون أمام الباب يجرحون وجوههم بالسكاكين حتى ليـنزل الدم مع الدموع، وكانوا يضعون مع الميت كل ما يخصه مثل الحصان والأدوات المنزلية وقوسه وسهامه ويضيف المسعودى أن هذه الأشياء تحرق وكذلك يوضع الحلى وزوجة الميت أيضا ويدل هذا كله على بدائية الترك، وعلى أثر البيئة فى عاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم إلى جانب عبادة (اومای) أى الروح الحارس للأطفال الرضع والتى ظلت فى قبائل الالتاى.

واعتنق الترك عقيدة أخرى هى العقيدة الشامانية وهى عقيدة وثنية مطلقة وتنسب إلى شامان بالتركية أو (قان) والعقائد الشامانية تظهر لدى الترك فى مراسيم الجنائز، والدفن عند الأتراك، وكانوا يقيمون إلى جوار قبور جنودهم تماثيل لهؤلاء وكانت هذه التماثيل تسمى، (بلبال) ويظهر انها كلمة من أصل صينى.

والعقيدة السامانية عقيدة بدائية، لا تقوم على أسس أخلاقية فيقال أنها بمعنى أحد الأرواح من الجن، وليس معنى إيمانهم باليوم الآخر أنهم يؤمنون بيوم الحساب، وبأنهم سيسألون عما كانوا يفعلون، ولذلك فإن القاتل عندهم لا يخاف عقابا يوم القيامة، بل يعتقد ان منزلته فى ذلك اليوم تزداد ارتفاعا، بازدياد عدد من قتلهم، والدليل على ذلك أنهم كانوا يذبحون الرؤساء العسكريين المأسورين، وخدم الخان إلى جانب قبر الخان على اعتقاد أن القتلى يصبحون فى العالم الآخر، خدما لقاتليهم أو لمن قتل باسمهم.

وانتشرت العقيدة الزرادشتية، والتى لك يكن لها نشاط تبشيرى واضح وعالمى وكانت هى الديانة القومية للإيرانيين، انتشرت بين الأتراك بسبب انتشار الأبجدية الإيرانية بين الترك، وذلك بفضل العلاقات التجارية بينهم.

ثم اعتنق الترك العقيدة البوذية والهندوسية، وذلك بسبب احتكاكهم ببلاد الهند عن طريق التجار الهنود، وكانت الديانة البوذية الهندية القادمة من الهند قد انتشرت بصورة واضحة بين الترك القدماء، وذلك لأن مرجو هذه الديانة من الهنود

استخدموا الأبجدية الهندية، كذلك لم يكن مرجوها وحدهم، الوافدين على تلك البلاد فى آسيا الوسطى بل كان التجار الهنود يفدون عليها كذلك.

وكانت العقيدة البدهية الهندية، والتى عرفت بين ترك الشمال، وقد وجدت له اتاعا عند زرخشان فى القرون الثلاثة الأولى للميلاد، وازدهرت البوذية (البدهية) فى التركستان الشرقية فى القرن الخامس الميلادى وما شاهده المسلمون أول فتحهم لتلك البلاد من نشاط البدهية، وما كان فى معابدها من أوثان ذهبية عظيمة الحجر لها عيون من الجواهر، وكان يقوم ببخارى كل عام حتى بعد الإسلام سوقا كبيرا للدمى والصور ومرد ذلك إلى العادات السائدة أيام كان أهل بخارى يعبدون الأوثان، إذ كانوا يشترون أوثانهم من هذه الأسواق.

ودخلت العقيدة المانوية بلاد الترك، ويقال أنها أول عقيدة يدخلها الترك بعد الشامانية بوصفهم شعبا له ديانات قديمة، وكانت أول دين يقوم على أساس اخلاقية يعتنقه الترك بعد الشامانية، فبينما ترى الشامانية أن قتل الإنسان يفيد يوم القيامة، فإن ديانة مانى لا تكتفى بتحريم قتل الإنسان، بل تحرم أكل لحوم الحيوان، وقد كان الأتراك يفهمون التضاد بين الديانتين، ومسطور فى نقوش أورخون أن الأمة التى كانت تاكل ستأكل الأرز، والبلد الذى يكثر فيه القتل يسود فيه فيما بعد الأمر بالمعروف.

ودخل الترك العقيدة المانوية على قول آخر ابتدءا من القرن الثالث الميلادى ودخلت المانوية بلاد الترك قبل المسيحية، واستعملت أبجديتها المانوية، ولم تسقط دولة أتراك القرن السادس والثامن حتى انتشرت المانوية على نطاق واسع بين الترك بسبب اتساع التجارة مع بلاد الترك، فيما بين القرنيين السادس والثامن، وكان الطريق التجارى المؤدى إلى الصين من بلاد الترك مجالا لنشاط المبشرين والتجار من الصغد الترك وانتشرت المانوية بين قبائل الاويغور التركية سنة ٨٢١ م/ ٢٠٦هـ وعرفوها أثناء غارة لهم على الصين عام ١٤٥ هـ / ٧٦٢ م، واستصحبوا فى عودتهم إلى وطنهم ببلاد المغول أربعة مانوية، ويبدوا أن الصغد هم الذين نشروا المانوية بين الترك ثم عرفت المسيحية طريقها إلى بلاد الترك، حين دخلت الأبجدية السريانية وهى الأبجدية التى اتخذتها المسيحية، واتخذت البعوث الدينية المسيحية

تروح وتجئ فى بلاد الصين والترك / فقامت بدعوة ناشطة بينهم، واعتنق الترك المسيحية على المذهب النسطورى الذى اعتقد أصحابه فى وجود الله ووحدوه، وقال بنبوة عيسى عليه السلام وكان معتنقوها يعرفون فى مناطق بلاد ما وراء النهر بالكشوكشان وكانوا يشتغلون بالتجارة.

ولقد اتخذت المسيحية طريق تجارى، يربط الصين ببلاد الترك، طريقا لها للتبشير بالمسيحية، وعرفت البلاد التركية المسيحية بواسطة خوارزم التى جاورت بلادهم وتعد قبائل الغز من القبائل التركية التى اعتنقت المسيحية وكان للمسيحية أتباع كثيرون بين الترك حتى بداية انتشار الإسلام، ثم دخل الترك فى الإسلام، واصبحوا من اشد المدافعين عنه.

وكان للترك علاقات سياسية وحربية واقتصادية مع جيرانهم من الصينيين والفرس والهنود والعرب وغيرهم من البلاد، فقد روى صاحب الأغانى أن الترك اتخذوا لغة الفرس ودخلوا فى دينهم وكان ذلك فى القرن السادس، وقد شيد آل ساسان وهم الفرس الحصون فى البلاد التى تعرضت لغارات الترك جيرانهم، وذلك مثل سور جورجان وطبرستان، وكن دهقان الترك على رأس الجيش التركى الذى حارب العرب عام ٩٨ هـ / ٧١٧ م، ويوضح الثعالبى أن قتالا قد نشب بين ارجاسف ملك الترك وبين نشتاسف، ملك الفرس، حينما دعا ملك الفرس نشتاسف الملك التركى ارجاسف إلى دين زرداشت فأبى الملك التركى الدخول فيه أولا وخرج لقتال الملك نشتاسف بعد أن أرسل إليه رسالة يقول فيها، سأرسل لك جنودا، تربوا على عدد النحل والرمل، وتأكل الرطب وتحرق اليابس، وتقتل الرجال وتسبى النساء، ودارت المعركة التى انهزم فيها الترك، بعد أن قتل أبناء نشتاسف الأربعة؛ ورجع ابنه اردشير بالجيش إلى بلاده.

وهذا يوضح مدى ما كان عليه الترك من قوة فى ذلك الوقت.

جمهوريات أسيا الوسطى الإسلامية فى العصر الحاضر

جمهورية أوزبكستان

تبلغ مساحة أوزبكستان حوالى ٤٤٧ ألف كم ٢ وهى فى الجزء الشرقى من الاتحاد السوفيتى حيث تتخذ حدودها الإقليمية شكلا طوليا مع انفراج فى شرق البلاد على شكل قوس يحيط بجمهورية طاجيكستان. وتحيط الأراضى السوفيتية بجمهورية أوزبكستان من جميع الجهات فيما عدا الجهة الجنوبية حيث تشترك حدودها مع حدود أفغانستان.

ويبلغ عدد سكان أوزبكستان مايقرب من١٤مليون نسمة حيث يدخل فى تكوينهم عناصر جنسية متعددة فيكون الأوزبك مايقرب من ٧/ ١٠ مجموع السكان فى مقابل ١٢,٥ ٪ للروس ٤,٩٪ للتتار ١/ ١٠ لجماعات القازك والصاحبك والكار كلباك. لتبلغ نسبة المسلمين فى أوزبكستان ما يقرب ٩٠٪ جملة السكان، وجميع الأوزبك مسلمون ويتركزون فى الأجزاء الجنوبية والجنوبية الشرقية من البلاد ويتحدثون لغة تركية تشبة لغة الأتراك العثمانيين أما الروس فيعيشون فى طشقند والمدن الأوزبكستانية. وتتفاوت كثافة السكان داخل أوزبكستان فبينما تسجل الكثافة العامة للسكان ٣١ نسمة فى ك.م٢ نجدها ترتفع فى مناطق الأدوية النهرية والواحات لتصل ما بين ١٥٠ و ٣٠٠ نسمة فى ك.م٢ وفى المناطق المتوسطة الارتفاع إلى ١٢٥ نسمة فى كم٢ واقل من خمسة أشخاص فى الوحدة الكثافية وذلك فى بقية البلاد.

ويلاحظ أن سفوح جبال البامبروتيان شان تشغل الجزء الجنوبى من أوزبكستان، بينما تمتد سهول كيزيل كوم فى وسط البلاد وشمالها. وتعرف هذه السهول باسم الرمال الحمراء وهى سهول شبه صحراوية تغطيها الكثبان الرملية فى معظم أجزائها، أما سهول ضوران فتشغل الجزء الشمالى من أوزبكستان حيث تشرف على الشواطى الجنوبية والغربية لبحر أرال ومن ثم تدخل إلى إقليم كاراكلبا كيا.

ومن أهم الأودية النهرية فى جمهورية أوزبكستان وادى فرعان ووادى طشقد ونهرى زيرافشان ونهر جيحون.

ويسود فى أوزبكستان المناخ الشبة صحراوى فى الأجزاء الوسطى والشمالية على حين يسود الاستبس فى المناطق الجنوبية الشرقية وهى فى جملتها مناطق جبلية، كذلك تظهر حشائش الاستبس فى مناطق الأودية النهرية. ومعنى ذلك أن المناخ القارى المتطرف الجاف من نصيب المناطق شبه صحراوية على حين يسود المناخ المعتدل البارد المناطق الجبلية.

أما عن القاعدة الاقتصادية لأوزبكستان فنلاحظ إن البلاد قد شهدت فى غضون السنوات الأخيرة حركة تصنيع كبيرة صاحبها نزوح أعداد كبيرة من سكان الريف للاستقرار فى مدن ولاسيما فى المدن الرئيسية كشقند العاصمة والتى تقع على رافد النهر سيحون بالقرب من حدود قاراخستان وكذلك مدينة سمرقند التى تقع على نهر زرافشان ومدينة بحارى التى تعد واحدة من أجل المدن يمر بها أيضا نهر زرفشان.

وتعد أوزبكستان فى طليعة جمهوريات التركستان من حيث التقدم الاقتصادى فهى تنتج ٨٥٪ من جوت الاتحاد السوفيتي و٦٧٪ من قطنه و٥٠٪ من أرز و٣٣,٥٪ من حريره و٣٤٪ من الجلود المعروفة باسم جلود استر خان.

أوزبكستان جمهورية غنية بالبترول والفحم والغاز الطبيعى والكهرباء إذ يبلغ إنتاجها من البترول حوالى ٣,١ مليون طن فى حين يصل إنتاجها من الغاز الطبيعى إلى ١٠٠,٣٧ مليون م ٢ ومن الفحم ٤,٢ مليون طن. أما عن الطاقة الكهربية التي تعتمد أساسا على مياة الأنهار فتبلغ ٢٦,٢٠٠كيلوات ساعة ومناطق استخراج البترول والغاز الطبيعى فى منطقة بحار وفى صحراء كيزل كوم بينما يستخرج الفحم بالقرب من طشقند.

وتعتمد الزراعة فى أوزبكستان أساسا على الرى حيث تتمتع أوزبكستان بأضخم نظام للرى فى الاتحاد السوفيتى: إذ يغطى ما يقرب من ٤٠٪ من كافة الأراضى المروية. وأهم المناطق الزراعية توجد حول المجارى المائية وفى الواحات أى فى أودية فرغانه وزرافشان وواحة طشقند وخوارزم. وأهم الغلات الزراعية القطن الذى يشغل ما يقرب من ٣/١ المساحة المنزرعة إلى جانب الأرز الذى يزرع فى السهول العالية والخضروات والفاكهة.

أما عن الصناعات الهامة بأوزبكستان فتتمثل فى صناعة الأسمنت وتكرير النحاس وصناعة الأسمدة المعدنية والنبيذ والبلاستيك والصناعات الغذائية وأجهزة استخراج البترول والادوات الكهربائية.

جمهورية طاجيكستان

تدخل معظم أراضى طاجيكستان فى الحوض الاعلى لنهر جيحون أى انها تقع فى وسط آسيا ليمدها من الشرق التركستان الصينية ومن الجنوب قرغيزيا ومن الغرب والشمال جمهورية أوزبكستان، وتبلغ مساحة طاجيكستان حوالى ١٤٣ألف كم٢، وهى عبارة عن كتلة جبلية مرتفعة تبلغ أقصى ارتفاع لها منطقة البامير التى تقع فى الأجزاء الشرقية. وعلى سطح البحر تتفرع عدة سلاسل جبلية تأخذ اتجاهات مختلف لتلتقى جميعا عند البامير. وأهم هذة الجبال جبال الهيمالايا وقرة قروم وهندوكشن وتيان شان. وتتخلل هذه السلاسل الجبلية مجموعة من الاودية العميقة التى تأخذ اتجاة شرقى غربى.

ويمتد نتوء من أراضى طاجيكستان نحو الشمال الغربى ليحتوى على جزء من وادى فرغانة وحوض سيحون. ومعنى ذلك إن الظروف المناخية فى هذه المنطقة لابد وأن تكون متفاوتة تبعا لاختلاف الارتفاع فالثلوج الدائمة تغطى بصفة دائمة المناطق العالية على حين تتعرض المناطق المتوسطة الارتفاع للصقيع الدائم فى فصل الشتاء وترتفع درجة حرارتها فى فصل الصيف الشتاء إلى ٤م على حين تبلغ فى الصيف الجاف إلى ٣٠م. وتتراوح كمية الأمطار الساقطة فى طاجيكستان بين ٣٥٠مم، و ٥٠٠مم.

ويعتبر الطاجيك أكبر الجماعات السكانية فى البلاد، فمن بين ٤مليون نسمة نجد إن حوالى ٥٦٪ منهم ينتمون إلى هذه المجموعة فى حين يكون الأوزبك ٣٣٪ والروس حوالى ١٢٪والتتار ٢,٥، وينتمى الطاجيك إلى سلالات خليطة بين الأتراك والإيرانيين إذا أنهم يقيمون فى أراضى فرغانة والجزء الغربى من المنطقة البامير بينما يعيش فى الجزء الشرقى من البلاد التتار فى حين يقطن الأوزبك الأجزاء الشمالية الغربية والروس فى المدن ويتركز السكان بصفة عامة فى وادى فرغانة لخصوبته غير إن الكثافة العامة تصل إلى ما يقرب من ٢٤نسمة فى كم٢وإن

كانت تسجل فى مناطق عذبة أقل من نصف هذا الرقم. ويعتمد الاقتصاد طاجيكستان على الزراعة وتربية الحيوان فهذة هى الحرفة الرئيسية إلى جانب الصناعة ومن ثم يزرع السكان القطن فى الاودية وقصب السكر والفواكه بأنواعها والحبوب إلى جانب المزارع التابعة للدولة وتبلغ مساحة الاراضى الزراعية مايقرب من مليون هكتار وتعتمد جميعها على الرى من شبكة مائية منتظمة الامر الذى ساعد على تكثيف زراعة بعض المحصولات الشبهه مدارية على وجه خاص. وقد قام على الانتاج الزراعى بعض الصناعات المختلفة مثل الصناعات القطنية وتجفيف الفاكهة والنبيذ وتعليب اللحوم والاسمنت.

أما عن الثورة الحيوانية فهى فى زيادة مستمرة نتيجة لاستخدام الاساليب الحديثة فلى الرى وقد ارتبط ذلك بزيادة المنتجات الحيوانية. أما عن الثورة المعدنية فيوجد فى طاجيكستان معادن متنوعه أهمها الفحم والبترول والغاز الطبيعى إلى جانب الزنك والرصاص والذهب والفضة.

وعاصمة طاجيكستان دوشانبى وتقع على نهر سورخان داريا وهى مدينة حديثة النشأة عمرها أقل من نصف قرن. كذلك من المدن الهامة مدينة لينين أباد التى تقع على نهر سيحون وكولياب وخروج والأخيرة تقع على الحدود مع افغنستان.

جمهورية تركمانستان

يبلغ عدد سكان جمهوريات تركمانستان حوالى٢,٥مليون نسمة وذلك حسب أرقام عام ١٩٧٥ الأمر الذى يشير إلى إن سكان هذه الجمهورية أقل أعداد سكان لجمهوريات أسيا الوسطى، كما إن معدل الزيادة السنوية يصل إلى ٢,٧٪ فى حين تصل الكثافة العامة إلى حوالى ٨٠٪ من جملة مساحة البلاد تكاد تكون خالية من السكان. وأغلب هذه الأراضى تقع ضمن نطاق صحراء قرة قروم وذلك على النقيض من مناطق الأودية النهرية التى يتكدس به السكان وذلك اسوة بمناطق الواحات التى تعد هى الاخرى مناطق تكدس سكانى. وجمهورية تركمانستان عبارة عن منطقة هضبية تأخذ فى الاتجاة من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى، ويصل الارتفاع فى الأجزاء الجنوبية من الهضبة حوالى ٧٠٠م حيث تأخذ هذه

المنطقة المظهر الجبلى المقطع بعدد من الأودية النهرية والتى أهمها نهر هترى مورغاب ونهر تاوزهن أو (هارى رود) وجزء من نهر جيحون الذى يمر فى الأجزاء الجنوبية الشرقية من تركمان.

وتضم أراضى تركمانستان سلاسل جبال كويت وانج التى تمتد بين بحر قزوين وهضبة تركمانستان، وهى جبال التوائية تمثل حواف مرتفعة لهضبة إيران حيث تشعب بعض سلاسلها فتبدو على هيئة أشرطة ضيقة فى منطقة حدود تركمانيا.

وتمثل صحراء قرة قروم سهول فسيحة فى تركماستان وتعتبر إمتداد للهضبة صوب الجنوب ويصل ارتفاع مناطق ١٠٠ - ٢٥٥م وان كان ينخفض هذا المنسوب إلى دون سطح البحر بالضرب من بحر قزوين وبحر أراك.

وتسود فى تركماستان حشائش الاستبس على المرتفعات الجنوبيةفى حين تسود النباتات الشوكية فى بقية الجهات والسبب فى ذلك هو إن المناخ السائد فى تركمانستان هو المناخ الصحراوى القارى ويستسنى من ذلك مناطق المرتفعات التى تستقبل سنويا معدل من المطر يصل إلى ٢٥٠مم.

وتوزيع مظاهر السطح والغطاء النباتي كان له ابلغ الاثر فى توزيع السكان فى انحاء البلاد كما كان لة دلالته الاقتصادية، فيتكدس السكان فى وادى جيحون ووادى مورغاب وواحات خوارزم واتراك وعشق وسفوج جبال كويت وانج بينما يقل السكان فى المناطق الصحراوية الجافة. ويقوم اقتصاد تركمانستان اساسا على الزراعة حيث يعتبر القطن دعامة المحصول الزراعى إن الصناعة فعهدها فى تركمانستان حديث جدا.

وتبلغ مساحة الأراضى المزروعة فى تركمانستان أكبر واحد شبكة للرى فى أنحاء التركستان.

ويبلغ عدد السكان الذين يعلمون فى قطاع الزراعة نحو ٣٠٠الف نسمة يعملون فى مزارع جماعية ومزارع حكومية ويصل عدد المزارع المتابعة للدولة حوالى ٥٥ مزرعة فى مقابل ٣٣٠مزرعة تدار جماعيا. ويشغل القطن ما يزيد على نصف المساحة المخصصة للزراعة هنا من الأقطان الطولية السلة.

وإلى جانب القطن يزرع الخضروات فى الواحـات حيث يحتل هذا المحصول المرتبة الثانية بعد القطن كـما يزرع القمح والأرز والذرة إلى جانب الأعناب والبلح والتين والرمان والليمون والبطيخ.

ويستخدم الذرة علفـا للحيوان فيوجد فى تركمانسـتان حوالى نصف مليون من رؤوس الماشية وحوالى ٥مليون رأس غنم.

أما عن الثـورة المعدنية فيـعتبر البتـرول أهم مصادر هذه الثورة حـيث يوجد بالقرب من بحر قزوين، كما يوجد فى صـحراء قرة قروم الفحم والمغنسيوم والملح والكبريت. وأهم الصناعـات الموجودة فى البلاد هى تلـك المرتبطة بزراعة الأقطان إلى جانب الصناعة الثقيلة وصناعات الأسمنت.

وأهم مراكز الصـناعة هى المدن والعواصم والتى يأتى فى مقـدمتها عـاصمة البلاد عشق آباد ومدينة مرو وتشارجـو وكركيش، وتقع مدينة عشق آباد على الخط لحديدى بين سـمرقند وكراسنوفـورسك بينما تعـد مدينة تشارجـو ملتقى خطوط السكة الحديد على نهر جيـحون. وبصفة عامة فإن معظم التـركمان يمارسون الآن الزراعة ويتكلمون لغة تركية تنتسب إلى مجموعه اللغات الجنوبية الغربية، وعناصر التركـمان هم اكثر عناصـر السـكان عددا فى البلاد حيث يمـثلون حوالى ٦٦٪ من مجموع السكان.

جمهورية قازاخستان

تشبه جمهورية قازاخستان جمهوريات وسط آسيا فى تنوع مظاهرها الطبيعية إذ من المعـروف أنها تحـتل فى أواسط قـارة آسيـا مـساحـة من الأرض تصل إلى ٢,٧٠٧,٣٠٠ ك.م٢ لتمتد من صحارى وسط آسيا جـنوبا وسهول سيبريا شمالا وبين جبـال الطاى شرقا وبحـر قزوين غربا. ويـمتد أقليم السـهوب الذى يعتـبر مدخـلا لسنهول سيـبريا فى الشمـال ومن ثم فيعتـبر هذا الإقليم مدخـلا للأقاليم المجاورة إذ أن إقليم السـهوب يمثل منطقـة انتقال بين مـرتفعات الجنوب وسـهول الشمال.

أما هضبة الـقازاخ التى تعتبر امتداد لـهضبة آسيا الوسطى أو لهـضاب آسيا الوسطى فتمثل الجزء الجنوبى والشرقى من جمـهورية قازاخستان حيث تظهر هناك

سلسلتان هامتـان من الجبال وهما سلسلة جبـال ثيان شان فى الجنوب وللطاى فى الشمال، كمـا يوجد بين السلسلتين مجمـوعة من البحيرات أكبـرها بحيرة بنكاش التى ينصرف إليها عددا من الأودية الجافة التى تنحدر من الجبال المجاورة.

أما فى غرب البلاد فتوجد مناطق سهلية وأخرى منخفضة تحيط ببحر قزوين من الشـمـال والشـرق وحـيث تنتشـر فى هذه المنطقـة بعض الكثبـان الرمليـة والمستنقعات.

ويقطع جمهـورية قازاخستان عددا من المجارى المائيـة فنهر أورال يوجد فى الاقليم الغربى حيث ينـبع من السفوح الجنوبية لجبال أورال ليصب هو الآخر فى بحر قـزوين، وذلك إلى جانب نهـر ارتيس الذى ينبع من جبـال الطاى ويمر فى الأجزاء الشـمالية الشـرقية من البـلاد ونهر أوب الذى يخـترق الأراضى السـيـرية ويصب فى المحيط المتجمد الشمالى، ونهـر سيحون الذى ينبع من جبال تيان شان إلى جانب مجموعة من النهيرات الصغيرة التى تنصرف نحو بحر أرال.

ويشبه مناخ قازاخستان مناخ تركـمنستان حيث إنه مناخ قارى ومن ثم تسود الحشائش الشـوكية فى معظم بقاع قازاخـستان ويستثنى من ذلك المرتفعـات الجبلية الجنوبية والشـرقية حـيث تظهر هناك أشـجار الغابات الجـبلية إذ يزيد مـعدل المطر السنوى فى تلك المناطق عن ٥٠٠مم.

ويتكون سكان قـازاخسـتـان من عناصر متباينة فـيكون الأوكرانيون والتـتار حوالى ١/ ١٠ السكان فى حين يكون الروس مـايقرب من ٤٣٪ من جملة السكان والقازاك حـوالى ٣٣٪ من السكان، ومعنى ذلك إن العناصـر الصقليـة تسود فى قازاخستان التـى يبلغ عدد سكانها حوالى ١٤,٥مليون نسمة مع كثـافة عامة تصل إلى ٢,٥نسمة فى كم٢ وكـما هو معروف للدارسين هـناك ارتباط قوى بين توزيع مظاهر السطح وتركز الحـياة البشـرية ومن ثم فأغلب السكان يسـتقرون على طول امتـداد الأودية النهرية فى مناطق البـهـوب ذلك بالإضافة إلى المناطق الجـبلية التى تسـتـقبل أمطار بحيث تسـمح بقيام حـياة اقتـصادية متـقدمة فى الأجـزاء الجنوبية والشرقيـة. كذلك هناك استقطاب للسكان فى مناطق الواحـات التى قد ترتفع بها الكثافة السكانية لتصل إلى ٣٠٠ شخص فى ك م٢.

وقد تعرض توزيع السكان فى قازاخستان للتغير وذلك تبعا لسياسة التهجر التى اتبعت هناك وكانت تهدف إلى إعادة تعمير سيبريا وتوطين الجامعات القازاك المسلمين الذين يتحدثون التركية هناك واحتلال أعداد كبيرة من الروس والأوكرانيون محلهم. ولكن يخد ذلك فيكون المسلمون ما يقرب من ١ / ١٠ جملة سكان البلاد.

وقد كانت حرفة الرعى هى الحرفة الرئيسية لسكان قازاخستان فى الماضى ولكن اليوم تعتبر الزراعة هى الدعامة الأولى للاقتصاد على الرغم من احتفاظ حرفة الرعى بأهميتها بين بعض العناصر القازاخستانية كالقازاك والقرغير.

وتبلغ المساحة الزراعية فى قازاخستان ما يقرب من ١٤٪ من مجموع المساحة المتزرعة فى الاتحاد السوفيتى، ونظرا لوجود مناطق واسعة من السهول كان إنتاج الحبوب فى مقدمة الغلات الزراعية التى تزرع هنا ولا سيما القمح حيث تشغل قازاخستان المرتبة الثانية فى إنتاجة بين دول الاتحاد إذ تساهم بحوالى ٨٪ من مجموع إنتاج الاتحاد السوفيتى القمح.

وقد يطلق بعض الباحثين على قازاخستان اسم سلة خبز الاتحاد السوفيتى سابقا، وذلك للإشارة لأهميتها فى إنتاج الحبوب لا سيما القمح حيث زرع القمح الربيعى على امتداد إقليم الحشائش من الغرب إلى الشرق. وإلى جانب القمح يزرع الأرز فى المناطق النهرية التى تتوفر بها ظروف زراعتة. أما القطن وبنجر السكر فتقوم زراعته فى الأجزاء الجنوبية الغربية من البلاد حيث ترتفع درجة الحرارة ويتوفر المياه فى وادى سيحون الادنى ذلك إلى جانب زراعة الخضروات والفاكهة والمطاط والتبغ وقصب السكر والتفاح والعنب.

أما عن الثورة الحيوانية فتنتج قازاخستان ما يزيد على ١٥/انتاج الاتحاد السوفيتى من الصوف وحوالى ٧٪ من اللحوم المنتجة به وذلك لأنها تضم مايقرب من ٨مليون رأس من الماشية وحوالى ٣٫٥ مليون رأس من الأغنام و٣٥ مليون من الدواجن.

أما عن الثورة المعدنية والصناعية فيجمع الاقتصاد الصناعى فى قازاخستان بين الصناعات الغذائية والصناعات الخفيفة والصناعات الثقيلة، كما أن أرضيها تشمل ثورة معدنية هائلة فهى الأولى فى إنتاج الكروم فى العالم، ذلك إلى جانب

انها تنتج أكثر من ٦/ ١٠ من نحاس الأتحاد السوفيتي و ٦٠٪ من رصاصه من التوتياء ويستخرج النحاس من منطقة بلكاش والبترول من حقول اسيا حيث ينتقل من هناك عن طريق الانابيب ليكرر فى أورنك فى الأورال.

كذلك يوجد بها فحم كارجندة إلى جانب الذهب والفضة والنيكل.

وعاصمة جمهورية قازاخستان مدينة الما أجنا (ابو التفاح) وهى تقع على سفح منطقة جميلة ويبلغ عدد سكانها حوالى ٨٥٠ ألف نسمة. ومن المدن الهامة الأخرى مدينة كراجندا ومدينة سيميبلا ومدينة تشيمكنت وأكولنسك.

جمهورية قزغيزيا:

تقع جمهورية قزغيزيا فى المنطقة الشرقية من اسيا الوسطى فى المنطقة التى تلتقى فيها جبال البامير بجبال تيان شان. وتبلغ مساحة جمهورية قزغيزيا ١٩٨,٥٠٠كم٢ ويحيط بها جمهوريات قازاخستان وطاجيكستان وأوزبكستان كما تحيط بها الصين من الجنوب الشرقى. ويبلغ عدد سكان قزغيزيا مايقرب من ٣,٥ مليون نسمة فى حين ترتفع الكثافة العامة للسكان بها عن بقية جمهوريات الاتحاد لتصل إلى ١٦,٥نسمة فى كم٢ ويتركز السكان فى المدن الرئيسية وفى المناطق التى تتوافر بها الموارد المائية والتربة الصالحة للزراعة ومن ثم فيتجمعون فى وادى طلسى ووادى تشوفى وادى فرغانة وحول شواطىء بحيرة إيزيل كوك. كذلك يتمركزون على مرتفعات جبال الاى فى الجنوب. أما بقية البلاد فتشمل انخفاضا وتخلخا فى عدد السكان.

ويكون القرغيز العنصر السائد السكان، وهم من أصل تركى ويدينون بالاسلام ويتركزون فى جبال البامير الالية وفى منطقة جبال تيان شان ويكون القرغيز مايقرب من ٤٤٪ من جملة سكان البلاد إلا أن أعدادهم الحالية أقل مما كانت علية فيما مضى وذلك بسبب تعرضهم للهعجرة الجبرية وتوطين الروس مكانهم حين استولى الروس على بلادهم وعملوا على إبادتهم حيث كانت نسبتهم فى البلاد تصل إلى حوالى ٩٢٪من جملة السكان بينما يكون التتار والأوكرانيون ٦,٥٪ ذلك إلى جانب عناصر أخرى تعيش على هيئة أقليات.

جمهورية قرغيزيا تمتد فوق هضبة عالية تتسم بوجود مجموعة من السلاسل

الجبليـة التى تحيطها من جميـع الجهات والتى تبرز بوضـوح فى الجهات الشمـالية والجنوبية لتـتمثل فى جبـال تيان شان فى الـشمال وجبـال الاى فى الجنوب. وقد تقترب السلاسل الشمالية والجنوبية من بعـضها فى الأجزاء الغربية لتكون مرتفعات فرغانه.

وتتـسم الهـضبة القـرغيزية بوجود البـحيرات الداخليـة التى تعتبـر المصرف الطبيـعى للأودية النهرية التى تنساب مـن المرتفعات المحيطيـة نحو وسط الهضبة فتوجـد بحيرة إيزيك كوك فى الاجـزاء الشمالية الـشرقية من البلاد، وهـى بحيرة ترتفع سطحها فوق مستوى سطح البحر بحوالى ١٦٠٩ مترا

ومن الأودية النهرية التى تخـترق جمـهورية فرغيـويا وادى نهر نارين الذى يكون جزءا من نهر سيـحون ويخترق الهضبـة من الشرق إلى الغرب، ووادى نهر نار وهو رافد من نهر نارين، كـذلك يوجد وادى نهر كشو الذى يـتجه من التلال الواقعه غربى بحيرة إيزك كوك نحو الشمال الغربى إلى الصحراء الرملية الممتدة فى شرق بحر إدراك. ونظرا لطبيعة التضاريس المرتـفعة فى قرغيزيا فإن الثلوج الدائمة تكسو قـمم الجبال العاليـة كما إن الغابات المعـتدلة تغطى المنحدرات التى تستـقبل أخطار كافية لنمو حياة شجرة غابية والمناخ بصفة عامة فى قرغيزيا قارى متطرف.

وقد كانت حرفة الرعى هى الحرفة الرئـيسية لسكان قرغيزيا قبل وفود الروس إلى بلادهم غـير أنهم تحولـوا عن هذه الحرف تحت البطش الـسوفيتـى إلى حرف أخرى أكثر استقرار ومن ثم يجمع السكان حـاليا بين الحرف الإنتاجية الثلاثة وهى الزراعة والرعى والصناعة فـيبلغ عدد العاملين فى مجـال الزراعة نحو ٣٠٠ ألف نسمـة يعملون فى حوالى ٣٤٦ مـزرعة جمـاعية وتابعـة للدولة. وتعتمـد معظم الأراضى الزراعية فى قـرغيويا على الرى إذ تبلغ حملة مساحـة الأراضى الزراعية المروية حوالى ٢ مليون هكتـار التى تقوم بزراعة محاصيل متـنوعة كالقمح والارز والقطن وبنجر السكر والبطاطس والخضر والفـواكه والعنب والتبغ والجوث والبذور الزيتية والعلف.

وتشتهـر قرغيزيا بالمراعى الطبـيعية الموجودة فى أنحـاء البلاد ومن ثم فلديا ثورة حيوانية كبيرة فهناك ما يقرب من ١٠١ ملايين رأس غنم وحوالى ١,٥ مليون

رأس ماشية و٨ مليون من الدواجن الامر الذى ساعد على إعطاء إنتاج وافر من المنتجات الحيوانية.

أما عن الصناعة فى قرغيزيا فنظرا لتوفير عدد من المعادن كالزئبق فتعد قرغيزيا من أكبر جمهوريات الاتحاد السوفيتى فى إنتاج هذه المعادن، كما يوجد بها البترول والغاز الطبيعى والفحم والرصاص ومن ثم فتنتشر فى البلاد المصانع التى ترتبط بتصنيع هذه الخامات المعدنية ذلك إلى جانب الصناعات المرتبطة بالإنتاج الزراعى والحيوانى كمصانع السكر وحلج الأقطان وطحن الغلال ودبغ الجلود وحفظ الأغذية وصناعة الالات الكهربية وصناعة الأسمنت وغيرها من الصناعات وعاصمة جمهورية قرغيزيا مدينة فروترى التى تقع على رافد صغير لنهر تشو قرب الحدود الشمالية ويبلغ عدد سكانها نحو نصف مليون نسمة ومن المدن الهامة الاخرى مدينة أوش ومدينة برزيفالبك وكيزدكيا وجلال أبو وتشتمل قرغيزيا على ما يقرب من ٤٤ مركزا حضاريا.

* * *

الفصل الثانى
الفتح الإسلامى لآسيا الوسطى وعوامل نشر الإسلام

الحياة الاجتماعية فى آسيا الوسطى قبل الفتح العربى

كان يقطن آسيا الوسطى عند قدوم الفاتحين العرب عناصر سكانية متعددة إيرانية وتركية وصينية ومغولية، وتشير المراجع الفارسية على أن التركيب الاجتماعى فى أسيا الوسطى قبل الإسلام، يغلب عليها العنصر الآرى، وقيل أن بخارى مثلا من أقدم المدن التى استقر بها الآريون ومن الثابت إن هناك مدنا إيرانية فى آسيا الوسطى أرسى قواعدها الإيرانيون إلى ما قبل عصر الدولة الاكمينية (٥٥٠ ق.م - ٣٣٠ق.م)، وسرعان ما تعرضت بخارى لغزو الاسكنر ثم صارت جزءا من دولة الباخذنيين (بلخ) ولما قدمت جماعات من الترك اقليم ما وراء النهر فى القرن السادس الميلادى واستولو على المدن الإيرانية نزل عدد منهم بخارى حيث استقروا فغلب عليها الطابع التركى.

ويذكر عطا ملك الجوينى فى "تاريخ جهانكشاى" على غلبة العنصر التركى الذى ساد بخارى قبل الفتح العربى، غير أن الطابع على الرغم من التمركز التركى المستبد بتلك النواحى قبيل ظهور الإسلام الامر الذى جعلة يعتقد ان أهل بخارى يعيدون من حيث الاصل إلى تلك الجماعات الإيرانية التى قدمت بخارى من اصطخر، وهناك إشارات فى المصادر ترجع نشأة اصطخر إلى ماقبل القرن الرابع الميلاد، وهو نفس التاريخ تقريبا الذى يؤرخ به المؤرخون الإيرانيون المحدثون لظهور الجماعات الإيرانية حيث كان العنصر الآرى، وكان للطابع الإيرانى أثرة البالغ فى الحياة الثقافية فى بخارى على مر العصور الإسلامية المتلاحقة.

كما ظهر الصينيون فى آسيا الوسطى وغيرها فى القرن السابع الميلادى، وإذ استولوا عليها واتخذوا فيها مراكز ثابتة.

وعلى كل حال فإن آثار اورخون التى تعتبر من أهم المصادر فى الكشف عن فجر تاريخ الترك فى أسيا الوسطى، تؤكد أنه فى النصف الأخير من القرن السادس الميلادى وأوائل السابع ظهر شعب جديد فى بلاد ما وراء النهر، وان الشعب اتخذ للمرة الأولى فى تاريخ هذا الإقليم اسم الترك، ومما يدعو إلى الدهشة أن النقوش الصينية تؤيد ما ورد فى آثار اورخون فى شأن ظهور العنصر التركى فى تلك النواحى، كما يؤيدها بنفس القدر النقوش البيزنطية، وكان من الطبيعى أن ينهض الترك نحو توطيد نفوذهم فى مواطنهم الجديد، فانفصلوا على يمر فترة زمنية قصيرة الأجل عن الأتراك الشرقيين، حيث أنشأوا فى بلاد ما وراء النهر سلسلة من الإمارات المستقلة.

واتخذت الحياة الاجتماعية فى آسيا الوسطى قبيل الإسلام مظاهر خاصة، ذلك أن تلك الفترة تعكس حياة البداوة التى استمسك بها الترك حينئذ، كما ساد المتجمع التركى التقاليد والأعراف القبيلة، وهناك من الآراء ما يذهب إلى القول بأنه كان فى بخارى فى ذلك الوقت تسعون أسرة تخضع لهذه الأحكام.

وتظهر تلك التقاليد بطبيعة الحال فى المناطق الجبلية والرملية فى بعض نواحى بخارى، الأمر الذى يفسر لنا ظاهرة العنف عند الأتراك، وتصف المصادر الترك فى تلك النواحى بأن باسه شديد وشوكتهم لا نظير لها، ورماة مهرة، الأمر الذى أسهم فى خلق انطلاقه جهادية تركية فى ظل الإسلام.

أما طابع البداوة الذى ميز المجتمع التركى فى آسيا الوسطى فيرجع فقد كان من مظاهره أن كان الناس فى البداية يعيشون فى الخيام ثم بنوا المنازل فى جهات عديدة صارت فيما بعد من جملة مدن بخارى فى ظل الإسلام.

والأمر الجدير بالإشارة أن النمط القبلى لم يكن - فى رأينا - مؤديا إلى ظهور بخارى وغيرها ككيان سياسى، مع تسليمنا تماما بوجود التقاليد القبيلة وتمسك الشعب التركى بها حتى بعد دخول العرب المسلمين بلاد ما وراء النهر، فهناك عوامل أخرى اقتصادية أسهمت بطبيعة الحال فى خلق ذلك الكيان السياسى الذى يحركه دوافع اجتماعية بالغة الخطورة كان لها أثر يغفل على المستقبل السياسى والدينى لتلك الجهات، فإلى جانب المناخ غير الملائم بالصحارى والجبال

التى تجاور بخارى فى بعض النواحى هناك مناطق أخرى لا يمكن إنكارها فى الجهات فى الجهات الشرقية من بخارى تشغلها الوديان والسهول، وهى مناطق صالحة للزراعة، فضلا عن الرواج التجارى الكبير والنزعة التجارية التى غلبت على عقول البشر بجهات كثيرة من بخارى، وهذه العوامل تقلص تماما النمط القبلى مع الحفاظ على هامشية قبلية لا تسهم بالضرورة فى خلق كيان سياسى مثل بخارى، ونستخلص من إشارات النرشخى التى أوردها نقر عن أبى الحسن عبد الرحمن النيسابورى أن العمل الجماعى فى إطار التحالف يعد أمرا ذا بال فى شأن ظهر أى كيان سياسى، وأما منا ظاهرتان متمايزتان جديرتان بالاعتبار أولاهما تبرهن على أن العملى الجماعى الذى أثبته المزارعون فى الجهات الشرقية من إقليم يقد أسهم إسهاما كبيرا فى بلوغ ذلك الإقليم أوج شهرته، بل أن المر لا يدعوا إلا الدهشة إذا قلنا أن هذا الدافع كان سببا فى تشكيل التركيب الاجتماعى فى تلك الجهات، وثانيهما أن "شيركشور" نفسه الذى ذكره النيسابورى لم يحظ بولاية بخارى الا بدافع التحالف الذى تم بين الدهاقين وأصحاب الأراضى وملك الترك "افراجورين" لتقليص نفوذ أمير بيكند، ولما نجحت الخطة منح "فراجورين" - هذا - بخارى إلى ابنه "شيركشور" فأوفد هذا الخير فى استحضار هؤلاء الأغنياء الذين لاذوا بالتركستان، وسرعان ما انتهى الأمر بعودتهم بزعامة "بخاراخذات"، ودخول الفقراء فى خدمته، وكان أكثرهم من خدمه وعبيده على حد قول النيسابورى.

ومما يجدر ذكره أن تلك الظروف الموضوعية التى أسلفنا الإشارة إليها أفرزت ظاهرة اجتماعية تنطوى على فجوة عميقة بين الدهاقين الذين كانوا يمثلون أرستقراطية زراعية مسطرة، ويرتبط بهم التجار ارتباطا كاملا وبين العامة، وحفلت الأرستقراطية الزراعية بمكاسبها، أبناؤها الصينيين - الذين دخلوا بخارى قبل قدوم العرب إليها - حفاظا على مصالحهم، وعرف عن الدهاقين فى بلاد ما وراء النهر أنهم استغلوا الولاء للصين فى كبح الحركات الشعبية، تثبيت سلطانهم وإنشاء أمارات تركية مستقلة.

ونستدل من المصادر أن الدهاقين فى نواحى آسيا الوسطى كانوا يحتلون مكانه اجتماعية لا مثيل لها فى أقاليم ما وراء النهر، فكان هؤلاء من كبار ملاك

الأراضى على مر فترة زمنية طويلة، وكان أغلب شعب بخارى مزارعيهم وخدمتهم.

وكان يربطهم بالصين روابط اجتماعية بلغت حد المصاهرة مما أسهم فى تثبيت أقدامهم فى بخارى، وكان الدهاقين الذين خضوا فى بخارى لبيدون بخار خدات يورثون أبناءهم تلك المكانة فهذه زوجة بيدون المعروفة "بالخاتون" تصل إلى عرش بخارى، وتظل عليه مدة خمسة عشر عاما حيث كانت تملك أكثر الضياع، وكان من عادتها أن تخرج كل يوم من حصن بخارى على ظهر جوادها، ة حيث تقف على أحد أبوابه، فتجلس على تخت (وأمامها الغلمان والخصيان والأشراف والحشم) وكان يقوم على حراستها كل يوم مائتا شاب يتمنطقون بالذهب، ومعهم سيوفهم الذهبية، وكانوا يستبدلون بغيرهم فى كل يوم، وهذا طغشادة ابنها إلى جاء من بعدها كان يمتلك الضياع، ويعطى كلا من أولاده وأصهاره حصة منها.

ونستخلص من كتابات الطبرى ما يفيد بأن ملوك بخارى الذين تبوأوا حكم بخارى من ملاك الأراضى كانوا يقتنون المعادن النفيسة فضلا عما كان فى حوزتهم من الذهب والفضة (مما لا يحصى).

وكان أبناء الأسرة الحاكمة فى بخارى يهتمون بالقصور، وتعكس هذه المنشآت المكانة الرفيعة التي كانت تميز هذه الأسرة، ويفهم من كلام الأصطخرى أن أبناء القصور فى بخارى ونواحيها كان عادة بحيث صار من السهل انتشار مثل هذا النوع من العمارة وسط البساتين بمحاذاة الأنهار التى كانت تربط إذ ذاك بين نواحى بخارى.

أما القصر الرئيسى، فكان يعرف بالقصر المدينة، وكان يضم فى داخلة مقرا للأسرة الحاكمة عرف عند النرشخى بالقصر الملكى، وقيل إن هذا القصر تهدم بعد بناه "بيدون بخار خداه"، فأعيد بناؤه ثم انهدم وهكذا مرار حتى استجمع الحكماء أمرهم (وصار الاتفاق على أن يبنى هذا القصر على سبعة عمد حجرية على شكل بنات نعش التى فى السماء فلم يهدم على تلك الصورة) وكانت تلك الفترة الزمنية لا تخلوا من الأسطورة، ومن ذلك أن القلعة - وهى القصر الكبير - استقامت،

ولم يهاجمها ملك من بعد إقامة هذه الاساطين الحجرية السبعة إلا وهلك عند أسوارها، بل لم ينهزم فيه ملك، ولم يمت فيه أحد - أيضا - من الملوك.

وكان ذلك القصر الكبير أشبه بقلعة محصنة منذ أن بناها سياوش بن كيكاوس في بخارى، فضلا عن أهميته الدينية، وكان في داخلة إلى جانب القصر الملكي الدواوين المالية وبيت الحريم والسجن والخزانه.

وبلغت مكانه ملك بخارى قبل الإسلام حدا كبيرا بحيث صار م اليسير على بخاراخدات الذيوع والانتشار على ما دونه من ملوك ما وراء النهر، وهكذا عرفت بخارى عند المؤرخين الارانيين المحدثين الذين أرخوا لتلك الفترة بأنها مستقر ملك الشرق.

ومن الملاحظ أن أمراء بخارى كانوا يقطنون ضاحية القصر التى كانت تضم أيضا قصرا يخص الأمراء والدهاقين، الأمر الذى يؤكد أن طبقة كبار الملاك من الدهاقين النبلاء والتى يعود إليها من حيث الأصل والنشأة الأسرة الحاكمة فى إقليم بخارى يحفلون بأماكن النزهة فيرتادونها فى فصل الشتاء، وكانت رامثين من نواحى بخارى ملتقى أبناء الأسرة الحاكمة فى هذه الفترات.

أما المدينة نفسها فكان يحيط بها سور محكم تتوسطه قلعة بخارى، وكانت من حيث التصميم تميل إلى الشكل المربع، كما كان لهذة المدينة سبع بوابات حديدية، فى حين كان للقلعة بابان، وللضاحية عشر مداخل، وكان للدهاقين والأمراء بهذه الأقسام الرئيسية الثلاثة فى بخارى مراكز ثابتة؟ على أن القلعة يكنى الأسرة الحاكمة.

وكان للأسرة الحاكمة فى بخارى صلات معروفة بآل ساسان، وكانوا يعاملونهم بما ينطوى على الود، وعرف عن بخارا خداة أنه يفيض كرما إذا ما قدم عليه أحد من أبناء كسرى، وكثيرا ما كان يجول عطاءه عليه، ويحكى عنه أنه استقبل فى يلاطه من بين هؤلاء "شابور" وأقطعه مكانا حيث حفر فيه نهرا عظيما واسماه باسمه "شابور كام".

ولم يخف بخاراخداه إعجابه بشابور وظل حاميا له، الأمر الذى كان من شأن هذا الأخير أن تطاول فى البنيان، وهكذا أقام على ذلك النهر قصرا ورساتيق

وقرية، وجعل لنفسه مقرا، وظل مقيما بذلك المكان حتى توارثه أبناؤه من بعده، غير أنه سرعان ما دبت الواقعية فيما بين طغشاده حاكم بخارى وبين وردان خداه ابن شابور زعيم طائفة الفرس فى بخارى، وأفاد العرب من ذلك كثيرا عند قدومهم بخارى.

والحق أن ما أسلفناه يعكس تفككا سياسيا فى بخارى قبيل قدوم العرب لفتح هذه النواحى، كما أن الترابط الاجتماعى بين الدهاقين والأمراء الذى لمسناه فيما أسلفنا لا يتبعه بالضرورة ترابط سياسى بين هاتين الفئتين، ذلك أن الصراع الداخلى كان قد غلب على ديار الأتراك، وألقى بها فى هوة من الفوضى وعرف ذلك التفكك السياسى بين الدهاقين والأمراء بشكل عام فى بلاد الترك.

الحياة الثقافية فى آسيا الوسطى قبل الفتح العربى

مما لا شك فيه أن الظروف البيئية والسياسية أسهمت فى إبراز نشاط ثقافى فى بلاد ما وراء النهر، فالحياة الثقافية تعكس التطورات السياسية التى شهدتها بخارى وغيرها، فضلا عما تنطوى عليه من آثار أفرزتها العوامل الجغرافية، فالشعب التركى فى بخارى بحكم موقعه كان يستقبل تيارين ثقافيين أولهما - وفق التسلسل الزمنى ومدى تأثير العامل البيئى - تيار وافد من إيران، وثانيهما، من الصين، وكان لهذين التيارين أثر بالغ التأثير فى تطور الحياتين الثقافية والدينية فى إقليم بخارى.

كان طبيعيا أن يكون لغلبة العنصر الارى على بخارى منذ القدم، أثر فعال فى رواج اللغة الفارسية وانتشار العادات الإيرانية، وأورد الاصطخرى ما يفيد أن اللغة الفارسية قد راجت فى بخارى قبيل الإسلام لكن تختلف عن لغة الصغد، حيث تفاوت قليلا لقيام الشعب بخارى بتحريف بعض الكلمات، أما أزياؤهم فكان يغلب عليها - أيضا - الطابع الإيرانى السائد فى بلاد ما وراء النهر، فاعتادوا على استخدام الأقبية والقلانس.

وواكب ظهور العنصر التركى فى بخارى منذ القرن السادس الميلادى ظهور لهجة تركية بخارية إلى جانب اللغة الفارسية لكن الآداب والرسوم الإيرانية ظلت

غالبة في بخارى، وأقبل عليها الشعب البخارى، ويلمس المؤرخون الفرس وجود هذه الظاهرة حتى وقتنا الحاضر.

ويتجلى أثر العامل الجغرافى فيما انطوت عليه الحياة الثقافية فى بخارى من مؤثرات دينية وافدة بدافع من النفوذ الإيرانى ثم الصينى، فالديانة الزرادشيته فى بخارى تعكس أثرا إيرانيا واضحا فى حياة الناس، فيذكر النرشخى أن رجال الدين الزرادشت (مغان) كانوا يحترمون قلعة بخارى تخليدا لسياوش "ابن الملك الأسطورى كيكاس ملك إيران، حيث فو من والده وعبر نهر جيحون ولقى جيحون لقى ترحيا من أفراسياب ملك الترك الذى رحب به وزوابنته وأعطاه مملكته، وطالبه بتخليد شيء، فأنشأ له هذه القلعة، وظل بها إلى أن دفن فيه بعد مقتله بتدبير من أخى أفراسياب.

ومما قيل أن لأهل بخارى فى ذكرى مقتل "سياوش" يوم حزن من ذلك موسما صار معمولا به فى كافة قرى ومدن بخارى، وعرفت هذه النياحات (بنواح المجوس)، وقيل أنه بسبب إجلال المجوس لهذه الذكرى كان رجل ينحر عند القلعة تخليدا لهذه الذكرى ديكا ضمن ما يقدمه من نذورات قبل (طلوع الشمس النوروز).

وكانت المجالس الاجتماعية التى أقدم عليها ملوك قبل الإسلام تنطوى على نزعة زرادشتية، فكانت خاتون زوجة بيدون بخارا خداه تعتاد على الخروج كل يوم من حصن بخارى إلى أن تصل إلى باب المعبد (ريكستان) حيث يعتقد مجلس اجتماعى يشارك فيه الغلمان والخصيان والأشراف والحشم، وعند الفراغ من المجلس تقف الخاتون أمام نفس الباب، (فتخلع على من تريد وتعاقب من ترديد)، وعند المساء توالى الخاتون عقد المجلس على باب المعبد من غروب الشمس، وهكذا تتكرر الظاهرة فى اليوم التالى.

وانتشرت - بطبيعة الحال - بيروت النار فى بخارى وقراها، وكان البخاريون يوقدون النيران على ما جرت به العادة منذ القدم قبل بدء كل عام جديد وحلول الربيع، ويحكى عن آل كشلة من المجوس، أنهم كانوا ينتشرون بيوت النار فى بخارى، ولما قدم العرب نقلوها إلى خارج المدينة.

ويذكر الجوينى أنه كان يوجد ببخارى معابد للبوذية، وأورد ما يفيد إن بخارى مشقة من بخار وهى بلغة (المعان) رجال الدين الزرادشت "مجمع العلوم" وتقترب هذه الكلمة من كلمة معبد الايغور والخطأ.

ووردت كلمة بخارى فى رحلة السائح الصينى "هوان جوانك" Huan cuangالذى قام برحلته إلى هذه النواحى سنة ٦٣٠م باسم بو هو pu Ho) الذى هو مأخوذ من اسم بخارى المعروف فى اللغة التركية، واصله بخار المأخوذ من السنسكريتية "دهار" (Vehara) وتعنى الصومعه أو الدير.

كذلك كان للبوذية رواج كبير يذكر فى تلك النواحى، ويرجع ذلك إلى أثر انتشار نفوذ الصين بين أتراك الشمال (١٦٣ ق. م - ١٩٦)، ويعتقد المستشرق فامبرى أن العقائد البوذية قد وجدت لها أتباعا على ضفاف زوفشان فى القرون المسيحية الأولى.

وكان لاتصال بخارى بالصين منذ القدم أثره الفعال فى الترويج للبوذية خلال تلك الفترة، ويحكى عن (اسكجكت)، أن أحد ملوك بخارى الأقدمين كان قد تزوج بابنة خاقان الصين، فحمل إليه ضمن ما حمل معها معبدا وأوثانا وضعت فى رامثين من توابعلا بخارى، وقد حظت هذه الناحية بعناية الملوك، فاهتموا بتضحيتها حيث اتخذها الأمراء مقاما لهم لما لها من أهمية دينية، وكانت بيكند على تلك الحال من الأهمية، لما بها من المعابد البوذية.

وظلت البوذية فى بخارى وما جاورها قائمة إلى أن إدراكها العرب الفاتحون، ويحكى البلاذرى أنه حين قدم العرب إلى البتم أصابوا أصناما من ذهب.

ويتجلى لنا رواج البوذية فيما ظهر بنواحى بخارى من أسواق لبيع الأصنام، ويذكر النرشخى أنه كان يقام قبل الإسلام فى بخارى سوق "ماخ" لبيع الأصنام مرتين فى كل عام ولمدة يوم واحد كل مرة، فكان يباع منها ما يربو قيمته على خمسين ألف درهم فى اليوم الواحد.

والحق أنه على الرغم من مكانة رجال الدين الزراشت بين الشعب البخارى مرت فترة زمنية طويلة، إلا أن الأثر الصينى كان من شأوه أن يروج للبوذية بين

الإراد السلطة الحاكمة إبان حكم أسرة هان الصينية (١٦٣ق.م - ١٩٦م) وظل ذلك الأثر قائما إلى أن اشتد عوده) بطبيعة الحال فى القرن السابع الميلادى باستيلاء الصينيين على بخارى، مما يعكس لنا نضالا دينيا بين البوذية والزراشتية فى بخارى - بالذات - جاء مقرونا بصراع آخرعرقى شديد الوطأة بين شعبين (التورانيون) - و(الإيرانيون)، وكان ذلك الأخير أكثر ضراوة ويؤيده قيام الإيرانيين فى حمية طبيعية دفاعا عن ديانتهم القومية، وكان لذلك الصراع أثره فى ظهور تفكك سياسى أفاد منه العرب الفاتحون كثيرا.

ولا يخفى علينا أن النضال بين البوذية والزراشتية فى بخارى قد فتح للجهود التبشيرية المسيحية القادمة بابا يسهل اختراقه، ونأخذ فى هذه السياق بالتحليل الذى قدمه فامبرى والذى انتهى إلى أن مطاردة الامبراطورية البيزنطية للنساطرة المنشقين على الكنيسة فى القرن الرابع الميلادى بسبب الخلافات المذهبية قد دفعت بهؤلاء إلى الهروب إلى الشرق لكسب عطف الساسانيين، الأمر الذى أسهم فى خلق مناخ صحى نفذوا من خلاله مستغلين ذلك الاصطدام بين البوذية والرزتادشتية، وهيأوا لجهودهم التبشيرية مجالا واسعا فى بخارى قبل الإسلام، غير أن ظهورها فى سمرقند كان يسبق بخارى حيث ظهرت الاسقفيات البابوية فى القرن الخامس الميلادى وسرعان ما كتب للمسيحية الرواج فى القرن السادس الميلادى، وأورد النرشخى ما يفيد أن الغرباء الذين تدفقوا على بخارى أسهموا فى الدعوة إلى هذه الديانة قبل قدوم العرب، وأن العرب أدركوا الكنائس بداخل المدينة حين قدموا إليها بقصد الفتح.

وصفوة القول، أن الشعب التركى قد قاسى على مر فترة زمنية قبل الإسلام من أزمات سياسة وتفككت وحدته الاجتماعية على أثر سيطر تبار الملاك (الدهاقين) وكبار التجار، فضلا عن افتقاره إلى الوحدة المذهبية الأمر الذى من شأنه أن ييسر على العرب الفاتحين أمر فتح هذه البلاد.

أولا: الحكم بن عمرو الغفارى:

تولى الحكم بن عمرو الغفارى خراسان من قبل زيادة بن أبى سفيان حاكم العراق، فتقدم فى هذه البلاد فاتحا العديد منها، وما أن افتتح الجوزجان حتى

أرسل قواته إلى طخارستان وجبال الغور، ثم إلى نهر جيحون عابرا إياه متقدما بقواته حتى منطقة الصغانيان، فطارد هناك فيروز بن يزدجرد الذى فر هاربا إلى أرض الصين شرقا. ولم يلبث الحكم إن وافته المنية بع هذا الدور الملحوظ.

ثانيا: الربيع بن زياد الحارثى:

بعد موت الحكم بن عمرو الغفارى وتولى خليد بن عبد الله خراسان، عزل الأخير وتولى أمرها الربيع بن زياد الحارثى، فواصل الربيع جهود سابقية بعد أن افتتح بعض بلدان خراسان إلى نهر جيحون عابرا إياه إلى أرض الصغانيان، ولقد اكتسب الربيع من هذه البلاد أموالا كثيرة اعتق على أثرها مولاه فروخا ثم وافته المنية فعين زياد بن أبى سفيان خليد بن عبد الله الحنفى على خراسان.

ثالثا: عبيد الله بن زياد:

فى عام ٥٤هـ، ٦٧٣م عين معاوية بن أبى سفيان عبيد بن زياد على خراسان، والحق يقال أن هذه التعيين كان فاتحه عهد للفتوح الإسلامية فى بلاد ما وراء النهر، إذ اتخذت هذه الفتوح شكلا اقترب من الثبات.

ولا أدل على ذلك من قيام عبيد الله بن زياد بعبور جيحون إلى مدينة بيكند القوية الغنية فافتتحها، ثم واصل زحفه بجيشه الكبير إلى مدينة رامشين فافتتحها أيضا وهما من أعمال بخارى، واتجه بعد ذلك إلى مدينة بخارى نفسها وتمكن بعد معركة فاصلة بينه من جهة وبين قوات الخاتون حاكمة بخارى ومعها الأتراك الشرقيون من جهة أخرى أن ينتصر عليهم عام ٥٤هـ، ٦٧٣م ويغنم الميامون على أثر ذلك غنما كثيرا.

رابعا: سعيد بن عثمان بن عفان:

فى عام ٥٦/ ٦٧٥ عزل معاوية بن أبس سفيان [illegible] الله بن زياد عن خراسان وولاها سعيد بن عثمان بن عفان، فحاول الأ[illegible] على سمرقند، لكنه كان لزاما عليه أن يواجه قبل ذلك قوة [illegible] التى كانت تدفع جزية إلى عبيد الله بن زياد عن خراسان ورأت [illegible] من أتراك الصغد وكش ونسف تشد من أزرها إلا وأغ[illegible] الصلح

ومن هنا كان لابد من الصراع بينهمت وبين سعيد، وبالفعل حدث هذا وتمكن سعيد من الانتصار عليها وعلى حلفائها كما أكد ذلك.

وعلى أثر هذا الانتصار تمكن سعيد بن عثمان من إقرار الأوضاع فى بخارى، ثم توجه بعد ذلك إلى سمرقند حتى رمى قهندزها، ودار قتال لمدة ثلاثة أيام حاصر فيها سعيد سمرقند حصارا جادا فطلب أهل سمرقند عندئذ الصلح مع سعيد فأجابهم إلى ذلك.

ولاهمية الموقع الاستراتيجى لمدينة (الترمذ) على نهر جيحون توجه إليها سعيد بعد هذا الصلح، وعمل سعيد بعد دوره الملحوظ فى بلاد ما وراء النهر على العودة إلى العراق.

وعندئذ طلبت منه الخاتون وبعد عبوره جيحون أمهلها حتى يصل مرو، أمهلها حتى دخوله نيسابور وبعد ذلك أمهلها حتى يأتى الكوفة، وأخيرا استخدم هؤلاء الرجال فى خدمة المسلمين فأدى هذا الصنيع إلى حقدهم عليه وغدرهم به وقتله.

وهكذا رأينا كيف كان لكل من عبيد الله بن زياد وسعيد بن عثمان بن عفان دور متميز فى فتح بلاد ما وراء النهر، لكن هذا الدور أصابة الفتور بعد أن تولى أمر خراسان رجال ضعاف منهم من كل متخاذلا مثل (أسلم بن زرعه) الذى لم يغز أو يتقدم مرة فى بلاد ما وراء النهر، ومنهم من كان جشعا (كعبد الرحمن بن زياد)، وقد حدث ذلك فى أواخر عهد معاوية بن أبى سفيان.

وما أن تولى يزيد بن معاوية أمر الدولة الإسلامية عام ٦٠هـ حتى عادت الغازات الثغرية إلى سابق عهدها واضطلع بهذه المهمة سلم بن زياد والى خراسان:

خامسا: سلم بن زياد:

فى عام ٦١هـ/ ٦٨٠م تولى (سلم) أمر خراسان فعبر جيحون بعدد كبير من الجند على رأسهم قواد مثل المهلب بن أبى صفرة، وعبد الله بن خازم السلمى، وطلحة بن عبد الله الخزاعى وغيرهم.

وقد تمكن سلم من عقد لصلح مع أهل خوارزم مقابل أربعمائة ألف درهم،

بعدها أرسل أحد قواده المهلب بن أبى صفرة على رأس جيش إلى بخارى، أردفه بجيش آخر، ودار القتال بين المهلب وبين الخاتون وحلفائها وكان النصر حليف المهلب، فطلبت الخاتون الصلح مع زياد فأجابها إلى طلبها، وجدير بالذكر أن بعض المصادر العربية والأجنبية تشير إلى تقدم بعض قواته إلى مدينة حجندة على شاطئ نهر سيحون.

وهكذا رأينا ذلك الدور المتميز لسلم بن زياد وقواته فى بلاد ما وراء النهر، وإن كان الأستاذ فامبرى يرى فى كتابه تاريخ بخارى أن انتصار سلم على الأتراك يرجع إلى حسن الطالع، فإننا نخالفه رأيه لأن العرب لو كانوا يؤمنون بحسن الطالع لما انهزمت قوات سلم فى أول المعركة، ولما كان النصر قد أتى فى نهايتها بعد إمداده بالجيوش، فالمعارك لا تكسب بحسن الطالع بل بالإعداد والاستعداد الذى يعتمد على الإيمان والتمسك بالدين والثبات فى ميدان القتال عملا بقول الله تعالى: "يا أيها الذين امنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون".

عاد سلم بعد دوره المتميز فى بلاد ما وراء النهر إلى مرو بخراسان، أعقب ذلك مرو الدولة الإسلامية ببعض الاضطرابات نتيجة موت يزيد بن معاوية وولاية معاوية الثانى الضعيف، واندلاع الحروب الأهلية، وعصيان ابن الزبير، وبموت معاوية الثانى انتهى حكم البيت السفيانى ليخلفه فى السلطة البيت المروانى وعندئذ بدأت فتوح ما وراء النهر تتواصل مرة ثانية بولاية أمية بن عبد الله خراسان.

سادسا: أمية بن أبى عبد الله:

فى عام ٧٧هـ/ ٦٩٦م تولى أمية بن عبد الله خراسان فقاد حملة إلى خوارزم من بلاد ما وراء النهر، اتجه بعدها إلى بخارى، وعرج من بخارى على فافتتحها، ثم عاد إلى مرو بخراسان لاضطراب الأوضاع بها.

سابعا: المهلب بن أبى صفرة:

فى عام ٧٨هـ/ ٦٩٧م عين الحجاج والى العراق من قبل عبد الملك بن مروان المهلب بن أبى صفرة على خراسان فواصل المهلب الغارات الثغرية على بلاد

ما وراء النهر، ففى عـام ٨٠هـ/ ٦٩٩، دخل إلى هذه البلاد ما ببلدة (زم) وصلا إلى مدينة (كش) التى اتخذها قاعدة حربية تنطلق منها قواته تحت قيادة أبنائه.

يؤيد ذلك إرسال ابنه يزيد لفتح الختل، وبعد صراعه الطويل مع ملك الختل تمكن يزيد من عـقـد صلح نال بمقتضـاه الفـدية، كمـا أن المهلب تمكن من فـتح (خجنده) فأدت الصـغر إليه الاتاوه، وأرسل بنه حبيبـا على رأس حملة إلى مدينة (ينجن) قرب بـخارى، عاد بعـد ذلك حبـيب إلى أبيه وهو بيكش فـوجده بكش فوجده ينتوى العودة إلى مرو بعد قضاء عامين فى بلاد ما وراء النهر، وحين وصل إلى بلده (زغلول) وافته المنية ليـخلفة فى حكم خراسان ابنه يزيد الذى لم يلبث آن غزا خوارزم وأصاب منها سبيا كثيرا.

وفى عام ٨٥هـ/ ٧٠٤م عزل الحجاج يزيد بن المهلب عن خراسان وولاها لأخيه المفضل فافتتح منت بلاد ما وراء النهر باذغيس وآخرون وشومان وغيرها.

وهكذا رأينا فى ذلك الدور الفعال الذى قام به المهلب وبنوه فى فتح بلاد ما وراء النهر وما أن أتى عام ٨٦هـ/ ٧٠٥م حتى عزل الحجاج المفضل بن المهلب عن خراسان وولاها لقتيبة بن مسلم الباهلى، ليبدأ عهد جديد من الفـتوح الإسلامية المستقرة لبلاد ما وراء النهر والتى تجاوزت حـدودها إلى مدينة كاشغر بالصين فإلى دور هذا القائد.

الفتح المستقر

فتوحات قتيبة بن مسلم فيما وراء النهر

ولى قـتيبـة خراسـان من قبل الحـجاج بن يوصف الثـقفى - والى الـعراق والمشـرق كله - وكان ذلك سنة ٨٥هـ، /م على الأرجح، بعـد عزل المفـضل بن المهلب.

وكان اختيار الحجاج لقتيبة لولاية خراسان اختيار موقفا وجاء فى موعده فقد كان الرجل من الأبطال الـشجعان، ذوى الحـزم والدهاء والفناء، ويعتـبر بحق من كبار القادة الفاتحين الذين أجبنهم الأمة العربية، وعرفهم التاريخ الإسلامى.

ففى خلال حـوالى عشر سنوات ٨٦ - ٩٦/م فتـح أقاليم شاسعـة فى آسيا الوسطى، وهدى الله على يديه خلقا كثيرا، فأسلموا ودانوا لله عز وجل.

وقد شرف الله تعالى قتيبة بحمل راية الفتوحات الإسلامية فى بلاد ما وراء النهر فى وقت ملائم تماما، فقد استفاد من جهود كل من سبقوه، وكان يعتمد بعد الله تعالى على والى العراق العظيم الحجاج بن يوسف الثقفى الذى اختاره لهذه المهمة الجليلة ووضع ثقته فيها، ولم يقتصر فى إمداده بالرجال والعتاد والرأى والمشورة، كما كان من حسن حظ قتيبة إن ولايته على خراسان واضطلاعه بقيادة الفتوحات فى بلاد ما وراء النهر قد جاءت فى وقت ملائم تماما حيث كانت الدولة الأموية قد تغلبت على جميع مناوئيها، واستقرت أمورها واستردت عافيتها، فى خلافة الوليد بن عبد الملك ٨٦ - ٩٦هـ/ ٧٠٥ - ٧١٤م فاجتمعت لقتيبة شجاعة القائد وإقدامه وعزم الوالى وتصميمه، وقوة الدولة واستقرارها، فكانت أمجاده وأعماله الرائعة فى ما وراء النهر.

ولقد برهن قتيبة بن مسلم على أنه لم يكن قائدا عسكريا فذا وفاتحا عظيما فحسب، بل أنه كان رجل إدارة وتنظيم وسياسة من الطراز الأول وأنه كان يعرف طبيعة المهمة التى أوكلت إليه، كما أنه يعرف كل شيء عن خراسان القاعدة التى ستنطلق منها الغزوات - والتى كانت رياح بالخلافات والعصبيات العربية قد هبت عليها، من جراء التنافس على الولاية الناصب الأخرى بين أبناء القبائل العربية - خاصة اليمن وقس - فكان على قتيبة قبل إن يمضى إلى تنفيذ كمشروعه الكبير لفتح ما وراء النهر - أن ينسى العرب خلافاتهم ويجعلهم يرتفعون فوق العصبيات، ويذكرهم برسالتهم السامية التى أكرمهم الله بها وشرفهم بحملها، وأن يمدهم نفسيا لاستئناف الجهاد فى سبيل الله.

فما أن وصل خراسان حتى اجتمع برؤساء القبائل وأعيان الناس، وخطب فيهم خطبية بليغة، كان لها أبلغ الأثر فى جمع الكلمة، والتوجه للجهاد فى سبيل الله بدلا من ضياع الوقت والجهد فى المنازعات والخلافات القبلية التى لا طائل من ورائها.

وكان مما قالها قتيبة فى خطبته تلك، مخاطبا زعماء القبائل: "إن الله أحلكم هذا المحل ليعز بكم دينيه، ويذب بكم عن الحرمات، ويزيد بكم المال استضافة، والعدو وقما - أى ذلا " ووعد نبيه ﷺ - النصر بحديث صادق

وكتاب ناقط فقال تعالى: «هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون» ووعد المجاهدين فى سبيله أحسن الثواب وأعظم الذخر عنده، فقال تعالى: «ذلك بأنهم لا يصيبهم........ أحسن ما كانوا يعملون» ثم أخبر عمن يقتل فى سبيل الله أنه حى مرزوق فقال تعالى: ولا تحسبن الذين قتلوا....... ربهم يرزقون* فانجزو موعد ربكم، وظنوا أنفسكم على أقصى أثر وأمضى الم، وإياى والهوينى*.

بهذه الخطبة البلغية ذكر قتية العربى برسالتهم ومسئوليتهم عنها وأهاب بهم أن يوطنوا أنفسهم على تحمل المشقات فى سبيل الله، كما فعل أسلافهم من قبل، حتى يفوز وا مثليهم بسعادة الدنيا والآخرة.

وكما نجح قتيبة فى توحى صفوف العرب فى خراسان تحت راية الجهاد فى سبيل الله فقد نجح فيلا كسب ثقة الخراسانين وودهم، حيث قربهم إليه وأسند إليهم الوظائف الإدارية وضمن بذلك تعاونهم معه، وكان كل ذلك مقدمة ضرورية وسليمة لتحقيق هدفه الكبير، وهو فتح بلاد ما وراء النهر.

خطوات الفتح ومراحله:

استغرق فتح بلاد ما وراء النهر بحوالى عشر سنوات ٨٦ - ٩٦هـ/ ٧٠٥ - ٧١٤م ومر عبر أربع مراحل رئيسية نوجزها فيما يلى:

المرحلة الأولى

استغرقت عاما واحدا تقريبا ٨٦ - ٨٦هـ / ٧٠٥ - ٧٠٦م، وفيه أخضع قتيبة إقليم طخارستان ذلك الإقليم الكبير الذى يقع على ضفتى نهر جيحون، والذى يبدوا إن أوضاعه لم تستقر تماما للمسلمين، طوال السنين الماضية، منذ فتحه الأحنف بن قيس، فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه.

فكان على قتيبة أن يخضع ذلك الإقليم للسيادة الإسلامية قبل عبور النهر وفيما يروى البلاذرى والطبرى، فإن قتيبة بعد أن استتبت له الأمور فى خراسان استخلف عليها إياس بن عبد الله بن عمر، وسار هو رأس قواته إلى طخارستان، فلما بلغ الطالقان تلقاه دهاقين بلخ وعظمائها، فساروا معه فلما قطع النهر تلقاه

تيش الأعور ملك الصغانيان بهدايا ومفتاح من ذهب فدعاه إلى بلاده، وأتى ملك كفنان بهدايا وأموال، ودعاه - أيضا - إلى بلاده، فمضى مع تيش إلى الصغانيا فسلمه بلاده، ثم جاء غشتاسبان ملك أخرون وشومان، وهما من طخارستان، فصالحه على فدية أداها إليه فقبلها قتيبة ورضى ثم انصرف إلى مرو وهما من طخارستان، واستخلف على الجند أخاه صالح بن مسلم، يفهم من رواية الطبرى والبلاذرى كليهما أنه أصبح لقتيبة هيبة عظيمة فى تلك البلاد وأن طخارستان خضعت له دون قتال، وإن ملوك وأمراء بلاد ما وراء النهر هرعوا إليه يقدمون الهدايا وقروض الطاعة ويدعوه على بلادهم ويسلمونها إليه، ولكن الطبرى نفسه يروى رواية أخرى، وإن كانت بصيغة المبنى للمجهول يفهم منها إن قتيبة لقى حربا، فهو يقول" وقيل إن قتيبة أقام قبل إن يقطع النهر فى هذه السنة ٨٦هـ/ ٧٠٥م على بلخ لأن بعضها كان متقضا عليه فحارب أهلها ثم إن أهل بلخ صالحوا من غد اليوم الذى حاربهم فيه قتية.

وعلى كل حال لا يبدوا الخلاف كبيرا بين الروايتين لأن أهل بلخ لم يكونوا ملحين فى حربهم قتيبة، بدليل أنهم صالحوا من غد اليوم الذى حاربوه فيه، والنتيجة أن طخارستان خضعت طوعا، أو صلحا بعد قتال يسير، وأن قتيبة اطمأن إلى أوضاعها، ويدأ يتأهب لبدا جهاده الكبير فيما وراء النهر.

المرحلة الثانية ٨٧ - ٩٠هـ/ ٧٠٦ - ٧٠٨م:

بدأ قتيبة أو خطواته لفتح ما وراء النهر سنة ٨٧هـ، فعبر النهر واتجه إلى مدينة بيكند - وهى أدنى مدائن بخارى إلى النهر - والتى كان المسلمون قد غزوها مرارا كثيرة - قبل قتيبة فلما نزل بعفوته - على حد تعبير الطبرى - استنصروا الصغد واستنجدوا من حولهم، فأتوهم فى جميع كثير وأخذوا بالطريق، فلم ينفذ لقتيبة رسول ولم يصل إليه رسول ولم يجز خبر شهرين بين، وأبطأ خبره على الحجاج فأشفق الحجاج على الجند فأمر الناس بالدعاء لهم فى المساجد وكتب بذلك إلى الأمصار، وهم يقتتلون كل يوم فكانت بين الناس مشاولة القتال بالرماح ثم تزحفوا والتفتوا، وأخذت السيوف مأخذها وأنزل الله على المسلمين الصبر، ثم منح الله المسلمين أكتافهم فانصرفوا يريدون المدينة، اتبعهم المسلمين فشغلوهم عن

الدخول فتفرقوا وركبهم المسلمون قتلا وأسرا كيف شاءوا، واعتصم من دخل المدينة بالمدينة وهو قليل - فوضع قتيبة الفعلة فى أصلها ليهدمها، فسألوه الصلح فصالحهم واستعمل عليها رجلا من بنى قتيبة.

هذا هو تلخيص الطبرى لمعركة الاستيلاء على مدينة بيكند، التى لم يلبث أهلها أن نقضوا الصلح، وقتيبة منهم على خمسة فراسخ، مما اضطره إن يرجع إليهم وأن يقتل من كان بها وأن يغتنم غنائم كثيرة، قوى بها أمر المسلمين اشتهروا السلاح والخيل وتنافسوا فى، فانظروا لأنفسكم، فاستجاب هؤلاء الملوك، واختاروا عددا من أهل النجدة والباس من أبناء المرازبة والاساورة والأبطال، ووضعوا لهم خطة لمفاجأة معسكر المسلمين - أثناء أشغالهم بحصار سمرقند - ولكن قتيبة لم يكن بالقائد الذى يؤخذ على عرة، ولم يغب عن فكرة حدوث مثل هذه المفاجات، فعلم بخبر هذا التجمع، وفاجأهم قبل أن يفاجئوه، بفرقة من جيشه بقيادة أخيه صالح بن مسلم فهزمهم وبدد شملهم وقتلهم ولم يفلت منهم إلا الشريد وغنم المسلمون امتعتهم وأسلحتهم وتدهورت مقاومات الصغد بعد أن رأوا معنوياتهم، وقرر قتيبة منهم تشديد الحصار على سمرقند، ونصب عليها المنجنيق وأحدث بها ثقبا وصاح كالأسد المصهور:

(حتى متى يا سمرقند يعشش فيك الشيطان إنى والله لئن أصبحت لا حاولن من أهلك أقصى غاية)، فلما أصبح أمر الناس بالجد فى القتال فقاتلوهم واشتد القتال، ولما رأى أهلها أن هزيمتهم أصبحت حتمية طلبوا الصلح، فصالحهم قتيبة عل ألفى آلف ومائتى ألف مثقال كل عام، وأن يعطوه فى تلك السنة ثلاثين ألف رأس، وأن يخلوا المدينة فلا يكون لهم فيها مقاتل، فيدخلها ويبنى فيها مسجدا ويخطب ويخرج، وبالفعل دخل المينة وحطم ما بها أصناما ولم يعبأ. بتخويفه منها، حيث قال له أحدهم: لا تتعرض لهذه الأصنام فإن ما بها أصناما من أحرقها أهلكته، فقال: أنا أحرقها بيدى فأمر إشعال النار، وكبر ثم أحرقها، فوجدا من بقايا مسامير الذهب خمسين مثقالا وهكذا بسط قتيبة السيادة الإسلامية على كل إقليم ما وراء النهر ثم عاد إلى مرو ليستريح ويريح استعداد لجولته الأخيرة التى سيفتح فيها المناطق السيحونية.

المرحلة الرابعة ٩٣ - ٩٦هـ/ ٧١١ - ٧١٤م

رأينا فى الصفحات السابقة اشتراك أهل فرغانة والشاش فى حرب المسلمين إلى جانب الصغد الذين حرضوهم على المسلمين وخوفوهم منهم قالوا " إن العرب إن هزمونا عادوا واستولوا على بلادكم، الأمر الذى جعل من الحتم على قائد حصيف مثل قتيبة إلا ينتظر حتى يهاجموه، فقرر إن يكون زمام المبادرة بيده دائما، ففى سنة ٩٤هـ / ٧١٢ عبر نهر سيحون ولأول مرة، ومعه قوات هائلة منها أربعة وعشرون ألفا من أهل بخارى وكش وخوارزم، فوجه قسما منهم إلى الشاش وتوجه هو على القسم الآخر إلى فرغانه، فخاض معركة شرية حول مدينة خجندة ويبدوا أن نتيجة المعركة لم تكن حاسمة لأن قتيبة توجه إلى كاشان قبل أن يحسم أمر خجندة، وهناك أتاه جنوده الذين كان أرسلهم إلى الشاش، ومن الواضح أنه التقى بقوات من العراق، بل أمر محمد بن القاسم الثقفى إن يوجه إليه أيضا مدادا من السند فاحتج قتيبة إلى إمدادات من العراق والسند فوق ما معه من قوات كبيرة بعكس المقاونة الشرسة التى لقيها فى إقليم سيحون، وأنه كقائد عسكرى ممتاز لم يشأ يخوض معهم المعارك الحاسمة إلا بعد أن يضمن التفوق عليهم حتى يتحقق له النصر وقد نجحت خطط قتيبة وفتح إقليم الشاش وفرغانه سنة ٩٥هـ ٧١٣م ومن حسن حظ قتيبة، بل من حسن حظ الإسلام إن تمكن قتيبة من تحقيق هذا الإنجاز الهائل ومكن لدين الله فى تلك البلاد، قبيل موت الحجاج، الذى توفى فى هذه السنة سنة ٩٥هـ/ ٧١٣م، وقد أثر موت الحجاج على قتيبة تأثيرا كبيرا، فهو الذى كان يقف خلفه يشده من آزره بكل عزم وتصميم وأهم من هذا كله الثقة الكبيرة بين الرجلين والتى هى من أهم عوامل النجاح يقول الكريزى:

"وحينما سمع قيبة بموت الحجاج اغتم غما شديدا"

ولقد حزن حزنا عيمقا على موت قائده الكبير الحجاج، وتمثل بهذين البيتين من الشعر فقال:

لعمرى النعم الفتى من آل جعفر ... بجوار إن أمسى أعلقته الحبائل

فإن تحى لا أملل حياتى وإن تمت ... فمات فى حياة بعد موتك طائل

موقف الخليفة الوليد من قتيبة:

بعد إن أتم قتيبة فتح إقليم الشاش وفرعانه عاد إلى مرو عاصمة خراسان، وانتظر ما تأتى به الأيام بعد موت الحجاج، ولقد كان الخليفة الوليد بن عبد الملك يعرف طبيعة العلاقة بين الحجاج وقتيبه، وأنه يعرف قدر الرجلين، وان الثقة المتبادلة بينهما والتعاون كانت له ثمار طيبة وكان فى مصلحة الإسلام والمسلمين، بل فى مصلحة الدولة، وإذا كان الحجاج قدمات فليحاول الخليفة الاحتفاظ بقتيبة ليواصل جهاده وجهوده فى خدمة الإسلام ولذلك كتب له يزكية ويشجعه، وكان مما فقال له: قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجدك فى جهادك أعداء المسلمين وأمير المؤمنين رافعك، وصانع بك الذى يجب لك، فأتم مغازيك وانتظر ثواب ربك، ولا تغيب عن أمير المؤمنين كتبك، كأنى أنظر إلى بلادك والثغر الذى أنت فيه.

احدثت هذه الرسالة آثرا طيبا فى نفس قتيبة واعطته دفعة قوية من العزم والتصميم، فعاوده نشاطه ورغبته فى الغزو والجهاد فخرج من مرو ليواصل فتوحاته، حيث وصل إلى كاشغر، التى يقول عنها الطبرى إنها أدنى مدائن الصين ويلخص الطبرى أعمال قتيبة فى هذه المرحلة الأخيرة أن أبعث رجلاً من أشراف من معكم يخبرنا عنكم وتسائله عن دينكم.

اختار قتيبة عشرة - وقيل إثنى عشر - من خيره رجاله، برئاسة (هبيرة بن المشمرج الكلابى)، وأرسلهم إلى ملك الصين، ويقص الطبرى خبر تلك السفارة الإسلامية إلى بلاد ملك الصين فى حديث طويل، نكتفى منه بما انتهى إليه الحوار، حيث قال ملك الصين للوفد المسلم فى أسلوب تغلب عليه نبرة التهديد: "انصرفوا إلى صاحبكم، فقولوا له ينصرف عن بلادنا فإنى قد عرفت حرصه وقلة أصحابه، وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه" فرد عليه رئيس الوفد فى شجاعة وعزة المؤمن: أيها الملك كيف يكون قليل الأصحاب من أول خليه فى بلادك وأخرها فى منابت الزيتون، وكيف يكون حريصا من خلف الدنيا وراءه قادرا عليها وعزاك فى بلادك، وأما تخويفك إيانا إن لنا أجالا إذا حضرت وأكرمها الله بالقتل فلا نكره ولا نخافه".

أعادت هذه المقالة ملك الصين إلى صوابه، وأيقن أنه قوم لا يجدى معهم

التهديد ولا الوعيد، فاعتدل فى كلامه، وقال لهبيرة فى نبرة جديدة غير نبرة التهديد الأولى: فما الذى يرضى صاحبكم؟ قال هبيرة "أنه حلف ألا ينصرف عن بلادكم حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم، ويمضى أى يأخذ منكم الجزية" قال الملك: "فإن تخرجه من يمينة، فبعث إليه ترابا من أرضنا فيطوه، وبعث أبنائنا فيختهم، ونبعث إليه بجزية يرضاها، ثم دعا بصحاف من ذهب وملآها تراب، وبعث بحرير وذهب واربعة غلمان من أبناء الملوك، ثم أجاز الوفد جوائز حسنة، فعادوا إلى قتيبة، فرضى وقبل الجزية وختم الغلمان، ووطئ أجاز الوفد جوائز حسنة، فعادوا إلى قتيبة، فرضى وقبل الجزية وختم الغلمان، ووطئ التراب.

أكتفى قتيبة بهذا من ملك الصين، ويبدوا إن الذى حمله على التساهل وقبول الحل الوسط الذى عرضة الملك ما حدث فى داخل الدولة الإسلامية فقد توفى الوليد بن عبد الملك سنة ٩٦هـ، ٧١٤م، ولم تكن علاقة قتيبة على ما يرام مع الخليفة الجديد، سليمان بن عبد الملك ٩٦ - ٩٩هـ، ٧١٤ - ٧١٧م لم ير أنه من المناسب إن توغل فاتحا فى بلاد الصين وهو لا يحس بالأمان من ورائه.

وعلى كل حال حسب هذا الرجل العظيم والفاتح الكبير أنه فى غضون عشر سنوات فتح بلادا شاسعة فيما وراء النهر، ثم عبر سيحون وفتح الشاش وإنه واشروسنة وكاشغر، كما أرهب ملك الصين وحمله على دفع الجزية.

وسيبقى اسم قتيبة بن مسلم الباهلى من الأسماء المضيئة فى التاريخ الإسلامى، فقد أضاف للعالم الإسلامى إضافة رائعة وجه مدنا كبخارى وسمرقند وغيرها لتكون مراكز مشرقة للحضارة الإسلامية فى وسط آسيا.

بلاد ما وراء النهر بعد قتيبة:

توقفت فتوحات قتيبة عند كاشغر، وملامسا بذلك حدود الصين، ولم تسمح التطورات التى حدثت فى الدولة الأموية بعد موت الخليفة الوليد ابن عبد الملك سنة ٩٦هـ / ٧١٤م باستمرار الفتوحات، لأن الفاتح البطل نفسه قتيبة قد قتل فى حركة شغب وسوء فهم من الجند - لا مجال لتفسرها، هنا ولكن الدولة الأموية وإن كانت لم تواصل حركة الفتوحات إلا أنها لم تفرط فى الإنجازات التى

حققها قتيبة فى تلك البلاد، بل كرست جهودها فيما تبقى لها من أيام فى تثبيت الفتوحات والسيادة الإسلامية، وتهيئة البلاد لقبول الإسلام عقيدة وفكرا وثقافة قد اقتدى خلفاء بنى أمية فى هذا المجال - خاصة سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك - بعمل معاوية ابن أبى سفيان رضى الله عنه - فى بلاد فارس - وقد أشرنا إلى ذلك من قبل - وكما نجحت بلاد فارس من أول المدافعين عن الإسلام، وأصبحت قاعة الانطلاقة الكبرى التى قادها قتيبة فى بلاد ما وراء النهر.

فقد نجحت كذلك جهود الأمويين الأواخر - رغم ما يصادف دولتهم من مشاكل كبيرة - كان أخطرها الدعوة العباسية أقول رغم ذلك نجح الأمويين يوم معركة تثبيت الفتوحات فى بلاد ما وراء النهر - والتمكين للنفوذ الإسلامى وتهيئة البلاد لقبول الإسلام عقيدة وفكرا وثقافة وسلوكا، وأصبحت بلاد ما وراء النهر بدورها مدافعة بحماس عن الإسلام وعاملة على نشره بين الأتراك الشرقيين ولم تكن المهمة سهلة بل كانت أصعب من مهمة الفتح ذاتها، وكانت بعيدة الأثر فى تاريخ الإسلام بصفة عامة، وتاريخ أواسط أسيا بصفة خاصة ولقد أخلصت بلاد ما وراء النهر للإسلام كل الإخلاص وغدت جزءا من أهم أجزائه، غيره عليه وتمسكا به فمنذ إن دخل قتيبة بن مسلم الباهلى الإسلام فى هذه البلاد، وهو صامد وثابت كالجبل الأشم، رغم المحن والخطوب الهائلة التى تعرض لها عبر تاريخية الطويل هناك، والتى كان أخرها محنة السيطرة الشيوعية - والتى استمرت حوالى ثلاثة أرباع القرن - والتى بذلت كل جهودها وأساليبها الوحشية والهجمية فى القمع والتنكيل بالمسلمين لزعزعة الإسلام وهز مكانته بل محوه من البلاد ولكنها بحمد الله وفله - فشلت، وذهبت الشيوعية إلى سلة القمامة التاريخ، وبقى الإسلام وسيبقى بإذن الله تعالى إلى قيام الساعة وصدق الله العظيم حيث يقول: "فأما الزبد........ فيمكث فى الأرض" ولقد عبر أحد علماء المسلمين من تلك البلاد والذى حضر احتفال مصر بليلة القدر ويوم الدعاء فى ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان سنة ١٤١٢هـ / ١٩٩١م، عبر عن فرحتهم بزوال الكابوس الشيوعى "الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن".

نعود إلى جهود التى بذولها للتمكين للإسلام فى تلك البلاد والتى لم تأخذ

حقها من الدراسة والتنوية حتى الآن - فقد واجهوا الموقف بكل تعقيداته ومشاكله برجولة وإقدام، ولعل تذكر طبيعة تلك البلاد وما كانت عليه أحوا لها السياسية والاجتماعية يرينا إلى مدى كان الموقف صعبا، ولقد قاومت تلك البلاد الفاتحين المسلمين بضراوة، وكانت تلك المقاومة نابعة من عدم فهمهم لطبيعة الإسلام وما يحمله لهم من خير وسعادة وعزة وكرامه.

ولكنهم بعد أن عرفوا قيمة الإسلام وأهدافه ولكنهم بعد أن عرفوا قيمة الإسلام وأهدافه يروا موقفهم من العداء الشديد إلى الحماس الشديد للإسلام ومن خير ما يصور هذا التغيير ما يقرره المؤرخ والمستشرق المجرى أرمينوس فامبرى فى كتابه: تاريخ بخارى: حيث يقول: إن بخارى التى قاومت العرب فى البداية مقاومة عنيفة، قد فتحت لهم أبوابها لتستقبلهم ومعهم تعاليم نبيهم، تلك التعاليم التى قوبلت فى البداية بمعارضة شديدة، ثم أقبل القوم من بعد عليها فى غيرة شديدة، حتى لترى الإسلام - الذى أخذ شأنه اليوم يضعف فى جهات آسيا الأخرى - وقد غدى فى بخارى - اليوم١٨٧٣م - على الصورة التى كان عليها أيام الخلفاء الراشدين ".

هذه شهادة مؤرخ وباحث أوربي على التحول الهائل الذى أحدثه الإسلام فى بلاد ما وراء النهر، والذى لم يسبق له مثيل فى تاريخها، بل ولا فى تاريخ غيرها، فلم يحدث أن غيرت أمم بأكملها عقائدها وتحولت إلى دين جديد كما تحول سكان ما وراء النهر تاركين عقائدهم القديمة، وقد تم ذلك التحول بحرية كاملة ويؤيد الباحث الروسى "بارتولد" ما يراه، فامبرى حيث يقول عن هذا الموضوع: ولكن الانضمام إلى عالم الإسلام المترمدين لم يكن ممكنا لهؤلاء البدو إذا دخلوا فى الإسلام من حيث هو دين، ومن العوامل التى ساعدت على انتشار الإسلام بين الترك، خاصة ما امتاز بها الإسلام على سائر الأديان (العالمية)، فعلى الرغم من أن إتباع المسيحية أكثر عددا من المسلمين، فإن الإسلام دين عالمى بمعنى الكلمة، أى أنه ليس مقصورا على جنس أو قومية، ولئن كانت بعض الديانات قد علت الإسلام فى هذه الناحية فإن توفيقها كان مؤقتا، ولم تستطيع الحصول على نتائج دائمة كالتى أحرزها الإسلام، فالديانة المانوية مثلا كانت فى وقت ما دينا عالميا، وكان أتباعها منتشرين فى أماكن تمتد من جنوب فرنسا إلى الصين، ولكن

هذه الخاصية لم تمنع المانوية من الاضمحلال الكامل، وقد بدأت البوذية نشاطها فى الغرب فانتشرت هنالك ولكنها فى نهاية الأمر ظلت دينا للشعوب المتحضرة فى شرق آسيا فقط ثم يمضى بارتولد فى سوق الأدلة والأمثلة على تفوق الإسلام على كل الأديان فيقول: "وفى التاريخ أمثلة كثيرة لأمم بوذية ومسيحية تركت ديانتها ودخلت فى الإسلام، ولكنا لا نجد أمة إسلامية واحدة تخلت عن دينها ودخلت فى البوذية أو المسيحية.

على كل حال واجه الأمويون الأواخر مشاكل جمة فى بلاد ما وراء النهر كان أبرزها طموحات الأمراء الذين أبقاهم الأمويون يحكمون بلادهم تحت السيادة الإسلامية، وكان معظم هؤلاء تربطهم بالدولة الأموية معاهدات نظمت العلاقات بين الطرفين، وبصفة خاصة التعاون العسكرى والمالى، ولكن هؤلاء الأمراء كانوا يحاولون القفز فوق تلك المعاهدات مستغلين فترات الضعف والاضطراب التى كانت تمر بها الدولة الأموية، ومن أمثلة ذلك ثورة أمير فرغانه - بعد وفاة قتيبة - ومحاولة استرداد نفوذه القديم وثورات بخارى وسمرقند، ولكن الدولة الأموية لم تتهاون فى مواجهة تلك الثورات وقمعها ونجحت فى إخضاع أغلب الأمراء الذين بدءوا يدخلون فى الإسلام خاصة فى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز - الذى دعاهم للدخول فى الإسلام - وبعده وبدءوا يتأقلمون مع الوضع الجديد ويتآلفون مع العرب بل بدؤوا يدافعون عن الإسلام بحماس ضد الأتراك الشرقيين، الذين توالت إغارتهم على بلاد ما وراء النهر وأخذوا يشكلون خطرا على الدولة الأموية التى تصدت لذلك الخطر بجرأة وجسارة، وقام الولاة الأمويون مثل الجراح بن عبد الله الحكمى، وعبد الله ابن معمر اليشكرى، الذى تابع الغزو فى الجزء الشمالى الشرقى من البلاد ونسب إليه أنهم يغزو الصين نفسها.

وظلت الدولة الأموية والأتراك الشرقيين فى صراع يتبادلون النصر والهزيمة حتى تغلبت كفة الدولة الأموية على يد الوالى الشجاع أسد بن عبد الله القسرى ١١٧ - ١٢١هـ/ ٧٣٥ - ٧٣٨م ونصر بن سيار ١٢١ - ١٢٩هـ/ ٧٣٨ - ٧٤٦م الذى حظى بمكانه فى تاريخ الجهاد الإسلامى فى تلك البلاد لا تقل عن مكانة قتيبة بن مسلم، فهو الذى حمى بلاد ما وراء النهر من خطر الأتراك الشرقيين.

وخلاصة القول إن فتح بلاد ما وراء النهر وتثبيت ذلك الفتح وتهيئتها لقبول الإسلام، عقيدة وفكرا وثقافة وسلوكا يعتبر من أهم منجزات العصر الأموى.

التركستان فى أواخر عصر بنى أمية

أدرك الأمويون فى إقليم ما وراء النهر أن معركة تأمين المكاسب وتثبيتها لن تتم بانصرافهم إلى الميدان الداخلى فحسب، لأن الارتباط كان وثيقا بين الأخطار الداخلية والخارجية. فقد كان الأتراك الشرقيون يلحون فى الإغارة على الحدود الشرقية للبلاد ويتعاونون مع الأمراء الخارجين، منتهزين الفتن والثورات التى امتلأ بها العصر. وكان لزاما على الأمويين كما أخضعوا الأتراك الغربيين أن يصدوا عدوان الأتراك الشرقيين وأن يحولوا دون اتحاد كلمة الترك بكل ما استطاعوا من قوة.

وتعد مراحل الصراع بين الأمويين وبين الأتراك الشرقيين فى هذه الفترة من أهم الجهود التى قدر لها أن تحمى الإسلام والثقافة العربية فى البلاد. فقد نهض الأتراك الشرقيون وعادوا الظهور فى القرن الثامن الميلادى، وامتدت إمبراطوريتهم من بلاد الصين حتى إقليم ما وراء النهر، وظلوا يهددون إقليم ما وراء النهر طوال العصر الأموى. وحاولوا أكثر من مرة الإفادة من ثورات الأمراء الخاضعين للعرب للاستيلاء على ما وراء النهر. وتوالت غاراتهم بلاد الصغد وفرغانة.

ولم يكف الأموين عن التصدى لخطر الأتراك الشرقيين حملاتهم فى عهد الجراح بن عبد الله أو عبد الله بن معمر اليشكرى الذى تابع الغزو فى الجزء الشمالى الشرقى من البلاد، ونسب إليه أنه هم بغزو بلاد الصين نفسها كما تابعت الحملات فى عهد عبد الرحمن بن نعيم المغادى وسعيد بن عبد العزيز الذى ولى البلاد فى عهد يزيد الثانى وفى عهد مسلم بن سعيد وغيره من القواد العرب.

وظل العرب والأتراك الشرقيون يتبادلون النصر والهزيمة فى معارك حياة أو موت، حتى لاحت طلائع النصر فى آخر العصر الأموى على يد العامل أسد بن عبد الله القيسرى (٧٣٥ - ٧٣٨م) (١١٧ - ١٢١هـ) ونصر بن سيار (٧٣٨ - ٧٤٨) (١٢١ - ١٣١هـ) الذى يحتل فى تاريخ النضال الإسلامى مكانة لا تقل عن مكانة قتيبة، فهو الذى حمى ما وراء النهر من الأتراك الشرقيين وصان تراث

العرب فى البلاد. ففى عهده استفحل الخطر التركى، واتصل الأتراك الشرقيون ببعض الأمراء الناقمين، وهزم العرب فى اللقاء الأول وعبر الهزيمة وفرقوا جموعهم، وعبروا نهر سيحون من ورائهم يتعقبونهم، ودخلوا إقليم الختل وفتحوه. وظل نصر بن سيار يتابع هذا العصر حتى سنة ٧٤٨م (١٢٩هـ)، وهى السنة التى استطاع فيها إن يعزل الخطر الخارجى عن المشاكل الداخلية وأن يقر السيادة العربية فى حوض سيحون وعقد المعاهدات مع أمراء أشروسنة والشاشن وفرغانه، وأسر خان الأتراك الشرقيين وقتله.

كانت حماية ما وراء النهر من عدوان الأتراك الشرقيين من أهم منجزات العصر الأموى التى مكنت للسيادة الإسلامية من بلاد ما وراء النهر وأضافوا إلى هذه الجهود جهودا أخرى فى ميدان الدعوة إلى الإسلام ونشر الثقافة العربية فى البلاد. وقد وضحت هذه الجهود منذ فجر الفتح الاول فقد كان قتيبة بن مسلم يبنى المساجد فى بخارى وسمرقند ولم تكن المساجد دورا للعبادة فحسب، وإنما كانت مدارس للثقافة الإسلامية، واتبع ذلك بتوطين تكن المساجد دورا للعبادة فحسب، وإنما كانت مدارس للثقافة الإسلامية واتبع ذلك بتوطين القبائل العربية فى المدن الكبرى كبخارى وسمرقند. وتتابعت هذه الجهود فى عهد عمر بن عبد العزيز الذى أسقط الجزية عمن أسلم وأمر عماله بالدعوة إلى الإسلام. واستمرت هذه الجهود بعد عمر خاصة فى عهد الوالى أشرس بن عبد الله السلمى (٧٢٧ - ٧٢٩م) (١٠٨ - ١١٠هـ) إذا كان أول من أنشأ الربط والخوانق والمدارس وعمل على تثبيت قدم الثقافة العربية فى البلاد. فكان ذلك مقدمة لمدارس بخارى وسمرقند.

وقام الامويون فوق ذلك بالدعوة السلمية إلى الإسلام خاصة فى عهد عمر بن عبد العزيز الذى ألزم العمال إن ينشروا الإسلام كما اختار الوالى أشرس بن عبد الله السلمى المبعوثين من العرب والفرس لتبشير بالإسلام بين الأتراك. يقول البلاذرى ودعا هشام أهل ما وراء النهر إلى الإسلام وأمر بطرح الجزية عمن أسلم، فسارعوا إلى الاسم وانكسر الخراج. معنى هذا إن الآلاف من الناس تدافعوا إلى اعتناق الإسلام وتعلم اللغة العربية.

وضحت هذه الجهود بصورة أوفر فى عهد نصر بن سيار الذى تغلب على جميع الانقسامات الداخلية، ووضع حدا لما عاناه المسلمون من مشاكل الجزية والخراج ويذكر أن ثمانين ألفا من غير المسلمين اعتنقوا الإسلام فى عهد مصر، وذهب نصر فى تسامحه إلى أبعد مدى فعفا عما ارتد عن الإسلام وأعفاهم من متأخرات الجزية والخراج واستعاد الأسرى المسلمين وأقر الأمن على الحدود.

وما كاد الأمر يستتب للعرب على هذا النحو حتى بدأ تجار المسلمون يطرقون الطرق التجارية القديمة، والمراجع الصينية تذكر إن قوافل المسلمين فى القرن الثامن الميلادى كانت تعبر طرق آسيا الوسطى كلها، وانتهى بهم المطاف إلى بلاد القولوق على المجرى الأعلى لنهر الينسى، ثم امتد نشاط هؤلاء التجار إلى بلاد القرغيز. وقد أشار الحال المسلمون إلى هذه الطرق التجارية ووصفوها أصدق وصف، ومن الغريب أن تتفق هذه الأوصاف مع ما جاء بنقوش أورخون. وقد اهتم المسلمون على الخصوص بالطريق المؤدى إلى بلاد الصين. وقد أفاض الرحالة المسلمون فى وصف الشعوب التركية المحيطة ديارها بهذه الطرق.

انتشار الإسلام فى بلاد ما وراء النهر

قبل الحديث عن انتشار الإسلام فى بلاد ما وراء النهر، يجدر بنا أن نقول كلمة موجزة عن طبيعة الدعوة الإسلامية والعوامل التى مكنت للإسلام من الانتشار والقبول فى جميع الأقطار التى فتحت بصفة عامة، وفى بلاد ما وراء النهر بصفة خاصة.

أما عن طبيعة الدعوة الإسلامية وماهيتها فهى طبيعة عالمية، والدين الإسلامى دين عالمى بمعنى الكلمة، فقد جاءت الرسالة الإسلامية للجنس البشرى كله، وليس لشعب دول منها فأقام لهم الوالى القاضى (حاضر بن جميع) الذى نظر فى القضية، ورأى إن الحق مع أهل سمرقند المغلوبين - فحكم بإخراج المسلمين من المدينة إلى أن ينابذوهم على سواء، ولكن أهل سمرقند - وقد أذلهم هذا السلوك الإسلامى الذى لم يسبق له مثيل فى التاريخ البشرى - كرهوا الحرب وأقروا المسلمين على الإقامة فى مدينتهم وأسلموا.

هذا هو الإسلام، وذلك هو سلوك المسلمين. وهذا المثل الوحيد - الذى

خالف فيه قتيبة ما اتفق عليه من أهل سمرقند - وسط كل تلك الحروب المتواصلة والأحداث المتلاحقة، وكثرة الانتفاض ونكث العهود من أهل تلك البلاد، يدل على إن المبدأ الأصيل هو التزام المسلمين بالوفاء بالعهود، وأن السلطة الإسلامية العليا - الخلافة كانت ساهرة على حفظ وصيانة المعاهدات وتصحيح أى خطأ قد يحدث من أى عامل فى أى مكان.

فعلى سبيل المثال عندما أخطأ بعض العمال - لما تزايد إقبال الناس على اعتناق الإسلام، وأدى ذلك إلى تناقض الجزية بذلك قواعد الإسلام، عندئذ لم يحتمل ضمير الأمة الإسلامية هذا الخطأ الجسيم، المخالف لمبادئ الإسلام التى تمنع أخذ الجزية من المسلم، وسخط المسلمون العرب - قبل غيرهم - على هؤلاء العمال الذين ارتكبوا هذا الخطأ، ورفعوا الأمر إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز، الذى غضب غضبا شديدا على هؤلاء العمال وأمرهم على الفور برفع الجزية عمن يسلم، وصاح صيحته المشهورة «قبح الله رأيكم، فإن الله قد بعث محمدا هاديا ولم بعثه جابيا.

والأمثلة فى هذا المجال كثيرة، وخلاصة القول، إن معاملة المسلمين الكريمة وسماحتهم مع أبناء البلاد المفتوحة كانت من أهم عوامل جذبهم إلى الإسلام.

٢ - العامل الثانى الذى كان له أثر كبير فى انتشار الإسلام فى البلاد المفتوحة هو إشراك أبناء البلاد فى إدارة بلادهم، فالفاتحون المسلمون لم يصنعوا صنيع الحكومات السابقة عليهم، ويحرموا أبناء البلاد من إدارة بلادهم.

فالمسلمون لم يحتفظوا إلا بعدد قليل جدا من المناصب، مثل الإمارة وقيادة الجيش والقضاء - وكان ذلك ضروريا - وما عدا ذلك من الوظائف فقد كان متاحا لأبناء البلاد المفتوحة الذين بقوا على أديانهم، ووصل عدد كبير منهم إلى أعلى المناصب الإدارية التى كانوا محرومين منها فى عهود ما قبل الحكم الإسلامى، وكانت حكومة الخلافة الإسلامية تضع ثقتها فى أهل الأمانة منهم دون أبه حساسية.

ويكفى أن نقدم على ذلك مثلا واحدا من العصر الأموى، حيث بقى ديوان الخراج المركزى فى دمشق عاصمة الخلافة، وهو أهم دواوين الدولة - تحت رئاسة

أسرة مسيحية، وهى أسرة (سرجون بن منصور الروسى)، طوال عهود الخلفاء، معاوية بن أبى سيعنان وابنه يزيد، ومروان ابن الحكم وابنه عبد الملك، وكان ديوان خراج العراق فى الفترة ذاتها تحت رئاسة رجل فارسى، هو (زادان فروخ)، ولم يكن سرجون بن منصور - هو مسيحى - رئيسا لديوان خراج عاصمة الخلافة فقط، وإنما كان مستشارا سياسيا للخليفة معاوية بن أبى سفيان.

وقد توسع الأمويون فى استخدام أبناء البلاد المفتوحة فى الإدارة مما أشعرهم بالأمان والاطمئنان إلى الحكم الإسلامى وجعلهم يقبلون على اعتناق الإسلام بملئ إرادتهم الحرة.

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن هو: كيف انتشر الإسلام فيما وراء النهر وما هى الأسباب التى جعلت من هذا الإقليم كعبة يحج إليها علماء الإسلام؟ والذى خرج لنا قمم رجال العلم فى التفسير والفقه والحديث والتشريع والفلك والطب والهندسة والفلسفة والطبيعة، والجبر وغيرها، مثل الإمام البخارى شيخ المحدثين والترمذى، والنسائى، والنفسى، ابن ماجه، وابن سينا، وغيرهم من أفذاذ العلم، والذين لازالت بصماتهم واضحة جلية على مختلف العلوم الإسلامية، ما دام هناك إسلام على وجه المعمور، هل فرض الإسلام على أهله فرضا وما هى طبيعة انتشاره. وما هى الأسباب التى دعت الأتراك لترك دياناتهم القديمة والانصهار فى بوتقة الإسلام؟ والمحافظة عليه حتى الآن؟ لقد ارتبط انتشار الإسلام فى بلاد ما وراء النهر بعدة عوامل منها:

١ - طبيعة الدعوة الإسلامية: التى بدأت منذ عهد المصطفى؟ كانت طبيعتها واحدة فى كل قطر من الأقطار التى وصلتها، دعوة عالمية (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)، ليس فيها إكراه ولا بغى، بل كانت تشمل على ثلاث خصال الإسلام أو الجزية أو القتال.

٢ - سماحة الإسلام: أتسم الإسلام بالسماحة والمساواة بين الناس، لذا وجد قبولا لدى العديد من الشعوب غير العربية لتنال حقوقها المهضومة ومنها أتراك الصغد.

٣ - حالة البلاد المفتوحة: فبحكم موقع إقليم الصغد الجغرافى والذيا كان

معبرا لعديد من الثقافات الصينية والهندية، والفارسية، والبيزنطية وغيرها، مما أدى من انتشار عـدد من العقائد التى لم تستطيع أن تواجـه عقيدة التوحـيد، فأدى إلى اعتناق أهله الإسلام.

٤ - دور القادة والاة المسلمين: والذين لم يكونوا قـادة فقط بل كان أغلبهم دعاة فى نفس الوقت؛ وقد غلبت حمـاستهم الدينية حماستهم الحـربية، رغبة فى نشر الإسلام بتعاليمه السامية، ومعـاملتهم السمحة لأبناء البلاد المفتوحة، واحترام آدميتـهم وكرامتهم ولقد تجلت تلك المعاملـة لا فى نصوص المعاهدات التى نظمت العلاقات بين المسلمـين الفاتحين وبين أبناء البلاد المفتوحة الذيـن فضلوا البقاء على أديانهم فحسـب، بل الوفاء من جانب المسلمين بتلك المعاهدات والالتزام بها بأمانة وشرف.

فلما دخل قتيبة بن مسلم سمرقند على شروط معينة، لم يفت بالشروط مع أهلها، فلما جاء عمـر بن عبد العزيز ٩٩ - ١٠١هـ/ ٧١٧ - ٧١٩م رفع إليه أهل سمرقند بشكواهم وقالوا إن قتيبة قد دخل مدينتهم على وعد بالخروج منها، ولكنه لم يف بوعده، أى غدر بهـم، فكتب عمر إلى عاملة أن ينصب لهم قـاضيا ينظر شكواهم، فإن قضى بإخـراج المسلمين من المدينة خرجوا منهـا، فأقام لهم الوالى القاضى «حـاضر بن جميع» الذى نظر فى القـضية ورأى أن الحق معـهم، فحكم بإخـراج المسلمـين من سمـرقند ولكن أهل سـمـرقند، وقـد أزهلهم هذا السلوك الإسلامى الـذى لم يسبق له مـثيل فى التـاريخ البشـرى، كرهوا الحـرب، وأقروا المسلمين على مدينتهم، ودخلوا فى دين الله أفواجا.

هذا هو الإسلام، وذلك هو سلوك المسلمين، وخليفهم، وهذا المثل الوحيد - الذى خالف قـتيبـة ما اتفق عليه أهل سـمرقند - وسط كل الحـروب المتواصلة الأحداث السابق ذكـرها وكثرة الانتفاضـات والثورات ضده وغدرهم بالعهـود معه يدل هذا كل على الالتزام المسلمين بالعهود، وأن سلطتـهم العليا - الخلافة ساهرة على حفظ وصيانة المعاهدات وتصبح أى خطأ من أى قائد مهما كان شأنه.

فعلى سـبيل المثـال عندما أخطأ بعض العمـال - لما تزايد إقبـال الترك على الإسلام، وأدى ذلـك إلى تناقص الجزية، وأبقـوا الجزية على من أسلـم، وصاح

صيحته الشهيرة «قبح الله رأيكم فإن اللـه قد بعث محمد هاديا ولم يبعثه جانبا»، كما وضع (نصر بن سيار) حدا لما عاناه مسلمو آسيـا الوسطى من مشاكل الخراج والجزية، ويذكر الطبرى، أن ثمانين ألفا من غير المسلمين اعتنقوا الإسلام فى عهد نصـر بل ذهب نصر فى تسـامحـه إلى أبعد مـدى فعفـا عمن ارتد عـن الإسلام وأعفاهم من تأخرات الجزية والخراج واستعاد الأسرى من المسلمين وأقر الأمن على الحدود.

٥ - بناء المساجـد والربط والخوانق: كان الحكم الغـفارى أول من صلى فى وراء النهر ولكنه لم يبنى مسجدا وفى عهد قتيبة بن مسلم بنيت المساجد فى بخارى وسمرقند التى لـم تكن دورا للعبادة فقط، بل كانت مـدارس للثقافة الإسـلامية، يتعلم فيها أتراك الصغد الإسلام وأحكامه واللغة العربية، وتتابعت هذه الجهود فى عهـد الوالى أشرس بن عـد الله السلمى (١٠٨ - ١١٠هـ/٧٢٧ - ٧٢٩م) الذى كان أول من أنشـأ الربط والخوانق والمدارس وعـمل على تثبيـت الإسلام والثقـافة العربية فى البلاد، فكان ذلك مقدمة لمدارس بخارى وسمرقند فى عهد السامانيين.

٦ - توطين القبائل العربية فى إقليم آسـيا الوسطى: كانت عادة الفاتحين من العرب تهجير قبـائل عربية من شبه الجزيرة العربية فى البلاد المفتـوحة ولما أتم قتيبة الصغـد أسكن عددا من القبـائل العربية فيـه قدرها المؤرخون بحـوالى أربعة آلاف فيذكر الاصطخرى «أنه كان من سمرقند قوم من بكر بن وائل يعرفون بالسباعية»، ويقول المقدسى، إن قوم بكر بن وائل الذين يعرفون بالسـباعية كانت لهم سمرقند ولايات وأن بخارى كان يسكنها عدد من العرب إذ وجد أن أبوابها باب بنى أسد، وبنى سـعـد وأن الغـالبـية العظـمى من العـرب كانوا مـن المقاتـلين المدونين فى الدواوين، إلى جانب مهاجرين من العرب وفدوا على الصغد بعد عمليات الفتح، وقد ساعدت هذه الهـجرات العربية على نشر الإسلام وتعليم أتـراك الصغد اللغة العربية.

٧ - اشتـراك أهل الصغـد فى إدارة بلادهم: كانت سـياسـة قادة الجيوش الإسلامية وتعاليم الخلافة اشتراك أهل البـلاد المفتوحة فى إدارة بلادهم عاملا مهما فلم يحـرم الأتراك من إدارة بلادهم فى ظل الإسـلام، ولم يحـتفظ المسلمـون إلا

بعدد قليل جدا من المناصب مثل الإمارة وقيادة الجيش والقضاء أما المناصب الإدارية الأخرى فقد تركوا عليها أهلها، مما أشعرهم بالأمان والاطمئنان إلى الحكم الإسلامى، وجعلهم يقبلون على اعتناق الإسلام وفق إرادتهم الحرة.

٨ - دور الصحابة والتابعين: بعد أن سمح الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه لكبار الصحابة بالخروج من المدينة، اصطحب أغليهم الجيوش الإسلامية الخارجية للغزو، بل صار بعضهم قوادا عليها، مثل الحكم بن عمرو الغفارى، وقثم بن العباس بن عم رسول الله؟ والذى صحب جيش سعيد بن عثمان بن عفان واستشهد فى سمرقند، وبنى له فى بخارى ضريح يزار للان ويتبرك به الناس، والذى كان قد رفض عرض سعيد بن عثمان بتمييزه بألف سهم عن بقية المسلمين فقال قثم رضى الله عنه: لا أريد غير سهم واحد محكم الشريعة، وهذا يدل على سمو روح هؤلاء الصحابة وعدم رغبتهم فى المال، بل الجهاد ونشر الدعوة الإسلامية.

كما يوجد فى بخارى مكان يسمى (نور) دفن فيه كثير من التابعين المصاحبين للجيش أو المهاجرين لنشر الإسلام واللغة العربية وما زال مزارا حتى اليوم ويعرف بنور بخارى.

٩ - العباسيون ودورهم فى انتشار الإسلام فى الصغد: بذل العباسيون جهودا كبيرة تثبيت أقدام الإسلام والفتوح الإسلامية فى إقليم الصغد وغيره من أقاليم أسيا الوسطى، وكان لهم دورا مهما فقى انتشار الإسلام والثقافة الإسلامية فى هذه البلاد وقد وجد العباسيون حركة.

دور العباسيين فى تاريخ الأتراك

كان قيام الدولة العباسية في خراسان وما وراء النهر تعبير عن حركة إسلامية ضخمة من آخر العصر الأموى وقد أفاد العباسيون هناك لمبادئ الدعوة القائمة على العدل والإصلاح والأمامة للرضا من آل حمد.

ووجد أهل البلاد المتطلعين إلى مزيد من النفوذ والسلطان والراغبين فى الخلاص من مظالم العصر الأموى الأخير فى الدعوة الجديدة ما يحقق آمالهم.

واستطاع أبو مسلم الخراساني أن يجذب الدهاقين والفلاحين إلى دعوته الناقمين على بني أمية جميعا، كخوارج سجستان واليمانية وقاد أبوة مسلم أنصاره الجدد من الخراسانية والأتراك الغربيين في حفه الكبير نحو إيران حتى سقطت الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية بل أسهم أبو مسلم في قمع الحركات الإيرانية المناوئة للإسلام لتوطيد نفوذه وتعلو كلمته فقضى على ثورة قام بها الكهنة المجوس هناك وكان أنصاره الدد خاصة أهل بخارى عدته في قمع الثورات العربية التي اشتغلت هناك عام ١٣٣هـ/ ٧٥٠م، فقد قاتل في صفوف عاملة (رياد بن صالح) بخار خدات قتيبة ومعه أهل نحو سبعمائة من الحصون والقلاع. وأعان هؤلاء الأنصار زيادا في استعادة سمرقند.

وكان للعباسيين دورهم البارز في تاريخ العلاقات العربية التركية وفي انتشار الإسلام بين أوطان الترك. فقد تعرضت بلاد ما وراء النهر لخطر فادح، ذلك أنه بعد سقوط إمبراطورية الأتراك الغربيين لم تشهد سهوب تركستان إمارة قوية توحد البدو وتشد من آزرهم، فانتهزت الصين الفرصة السانحة وبسطت نفوذها على الأتراك الشرقيين، وأرادت أن تفيد من تفرق الإمارات التركية وانشغال العباسيين بتوطيد دولتهم الناشئة، فتفرض سلطانها على بلاد ما وراء النهر. وأن كنا نعتقد أن المطامع الصينية لم تكن لمجرد فرض السيطرة السياسية، إنما كانا نعتقد أن المطامع الصينية لم تكن لمجرد فرض السيطرة السياسية، إنما كان القصد منها الاستيلاء على طرق القوافل التي تعبرها متاجر الشرق الأقصى إلى ما وراء النهر والشرق الأوسط وأوربا.

وفي سنة ٧٤٨م/ ١٣١م. استولت الصين على سوياب وخربتها، وفي السنة التالية قتل أهل الصين عامل الشاش لأنه لم ينفذ سياستهم، وذلك بسبب تحريض أخشيد فرغانة في الوقت الذي استنجد فيه ابن أمير الشاش بالعرب وكان القائد العباس رياد بن صالح قد فرغ لتوه من أخاد الفتن الداخلية والثوات في خراسانت فتصدى للجيش الصيني وأنزل به هزيمة ساحقة. وكان هذا الجيش يقوده Kao-Hsien- Chlt وذلك في يوليو عام ٧٥١م (١٣٤هـ).

والرولية العربية لا تخلو من بعض المبالغات حين يذكر أن خمسين ألف من جند الصين قتلوا في المعركة، وأن عشرين ألف أسروا، على حين تذكر الوثائق

الصينيـة أن الجيش كله لم يتجاوز ثلاثين ألف رجل. وكـان هذا النصر من أعظم الانتصـارات العربية فى تاريخ آسـيا الوسطى، فقـد كان على تركسـتان إذ ذاك أن تقرر إلى أى المدينتين تنحاز إلى المدينة الإسلامية أو الصينية.

وقد تابع العباسيـون توطيد سلطانهم هناك ذلك أن أبا داود خالد بن إبراهيم الذى ولى بلخ من قـبل أبى مـسلم أحرز النصـر فى الختل وكش وهرب دهقـان الختل لائذا بالصـين، كمـا قتل كش فى هذه الحـرب ويبدو أن هذه الانـتصارات العربية كانت شديدة الواقع على سياسة الصين ففى سنة ٧٥٢م. ١٣٥هـ بعث أمير اسروشنة إلى الصين يستعيدها على العرب فرفضت تلبية النداء.

وكان من أثر انتصار العرب هذا أبعـاد الصين عن المعركة الدائرة بين العرب وبين الأتراك الشرقيين. وبات على هؤلاء أن يلقوا العرب معتمدين على جهودهم ومواردهم وحدها. وقد وضـحت بعد هذا النصر تطورات هامة حقـا فقد ضعف عدوان الأتراك الشـرقيـين ولم يعد العبـاسيـون يجابهون قـوات كبيـرة كمـا فعل الأمويون من قـبل. فقد تفـرقت وحدة الأتراك الشـرقيين. وقـامت منهم أمارات صغـرى متناثرة حول حدود مـا وراء النهر، فظهرت أمـارة القرلون سنة ١٤٧هـ، ٧٦٤م. شرقى نهر سيـحون واحتلت مدينة سوياب، مـا ظهرت إمارة لأوغوز فى الحوض الأدنى مـن هذا النهر. ولم تعـد جموح الأتراك الشـرقيـين تشكل خطرا فادحا على إقليم مـا وراء النهر. بل أصبح لا هم لهم إلا الغارات الخـاطفة أو مد يد المعـونة للولاه الترك الثـائرين وكانت الدولة العـباسـية تصد بخـارى وفى بلاد الشـاش لإعطاء الإقليم الحمـاية والطمـأنينة التى لابد منهـا لتمـضى المشروعـات الإسلامية فى طريقها إلى النجاح.

وقد بذل العباسـيون الجهود الكبيرة فى صد عدوان الأتراك الشـرقيين، ففى عهد الخليفـة المنصور بعث الليث رسولا إلى بلاد فرغانة وكـان أميرها قد آوى إلى كاشغـر واضطر إلى طلب السـلام ودفع الجزية، ثم دعاه العـرب إلى الإسلام فلما أبى أودع السجن حتى ولى المهدى الخلافة.

أما المهدى فـقد بعث (أحمد بن أسد) فى حملة إلى فـرغانة ثم أعقب ذلك بعثة الرسل يطلبـون إلى كثـيرين من الأمـراء الخضـوع لسلطانه، فـاستجـاب له

كثيرون: منهم أخشيد بل بلغ من جراة المهدى أن بعث الرسل إلى إمبراطور الصين. يطلب الخضوع لنفاذه، أما الرشيد فقد بعث عامله (بن عطاء عمرا بن جميل) بقضى على الفتن الداخلية فى البلاد، ويتلقى فروض الولاء والطاعة من أمير أسروشنة.

ولما كان المأمون مقيما بمرو فقد بعث جيشا إلى بلاد الصغد واسرشونة وفرغانة، ويشير المؤرخون إلى حملة بعثها العباسيون سنة ١٩٤هـ (٨٠٠م) إلى مدينة قولان، وقبل احتدام النزاع بين الأمين والمأمون بدأ الأخير يلقى المتاعب ن الأتراك الشرقيين، فقد خراسان، وكف أمير أترار عن دفع الجزية، وقد أشار الفضل بن سهل على المأمون بأن يكتب إلى القرلون وخاقان التبت بأنه قد ولاهما على بلادهما ويعدهما بالوقوف إلى جانبهما الصلح وأن يرد إلى أمير أترار جزية سنة، ويبدو أن هذه الجهود تكلت بالنجاح.

وهكذا استطاع العباسيون أن يحلوا هذه المشكلة المستعصية فى تاريخ العلاقات العربية التركية بوقفهم عدوان الأتراك الشرقيين وقضائهم على الخطر الصينى.

العباسيون وانتشار الإسلام فى البلاد:

كان للعباسيين - كما رأينا - دورهم الواضح في المجالين السياسى والعسكرى وكان لهم أيضا دورهم فى انتشار الإسلام والثقافة العربية فى البلاد.

ويمكننا أن نقول أن العباسيين وجدوا حركة إسلامية كبيرة انتشرت فى خراسان وفى إقليم ما وراء النهر، وكانت تلك البلاد طوال العصر الأموى تابعة لصالحهم وأن يكسبوا رضا المسلمين هناك توطئة للقضاء على الحكم الأموى، إذ لم يكن من الممكن أن يعتمد العباسيون على حركة سطحية ضحلة لا تمكنهم من النجاح المنشود، ولم يكن اختيارهم لمنطقة خراسان وما وراء النهر عبثا.

وقد اتجهت الدعوة الهاشمية إلى إقليم خراسان وما وراء النهر أواخر العصر الأموى واضطلع بها قبل أبى مسلم يحيى بن زيد العلوى وإبراهيم بن محمد العباسى، وكان منطق الدعة العباسيين إذ ذاك يجذب إليه هؤلاء المسلمين الجدد،

فقد كانوا يدعون لأحياء سنة رسول الله ﷺ وأن ينال المسلمون حقوقهم السياسية والمدنية، ولا يمكن أن نغفل أولئك المسلمون دعوة تلك أهدافها ومراميها.

كان الدعوة العباسيون فى السنوات السابقة على انتصارهم يسعون إلى طبقات معينة من الناس، يسعون إلى كسب اليمانية دون المضرية وكسب أهل الريف وطبقة الدهاقيين، فاتخذت حركاتهم طابعا شعبيا صرفا، وكانت الدعوة تلقى الاستجابة الشاملة إذ يذكر أن ست قرى دخل أهلها فى دعوة أبى مسلم فى يوم واحد، وأن نجاح الثورة العباسية فى خراسان وما وراء النهر يدل على هذه الحركة الإسلامية التى استغلوها لصالحهم.

وقد أكدت الأحداث التالية لنجاح انقلابهم هذه الحقيقة ذلك أن الانشقاق العلوى لقى قبولا فى منطقة بخارى حيث قامت ثورة (شريك بن صالح) تنادى بأحقية العلويين، وقد تجمع حوله نحو ثلاثين ألفا من بخارى وحدها، بل امتدت هذه الحركة إلى خوارزم إلى أن تمكن العباسيون من القضاء على هذه الثورة واستعادة نفوذهم.

ويرجع الفضل إلى العباسيين فى أنهم مكنوا لهذه الحركة الإسلامية العميقة من أن تمضى فى سبيل نجاحها ليكتسب إقليم ما وراء النهر فى مستهل القرن الثالث طابعا إسلاميا واضحا.

وأهم الجهود التى بذلها العباسيون فى الميدان السياسى والعسكرى هى حماية إقليم ما وراء النهر من الأخطار الداخلية والخارجية التى هددته وحمايته من خطر الصين والأتراك الشرقيين، ثم القضاء على ثورات الأمراء المحليين، وليس من شك فى أن الأمن الذى انتشر فى البلاد فى ظل بنى العباس أعلى من شأن الحاكم العربى فى نظر الناس وساعد من طريق غير مباشر على التمكين للحركة الإسلامية من أن تمضى فى طريقها ونجاح الإدارة العربية فى حل المشكلات التى استعصى حلها رفع من قدر الحضارة الإسلامية فى نظر الناس.

وكان على الولاة العباسيين أن يمكنوا للنظم الإدارية فى البلاد مستهدفين بالتقاليد الساسانية، وأن يوحدوا بين الفرق والاتجاهات المختلفة وأن يسودوا الأمن والطمأنينة، وإلا يضعف السيف فى علاقتهم بالولاة الثائرين أو بخلفائهم من

الأتراك الشرقيين، وقد تحقق للعباسيين إخضاع البلاد تماما للنفوذ الإسلامي، والقضاء على أي تهديد من الدخل أو الخارج عندما عدلوا عن السياسية القديمة من كثرة عزل الولاة وتوليتهم إلى سياسة جديدة أكثر ملاءمة تقضي بأن تكون الولاية وراثية في أبناء الأشراف من أهل البلاد العالمين بأحوالها والذين يظفرون بتقدير الناس واحترامهم.

***

الفصل الثالث

الدويلات المستقلة في أسيا الوسطى

الطاهرية - الصفارية - السامانية - الغزنوية - السلاجقة - الخوارزمية

أ - الدولة الطاهرية ٢٠٥ - ٢٥٩ / ٨٢١-٨٧٢م

ظهرت دولة الطاهرين في بلاد خراسان وما وراء النهر والتركستان الشرقية والغربية كأول دولة مستقلة في المشرق الإسلامي، وقد اتخذت مدينة مرو أولا كعاصمة لها وسيطرت على حكم خراسان وما وراء النهر، وقد اتخذت اسمها من مؤسسها طاهر بن الحسين.

وكانت حركة العصيان في خراسان وبلاد ما وراء النهر في المشرق بعد عودة المأمون إلى بغداد قد أدت إلى اختلال الأحوال السياسية فكان قرار المأمون في إسناد حكم هذه الأنحاء (تركستان الشرقية والغربية وما وراء النهر وخراسان) إلى طاهر بن الحسين وقد استقامت الأمور في هذه النواحي. وقد أقام الطاهريون (٢٠٥ - ٢٥٩هـ/ ٨٢١ - ٨٧٢م) دولة حكمت هذه الأرجاء الشرقية من خراسان وأنها ظلت تعترف بالسيادة العباسية وقد قام الطاهريون بحماية خراج بلاد المشرق جميعها والقضاء على الفتن والثورات التي كانت تظهر ضد العباسيين.

وقد حرص كل ولاة الطاهريون على تحسين علاقاتهم بالخلفاء العباسيين وراعوا حقوق الدولة في شئون الحكم والإمارة بل وقفوا إلى جانبهم في القضاء على حركات العباسيين وراعوا حقوق الدولة في شئون الحكم والإمارة بل وقفوا إلى جانبهم في القضاء على حركات التمر والعصيان ولقد كان إنشاء حكم مستقر في خراسان وبلاد ما وراء النهر قد أعاد السلم للبلاد حيث شجع الطاهرين حركة التعليم والفقه والشريعة.

وقد أبدى الطاهريون اهتماما كبيرا بجميع مدن ما وراء النهر، لأنها كانت جميعها مدن ثغرية للمسلمين أقيمت في وجه الأتراك لصدهم عن انتهاك ديار

الإسلام فاتخذت هذه المدن المحصنة لتكون أبراجا لمراقبة الترك وقواعد ينطلق منها المرابطون لرد غارات الترك لكى تكون هذه المدن ذات فاعلية دفاعية فقد شحنت بالقوة الحربية لتقوم بدور الدفاع عن إقليم خراسان وما وراء النهر وحماية حدودها من هجمات الأتراك وتؤدى هذه المدن مهمتها فى حماية الإسلام على أكمل وجه وكذلك زاد اهتمام الطاهريين فى هذه المدن وولايتهم على خراسان بجميع مدن بلاد ما وراء النهر التى كانت تقع تحت دائرة خراسان فقد أدركوا بثاقب نظرهم حجم الخطر الذى يهدد ما وراء النهر من قبل الأتراك الشرقيين الذين كانوا يغيرون على حدود هذا الإقليم لذا فقد قام عبد الله بن طاهر بدرء الخطر التركى فعمر الرباطات بخراسان وما وراء النهر وأصبح ما وراء النهر فى أيام الطاهريين بعدا إسلاميا يأتيه المجاهدون والمتطوعة ليسهموا فى الجهاد ضد الأتراك وقد نظم الطاهريون أمور بلاد ما وراء النهر.

واستطاع الطاهريون بجهدهم الذاتى حماية الأطراف تجاوزوها من مرو إلى خوارزم وأسروشنه وكاشغر وفرغانه ولقد كان السامانيون الساعد الأيمن للطاهرين فى تتبع الأتراك واجتثاث جذورهم فيما وراء النهر وقد شهدت هذه البلاد الاستقرار والأمان وقد أشار الاصطخرى فى كتابة مسالك الممالك إلى الأربطة فى بلاد ما وراء النهر (أواسط آسيا) والتركستان الشرقية والغربية حيث قال منهم مدن يقيم فيها المرابطون وقد خطبت بعض المدن بالصلة الوثيقة بينها وبين خراسان ومن هذه المدن بخارى وسمرقند وكاشغر وفرغانه وبذلك أدى آل طاهر دورهم أحسن أداء فى حماية الأقاليم الشرقية بما فيها بلاد ما وراء النهر فى بلاد الترك الشرقيين، وذلك مما دعى الخلفاء العباسيين إلى التمسك بهم طوال(٢٠٥ - ٢٥٩هـ/ ٨٢١ - ٨٧٢م) وقد استمر الطاهريون يحكمون خراسان نحو أكثر من خمسين عاما وكانت بلاد ما وراء النهر فى تلك الفترة تبلغ إقليم خراسان وصارت بطبيعة الحال تحت حكم الطاهريين الذين اهتموا بها بحكم تواجدهم فيها ولابد أن أغلب السكان كانوا من الفرس والأتراك وجنسيات صغيرة وقد تركوا بلاد ما وراء النهر فى أيدى جماعة من آل سامان وكانت فترة استقرار بنى طاهر قليلة فى مرو ثم انتقلوا شرقا إلى نيسابور وجعلوها عاصمة لهم إلى أن سقطت دولتهم عام٢٥٩هـ/ ٨٧٢م وكان الطاهريون يدفعون جزية سنوية لدار الخلافة وظلوا على

هذا الحال حتى سقوط دولتهم وقد قاموا بأجل الأعمال للدولة الإسلامية حيث حافظوا على الثغر الشرقى ومدوا نفوذ العالم الإسلامى فى بلاد الأتراك ووطدوا سلطان المسلمين بالقضاء على الخارجين من ملوك الترك الذين دخلوا فى طاعة المسلمين، لكن بمرور الوقت ولاسيما فترة حكم اخر أمراء الطاهرين(محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين) فقد بدأت الإمارة عاجزة عن القيام بدور فعال فى حكم الثغر الشرقى نتيجة لتعرضها لثورات العلويين وقيام دولة الصفاريين.

لكن مما لاشك فيه أن حكم الطاهريين للشرق الإسلامى التركستان أواخر آسيا كان حكما صالحا فقد اهتموا بأمور الرعية وأصلحوا الأحوال الاقتصادية واقروا الأمن والأمان والاطمئنان فى كل أنحاء الإمارة كما تعهدوا عمالهم بالنظر والمراقبة وتعهدوا أهل العلم والدين والمعرفة والفقه وأصبحت نيسابور فى عهدهم مركزا من مراكز الثقافة الإسلامية الزاهرة ولقد كانت الدولة الطاهرية - فى ذلك الوقت مركزا من مراكز قوة الخلافة رغم استقلالها الذاتى عنها، لكن برغم استقلال الطاهريين بخراسان وبلاد ما وراء النهر إلا أنهم كانوا أحسن حالا فى علاقاتهم بالخلافة العباسية عن كثيرا من الإمارات المستقلة حيث استمر موقف الطاهريين من الدولة العباسية يسير على نفس النهج الأول فى مؤامرة ومساندة الخلاف والعمل على نشر الإسلام والحضارة الإسلامية وصبغ هذه البلاد بالصبغة الإسلامية، والضرب على أيدى الخارجين عن الخلافة ومما يدل على ثقة العباسيين فيهم استمرار حكم أفراد البيت الطاهرى وتولى أمور خراسان وما وراء النهر حتى كان أمرائهم محمد بن طاهر الذى ظل فى إمارته حتى قدوم يعقوب بن الليث الصفارى ودخوله نيسابور عان ٢٥١ هـ / ٨٦٥م وذلك أثر اضطراب الأمور إلى فان آهل خراسان استنجدوا بالأمير الصفارى يعقوب بن الليث الصفارى لإعادة الأمور لبلادهم ووجد فرصته لتوسيع رقعة دولته على حساب الدولة الطاهرية فزحف بجيشه إلى نيسابور عام ٢٥٩هـ / ٨٧٣هـ وقبض على محمد بن الطاهر وبذلك زالت الدولة الطاهرية وهكذا كان ظهور الصفارين سببا فس سقوط الطاهريين بعد أن حكموا ما يقرب من نصف قرن فى هذه الأنحاء وعملوا على

توطيد النفوذ الإسلامي والخضوع للخلافة العباسية وعلموا على حماية الثغور الشرقية دفعا لأى أخطار تركية أو صينية.

ب - الدولة الصفارية فى خراسان وما وراء النهر

(٢٥٤ - ٢٩٠ / ٨٦٧ - ٩٠٢م)

كان دخول الجيش الصفاري نيسابور عاصمة الطاهريين عام ٢٥٩هـ / ٨٧٣م بداية ظهور قوة الصفاريين فى شرق الدولة الإسلامية على حساب الطاهريين والسامانيين الذين كانوا يبسطون ولايتهم على بلاد ما وراء النهر وقد حكم الصفاريون فى الفترة ما بين (٢٥٤هـ/ ٢٩٠) وفى حقيقة الأمر فإن ظهور يعقوب بن الليث الصفارى على الساحة وسيطرته على إمارة الطاهريين وزيادة قوته وسيطرته على خراسان التي تعد أهم ولاية فى الأقاليم الشرقية ولها مكانة مرموقة وسيطرته عليها يجعل بقية الإمارات الشرقية خاتمة وفى طريقها للخضوع وبعد أن سيطرة على خراسان وحصوله على شرعية حكمه لهذه البلاد من الخلافة العباسية فإنه بدأ يتجه ببصرة ناحية الشرق لضم كل الأقاليم الأخرى تحت ولاية والخروج من حيز قوة محلية محدودة إلى قوة وحيدة فى شرقه الدولة الإسلامية.

ومع أن الخلافة العباسية لم تكن راضية عن توسع الصفارين لاسيما أن يعقوب الصفارى مد نفوذه إلى البلاد المجاورة ولم يكتف بالسيطرة على خراسان بل مد نفوذه شرقًا على وادى كابل والسند وضم إلى ولايته بلخ وبدأ يتطلع إلى ما وراء النهر جميعها ولذا اتبع أسلوب شن غارات خاطفة على حدود ما وراء النهر وقد أوقع بالأتراك وطبرستان عدة هزائم. بل إنه سيطر على الأهواز والرى وقزوين وأذربيجان وأوزبكستان وكرمان وبذلك استطاع يعقوب بن الليث الصفارى أن يؤس ملكا عريقا فى شرق الدولة الإسلامية يشمل معظم أجزاء فارس بالإضافة إلى سجستان وأجزاء مما وراء النهر.

ولكن لم يكن يعقوب بن الليث الصفارى فى بادئ الأمر يريد الاستقلال عن الدولة العباسية وإنما كان يرغب فى أن يكون أميرا من قبل الخليفة العباسى ليتمكن بعد ذلك من الاستيلاء على البلاد التى كانت خاضعة جميعها للطاهريين واستطاع أن يحمل الخليفة العباسى المعتمد بالله على الاعتراف بسلطته على البلاد

التى ضمهـا إلى حوزته وهكذا نجح يعقوب بن الليث فى تأسيس دولة استطاعت مع قصرعمرها أن تنشر نوفذها فى مـعظم الأقاليم الشرقية ومع أن الخلافة لم تكن راضية عن توسع الصفاريـين لكنها لم تتخذ موقفا حاسمـا يحد مع أطماعهم لذا نجد الخلافة تقيم حكما مواليا لها فى المشرق وراء خراسان بأن جعلت بلاد ما وراء النهر التى كـانت خاضعة لولاة خراسـان الطاهريين، إقليما قائمـة بذاته وعدهت بولايته إلى نصر بن أحمد السامانى وبذلك جعلت الخلافة العباسية (الخليفة المعتمد ٢٥٦هـ) لنفسها قوة مواليه وراء الصفـار تستخدمها فى الوقت المناسب لضرب قوة الصفارين وبذلك تأرجحت سـياسة الخلافة العباسية بين قـبول ولاية يعقوب وبين رفضـها مما أدى إلى وقوع خلافـات بين الطرفين لكم لم يدم الصـراع طويلا حتى مات يعقوب وآلت الأمور إلى أخيه عمرو ابن الليث وكان عمرو هذا يتميز بكفاءته وقدرته فى إدارة الدولة، والسـيطرة على كل الأمور وكانت سلطته تستند إلى قوة حربية لكنه كانت أقـل من أخيه حدة وقسوة إلا أنه عمل على امـتداد حدود دولته بالتوسع شـرقا لذا كان يشترى المـماليك الصغار ويجرى على الـقواد الرواتب وقد ساعده ذلك على النصر لتوسع نفوذه إلى الشرق والشمال واجتياز نهر جيحون إلى بلاد مـا وراء النهـر عـام ٢٦١هـ بعـد أن كـانوا أول الأمـر نوابا عنهم من قـبل الطاهريين وبعـد وفاة الخليفـة المعتـمد على الله (٢٥٦ - ٢٧٩هـ) وتولى الخليـفة المعتضد بالله أبو العباس أحمد (٢٧٩ - ٢٨٩هـ) الخلافة جدد الخليفة توليته لعمرو بن الليث الصفارى.

لكن عمرو بن الليث الصفارى طلب من الخليفة المعتضد توليته على بلاد ما وراء النهر فأجابه الخليفة إلى هذا الطلب وعـزل إسماعيل بن نصر السامانى (٢٧٩ - ٢٩٥هـ / ٨٩٢ - ٩٠٧هـ) وكان إسماعيل بن نصـر السامانى قد بسط سلطانه على خوارزم وبلاد ما وراء النهـر عام ٢٨٠هـ - ٨٩٣/ ٨٩٤م. وذلك عقب وفاة أخيه نصر فعهد بحكومة سمـرقند إلى أحد ابناء نصر واتخذ من بخارى عاصمة له وبها تقبل من الخليفة المعتضد بالله براءة التـقليد والخلع المعتاد وكان إسماعيل يرى فى خضوعه للخليفة أمير المؤمـنين استجلاب لرضاء الله هنه وإن كان يعرف مدى ما لبلاد بغداد من سلـطان عليه كما أن الخليفة كان يدرك أن البـراءة والتقليد التى أذن فيها إسماعيل بإجراء وضرب باسمه لم تكن إلا مجرد تقليد محض فقد كانت

الخلافة تنوء تحت أعباء كثيرة وقد عاش خخلفاء بنى العباس الضعفاء هؤلاء فى رعب وفزع من تلك الدول الجديدة المستقلة فى شرق الدول حتى نجد الخليفة المعتضد يفوض إلى الأمير إسماعيل بن نصر شئون بلاد ما وراء النهر بلقب حامى الملة والدين والمدافع عن الخليفة ضد أعدائه ولكن الخليفة يكتب فى الوقت نفسه سرا إلى عمرو بن الليث الصفارى أمير خراسان وبلاد ما وراء النهر، ولم يكن إسماعيل السامانى ليأبه لشىء من هذا لكنه لم يعر عمرو الصفارى أدنى أنتباه فقد انطلق عقب ارتقائه العرش يتقرب إلى الله بغزو ديار الأتراك والصين التى تقع عند الشمال من أضيه وعلى مقرب من تركستان الشرقية فأنزل بالأتراك الهزيمة ثم عاد إلى بخارى لكنه وجد نفسه يدخل فى قتال مع عمرو بن الليث الصفارى والذى استنفد جهد سبع سنوات طوال لاسيما أن عمرو الصفارى كان لديه الإصرار على ضم بلاد ما وراء النهر وانتهز الخليفة هذه المناسبة لضرب قوة السامانيين النامية فى بلاد ما وراء بناء على كتاب الخليفة المعتضد لكن الأمير إسماعيل ابن أحمد السامانى رفض أن يسلمها إلى الأمير الصفارى همرو بن الليث ورد عليه يحثه على عدم التعرض لبلاده وعدم توسيع ملكة على حساب الأمارة السامانية لكن عمرو أصر على تحقيق سياسته الرامية إلى توسيع ملكة على حساب الإمارة السامانية ولم يقدر الصعاب التى تقف فى طريقة وتحول دون وخليفتها المعتضد وأخيه الموفق ورجالهما إنما يرمى بذلك إلى إضعاف قوة السامانيين حتى تمكن عمرو الصفارى هو ورجاله من مواصلة الجهود للتوسع فى بلاد ما وراء النهر واشتدت عزيمة عمرو وقوى من أطماعه فاستعد للحرب ضد إسماعيل أحمد السامانى وسار على رأس جيش كبير إلى بلاد ما وراء النهر واشتبك مع الأمير السامانى إسماعيل فى معارك ضارية استطاع فيها السامانيون أن يلحقوا بعمرو هزيمة حاسمة وأسروه وأرسلوا به إلى الخليفة المعتضد، فأختار عمرو الصفارى دارا لخلافة وبذلك انتهى خطر كبير كان يهدد سلطان الخلافة العباسية. وبعد أن أسر عمرو بن الليث الصفارى اضطرب أمر الصفارين حيث ولى البلاد حفيدة طاهر بن محمد بن عمرو. وعمل الخليفة المعتضد على تأمين بلاد الخلافة العباسية الإسلامية فى هذا الجانب فاستعان بإسماعيل السامانى صاحب بلاد ما وراء النهر للقضاء على بقايا الصفارين فى إقليم سجستان.

وأخذت الخلافة ترسل جيوشها المتوالية حتى استطاعت القضاء على بقايا الصفارين عام ٢٨٩هـ / ٩١٠م وكان عمرها قصيرا لم يتجاوز خمسة وثلاثين عاما على الرغم من قوة جيشها وحسن تسليحها على الغم من سعة البلاد التى وقفت تحت أوليتهم، ولم يكتب للدولة طول العمر نظرا لأن الصفارين اتجهوا إلى التوسع على حساب الأقاليم الإسلامية ودار الخلافة وكذلك على حساب دولة السامانين التى كانت تقوم بمهمة الثغور وحماية الحدود فى المشرق مما أضعفها وقصر من عمرها وذلك من سوء طالعها وكانت الأحداث فى دولة بنى صفار قبل سقوطها قد ساعدت على هذه النهاية لاسيما أن قوة الروح المعنوية للجنود قد فقدت بعد فقدهم الزعيم القوى عمرو بن الليث الصفارى وأسرة وتفكك وحدة الصفارين فكان هذا من أهم أسباب سقوط الدولة وانتهز السامنيون الفرصة وعملت الخلافة على الاستفادة من هذه الظروف المواتية وبهذا التحالف الثلاثى الخلافة العباسية والسامنيون وتفكك البيت الصفارى وتمزق كلمته زالت دولتهم فى نهاية عام ٢٨١هـ / ٨٩٤م بعد عامين من سقوط وأسر قائدهم وقتله فى بغداد وهكذا كانت هزيمة إسماعيل بن أحمد السامانى بالقضاء على البقية الباقية من نفوذ الصفارين وتضيف إلى ما سبق قوله أن تمرد كبار قادة الدولة الصفارية على سادتهم وما ترتب على ذلك من ضعف الدولة الصفارية وانهيارها، ولقد كان سقوطها سريعا، لأنها قامت على أساس عسكرى.

وهكذا فإن القضاء على قوة الصفارين فى جنوب وسط آسيا بداية لظهور قوة السامانيين كقوة وحيدة فريدة فى شرق الدولة الإسلامة لا ينازعهم منازع فى فرض السيادة على كل هذه الأنحاء لا سيما أنهم كانوا يحكمون أراضى صغيرة فى بلاد ما وراء النهر ولاة من قبل الطاهريين لكن بعد إسقاطهم الصفاريين عام ٢٨٩هـ / ٩٠١م فإن الأمور بدأت تأخذ بعد أخر مغايرا لكل الظروف والملابسات السابقة حيث كانت تعيش الدولة السامانية فى الظل باعتبار أنها كنت تخضع لقوة الظاهرين وتحكم باسمهم لا باسم الخلافة العباسية، لكن عندما استطاع إسماعيل بن أحمد السامانى أن يأسر عمرو بن الليث بن الصفارى ويرسل به مصفدا فى الأغلال إلى بغداد فإن ذلك كان هو العنوان الواضح القوى لظهور قوة السامانيين لاسيما أن الخليفة المعتضد بالله بوصفة أمير المؤمنين عند سماعه بالانتصار الباهر

على الصفارين كتب إليه يأمره بأن يسير إليه عمرو، لأنه هو وحده الذى له الحق فى أن يعاقب المذنب مع أنه هو نفسه الذى حرص عمرو على تلك الحرب.

وهنا نجد أن الأمير السامانى إسماعيل لم يجد أمامه إلا أن يستجيب لطلب، الخليفة لأنه لم يستطيع أن يتجاهل أمير المؤمنين، ونفذ إسماعيل أوامر الخليفة وعند وصول عمرو الصفارى إلى بغداد فإن الخليفة العباسى بادر من فوره بإرسال البراءة إلى إسماعيل بولاية خراسان وكذلك حكم ما وراءالنهر حتى جيحون وقدم رسول الخليفة ومعه الخلع الفاخرة وتم ذلك فى احتفال عظيم بتقليده أمور هذه البلاد التى تمتد شرق العراق حتى حدود الصين وعلى ذلك فإنه إذا كانت الدولة الصفارية قد ظهرت فى شرق الدولة الإسلامة فى خراسان وبعض مناطق أواسط آسيا على حساب الدولة الطاهرية فإن السامانيين بدورهم قد ظهروا كقوة كبرى وفعاله ومؤثره فى أواسط آسيا على حساب الصفارين ولقد كان للسامانيين الدور الواضح فى تاريخ أواسط آسيا الذى يشمل الآن جمهوريات آسيا الإسلامية المستقلة عن الاتحاد السوفيتى عام١٩٨١م كقوة إسلامية فعالة بدأت تأخذ وضعها كقوة مؤثرة على الساحة الإسلامية فى العصر الحديث.

***

الدولة السامانية

٢٦١ - ٣٨٩/٨٧٤-٩٩٩م

فى آسيا الوسطى أو التركستان أقام السامنيون دولة قوية فى آسيا الوسطى أو بلاد ما وراء النهر وخراسان، واستمرت مدة طويلة أكثر من قرن وربع، مما يدل على قوتهم، وهى من أطول الدويلات المستقلة عمرا.

نسب وأصل السامنيون: ينتسب السامنيون إلى «سامان» رأس الأسرة وهو نبيل فارسى، أنحدر من سلالة بهرام جوبين، إحدى قواد الفرس الشجعان وصاحب الانتصارات الكبرى ضد الروم، واختلف المؤرخون حول اسم ساما هذا فالنرشخى مؤرخ الدولة السامانية فى كتابه (تاريخ وبخارى) يرى أن «سامان» أطلق عليه هذا الاسم، لأنه بنى قرية وسماها سامان، ويذهب آخر (سعيد نغيسى) أن هذه الكلمة مركبة من كلمتين (سامان) و(خداه) وتغنى أميرا وحاكم (سامان خداه) أى أمير أو حاكم سامان، والرأى الأرجح أن سامان هذا اسما فارسيا يعنى الأمير أو الحاكم.

وعلى أية حال فإن سامان ينتسب إلى أسرة فارسية عريقة، واتفق على ذلك كثير من المؤرخين الفرس والعرب.

موطنهم:

وكما اختلف المؤرخين فى نسبهم، اختلفوا فى موطن السامانيين هل هم من بلخ الفارسية أم سمرقند التركية؟ أو بعبارة أخرى هل السامانيون ينتمون إلى الأصل الفارسى أم التركى؟.

وكما قلنا فهم ينتمون إلى الفرس، وأن حكموا بلاد الترك (بخارى - سمرقند وغيرها) ولو انتموا إلى الأتراك؟ فيكف نفهم تلك الحروب التى خاضها السامانيون ضد الأتراك والذين كانوا يغيرون على حدود دولتهم؟ وكيف نفسر أيضا حركة إحياء الشعر الفارسى فى بلاط السامانيين لو كانوا من سمرقند - إحدى بلاد الترك - بالإضافة إلى الإجماع على أنهم ينتمون إلى بلخ إحدى مدن الفرس.

اتصال سامان بالدولة الإسلامية:

اتصل سامان بالدولة الإسلامية فى عهد «هشام بن عبد الملك» فقد وفد على أسد بن عبد الله القسرى - وإلى خراسان - فأكرمه، وقهر أعدائه، فاعتنق (سامان) الإسلام على يديه، وسمى ابنه أسدا تبركا به، وكانت الاضطرابات السياسية وهجمات المغيرين المتكررة من الأتراك على خراسات وخصوصا «بلخ» هى سبب هروب «سامان» إلى أسد القسرى، وقدم سامان خدماته للدولة الأموية، وساهم فى محاربة أعداءها / كما دخل خدمة الدولة العباسية، ولعب دورا فى الثروة العباسية فى خراسان، حينما انضم إلى أبى مسلم الخراسانى.

كما خدم أسد بن سامان فى بلاط العباسيين أيام الرشيد، وكما أعتاد بنى العباس إكرام الفرس مثل البرامكة، وأسرة بنى سهل أكرموا «أسد بن سامان» وأولاده، فعندما آلت الخلافة إلى المأمون العباسى (١٩٨ - ٢١٨هـ ٨١٣ - ٨٣٣م) قربهم إليه. ووجه عنايته الشديدة إليهم وولاهم على إقليم ما وراء النهر «فعين نوح بن أسد واليا على سمرقند وظل واليا عليها حتى توفى سنة ٢٢٨هـ، ٨٤٣م وتوارث أولاده حكمه.

كما عين أحمد بن سامان على فرغانه والذى من صلبه جاء حكام الدولة السامانية إلى جانب بعض الشاش، كما كانت الشاش، وأشروسنه ليحى بن أسد وهراة لياس بن أسد حتى وفاته سنة ٢٥٢هـ / ٨٦٦م، وتوارثها أولاده.

وكان أحمد بن أسد رجلا فاضلا، حسن السيرة، ظل حاكما على سمرقند حتى مات سنة ٢٥٠هـ/ ٨٦٤م، وبعد وفاته تولى حكمهم سمرقند ابنه (نصر بن أحمد) الذى عينه المعتمد أميرا على كل بلاد ما وراء النهر سنة ٢٦١هـ/ ٨٧٤م. لتقوم الدولة السامانية.

نشأة الدولة السامانية:

دخلت الأسرة السامانية فى طور جديد سنة ٢٦١هـ/ ٨٧٤م، هيأتها لها الظروف السائدة فى هذه المنطقة النائية عن مراكز الخلافة العباسية؟ فما هذه الظروف؟ والعوامل التى مهدت قيامها؟ وكيف نشأت الدولة السامانية وسط هذه

الظروف؟ وهل كانت السامانية فى علاقتها بدولة الخلافة كالطاهرية أو الصفارية؟ وهذا ما سنحاول الإجابة عنه فى الصفحات التالية:

العوامل التى مهدت لقيامها:

١ - تولية الطاهريون حكم خراسان: وهم فرس فأصبح أقليم خراسان وما وراء النهر منذ سنة ٢٠٥هـ / ٨٢٠م أكثر أجزاء الدولة الإسلامية حيوية ونشاطا، وأصبح السامانيون فى خدمة الطاهرين، مما هيأ لهم فرصة الاحتكاك بحكام خراسان.

٢ - ضعف الخلافة العباسية، وعدم محاولتها الدفاع عن حماتها الطاهريين، لأنها كانت تعانى الاضطرابات والفوضى، ووقوع خلفاءها تحت سيطرة العنصر التركى، وكثرة الثورات عليها كثورة الزنج والقرامطة.

٣ - قوة الصفاريين، ومحاربتهم الخلافة العباسية نفسها فى عهد الموفق، حينها جهز يعقوب ابن الليث الصفار جيشا لمحاربة الموفق، فى وقت ضعفت بل سقطت الدولة الطاهرية حامية الخلافة فى خراسان، فكان لابد من إنشاء قوة أخرى جديدة تحمى خراسان وما وراء النهر من خطر الصفارية والزيدية، فكان الأذن بقيام السامانية والدليل على ذلك أنها أسقطت الصفارية والزيدية فيما بعد

٤ - هكذا قدر للسامانيين الذين أعدهم القدر ليلعبوا دورا هاما وخطيرا وتكون نهاية الصفاريين على أيديهم، ويسدوا فراغا سياسيا وعسكريا كبيرا خلفة الطاهريون، فقد ظلت إمارة سمرقند يتوارثها السامانيون إلى أن انقرضت الدولة الطاهرية سنة ٢٥٩هـ / ٨٢٧م، فأرسل الخليفة المعتمد أمرا بإسناد ولاية ما وراء النهر لنصر بن أحمد بن سامان، الذى أتخذ سمرقند عاصمته لملكة وتم ذلك سنة ٢٦١هـ/ ٨٧٤م.

٥ - جاءت الدولة السامانية استجابة لتيار الحركة الاستقلالية والقومية الإيرانية، وإحياء القومية ورغم أنها قامت فى منطقة لا تدخل فى منطقة الثقافية أو الحضارة الإيرانية (بلال ما وراء النهر) ولكنها مدت نفوذها إلى إيران فشملت خراسان، وطبرستان والرى وسجستان، والدليل على ذلك، إحياءهم اللغة الفارسية الحديثة التى تجمع بين اللغتين العربية والفارسية.

٦ - حماية الثغر الشرقى للدولة الإسلامية من خطر الأتراك والصينين، وقد لعب السامانيون دورا كبيرا فى جهادهم ضد الكفار فى منطقة آسيا الوسطى، والحضارة الإسلامية فى تلك البلاد الوثنية، ودخل على أيديهم عدد كبير من الصينيين فى الإسلام، وجعلوا من بيئة بلاد ما وراء النهر بيئة صقل وتهذيب للعنصر التركى، وبدأ يتحول إلى عنصر مفيد للعالم الإسلامى.

تدعيم الدولة: أصبح نصر بن أحمد مستقلا بسمرقند، وخضع لسلطان الخلافة العباسية الروحى، وأصبح لا يتبع إلا الحكومة المركزية فى بغداد، بعد أن كان يتبع ولاة خراسان، ومنذ سنة ٢٦١هـ/ ٨٧٤م، أخذت الدولة السامانية فى الظهور على يد نصر بن أحمد وأخذت تؤكد استقلالها، فبسط نصر نفوذه على بلاد ما وراء النهر بأسرها، وقد صادفته عدة مصاعب ومتاعب شأنه شأن غيره من مؤسسى الدول والحكومات وهى:

١ - بخارى: العاصمة الثانية لإقليم الصغد وأهم مدينة ف آسيا الوسطى بعد سمرقند والعاصمة الدينية لها إذا كانت تعانى الفوضى والقلاقل والمتاعب بسبب غزوات الخوارزمية لها وهى إمارة مجاورة لهم، ولكن أهل بخارى صدوهم، فعين «نصر بن أحمد» أخاه «إسماعيل بن أحمد» واليا عليها الذى قابله أهلها باحترام شديد ونثروا عليه الذهب والفضة كعادتهم.

٢ - الخطر الصفارى: حيث حاول يعقوب ابن الليث الصفار غزو بخارى طمعا فيها وأملا فى اتساع دولته ولكن نصر بن أحمد أرسل أخوه إسماعيل بن أحمد إلى بخارى ليضبط أمورها كما قلنا سنة ٢٦١هـ/ ٨٧٤م.

٣ - خطر الأتراك الكفار المجاورين، وكانوا قوة كبيرة استطاع نصر بن أحمد التعامل معها بالحرب والسلم.

٤ - أطماع الإمبراطورية الصينية المجاورة فى التركستان الغربية لدولته ومحاولتهم استغلال حالة الضعف التى كانت عليها الحكومة، واضطراب الأمور فى بخارى لغزوها والاستيلاء على خيراتها، فقد كانت لأجل وأعظم بلاد ما وراء النهر للسيطرة على طريق الحرير العظيم - طريق التجارة العالمى - والذى كان يمر ببخارى وسمرقند وحتى بغداد.

٥ - عصيان بعض جنود الأتراك على الأمير نصر بن أحمد، فقد كان كل جيشه منهم، ولكنه استطاع أن يضمهم إليه.

٦ - الحرب الأهلية بين الأمير نصر وأخوه إسماعيل:

دخل إسماعيل بن أحمد بخارى، فقضى على الفوضى، وعلى عصابات اللصوص من الفلاحين المتذمرين وتفرغ للأخطار الخارجية المتمثلة فى يعقوب بن الليث الصفارى والخوارزمية الذين كانوا يهددون أمنها عبر جيحون، واستطاع أن يحشد جيشه ويشن هجوما عنيفا عليهم. انتصر فيه ورد الخطر الصفاريو الخوارزمى عنها، فاستقرت له الأمور فيها، كما تخلص أيضا من كبار الشخصيات فى بخارى الذين بدؤوا يشقون عصا الطاعة ولا يحترمونه وليست له هيبة عليهم، فتخلص منهم، بأن طلب منهم مغادرة بخارى إلى سمرقند لمقابلة أخيه نصر، وهم فى الطريق أرسل إلى أخيه باعتقالهم وأودعوا السجن، واستقر له وأخيه الأمر فى سمرقند وبخارى.

وبهذه السياسة الحازمة توطد سلطان الدولة السامانية فى بلاد ما وراء النهر.

الصراع على السلطة

تعرضت الدولة السامانية فى بدء حياتها إلا اختلاف حاد وصراع نشب بين الأخوين نصرو إسماعيل، وتطور النزاع إلى حرب دموية أريقت فيها الدماء، وذهبت فيها الأرواح، فلم تستمر العلاقات بينهما على ما كانت عليه من الود والصفاء، ذلك أن نصر فرض على أخيه إسماعيل وإلى بخارى من قبله - كل سنة خمسمائة آلف درهم من أموال بخارى، وكن إسماعيل لم يستطع دفع هذا المبلغ لحروبه الكثيرة التى خاضها ضد أعداء الدولة الناشئة فاستاء نصر من أخيه إسماعيل واعتقد أنه يسعى إلى الاستقلال ببخارى، فعمل على إخضاعه، فسار على رأس جيش كبير، واشتبك الأخوان سنة ٢٧٢هـ - ٨٨٥م فى حروب مستمرة انتهت بصلح بينهما بمقتضاها ولى إسماعيل خراج بخارى وعزل عن حكمها، وتحسنت العلاقات بينها فترة قليلة، ثم تدخل الوشاة والحاقدين وبطانة السوء بينهما، فأسدوا العلاقات بين الأخوين مرة آخرى، وتجدد القتال بينهما سنة

٢٧٥هـ - ٨٨٨م وهزم إسماعيل أخوة نصر، ووقع أسيرا فى يده، وترجل إسماعيل عن حصانه، وقبل نصر على جبينه وأمر جيشه بالابتعاد عن أخيه.

إسماعيل يحسن إلى أخيه نصر:

انتهت الحرب بانتصار إسماعيل كما قلنا، وأسر نصر ولكن إسماعيل أحسن إلى أخيه، واصطنع معه اللين والحكمة، فأرجعه إلى سمرقند معززا مكرما قبل أن يصلها أبناء الحادث فلا تتعرض بذلك سمعته فيما وراء النهر إلى شىء من المهانة، وبالغ فى إكرام أخيه، وقدم له الطاعة والولاء، بل سأله العفو والصفح وقال له: «أيها الأمير إنها إرادة الله التى شاءت أن أراك اليوم، وأنت فى الأسر» فرد عليه نصر بقوله: «بل هى أرادتك أنت، إذ خرجتك على سيدك، وأذنبت بذلك فى حق الله عز وجل»، لقد ظن نصر أن أخاه إسماعيل يسخر ويستهذئ به، ولكن إسماعيل كان يقصد شيئًا آخر، فقد قال له فى لحظة وداعه «.. إننى أحكم بالنيابة عنك هذه الديار».

وفاة نصر وانفراد إسماعيل بالحكم:

انتهى الصراع بين الأخوين بموت نصر سنة ٣٧٩هـ ٢٨٩م فتولى إسماعيل أمر الدولة السامانية وأقره الخليفة العباسى المعتضد على حكم بلاد ما وراء النهر، ولقد لعب إسماعيل بن أحمد دورا كبيرا فى بناء وإرساء قواعد الدولة السامانية التى كانت فى حاجة إلى شخصية قوية تجتاز بها الصعوبات والمحن التى كانت فى حاجة إلى شخصية قوية تجتاز بها الصعوبات والمحن التى واجهتها، وقد وجدت فى هذه الشخصية فى إسماعيل بن أحمد السامانى.

الدولة السامانية فى عهد إسماعيل بن أحمد (وعلاقتها الخارجية):

اجتازت الدولة السامانية أدق مراحل حياتها التى صادفتها فى بدء نشأتها من حرب أهلية وفتن داخلية، ويعتبر إسماعيل بن أحمد من حيث الشهرة والزعامة، أعظم حكام الدولة السامانية بلا منازع سواء أكان ذلك من الناحية السياسية أو الحربية أو الإدارية، ويطلق على عهده، أنه عهد اتساع الدولة السامانية وازدهارها، وتأكيد استقلالها.

ولد إسماعيل بن أحمد فر فرغانه أثناء ولاية واده أحمد بن أسد عليها، وكان واليا على بخارى من قبل أخيه نصر. وبعد وفاة نصر أقره المعتضد، كما رأينا على بلاد ما وراء النهر.

وقد أصدر الخليفة مرسوما يقره فى منصبه فى المحرم سنة ٢٨٠هـ/ ٨٩٣هـ وأصبحت بلاد ما وراء النهر كلها تابعة له بعد أن كان واليا على بخارى فقط، وبانتزاع إسماعيل هذا الحق من الخليفة تأكد استقلال السامانيين..

وقد اتصف بالعدل وحسن السيرة في رعيته، وكان يحب أهل العلم ويكرمهم لذلك دامت دولته له ولأولاده من بعده، وطالت أيامهم، وكان متواضعا لا يحب التفاخر بالإحسان والأنساب ويهتم بالأعمال لا بالأقوال.

ولقد امتازت الدولة السامانية فى عهده بالنشاط الحربي، فخاضت معارك حربية فى جبهات ثلاث وهى ما يشمل علاقته الخارجية إلى جانب علاقته بالخلافة العباسية:

أ - مع الدولة الصفارية. ب - مع الزيدية في طبرستان.

جـ - جهاده ضد الأتراك. د - علاقته مع الخلافة العباسية.

أ - مع الدولة الصفارية:

كان الخليفة العباسى المعتضد الذى أقر حكم إسماعيل على بلاد ما وراء النهر يريد إحياء الخلافة العباسية ومدها مرة أخرى، فنظر بعين الشك والريبة إلى الدولة السامانية الناشئة التى أخذت تزداد قوة ونفوذا فى القسم الشرقى من الدولة الإسلامية، فاتخذ الخليفة المعتضد سياسة ذات وجهين، فبينما أعطى إسماعيل الساماني حكم بلاد ما وراء النهر تآمر عليه سرا، وأرسل إلى عمرو بن الليث الصفار، يحرضه على التخلص من إسماعيل الساماني، ولعل الخليفة العباسي كان يريد ضرب خصمين قويين ببعضهما بقصد إضعافها أو شغلهما عن الزحف إلى دولته، ومهما تكن النتائج فإن الخليفة العباسي كان هو المستفيد الوحيد من ورائها لأن الحرب بين الخصمين تضعفهما أو تضعف واحد منهما على الأقل، وقد استمرت الحروب بين الأمير الصفارى والأمير الساماني، بعد ما طلب عمرو بن الليث من المعتضد إعطاءه بلاد ما وراء النهر، فأعطاها له، وعزل إسماعيل عنها،

ليضعف قوة السامانيين، فقامت الحرب بينهما، ولم يكن إسماعيل راغبا فيها لعلمه ما تخلفه الحروب من دمار، فأرسل إلى عمرو بن الليث يطلب منه الاقتناع بما تحت يده من أملاك فرفض، فخرج من بخارى يقود عشرين ألف مقاتل وعبر جيحون إلى الجانب الغبى، وشن هجماته على جيش الصفار من جميع الجهات وانتصر انتصاراً ساحقًا على جيش الصفار وأسر عدد كبيرا منه، وأسر عمرو بن الليث نفسه، حينما وقف أهل نيسابور العاصمة الصفارية وأهل بلخ مع الأمير إسماعيل ووثبوا على عمرو وقيدوه وحملوه إلى إسماعيل أسيرا وجئ بعمرو إلى إسماعيل، فأمر بإكرامه، فأنزله فى خيمته وعن أخاه أبا يوسف حارسا عليه وعامله معاملة حسنة، وتعهد بحفظ حياته، وبعث به إلى سمرقند.

وارتفعت مكانة الأمير السامانى بعد هزيمته لعمرو بن الليث، فضم خراسان إلى ملكه، وفوضه الخليفة المعتضد حكمها، وبدل سياسته معه فمدحه، وذم عمرو الصفارى، وقدم رسول الخليفة ومعه الخلع الفاخرة إلى إسماعيل السامانى فى بخارى، فأكرم إسماعيل وقادته، ثم ضم طبرستان إلى دولته، ثم الرى، ثم أرسل له الخليفة العباسى رسالة يطلب فيها إرسال عمرو بن الليث، فخير إسماعيل عمرو الصفارى بين المقام عنده أو الذهاب إلى الخليفة، فأختار المقام بجوار الخلافة وطولب من إسماعيل أن يحسن معاملة أولاده ووصل بغداد سنة ٢٨٨هـ/٩٠١م، حيث اعتقل وبقى فى الأسر إلى آخر عهد المعتضد.

وعهد المعتضد إلى إسماعيل السامانى، بالقضاء على بقايا الصفاريين حتى أسقط دولتهم سنة ٢٨٩هـ/٩٠١، ومن هنا أعجب المعتضد بإسماعيل السامانى، وبعث له بالخلع وولاه ما كان تحت يده.

أ - مع الدولة الزيدية فى طبرستان مع العلويين والديلم:

ب - لم تكد تنتهى الحرب مع الدولة الصفارية على الجبهة الغربية للسامانيين، حتى قامت الحرب فى الجبهة الشمالية مع الزيدية بطبرستان، والزيدية ينتسبون إلى الحسن بن زيد، الذى استولى على طبرستان سنة ٢٥٠هـ/٨٦٤م من الطاهرين وهو علوى ينتمى إلى البيت، واتخذ من انتسابه هذا سند له، وظل حاكما عليها حتى سنة ٢٦٠هـ/٨٧٣م إلى أن تولى أخوه (محمد بن زيد) وكانت

هذه الدولة من الدويلات الشيعية التي قامت في البلاد المشرق معادية للخلافة العباسية.

وعندما دخل محمد بن زيد في حرب مع السامانيين حفر قبره بيده، فقد كانت السامانية أقوى وفي وضع أفضل خاصة بعد أن انتصرت على الصفاريين، ووثقت علاقتها بالخلافة العباسية.

فعندما هزم (عمرو بن الليث) على يد الأمير إسماعيل، تجاوز (محمد بن زيد) الحد، وحاول ضم جرجان ظانا أن إسماعيل بن أحمد لن ينازعه عليها، فطلب منه إسماعيل الرجوع عن الفكرة، ولم يستجيب لنداء إسماعيل الساماني، الذى جهز جيشا لمحاربته، والتقوا على باب جرجان، وقامت معركة رهيبة انتصر فيها القائد الساماني (محمد بن هارون) وأصيب محمد بن زيد بإصابات خطيرة وأسر ابنه زيد، وغنم ما في معسكره، ومات بعد أيام، فدفن على باب جرجان، وحمل ابنه زيد إلى إسماعيل الساماني فأكرمه وأغدق عليه، وأنزله فى بخارى وتوجه إلى طبرستان واستولى عليها، وضمت إلى أملاك الدولة السامانية، وسقطت الزيدية.

وبذلك ضم آل سامان إلى أنفسهم حكم المشرق كله وتلقوا بذلك تراث الطاهرين وتحالفوا مع الديلم (الفرس) بالأموال وحرمت الزيدية منهم.

إلى أن استطاع أحد دعاة العلويين وهو الحسن الأطروش سنة ٣٠١هـ/ ٩١٣م، أن يجمع حوله الديلم مرة أخرى، ويهزم السامانيين، ويسترد طبرستان ويعيدها سميتها الأولى، وظلت الإمامة فى أولاده إلى أن انتهت سنة ٣١٦هـ/ ٩٢٨م وتحولت طبرستان إلي خليفة المسلمين السنى فى بغداد.

ج - جهادهم المقدس ضد الأتراك:

بذل أمراء الدولة السامانية جهودا كبيرة فى سبيل نشر الإسلام، والدعوة إليه فى ربوع البلاد التى تخضع لسيطرتهم، فكانوا يشنون حروبا كثيرة ضد الأتراك الشرقيين الذين لم يكونوا قد دخلوا فى الإسلام، وقد اتخذت هذه الحروب سمة دينية ولا سيما فى عهد الأمير إسماعيل الساماني، الذى هدى الله على يديه الكثير من الديلم والأتراك، ومن أثم أحبهم الناس والتفوا حولهم.

ففى سنة ٢٨٠هـ/ ٨٩٣م جهز إسماعيل بن أحمد جيشا سار به إلى بلدة (طراز) التركية وكان أهلها من الأتراك مازالوا على الكفر، فرغب فى نشر الإسلام فيها، ولاقى مشقه كبيرة فى هذه الحرب التى شنها على أمير «طراز» ولكنه استسلم للأمير السامانى، وأسلم فحول إسماعيل السامانى كنيستها إلى مسجد، وقرأ الخطبة باسم أمير المؤمنين المعتضد بالله ثم عاد إلى بخارى بغنائم كثيرة.

وحينما شن الأتراك هجوما على الدولة السامانية سنة ٢٩١هـ/ ٩٠٣م، لاسترداد المدن التى أستولى عليها السامنيون، استطاع الأمير إسماعيل صدهم وهزيمتهم وأفتتح العديد من مدنهم ونشر فيها الإسلام، وأقرهم الخليفة العباسى عليها.

د - علاقة الدولة السامانية بالدولة العباسية:

رأينا كيف وطد السامانيون علاقتهم ببنى العباس، ودخلوا فى خدمتهم فى عهد المأمون، فولاهم الولايات فى بلاد ما وراء النهر. واستمرت علاقتهم بالخلافة حسنة طوال العصر الأول، واستعان بهم الخلفاء، كما استعانوا بالطاهريين من قبل، وعندما حاول المعتضد ضربهم بالصفاريين فشلت محاولته.

وفى عهد الأمير إسماعيل ظهرت الدولة السامانية بمظهر القوة فزالت الدولة الصفارية بعد أن عجزت جيوش الخلافة فى القضاء عليها، وقدمت بهذا خدمة كبرى للدولة العباسية التى كانت تعانى الضعف والانحلال والتدهور.

كما تكن إسماعيل أيضا من فتح طبرستان وإزالة الزيدية منها وقتل (محمد ابن زيد) الذى نازع السامنيون ضد الحركات السياسية والمذهبية التى كانت تضر بمصالحهم ومصالح سيادتهم الشرعية المتمثلة فى الخلافة العباسية.

ولم تكتف جيوش السامانيين بطرد العلويين من طبرستان، بل جعلتها تحت السلطة الشرعية للخلافة العباسية، وجعلت الخطبة فيها باسم الخلافة، لذا منهم خلفاء بنى العباس الامتيازات التى حرمت على غيرهم، فجعلوهم حكاما على هذه المناطق التى كانت على وشك الانهيار.

ورغم أن أنهم دفعوا ضريبة للخلافة والحكومة المركزية فى بغداد، ألا أنه لم

يقم دليل على دفعها بانتظام، فقد كان من صالح الخلافة أن تعطى أقليم خرسان وما وراء النهر لحاكم يعترف لهم بالولاء خوفا من ضياعها.

وقد سمح خلفاء بنى العباس للسامانيين بسلك عمله ذهبية باسمهم بجانب اسم الخليفة، وبهذا تمتع السامانيون بأمور وهى: حفرا أسمائهم على العملة، وذكر أسمائهم على المنابر بجانب اسم الخليفة، وتخصيص كل دخل البلاد لهم.

وقد تمتع السامانيوم باستقلال كبير عن الحكومة المركزية فى بغداد فيما يخص الإدارة الداخلية، فهم الذين كانوا يولون ولاة اقاليم، أو يعزلوهم عن مناصبهم، كما كانوا يقمعون الثورات أو الهجمات التى كانت توجه إليهم.

وقد تمتع السامانيون باستقلال كبير عن الحكومة المركزية فى بغداد فيما يخص الإدارة الداخلية، فهم الذين كانوا يولون ولاة أقاليم، أو يعزلوهم عن مناصبهم، كما كانوا يقمعون الثورات أو الهجمات التى كانت توجه إليهم.

وقد سارت العلاقات بينهم على المودة، حتى أن الخلفاء كانوا يعتمدون عليهم فى إقرار سلطانهم فى بلاد المشرق مثلما حدث مع إسماعيل وابنه أحمد الذى خلفه فى الحكم.

وهناك سببا آخر فى تحسن علاقتهم بالخلافة، وهو أنهم لم يتجهوا بأطماعهم إلى البلاد الداخلية وأملاك الخلافة العباسية، وإنما اتجهوا بنشاطهم إلى المجال الخارجى، ونشر الإسلام فى الثغر التركى فى أواسط آسيا وسدوا فراغا أحدثه انتهاء الطاهريين، وكانت كل قوتهم مركزة فى التركستان شرقى نهر جيحون، وفى أواسط آسيا ولذلك تركهم العباسيين، فاستطاعوا نشر الإسلام والحضارة الإسلامية فى تلك البلاد الوثنية، فدخل على أيديهم الكثير من الأتراك فى الإسلام.

وأقاموا مراكز ثقافية هامة، كانت عاملا هاما فى صبغ الأتراك بالصبغة الإسلامية، وجعلوا من التركستان بيئية مؤثرة فى الترك، فخفف خطرهم على العالم الإسلامى، بل هياتهم القيام بدور فعال لصالح العالم الإسلامى فى الداخل والخارج، كما يضاف إلى ذلك ضعف الخلافة العباسية نفسها واحتياجاتها لمن يدافع عنها ويحفظ لها حدودها الشرقية.

وفاة الأمير إسماعيل وبداية سقوط الدولة:

لم تطل ولاية إسماعيل، فقد راح ضحية مؤامرة بعد حكم دام ست سنوات فقط، كانت مليئة بالانتصارات والعمران والعدل، ويعتبر المؤسس الحقيقى للدولة السامانية، وخلفه ابنه نصر الذى كان فى الثامنة من عمره، فأستصغره الناس واستضعفوه، وتنافس أمراء البيت السامانى على العرش وقامت ضده الكثير من الثورات والمؤامرات، فاستقل عمه (إسحاق بن أحمد) بسمرقند وبايعه أهلها، وخرج ابنه (أبو صالح إسحاق) فى نيسابور واستولى عليها وعلى بعض مدن خراسان، ولكن الأمير الصغير لم يترك لعمه، وابن عمه الفرصة، فتقضى على ثورتهما، وأعاد البلاد التى اغتصابها إلى حوزته.

كما شن حربا ضد العلويين فى طبرستان وهزمهم سنة ٣٠٩هـ/ ٩٢١م، واستعاذ نفوذ والده عليها وعلى بلاد ما وراء الهر وخراسان وفارس وطبرستان وكرمان وجرجان والعراق، وذاع صيته بفضل هذه الانتصارات، حتى أن الخليفة العباسي استنجد به، واعتمد عليه في ضرب الخارجين عليه.

الأمير ونوح بن نصر: توفى نصر بن إسماعيل سنة ٣٣١هـ / ٩٤٧م، فضعفت الدولة السامانية مرة أخرى، وطمع الأمراء فيها وواجه ابنه نوح بن نصر مصاعب كثيرة خاصة في بخارى، الذى استقل بها أبو إسحاق بن أحمد ولكنه قضى على ثورته.

ومن أخطر الصعوبات التى واجهته:

غزو ركن الدولة البويهى لبلاد الرى، واستيلائه عليها، لكن قائدهم (أبو على)، استطاع استردادها من البويهيين، ولكن فجأة انقلب عليهم، واستقل بخراسان، وأرسل إليه الخليفة، فلم يعد يتجاوز بلاد ما وراء النهر.

الأمير عبد الملك بن نوح:

توفى الأمير نوح سنة ٣٤٣هـ/ ٩٥٤م، وتولى ابنه عبد الملك الذى كان فى العاشرة من عمره فنجح أمراء الولايات فى الاستقلال بولاياتهم، فلم يقم يعمل يعيد وحدة الدولة، وحافظ عليها، وتوفى سنة ٣٥٠هـ / ٩٦١م، فخلفه أخوه منصور بن نوح، فأخذت الدولة فى الضعف بسبب:

١) خروج بعض القواد عليه.

٢) ازداد نفوذ البويهين الذى امتلكوا ما يقرب من نصف ايران.

٣) كما استولى خلفاء (شكمير بن زياد مؤسس) الدولة الزيادية على حساب السامانية التى أخذت فى الضعف والانحلال.

٤) إلى جانب ازدياد قوة الغزنويين الأتراك، إلى جانب اعتماد على الجنس التركى فى جيوشهم، وتولى الأتراك مناصب عالية فى الإدارة والجيش، وأصبحوا خطرا على الدولة.

٥) صغر بعض الأمراء من بنى سامان عرض الدولة، لتدخل النساء فى شئون الحكم، الأمر الذى شجع القواد وأصحاب الأطماع على الاستئثار بالسلطة.

٦) تعرضت الدولة لضغط من الديلم والعلويين.

٧) ومن الشرق تعرضت لضغط خانات الأتراك الذين دخلوا فى الإسلام على أيدى السامانيين، ثم بدوا يتطلعون إلى الاستقلال، والحلول محلهم.

٨) كما إن محمود الغزونى مؤسس الدولة الغزنوية وحاكم المنطقة الجنوبية الغربية، قد تطلع إلى الحلول محلهم، بعد اضطراب أمور السامانيين، وحينما أحس محمود الغزنوى بضعف الدولة السامانية، طمع فى سلطانها وارتمت السامانية فى أحضان الدولة الغزنونية الناشئة لتنقسم أملاكها بين قوتين:

- الغزنوية التى اتخذت من نيسابور عاصمة ومن الهند ثغرا لجهادها.
- قوة الخانات الأتراك الذين تولوا أمر الثغر الشرقى من بلاد ما وراء النهر.

وبذلك انقرضت الدولة السامانية التى ظلت تحكم آسيا الوسطى قرابة قرن وثلث، بعد أن أدت دورها فى الحياة الإسلامية سواء من الناحية السياسية أو الحضارية.

* الأوضاع الإدارية.
* الأوضاع الاقتصادية (الزراعية، الصناعة، التجارة، النظام المالى).
* الحركة الأدبية: أحيا الشعر الفارسى والغربى، العلوم، الفنون.
* الحياة الاجتماعية.

أولا: الأوضاع الإدارية

أقاليم الدولة السامانية

اتسعت الدولة السامانية اتسعا كبيـرا، فشملت عدة أقاليم أهمها: خراسان، وما وراء النهر، طبرستـان، وسجستان، وكرمان، وجرجـان، وانقسمت خراسان إلى عدة أقـاليم نيسابور ومـرو، وهراه، وبلخ، وهذا تقسيـم لامركزى مـال إليه السامانيون حتى يسهل لهم حكم هذه البلاد الواسعة، وحتى لا تنعقد الأمور. كما قسموا بلاد ما وراء النهر إلى أقاليم الصغد، ويشمل سمرقند وبخارى التى أتخذها السامنيون عاصمة لهم. لما تمتعت به من مزايا عديدة.

وإقليم خوارزم وأهمهـا مدنه الجرجانية، وكاث، وهى مدينـة مشهورة على شاطئ نهر جيحون، وإقليم أشروسنه والشاش وفرغانه. وعينوا على كل إقليم وال تابع لهم، وقـسموا الولايات والأقـاليم الواسعـة إلى ولايات حتى يسهـل عليهم التحكم فيها والسيطرة عليها.

اتخاذ حـاضرة: حكم بنو سـامان من سـمرقند فى البداية، ثـم تحولوا إلى بخـارى، واتخذوها حـاضرة لدولتـهم، لأنهـا من أقرب مـدن ما وراء النهـر إلى خراسان، وهى مدينة مـتشابكة الأشجار، ومحصنة بالقـلاع، وأرضها سهلة ليس بها جبال، وأهلها أهل علم، وبها زراعات وفـواكه كثيرة، وجوها ملائم، فلا هو حار ولا هو رطب، وقد أدركها الغـزو المغولى فدمرها سنة ٦١٦هـ - ٩١٩م، ثم تم بناءها من جديد.

اتخاذ الوزراء: اتخذ بنو سامـان وزرائهم، من أهل العلم والدارية والخبرة، وكان وزيرهم وزير تنفيذ لا تفويض.

ألقـابهم: لقـبوا أنفـسـهم بلقب (الملوك). ولقبـوا ولاتهم بلقب الأمـراء والولاة.

توريث الحكم: وقع بنو سامان، كما وقع غـيرهم فى مشكلة ولاية العهد، وتوريث الحكيم للأبناء، مما أدى إلى تـولية ملوك صـغار السن، فـأدى إلى الاضطراب والفوضى السياسية التى عمت البلاد، وسهلت للغزنويين خانات الترك

إسقاط هذه الدولة، ونظرا لاتساع الدولة، عينوا ما يشبه نائب رئيس الدولة، فكانوا يقيمون فى بخارى، على حين يقيم قائد جيوشهم فى نيسابور.

ولاة الأقاليم: ولى بنوسامان ولاة من أسرتهم، وممن وثقوا فيهم على أقاليم الدولة الواسعة، ووضعوا شروطا لمحاسبة هؤلاء الولاة، حتى لا يخرج الوالى على الملك السامانى منها: قصر مدة حكمه، ومراقبته عن طريق عامل البريد، ومحاسبته إذا زاد ماله مما أدى إلى اتصافهم بالعدل.

دواوين الحكم: أتخذ بنو ساما الدواوين، وكان أشهرها ديوان الخراج، الذى تولى تولوه بأنفسهم نظرا، لثراء البلاد التى سيطروا عليها، وديوان الرسائل التى كانت تخرج وتدخل إليه الرسائل السامانية ورسائل الخلافة ورسائلهم إلى ولاتهم على الولايات، وديوان المحاسبة لمحاسبة الولاة وعمال الدولة من الشرطة والبريد وعامل الخراج وغيرهم، وديوان الجند، حيث كان جيشهم كبيرا ومتعدد الأجناس، فكان لابد من ديوان لضبطه.

الأوضاع الاقتصادية:

(الزراعة - الصناعة - التجارة - النظام المالى)

أدى اتساع رقعة الدولة السامانية إلى ازدياد خيرتها الزراعية والتجارية والصناعية، فكانت يصدر من نيسابور ثياب القطن والحرير إلى سائر البلدان، واشتهرت خراسان بزراعة الفواكه ولقطن والأرز وغيرها.

ولقد اهتم بنو سامان بالزراعة، فمهدوا الأرض واهتموا بها وألغوا الضرائب، فتمتعت دولتهم بمركز اقتصادى هيأ للسكان حياة كريمة، فخراسان مثلا: أنظف خبرا وأطيب فاكهة، وبخارى مثلا: أنزه بلاد ما وراء النهر، فلو صعدت قلعتها، فلم يقع بصرك من جميع النواحى إلا على خضرة متصلة خضرتها خضرة السماء فكأن السماء بها خضراء لكثرة زراعتها وبساتينها وكان يصدر منها بطيخ فائق الطعم، والبسط والمصليات، وأشهر ما اشتهرت سمرقند (الكاغد) (الورق) والديباج وقدور النحاس والفضة، والبندق والجوز، وأهلها وأهل خوارزم أهل صناعة كالحدادة والنجارة، فكان يبالغون فى التدقيق فى صناعتهم، ونساؤها يعملون بالإبرة صناعات كالخياطة والتطريز وغيرها.

وكان موقع هذه البلاد على طريق الحرير العظيم الممتد منها إلى الصين حتى بغداد والذى يعتبر أشهر طرق التجارة العالمية فى العصور الوسطى، قد أدى إلى ثراءها التجارى والصناعى، فكان يصدر من خوارزم مثلا القطن والصوف والجبن واللبن والفراء الغالى السعر والبسط والتحف والديباج المنسوج من الحرير والقطن، وكانت تنحت فها السفن من جذوع الأشجار وتتخذ للملاحة فى الأنهار الكبيرة، ويصدر من فرغانه الذهب والفضة والزئبق والحديد والنحاس، والنفط والزيت والفحم الحجرى للوقود، ويصدر من بساتينها، الأعناب والتفاح والجوز ومن الرياحين الورد والبنفسج. ومن الشاش: الثياب الرقيقة والسيوف وآلات النحاس، والرقيق والمصليات والأرز والكتان والقطن، «مما جعلها قبله لكل قاصد وطامع».

النظام المالى: رغم اتساع أقاليم الدولة السامانية، إلا أنهم ضبطوا هذه الدولة وأستتب الآمن والنظام فيها، بفضل سياستهم المالية الناجحة، فلم يرهقوا الشعب بالضرائب الفادحة، وخرجت رواتب الجيش والموظفين وعمال الأقاليم بانتظام، لزيادة أموالهم وعمران بلادهم.

ومن أجل هذا العدل فى توزيع الأموال على رجال الجيش بالذات، أستتب لهم الآمن، كما وزعوا رواتب القضاة والجباة والولاة، وصاحب البريد، ووالى الصلاة، وعلى صاحب كل ولاية جمع خراجه وإرساله دون نقص أو جباية بظلم.

وبفضل هذا التنظيم المالى كانت الدولة السامانية ركن الإسلام ومستقر العلم، وكان جيشها من أقوى الجيوش، كما تمتعت بالاستقرار الاقتصادى، ولم تتعرض للأزمات الاقتصادية كما وصفها المقدسى التى زارها.

ضرب العملة: ضرب السامانيون عملة لهم، ووضعوا عليها اسم الخليفة العباسى بجوار اسمهم، مما يؤكد على استقلالهم بدولتهم.

رواتب عمالهم: عين السامانيون عامل وكاتب لهم، وكاتب عرف «بالبندار» بالفارسية يعنى عامل الخراج، وصاحب جند (قائد الجيش) وصاحب بريد، ومتول للضياع الأميرية وكلها مناصب إدارية لهم رواتب من بيت مال الدولة التى كانت مصادر الضياع الأميرية متعددة من دخلها وهى الخراج، الزكاة، الصدقات، الضرائب الفئ، الغنيمة، وكانت الأموال تصرف فى:

* رواتب للجند والقضاء والعمال والموظفين.
* بناء المدارس، حيث أصبحت بلادهم قبلة للعلم والعلماء والصرف منها عليهم.
* بناء البيمارستانات للعلاج.

تمهيد وتأمين طرق التجارة، مما أدى إلى ازدهار الحياة الاقتصادية التى أثرت فى كل مرافق الدولة، وأسهمت بنصيب كبير فى النهضة الفكرية، والأدبية، والفنية، كما ساعد على هذه النهضة التقدم الصناعى والتجارى، حيث بلغت التجارة والصناعة درجة كبيرة من التقدم، وعبرت تجارة سمرقند وبخارى إلى الصين والعراق والهند، وبحر الخزر غربا، ودول شمال أوروبا، فقد عثر على نقودهم في روسيا.

الحركة الأدبية:

من الواضح أن البلاد التى تزوج فيها الصناعة والزراعة والتجارة ويستقر فيها العلم والمعرفة، ولهذا أصبحت بخارى وسمرقند بفضل تشجيع السامانيين مركزا من أهم مراكز الثقافة والإشعاع العلمى فى الدولة الإسلامية.

وجذبت عاصمتهم بخارى كثيرا من الشعراء والعلماء، فأصبحت الدولة السامانية من أعظم الدول الإسلامية نظاما، وأدبا وعلما، ولا غرو فقد نشأت فى عهد وازدهار الحضارة العربية الإسلامية فى القرن الرابع والخامس الهجرى.

وقد شجع السامانيون الحركة الأدبية، كما كانت قصورهم مجتمعا للشعراء وقرض كثير منهم الشعر باللغة العربية أو الفارسية وكانت بخارى مثابة الجد، وكعبة الملك، ومطلع نجوم أدباء الأرض وموسم فضلاء الدهر والشعر، وأصبحت مركزا يشع منه المعرفة، ويزخر بالأدباء ورجال الفكر والفن.

وكما كان السامانيون من أصل فارسى فقد شجعوا الشعر واللغة الفارسية، لذلك راجت اللغة الفارسية إلى جانب اللغة العربية لغة القرآن الكريم، وظهر فيها كثير من الشعراء الذين نظموا بالفارسية بجانب العرية وراج النظم والنثر باللغتين معا. وكان الروكي والدقيقي من خيرة شعراءهم الذين نظموا الشعر بالفارسية.

وأبرز شعراء هذه الدولة هو الفردوسى، صاحب الملحمة التعليمية الشهيرة، (الشاهنامة) ويمكن القول: بأن عهدهم أول العهود التى راقت فيها الآداب الفارسية والعربية معا.

العلوم والفنون:

ظهر فى بلاط السامانيين كثير من العلماء الذين خدموا الإنسانية فى ميدان العلم والمعرفة خدمة كبرى فى شتى العلوم، بفضل تشجيع الدولة لهم.

ففى الطب: نبغ أبو بكر الرازى (ت ٣١١هـ / ٩٢٣م) أشتهر أطباء عصره، ويعرف عند الأوربيين للان باسم (phazee) الى ألف فى الطب كتبا كثيرا منها كتاب (الحاوى) من ثلاثين مجلد، وهو عمدة الأطباء وكتاب (الأعصاب) الذى ترجم إلى اللغات الأوربية كلها.

ومن كتبه أيضا (الجدرى والحصبة) (والحصى فى الكلى والمثانة) وكتاب (النقرش)، وقد أشتهر بالكرم، والعطف على المرضى، وكان يصرف عليهم من ماله الخاص.

وفى الفلسفة: كان أبو سهل البلخى، وابن سينا الذى مثل الحركة الفلسفية الإسلامية إلى جانب علومه فى الطب والفقه. وألف فى المنطق والفلسفة وكان متأثرا بالفارابى أستاذه» كما بحث فى الإلهيات» وتكلم عن الطبيعة، وقد بلغ فى الطب نبوغا أهله إلى إن يستدعى لعلاج الأمير (نوح بن نصر السامانى) (٣٣١ - ٣٤٣هـ / ٩٤٢ - ٩٥٤م) فى مرضه الأخير، فأحضره وعالجه حتى برئ، وأتصل به وقربه منه، ودخل إلى دار كتبه، فقرأ ما فيها، وقد وصفها ابن سينا بأنها حجرات مليئة بالكتب فى شتى صفوف المعرفة، وصار كتابه (القانون) فى الطب المرجع الاساسى فى علم الطب فى أوروبا خلال العصور الوسطى حتى عرف فى الغرب الأوروبى باسم (أفيلسينا) واستخدمته أوربا حتى وقت قريب.

وفى مجال الفقه: ظهر العالم الجليل السمرقندى الذى كان إمام كبيرا الذى طوف فى البلاد لتلقى العلم، وولى قضاء سمرقند فى عهد السامانيين، وحتى الآن يستفاد من كتبه فى الفقه والحديث وقد مات سنة٢٥٤هـ/ ٨٦٨م.

كما برز أيضا فى الفقه النيسابورى، الذى كان إماما مجتهدا (ت٣١٦هـ/ ٩٢٨م) وأبو بكر الحسين البيهقى الحافظ الشافعى راوى الأحاديث وصاحب الصحيح، إلى جانب الآلاف غيرهم، مما أنجبتهم بلاد غير عربية عملت على خدمة الإسلام والمسلمين.

وفى مجال الجغرافيا: أتاح نظام البريد، الذى وضعه بنوا أمية ثم تابعه بنوا العباس بالتجديد والتوسع، أتاح شبكة من المواصلات أفاد منها أصحاب الوظائف فى الدولة، وخاصة عمال الخراج، كما هيأ نفس الفرصة للرحالة الذين طافوا جميع البلاد الإسلامية شرقها وجنوبها، وشمالها وغربها بسهولة ويسر، فكتبوا عن البلاد، وشجعهم بنوا سامان، ففى بلاط إسماعيل السامانى برز الجيهانى والمقدسى والمسعودى وغيرهم من الرحالة المسلمون.

وفى مجال الفنون: اهتم السامانيون بالفن والعمارة، فازدهر فن الخزف والسجاد، وكان بلاطهم موطن التحف والبسط فى الشاش(طشقند الحالية) وكذلك الحرير الذى اشتهرت بصناعته بخارى، كما اهتموا بالعمارة وخلفوا أجمل المبانى، سواء كانت قصورهم أو مدارسهم العلمية.

الحياة الاجتماعية:

اتصف السامانيون فى حكمهم لدولتهم الفسيحة بالعدل والإصلاح وتشجيع العلم والعلماء، فأضافوا لمجدهم السياسى والحربى، مجدا حضاريا ونهضة علمية وفكرية. ولم يلاحظ وجود المجتمع الطبقى فى بلاطهم ودولتهم، لسياسة العدل بين رعيتهم، فقد جلسوا بأنفسهم للمظالم، وراقبوا عمالهم، وعزلوا من يظلم رعيته، كما حرصوا على الصلاة.

عناصر السكان: نظرا لاتساع الدولة السامانية، فقد تعدد عناصر السكان فيها ما بين

- الفرس: فى خراسان وكانوا حكام دولة.
- الترك: فى بلاد ما وراء النهر وعدة الجيش السامانى.
- العرب: من القبائل العربية المهاجرة مع الفتح والتى استقرت فى خراسان وما وراء النهر.

- الصينيون: المهاجرين لحدودهم والذين غالبا، ما دخلوا أراضى السامانيون تجاريا

- الأوربيون وخاصة الصقالبة: كالرقيق

- يهود الخزر، ونصارى أوروبا: ولقد عاش أهل الذمة من يهود ونصارى فى أمان واستقرار كفل لهم دستور الدولة الإسلامية وسياسة العدل السامانية.

المواكب والاحتفالات: نظرا لثراء الدولة، وتمسكها بالدين الإسلامى فقد حرص أمراء السامانية على إقامة الاحتفالات الدينية كالاحتفال بعيد الفطر والأضحى وليلة الرؤية، كما حرصوا على الخروج فى مواكب فى احتفالات النصر، وتعيين الوزراء والأمراء والولاة أو إرسال الإرسالية السنوية للخلافة العباسية.

المرأة: تمتعت المرأة المسلمة فى ظل الدولة السامانية بقسط كبير من الحرية التى كفلها لها الإسلام فى الميراث والتعليم والعلم، فلقد أنصف بنو سامان المرأة إنصافا يعجز المعاصرون عن فعله، بأن أعطوها حقها فى الميراث كاملا، وحقها فى التعليم فقد فتحت المدارس للرجال والنساء معا وكانت المرأة تحضر حلقات العلم فى المساجد والمدارس والبيمارستانات [المستشفيات] التى أكثر السامانيون منها بل وجدنا المرأة فى العصر السامانى عالمة ومعلمة.

كما خرجت المرأة خلف الجيوش مجاهدة تضمن الجرحى وتسقى العطش فساهمت بقدر كبير فى الحياة الاقتصادية والعلمية والأدبية فى العصر السامانى.

أهل الذمة: من اليهود والنصارى، الذين تمتعوا بقسط وافر من الحرية داخل المجتمع السامانى الواسع الذى كان يوجد فيها الآلاف من أهل الذمة، الذين أعطاهم السامانيون كثيرا من أهل الجزية، فأحبوا الإسلام ودخلوا فيه.

كما كانت لسياسة العدل التى أتبعها السامانيون فى بلادهم أثرها فى نشر الإسلام بين الأتراك والصينين الذين تحولوا إلى قوة مدافعة عن الإسلام بعد إن كانوا قوة مضادة هادمة فقد أشركوهم فى أداره بلادهم، وفى العطاء والغنيمة، وأسقطوا عنهم الجزية، فزاد عدد المسلمين الأتراك زيادة كبيرة.

د - الدولة الغزنوية وبلاد ما وراء النهر

(٢٥١/٥٨٢هـ/٨٦٥-٧٨٦م)

اعتمد السامانيون على الأتراك فى تيسير أمور دولتهم وكان قوام جيشهم منهم وولوهم المناصب العسكرية والمدنية، ومن أبرز هؤلاء الأتراك (البتكين) الذى كان يعمل فى الجيش السامانى، وقد صار له حكم خراسان وقد قوى شأن البتكين فى إقامة وتوطيد سلطانه، ولم يدم الحكم طويلا فى أسرته إذ آلت الأمور إلى أحد قواده وهو (سيكتين) وتولى إمارة غزنه عام(٣٦٦هـ - ٩٧٦م) وتستمد هذه الدولة اسمها من العاصمة غزنة حيث يرجع ظهور هذه الدولة الغزنوية إلى اسم عاصمتها غزنه، ولكن الدولة الغزنوية كانت لا تزال على ولائها للأمراء السامانيين. ولما زاد ضعف الأمراء السامانيون طمع فيها أمراء البلاد المجاورة (الخوارزميين) فلم يرا الغزنويون بدا من الاستيلاء على البقية الباقية من ملك إلى سامان وتوسيع رقعة دولتهم على حساب السامانيين، ولما كان ملك الأتراك يهدد سيادة السامانيين. نجد الأمير السامانى يستنجد بسكيتكين والذى استطاع أن يحقق السيطرة على أعداء السامانيين. وفى عهد محمود الغزنوى بن سبكيتكين لما رأى من ضعف الأمراء السامانيين ومدى طمع القادة فيهم عمل على تنفيذ خطته فى التوسع على حساب السامانيين، وكان محمود الغزنوى قد استطاع أن يضم خراسان ويستولى عليها ويزيل كل أثر للسلمانيين، وكان محمود الغزنوى قد استطاع أن يستولى على نيسابور وبذلك تحكم فى أخر أراضى الدولة السامانية، وقد أخضع الغزنونيين وكذلك وصل نفوزهم إلى خوارزم شمالا وذلك منذ عام(٤٠٩هـ/١٠١٨م) لكن الخوارزميون عملوا على الاستعانة بالسلاجقة للاستقلال عن الغزنويين، وكانت الغزنويون قد بدءوا هجومهم على طبرستان وجرجان، ومن هنا عملوا على القضاء على حركات التمرد والعصيان التى تقوم ضدهم فى هذه الأنحاء لاسيما بعد أن أخضع حكام الدولة الغزنوية خراسان وغزنه وسجستان وكرمان ومكران والرى وأصفهان وبلاد الجبل وجنوب بلاد ما وراء النهر وبعض هذه البلاد تقع داخل أراضى أواسط آسيا وداخل الجمهوريات الإسلامية التى استقلت عن روسيا (الاتحاد السوفيتى ١٩٩١م).

وكانت قد دارت معارك بين الغزنويين فى عام (٣٩٦هـ ١٠٠٥م) وبين ملك الترك (أيلك خان) الذى كان قد سيطر على بلاد ما وراء النهر والواقعة داخل أراضى فى بلاد الدولة الغزيونية لا سيما الأقاليم الواقعة إلى الجنوب من بلاده والواقعة داخل أراضى ما وراء النهر، وكان قد عمل على امتلاك خراسان لذا نراه يستنجد بكل قواته التركية فى أقاصى البلاد، لكن محمود الغزنوى استطاع أن حقق انتصارا على قوات الأتراك ومد أملاكه إلى الشمال داخل ما وراء النهر عام (٣٩٧هـ - ١٠٠٦م) ولم يستطيع الأتراك اغتصاب خراسان من الدولة الغزنوية بعد هزيمة السلطان محمود لهم، وقد عمل الترك بعد أن رأوا قوة السلطان محمود على تحسين علاقاتهم به وعدم الاعتداء على دولته، وكان (قدرخان) قد تولى حكم تركستان عام (٤٢٢هـ - ١٠٣٠م) ثم تركت إغارات الغزنويين على هذه الأقاليم إذ نجد وإلى خوارزم فى عام (٤٢٤هـ - ١٠٣٢م) يقوم بالإغارة على خراسان وتزمد وصغايتان وسمرقند ولكن هذه البلاد استعصت عليهم لذا أرسلوا إلى السلطان مسعود بن محمد الغزنوى لطلب الصلح وكف العدوان على أراضى الدولة الغزنوية. وبذلك انتهى الصراع بين الترك والغزنويين وبذلك عظمت أملاك الدولة الغزنوية وقوى بأسها بعد أن دخلت فى طاعتها العديد من مدن وسط وجنوب بلاد ماء وراء النهر، وكذلك قزوين وأقيمت الخطبة للغزنويين فى هذه البلاد حتى حدود أرمينية وانضمت خوارزم إلى ملك الغزنويين.

وكانت خوارزم قبل ظهور الغزنويين إمارة مستقلة لكن السلطان محمود الغزنوى سعى إلى ضمها بعد أن أعترف أميرها بسيادة الدولة الغزنوية. وصفوة القول أن السلاطين الغزنويين الأقوياء نجحوا فى توسيع رقعة دولتهم حتى اشتملت على مساحات كبيرة فى جنوب غرب آسيا وضمت أفغانستان وبعض البلدان فى فارس وما وراء النهر يضاف إلى ذلك بلاد الهند.

وفى واقع الأمر إن الدولة الغزنوية كانت أول انتصار للعنصر التركى فى صراعه مع العنصر الفارسى، ففى الوقت الذى كانت فيه الدولة الغزنوية التركية تحقق انتصاراتها فى فارس على الدولة البويهية الفارسية كان هناك عنصر تركى جديد يستعد لإكمال الجولة ذلك هم السلاجقة الذين مالبثوا أن ظهروا كقوة استولت على مقاليد الأمور فى خراسان وبلاد ما وراء النهر وحكموا الشرق

الإسلامى بعد اتسعت رقعة دولتهم حتى أصبحت تضم شمال الهند شرقا والعراق وإيران وخراسـان وطخراستان وعـاصمتـها بلخ وجزء من بلاد مـا وراء النهر فى الشمال وترستان فى الجنوب.

وقد انـتهت الدولة الغـزنوية عام (٥٨٢هـ - ١١٨٦م) بعـد أن ظلت تحكم أكثر من قـرنين من الزمان على أيدى الغور، وكانت الدولة قـد تعرضت لأخطار جسيمـة من جيرانهـا الأقوياء السـلاجقة الـذين لم يألوا جهدا فى انـتزاع بلدان الغزنوية.

وصفوة القـول أن الدولة الغزنوية، التى قامت على أنقاض بلاد السـامانيين كان لها نشاط سـياسى كبير فى جنوب غرب آسيا، فـاستطاع سلطانها حكم دولة متعددة الأجناس والشعوب فى قـوة وحزم، على أن عوامل الضعف والانحلال ما لبث أن عرفت طريقهـا إلى الدولة الغزنوية فقوى شـأن جيرانها السلاجـقة والغور وقامـوا بتوسيع نفـوذهم على حسـاب الغزنويين وكان ذلـك فرصة أمـام العناصر المنطلقة للاستـقلال عن الدولة لرفع رايتها فـأخذت الدولة الغزنوى تفقد أمـلاكها حتى قـضى الغور فى نهاية الأمر على البـقية الباقـية من مملكتها وهكذا تجـمعت عوامل متعددة أدت فى النهاية إلى ضعف الدولة الغرنوية وانهيارها فى أخر الأمر، وكان مـن أكبر العـوامل التى عـملت على انهيـار الدولة الغزنوية ظهـور الأتراك السلاجقة وسعيهم إلى توسيع ممتلكاته معلى حساب الدولة الغزنوية، كما أن الغور قد خرجـوا من عزلتهم السيـاسية وعملوا على مـد نفوذهم فيمـا وراء حصونهم، وكان الغور قـد خرجوا من عزلتـهم السياسيـة وعلموا على مد نفوهم فـيما وراء حصونهم، وكان خـير مدان لتنفيذ سياستـهم أراضى الدولة الغزنوية اليت أخذت عوامل الضعف والانحلال تنهال فيها حـتى انهكت قوتها ولـم تعد تستطيع مقاومة أعدائـها الأشـداء وبعدها سـقطت فى أيدى الغور السـلاجقـة وهكذا أدت الدولة الغزنوية دورهـا خلال ثلاثة قرون مـتواصلة فى جنوب غـرب آسيا وأوسـطها فى العمل على تثبيت أركان الإسلام وتعمـيق المفاهيم الإسلامية وإن كانت هذه الدولة تختلف عن كل الدولة السابقة (الطاهرية، الصفارية) فى أن هذه الدولة قامت على أكتاف عناصر فارسية إيرانية استعانت ببـعض العناصر التركية لاستمرار حكمها فى تلك الانحاء إلا أن الـدولة الغزنوية كانت أول دولـة إسلامـيـة تركية ومـنها بدأت

ملامح الثقافة والحضارة الإسلامية التركية تأخذ بعدا جديدا فى الدولة الإسلامية، وبدأت ملامح ظهور اللغة التركية على الساحة الإسلامية وكان ذلك مقوما أساسيا فى بناء كيان الدويلات الإسلامية الصغيرة التى ظهرت فى أواسط آسيا فى الساحة الواسعة التى تشمل جمهوريات آسيا الوسطى الخمس الكبرى التى نعرض لتاريخها فى هذه الدارسة.

ونقول إن سقوط الغزنويين كان سببا فى ظهور قوة السلاجقة الأتراك وكذلك الخوارزمين الذين بسطوا نفوذهم على الأجزاء الشمالية من أواسط آسيا حتى قدوم المغول.

المجتمع الغزنوى:

عناصر المجتمع:

يمكن القول بأن المجتمع الغزنوى فى أواخر القرن الرابع الهجرى هو المجتمع الوحيد الذى جمع فى عناصر مختلف الأجناس والألوان والديانات، فقد تألف من عدة أجناس بشرية شاركت فى بناء الهيكل الاجتماعى للدولة الغزنوية، وساهم كل جنس فى الحياة مساهمة فعالة، وشمل أجناسا من العرب والفرس، والترك، والهنود، وغيرهم.

ويرجع انتشار العرب فى أقاليم بلاد إيران وما وراء النهر، والسند إلى عصر الفتوحات الإسلامية منذ القرن الأول الهجرى. ويبدو أن الجنس العربى قد تناقص فى القرن الرابع والخامس، وذلك بسبب عدم استمرار الهجرات العربية فى العصر العباسى، ولأن عرب الفتوحات على قلتهم، قد تزاوجوا مع أهل الأقاليم التى دخلوها فاندمجوا فيهم، مما أذاب الجنس العربى بمرور الزمن. على أن فئات من العرب لم تمتزج بغيرها وهم إما من البدو الرحل، أو المحافظين الذين لم يتزوجوا من غير جنسهم.

ويكثر الوجود العربى فى إقليم السند، وخاصة «الملتان» و«المنصورة» و«طوران»، وقد كان تركزهم حول مدينة الملتان بشكل كبير، يذكر المقدسى أنهم يمثلون الأغلبية هناك، على أن المصادر لم تكشف عن إحصائية مفصلة أو تقريبية عن نسبة الوجود العربى هناك. وأكثر انتشار العرب فى إقليم خوزستان، كما

انتشروا فى خراسان. فيذكر الاصطخرى أن أهل خوزستان كانوا يتكلمون العربية والفارسية. وتشير بعض المصادر إلى أن العرب أيضا كانوا يقيمون فى مراعى خراسان وينتشرون حول نهر جيحون، حيث يقومون برعى الأغنام، وعرفت أحياء هناك بأسمائهم.

ويتصل بالوجود العربى اللغة العربية، فمما لا شك فيه أنها كانت لغة الدواوين الرسمية فى الدولة الغزنوية وخاصة بعد تولى الوزير الميمندى سنة ٤٠٤هـ، وكانت لغة عرب غزنه وخراسان فيما بينهم، ولكن هل كانوا يخاطبون بها أهل الإقليم الذى ينزلون فيه، أو كيف كان يتم التفاهم مع الفرس أو الهنود أو الترك؟. الحقيقة أن المصدر لم تتكشف عن ذلك، ولا نستطيع الجزم بنفى ما إذا كان العرب قد عرفوا لغة أهل البلاد من الفرس وغيرهم قد عرفوا بعض مبادئ اللغة العربية، لأن ذلك ضرورة تفرضها عليهم طبيعة الدين الإسلامى. وعلى هذا يمكن الربط بن القولين، بأن العرب تعلموا مبادئ لغة أهل البلاد للضرورة المعاشية، وتعلم أهل البلاد مبادئ لغة العرب للضرورة الإسلامية، فوجد فيما بينهم نوع من التفاهم المزدوج الذى سهل الاحتكاك بين الجميع والله أعلم.

وقد كان عر خراسان وما وراء النهر عدا قليل منهم فى ذلك الزمن فى معيشة بدوية تميل إلى الشدة وشظف العيس، ولعلهم كانوا يفضلون ذلك، لأن طبيعة العربى تميل إلى عدم الاستقرار فى العادة، ولذلك ينشأ أبناؤهم ونشأة خشنة ذات نزعة حربية، وربما ذلك لرد عادية الطامع فى أموالهم ومواشيهم، ومن هنا أفادت الدولة الغزنوية كثيرا من الأحياء العربية المنتشرة فى البلاد. غير أن العرب الذين كانوا يقيمون بنواحى السند، أكثر ميلا إلى الاستقرار لمزاولتهم التجارة وأعمالها، فكثرت أعدادهم، وعلا شانهم، واتسعت ممتلكاتهم.

وقد شارك العرب فى الحياة السياسية، إلى جانب دورهم الاجتماعى فى حياة الدولة الغزنوية، فقد كان حاك «المنصورة» و«حاكم الملتان» عربيين من قريش، ومن أسرة تنتمى إلى شخص يعرف بـ «هبار بن الأسود» وكانا لا يدينان لخليفة معين، ولما انتشرت دعوة الإسماعيلية الفاطمية فى الملتان، أعلن واليها الدعوة للخليفة الفاطمى، بينما بقى والى المنصورة يدعو للخليفة العباسى. ولكن الغزنويين استطاعوا طرد دعاة الإسماعيلية من «الملتان» وضمها إلى دولتهم. كما

كان لقبيلة ابن بهيج «العربية دور فى القضاء على آخر أمراء الدولة السامانية» إسماعيل المنتصر سنة ٣٩٥هـ، إذ قبضوا عليه ثم سلموه للسلطان محمود الغزنوى. ودخل العرب فى جيوش الدولة الغزنوية، وساهموا ف حركة الجهاد فى الهند، والتوسع الداخلى، فكان «أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الطائى يقود كتيبة عربية، شاركت السلطان محمود فى جلائل أعماله العسكرية. وعد العرب ملجأ للدولة الغزنوية فى أحلك الظروف العصبية، فقد استعان بهم السلطان «مسعود الأول» فى الكفاح ضد السلاجقة ويعول عليهم فى ذلك.

الترك:

على الرغم من قلة عنصر الترك، فقد ساهم مساهمة فعالة فى الحياة السياسية والاجتماعية، ويمثل العنصر التركى فى الدولة الغزنوية أكثرية نسبية إذا ما قيس بالوجود العربى فى أنحاء المملكة. ومن هذا العنصر الطبقة الحاكمة من السلاطين وكبار القادة والأمراء والأعيان والرقيق. ويرجع انتشار الترك إلى عاملين، أولهما - الهجرات التركية البدوية المستمرة على إيران طيلة عهد السلطان محمود الغزنوى، والسلطان مسعود الأول، وثانيهما جلب العنصر التركى من بلاده على سبيل «الرق». ومهما كان الأمر فقد تزايدت أعداد الأتراك فى أرجاء البلاد الغزنوية، وكان الأرقاء منهم أسعد حظًا من مهاجرى البدو الرحل من ذلك لأنهم حظوا بعناية كافية لدى السلاطين والأمراء فكانوا يعدون للخدمات الكبرى مثل حماية قصر السلطان، وارتقوا إلى الحاجبة وقيادة الجند، وكان منهم من عزز به قواد الجيش. وأحيانا ارتقى بعضهم إلى درجة الوزارة، كما حصل لأحد غلمان السلطان محمود الغزنوى، ويعرف بـ «حسنك»، وشغل منهم مناصب الحجابة وأخرى قيادية أمثال «ألتونتاش خوارزمشاه» و«أرسلان الجاذب» و«على بن إيل القريب» و«أريارق» الذى عمل واليا على الهند فى عهد السلطان «مسعود الأول»، ثم خلفه «احمد بن ينالتكين»، ومنهم «بكتغدى» «والحاجب» «سباشى» اللذان قادا عدة حملات ضد المتمردين فى أجزاء خراسان. ومن أبرزهم «طغرل» غلام السلطان عبد الرشيد الذى استلب السلطة من سيده سنة ٤٤٣هـ، وغيرهم.

أما الأتراك البدو فكانوا يقومون برعى المواشى وينتقلون وراء العشب. وإذا

ما غفلت عنهم الدولة فإنهم يقومون بشن الإغارات المجاورة لمراعيهم بغية الكسب والحصول على المال عن طريق السلب، وكانوا مصدر إزعاج لولاة الدولة الغزنوية فى خراسان ونتيجة لتمادى السلطان «مسعود الاول» فى أمرهم فما لبثوا أن نظموا صفوفهم لمحاربة الدولة الغزنوية، غير أن ضعف المقاومة من جانب الغزنويين مكن طائفة «السلاجقة» من الترك من إقامة دولتهم فى خراسان «على أساس متين من الجفاء والبداوة المعروفين عنهم»، وعرفت فيما بعد بالدولة السلجوقية.

ولعل الأتراك كانوا يستعملون لغتهم التركية بشكل محدود فيما بينهم، إذ لم تكن لغة أدب أو علم فى ذلك الوقت كاللغة العربية مثلا، ويمكن القول بأن طبيعة دخولهم إلى البلاد الغزنوية، قد ألزمتهم تعلم لغة المواطنين الأصليين وهى فى الأغلب الفارسية، ولا يتعلم العربية منهم إلا فئات خاصة من الأعيان والسلاطين. على أن اللغة التركية قد أدخلت على الفارسية بعض المصطلحات مثل «سلاح خاناه»، «دوات خاناه»، وغيرها، وهذا مما لا شك فيه أثر من آثار الترك فى الحياة الاجتماعية.

الفرس:

كان العنصر الفارسى يمثل الأغلبية الساحقة فى المجتمع الغزنوى، قبل غزو السلاجقة لإيران وطرد الغزنويين من جميع أقاليمها تقريبا، وقد كان لهذا العنصر دوره الحضارى الرائد فى الناحية الاجتماعية والسياسية، وقد اعتمدت إدارة الدولة الغزنوية على العنصر الفارسى منذ قيامها، فكان منهم الوزراء والكتاب الممتازون، وقد لعب كثير من أولئك الرجال الكبار من الفرس دوراً هاما فى رسم سياسة الدولة، ومعاونة السلاطين فى مختلف المواقف السياسية فى الداخل والخارج.

ويغلب على الجنس الفارسى طابع الاستقرار، عكس سابقيه، وذلك مما ساعد على ازدياد النشاط الزراعى والصناعى والتجارى فى البلاد، فأغلب السكان يزاولون حرفة الزراعة فى مختلف أرجاء البلاد وتعتمد حياتهم على منتجاتهم الزراعية، بينما يقوم آخرون بمهنة الصناعة والتعدين ويجهدون أنفسهم فى البحث عن المعادن فى مناطق متفرقة من البلاد، ومنهم من اتخذ من العلم والتعليم والتأليف والتدوين وسيلة للتكسب، بينما أخذ البعض الآخر بجانب الاستقرار فى المدن فكان لهم دور فى تقديم الخدمات المدنية من إنشاء الأسواق والفنادق

والمطاعم، والحمامات لخدمة النزلاء من أرباب العلم والتجارة والصناعة. فعمرت المدن وازدهرت البلاد، وبهذا تنوعت حقول النشاط البشرى فى البلاد، وغدا المجتمع كخلية النحل دائب الحركة.

الهنود:

أغفلت المصادر ذكر حياة الدولة الغزنوية فى الهند وهو جزء كبير من حياة هذه الدولة استمر أكثر من قرن (٤٣٢ - ٥٨٢هـ)، ولا ندرى لماذا؟.. ومن هنا فلم نظفر بمعلومات كافية فى هذا المجال.

وقد بدأ ظهور العنصر الهندى فى المجتمع الغزنوى منذ قيام دولة الغزنويين وامتدادها فى الهند، ويبدو أن دور هذا العنصر كان خاملا فى الناحيتين السياسية، والاجتماعية، فلم يكن أحد أحد من الهنود من أصحاب المناصب الكبيرة فى الدولة، كما لم تكشف المصادر التى وصلت إلينا عن دورهم الاجتماعى. ويرجع وجود الهنود إلى عاملين أولهما، الرق الذى أعقب الفتوحات فى الهند. وثانيهما الولاء للمسلمين فى البنجاب والسند، والملتان والمنصورة وحوض نهر «مهران» قبل ذلك. وكان الرقيق يقوم بدوره الخاص فى الحياة الاجتماعية من أواع الخدمات المنزلية. أما الهنود المستقرون فى الملتان والمنصورة وحوض نهر «مهران» قبل ذلك. وكان الرقيق يقوم بدوره الخاص فى الحياة الاجتماعية من أنواع الخدمات المنزلية. أما الهنود المستقرون فى الملتان والمنصورة وحوض نهر مهران «السند»، فكانوا أصحاب زراعة، وأكثر زراعاتهم الأرز والحنطة التى يقدمونها للعرب المقيمين فى إقليمهم، ومنهم فئات استقرت فى المدن وزاولت عمليات تجارية وخدمات مدنية. أما قبائل «السومرهط والبدهة» فهى قبائل رعوية اعتمدت حياتها فى ذلك الوقت على رعى الأبل المشهورة بالإنتاج الوافر، وينتشرون فى حوض السند الغربى إلى حدود مكران فى منطقة الرعى، وكانوا يدينون بعبادة الأصنام.

على أن هناك شكا فى عدم مشاركة الهنود فى الحياة السياسية الغزنوية للدولة الغزوية، خاصة بعد انحسار النفوذ الغزنوى فى الهند لأكثر من قرن من الزمن، وهذا يعنى أن المجتمع الغزنوى قد أصبح مجتمعا هنديا خالصا من أوائل القرن الخامس الهجرى، ولا يمكن نفى ذلك أو الجزم به، لأن المصادر لم تكشف عنه. ويمكن أن يكون العنصر الهندى قد تأثر بالحياة الاجتماعية أيضا.

أهل الذمة:

وهم أخلاط من أجناس مختلفة، ويأتى على رأس أهل الذمة «المجوس غبار النار» وهم من بقايا الفرس الذين لم يعتنقوا الإسلام، فبقوا على دينهم ليعاملوا معاملة أهل الذمة. وقد عاشوا إلى جانب المسلمين فى رعاية تامة، وحفظت لهم الدولة الغزنوية حقوقهم بحيث لم يثيروا أى فتنة، وكانوا لذلك يمارسون حياتهم الاجتماعية بحرية، وينتشر المجوس فى «هراة» و«بست» وأنحاء خراسان فى «بلخ» و«نياسبور» و«مرو» غيرها، وفى أصفهان وهمذان والرى وكرمان. وتشير بعض المصادر إلى أنه لا تكاد تخلو قرية من قرى فارس من بيت نار للمجوس. وتصل نسبتهم فى بعض نواحى البلاد إلى ما ينيف على خمسمائة ألف بيت. وقد أثروا الحياة الاجتماعية مثل الاحتفال بعيد «السذق».

أما اليهود فكانوا ينتشرون فى جهات متفرقة من أرجاء البلاد الغزنوية، ويمثلون أكثرية من النصارى فى كل إقليم، فهم يكثرون فى خراسان، وأصفهان، وهمذان، والرى، وينتشرون فى «غزنة» و«كابل» بأعداد كبيرة، كما يوجد أعداد منهم فى «بلح» و«جوزجان»، وتذكر المصادر أنه كان فى «كابل» حى يهودى، وهناك باب من أبواب مدينة «بلخ» عرف بباب اليهود، كما أن مدينة «اليهودية» من أكبر مدن «جوزجان» وأنها كانت تشتهر بالتجارة بينما كانت مدينة باسم «اليهودية» أيضا فى إقليم أصفهان وتعتبر درة الإقليم. ولعل ما ذكرناه يدل على أن اليهود كانوا ينتشرون بشكل فعال فى أرجاء الدولة الغزنوية. وقد أورد «آدم متز» المستشرف، إحصائيات لليهود فى القرن الرابع نقلا عن الرحالة اليهود «بنيامين» فى ذلك الوقت، فقال بأنه كان بهمذان ثلاثون ألفا، وبأصفهان خمسة عشر ألفا، و«شيراز» عشرة آلاف، وبسمرقد ثلاثون ألفا، ثم يعقب بقوله: إن الأرقام هذه تقريبة لأن بنيامين لم يزر المشرق. ويبدو أن دور اليهود فى المجتمع اقتصر على التجارة، وذلك لإقامتهم فى المدن التجارية الكبرى التى تقع على خطوط التجارة البرية الكبرى فى ذلك الزمن، فمثلا «غزنة» و«كابل» كانتا تعدان فرضتى الهند، ومدن بلخ ونيسابور والرى من المدن التجارية العظمى أيضا.

أما الوثنيون، فكانوا ينتشرون في كثير من مدن السند في «طوران» و«المنصورة» و«الملتان»، وهم من الهنود البدهة، والزط، والسومنيون، وعلى الرغم من كثرة أعدادهم فقد كان يحكم المدن التي يقيم المسلمون أو بعضهم بها شخص من المسلمين أنفسهم. ولما دخلها الغزنويون آلت السلطة إليهم وعاملوا وثنى السند كأهل الذمة. غير أن هؤلاء الوثنيين قد خلعوا ربقة الطاعة في عهد السلطان عبد الرشيد الغزنوي، وتجمعوا حول ملكهم الجديد «سومرة» واستقل هذا بنواحي «تهرى» والأجزاء الجنوبية لحوض السند.

فئات المجتمع:

ونبدأ بالأسرة الحاكمة التي تأتي أعلى قمة الهرم الاجتماعي، ومما لا شك فيه أن هذه الفئة قد تأثرت بالمجتمع، وأثرت فيه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. وعلى الرغم من أن سلاطين الدولة الغزنوية قد جمعوا في قصورهم أعدادا من الرقيق والخدم، فإنهم لم يغفلوا عن حاجتهم إلى المجتمع المدعم لحكمهم، فالوزير المدبور للامور، والعالم المفصح عن تجربة، والقائد الكافي لشئون الأمن، والفقيه المبصر بأمر الدين، والشاعر المخلد للأمجاد، وكذا الكاتب وغيره، وهكذا أصبح من الضروري أن تكون حاشية السلطان من هذا المزيج الاجتماعي.

كانت الأسرة الغزنوية إبان قيام الدولة في غاية من البساطة والبعد عن التعقيد، كما كانت مقابلة السلطان تتم بدون وساطة ما وفي أي مكان وزمان. ولم يجد الملوك الأوائل من سلاطين «غزنة» غضاضة في ذلك، فنلاحظ الأمير سبكتكين يهب مع الفلاح إلى بستانه ليرى ما أفسدته عساكره ويعوض الفلاح وينتصف له من الجند. والسلطان محمود يذهب مع أحد المواطنين لينتصف له من رجل آذى المواطن في بيته. إلى غير ذلك من الأفعال الحميدة للسلاطين والأمراء الغزنويين. غير أن رقعة الدولة لما اتسعت، وتعددت المسئوليات، ونظمت شئون الدولة، أصبح الوصول إلى السلطان، يتم عن طريق منظمة قضت على روح البساطة الأولى. فاتخذ السلاطين لهم حجابا ووزراء يرفعون إليهم الشكاوى، وينظرون فيمن يدخل على السلطان، كما نظمت مجالس السلطان فمجلس يباشر فيه أعمال الدولة، وآخر للطعام، وآخر للترفية والتسلي بسماع الشعر ومخالطة الندماء إلى غير ذلك، وقد نظمت أوقاته أيضا بين الجد واللهو، وهكذا ابتعد

السلاطين عن رعيتهم، وتبع ذلك ابتعاد تدريجي فى الأحاسيس والمشاعر، الأمر الذى آذن بنهاية النفوذ الغزنوى فى خراسان وإقليم الجبال (الرى وهمذان) وغيرها سريعا على أيدى السلاجقة.

ويتصل بالسلطان أفراد أسرته من الأقارب، وما يتبعهم من الموالى والخدم وأبناء السلطان وأحفاده وأخوته يعرفون بالأمراء، وعادة ما ينشأ الأمير فى منزل والده وتحت رعايته، فإذا ما شب عن الطوق الواحد من الأبناء فإنه لا يتقيد بالحياة فى قصر الأب، ويذهب إلى المعيشة فى منزل خاص به يتخذ فى العادة فى إحدى ضواحي العاصمة، ويمكن اختيار المنزل فى إحدى مدن البلاد الغير بعيدة عن العاصمة. وجرت العادة على تربية الأمراء فى صغرهم فى أحدى الضواحي أو المدن القريبة من «غزنة»، كما فعل السلطان محمود بابنيه مسعود، ومحمد، وأخيه الصغير الأمير «يوسف»، إذ أرسلهم إلى بلاد «دارو»، وأسند الإشراف على خدمتهم إلى «ريحان الخادم»، وأبنائه ويتعلمون هناك القرآن الكريم إلى جانب التفسير وسيرة النبي ﷺ، ويدرسون الإنشاء، ويستمعون إلى بعض الحكايات والسير والأخبار، وتنظم أوقاتهم بحيث يتعلمون، ويتنزهون، ويشاهدون ألعاب الصولجان، ويدربون على الصيد.

وعندما يكبر الأمير ويبلغ مرحلة الشباب المبكر تسند إليه أمارة بلد من البلدان، وربما منطقة كبيرة، على أن تكون السلطة الفعلية والحزم، والبت بيد «الكتخدا» أو المشرف على الأمير، ويكون فى الغالب من ثقات السلطات وكبار رجاله، وذلك بهدف إعداد الأمير للحياة السياسية العامة فيما بعد.

وقد جرت العادة على إطلاق لقب «الحرة» أو «الحرائر» على الحريم السلطاني، وكان لبعض أولئك الحرائر دور فى الحياة الاجتماعية والسياسية، وما قامت به عمه السلطان مسعود الأول المعروفة بـ «الحرة الختلية» يدل على مدى فعالية الحريم السلطاني، ونشاطهن السياسي المثمر، فقد كانت تطلع «مسعود الأول» على ما كان يدور فى القصر من الأخبار المهمة من أن كان وليا لعهد أبيه، واهتمت بذلك حتى أثناء وفاة السلطان محمود الغزنوى، فكان من ضمن رسائلها تلك الرسالة التاريخية، التى أرسلتها إلى الأمير «مسعود الأول» عقب وفاة أبيه سنة ٤٢١هـ، وكان «مسعود» فى «أصفهان»، وأوضحت له فيها تفاصيل الأحداث فى «غزنة»، وأوقفته على أبعاد.

ويبدو أن فئة كبار الموظفين فى الدولة من وزراء وأمراء وقادة، قد ارتبطت حياتهم الاجتماعية بالسلطان، وحاجة السلطان الدائمة إليهم فى مختلف مجالسة، ومن هنا لم تكشف المصادر لنا عن الصورة الخاصة لحياة تلك الفئة من حيث دورها الاجتماعى كاملا، غير أنهم كانوا ينعمون بعيشة مترفة بما حولهم من أبهة وخدم وغلمان وجوارى، وكانوا مقصدا للشعراء وذوى الحاجات. وكثيرا ما تمتع ولاة الأقاليم بمراكزهم الاجتماعية وكانت مجالسهم لا تخلو من الندماء من أدباء وشعراء ومغنين. أما موظفو الدواوين من كبار الكتاب، فكان ارتباطهم بشئون الدولة بمقدار فترة الدوام الرسمى، ولا يحتاج إليهم بعد ذلك، إلا إذا بلغ الأمر خطورته فى قضية أمنية تمس شرف الدولة داخليا، أو خارجيا، وفيما عدا ذلك فهم ينعمون بحياة مستقرة هادئة فى منازلهم الخاصة، التى يغلب عليها طابع الترف، وكانوا يجمعون حولهم فئة خاصة من الندماء والأدباء المثقفين، وتجرى فى مجالسهم المذاكرة فى قصص وحكايات وأشعار مما يروح عن النفس ويسرى بالهم. ذلك إلى جانب اهتمامهم بشئونهم الخاصة، وتنمية مواردهم بالمتاجرة بما يحصلون عليه من مكافآت تشجيعية من السلطان.

ومن الجدير بالذكر أن فئة الأعيان والأمراء والرؤساء كانت تختار لمن يؤدب أبناءهم مؤدبا خاصا، وقد اشتهر من المؤدبين «بنيسابور» - مثلا - كثير منهم، أبو بكر محمد ابن العباس الخوارزمى و«أبو القاسم الحسين بن أسد العامرى وابنه طاره» و«أبو العباس محمد بن أحمد المأمونى» وغيرهم. أما أولاد القادة وكبار الجند فقد عرفوا من بين سائر تلاميذ المدارس بـ «الأبناء».

أما فئة العلماء من قضاة وفقهاء وكلاميين وغيرهم، فقد اقتصرت على نفسها، فكان نشاطهم الاجتماعى مقتصرا على العلم والمعرفة، والنظر فى الكتب، وعقد المناظرات ومتابعة الدرس، وإصدار الفتوى، وإجراء التجارب، وغير ذلك. ولم تكن هذه الفئة كثيرة التردد على مجالس السلاطين وولاة الأقاليم لاستجداء ما عندهم، فقد كان السلاطين والولاة عادة، يبعثون فى طلب عالم كبير للاستئناس بفكرته، أو استجلاب الفائدة من تجاربه. على أن هذه الفئة بمختلف مستوياتها العلمية تدين فى قراراتها بالولاء التام للدولة، وهى أكثر الفئات شعورا بالتمسك بالوفاء بعقد الطاعة لولى الأمر. وكان انطواء هذه الفئة على بعضها كثيرا، مما شد

أزر الحركة العلمية فى أرجاء الدولة الغزنوية، وبالتالى سجل لها المشاركة فى النهضة الحضارية التى شهدها العالم الإسلامى فى القرن الرابع الهجرى. وكان من عادة أفراد هذه الفئة كثرة الأسفار من بلد إلى بلد لمقابلة علمائها والتزود من معارفهم، ومناظرتهم فى مجالات العلوم المختلفة أو مكاتباتهم فيها، وقد جرت عادة بعض العلماء على الزهد فى الدنيا ونعيمها والقناعة بالكفاف من المعاش، وقد أثر عن البيرونى وغيره من العلماء أنهم عندما تعطى لهم مكافأة كبيرة، أخذوا منها ما يكفيهم، ثم وزعوا ما تبقى على الفقراء وذوى الحاجة. وجرت عادة الفقهاء والزهاد والمتوصفة على قضاء معظم أوقاتهم فى المساجد، فقد اشتهرت بذلك، مساجد مدن «هراة» و«بلخ» و«سجستان»و «مرو» و«نيسابور» بازدحام الفقهاء والزهاد وأرباب القرآن.

أم فئة الحرف فقد تركزت حول بعضها فى المسكن والمعاش، فيذكر المقدسى أن فئة التجار وأهل اليسار على تنوع معروضاتهم كانوا أهل ميل إلى سكنى المنازل الجميلة الواسعة التى عرفت فى تلك الوقت بالفنادق، ونظمت فى مدينة «نيسابور» و«غزنة» بحيث أصبح لكل نوع من التجار سوق يتبعه نزل خاص بأهله، وهو مجموعة الفنادق التى تضاهى غيره من ألوان التجار وأهل الأموال الغزار. أما الخرازون، والقلانسيون والأساكفة والحبالون، فكانت لهم منازل أقل درجة من التجار وأهل اليسار، وهى عبارة عن حجرات تميل إلى الرداءة فى بعض منافعها، وتقع فيها حوانيتهم. أما فى «غزنة» فقد أفرد أرباب الحرف فى أماكن منفصلة عرف كل مكان بأصحاب حرفته، فقد عرفت قرية الحدادين، وسوق الصيارفة، وأماكن أرباب الحرف الأخرى. ويمكن أن يكون هذا التنظيم قد شاع فى سائر مدن البلاد الأخرى.

أما الشعراء، فإن صحت الروايات المتعددة من أنه كان يمشى فى ركاب السلطان محمود الغزنوى وحدة قرابة أربعمائة شاعر، من شعراء الفارسية والعربية، فذلك يعنى أن الشعراء قد كونوا مجمعا كبرا للشعر، وسوقًا للأدب رائجة. وكان من عادة الشعراء القيام بالمبارزات الشعرية سوا فى حضرة السلطان، أو مجلس خاص لأحد الأدباء، وأحيانا لا يألفون إلا لمن يجاريهم فى قول الشعر.

وكان الفلاحون أبعد ما يكون عن النشاطات السياسية، والاجتماعية البارزة وإن كانوا يسهمون فى توفير احتياجات البلاد من الأغذية المتنوعة، غير أن المصادر لم تفصل كثيرا من جوانب معيشتهم والثابت أن المزارع أكثر أفراد المجتمع ارتباطا بالأرض والأسرة، فلا يسهم فى الحملات الحربية، ولا فى دفع عجلة النهضة الحضارية إلا بجزء يسير أو نادر. ولا يعنى هذا القول خمول دورهم، فقد كانت تقع عليهم أعباء الظلم الذى يفرضه عليهم الدهاقنة وولاة الأقاليم فى دفع الخراج بمبالغ مضرة بهم أحيانًا.

الحياة الاجتماعية

المؤثرات الاجتماعية

أ - الحالة الأمنية:

لم تكن للدولة الغزنوية خطة أمنية محددة المعالم، ومن خلال الدراسة المركزة فى اخبار هذه الدولة يمكن القول بأن السياسة الأمنية للدولة قد شملت أربعة برامج، أولها: قمع الفتن فى الداخل ليعيش المجتمع فى أمن وسلام. والثانى: تأمين الطرق الداخلية والمنافذ التجارية فى الداخل، وحمايتها من اللصوص لنشاط التجارة والتسويق. والثالث: السعى إلى تأمين طريق الحج الممتد من خرسان إلى مكة المكرمة عبر العراق والجزيرة العربية لتمكين حجاج المشرق من قضاء الفريضة فى أمن من عادية الأعراب وقطاع الطرق. والرابع: تأمين أطراف البلاد من الغارات الخارجية، فإلى أى حد نجحت هذه الدولة فى تطبيق برامجها الأمنية؟ وهل استمر ذلك النجاح أم لا؟

والحق أن الدولة الغزنوية استطاعت فى عصر ازدهارها فى الفترة ما بين (٣٨٧/ ٤٣٤هـ)، إثبات جدارتها بالنجاح الذى تم أيدى زعمائها الكبار، ففى مجال قمع الفتن الداخلية، وفق السلطان محمود فى القضاء على حركة التمرد والعصيان التى قام بها خلف بن أحمد والى سجستان سنة ٣٩٣هـ، وانتهى أمره بالغزل، كما تمكن من قمع حركة صاحب قصدار الذى أظهر العصيان سنة ٤٠٢هـ، وكانت فتنة أهل خوارزم سنة ٤٠٨هـ أخطرها، ذلك أن واليها أبو العباس مأمون لما أظهر الولاء للسلطان محمود الغزنوى بدون رغبة قادته وكبار

رجاله، قامـوا بقتله والتمرد على السلطان مما اضطره إلـى الخروج إليهم على رأس جيش كبير وإخماد ثورته.

وقـد اجتـهـد سلاطين غـزنة فى نشـر الأمن عن طريق الأخـذ على أيدى الخارجـين والطامعـين من أمراء أو غـيرهم، بل كـانوا يبطشون بمن يسيء السيرة ويعبث بالأمن فى رعـيتهم من من الأمـراء، فكان القتل الصلب جـزاءا لمن أخاف أمن الرعـيـة، كـما فـعل السلطان مسـعود الأول بصـاحب مدينى سـاوه وقم سنة ٤٢٤هـ، إذ استغل فـترة النزاع بين السلطان مسعـود وأخيه محمـد، فهاجم الرى ونهب حاج خراسان. وكان أهل هراة لا يبالون بالأحكام، ولهم ميل إلى العنف، حتى غـدا القتل عادة فيـما بينهم، ولما حكمهـا ولاة الدولة الغزنوية بسطوا الأمن بها، فسعدت بهم البلاد، حتى لقد كان أهل هراة ينظرون إلى سلاطين غزنة بعين الاهتمام، ورغبة فى العودة إلى حكمهم بعد دخوقل السلاجقة فيها. وكان أكثر ما أزعج الحيـاة الأمنية إغارات السـلاجقة البـدو على نيسـابور، وابيورد وطوس منذ ٤٢٢، على ما سبقت الإشارة إليه.

وقد اعـتنت الدولة بحماية الطرق البـرية والمنافذ التجـارية ومن اللصوص، ذلك أنه كان هناك من الغور يخـيفون المشاة فى الطريق التجارى عـبر بلاد الغور، ولما بلغت السلطـان محمـود أخبارهم نهض غليـهم بحملة تأديـبية سنة ٤٠١هـ، قضت على مطامعهم وأخدمتهم إلى الأبد.

وكان الناس لا يحجون فرادى بسبب الخوف من قطاع الطريق، غذا لم يكن هناك من الوسائل ما يكفل لهم السلامة، مما يعـرض قوافل الحجيج للخطر، وتذكر بعض المصـادر أنه فى سنة ٤١١، ٤١٢ هـ لم يحج أحـد من العـراقيـين بسـبب استفحال خطر قطاع الطرق، فكما كان من أهل خراسان إلا أن شكوا إلى السلطان مـحمـود الغزنوى آملين منه حـمايتـهم من الخطار التى قـد تهددهم فى الجـزيرة العربيـة، فأمر بمنـاداة الناس للحج، وأسند قيادة حـجيج بلاده إلى احـد رجاله، وجهزهم بالمال اللازم للنفقة والصدقات بمكة الحاج فى سنة ٤١٢هـ، من بلوغ مكة وأداء الفريضة فى أمان من الخطر.

وقد أصبحت هذه الحسنة عادية جرى فيما بعد السلطان مسعود الأول، وقد أشار إليهـا فى خطابه للخليفة العباسى القـادر بالله سنة ٤٢٢هـ. ولعل الغزنويين

اعتنوا بكسوة الكعبة أيضا، فقد عثر الوزير السلجوقى (نظام الملك) على الكسوة للكعبة من الديباج الصفر، لدى أحد أعيان «نيسابور» وموقع عليها اسم السلطان ابن سبكتكين، وقد أرسلها نظام الملك إلى مكة سنة ٤٦٦هـ.

كما نجحت الدولة الغزنوية فى حماية المجتمع من الغارات الخارجية، فكانت هيبة السلطان محمود تطبق الآفاق، وجرت بينه وبين الدولة الإيلكخانية بما وراء النهر معاهدات على احترام الجوار، استمر مفعول المعاهدة ساريا طيلة حياته، ثم جددها السلطان مسعود الأول بعد أبيه.

كما نجح السلطان إبراهيم بن مسعود، (٣٥١ - ٣٨٠هـ) فى عقد معاهدة مع السلاطان السلجوقى ملكشاة تم بمقتضاها تأمين حدود الدولة الغزنوية من عادة السلاجقة.

ومما يتعلق بالأمن الحسبة ويقوم بها عادة الزهاد والوعاظ والفقهاء فى أنحاء البلاد، وكان للمحتسبين نفوذ قوى فى «نيسابور» لدرجة أن بعض الأعيان رفع شكوى إلى السلطان محمود الغزنوى ضد زعيمهم فسأل السلطان: وهل يأخذ شيئا من حقوق الناس؟ فأجيب ب «لا» بل كان السلطان محمود نفسه يسمح للوعاظ بالجهر بما ينكرون عليه من تصرف. وفى «هراة» لايسمع للمحتسب أمر، وأهل الرى أكثر طاعة لولاة الأمر وإجابة لنداء المحتسب.

وعلى الرغم من سريان أحكام الشريعة الإسلامية والأخذ بالأسباب الكفيلة ببسط الأمن حينذاك، فإن الأمن لم يكن ساريا على النحو الذى ننعم به الآن فى هذا العصر الزاهر، وربما يعود ذلك إلى صعوبة المواصلات، مما يحول دون سرعة ضبط قطاع الطريق، وانقسام السلاطين على أنفسهم وما يجر من تفكك المجتمع حولهم وانقسامه، وأيضا عدم إيجاد وسائل أمنية أكثر ضبطا وملاحقة للمخالفين فى ذلك الوقت.

ب - النوازل الأجتماعية:

تعرض المجتمع الغزنوى لهزات عنيفة من القحط، وانتشار الأوبئة، والغلاء مما أودى أحيانا بحياة آلاف من السكان فى فترات زمنية، وأماكن متعددة فى البلاد، ولعل تلك العوامل وما جرته من متاعب قد حالت دون تقدم النمو السكانى فى

البلاد. ومن الجدير بالذكر أن مدن خرسان ومن بينها «نيسابور» قد تعرضت فى سنة ٤٠١هـ لفترة من الجدب والقحط الذى أهلك المزارع والمواشى، مما تسبب فى انعدام الأقوات وندرتها، وارتفاع أسعار المواد الغذائية وندرتها مما اضطر الناس أحيانا إلى «أكل الأعشاب والدم»، وأدى ذلك إلى وفاة ما يقرب من مائة ألف نسمة من السكان فى مدينة «نيسابور» وضواحيها. على أن الدولة الغزنوية قد تداركت الموقف بإنقاذ الأغذية إلى العمال فى خراسان، مما ساهم فى دفع ذلك الخطر الكبير عن المجتمع.

كما أدى عدم تطور الوسائل الصحية إلى هلاك كثير من البشر، بسبب انتشار الأوبئة، فقد تسبب انتشار مرض الطاعون سنة٤٢٣هـ فى قتل أربعين ألف شخص فى يوم واحد فى «أصفهان» وانتشر ذلك المرض فى خراسان وغزنة والرى وهمذان، وغيرها. وقلت الأيدى العاملة فى الزراعة فى بلاد الهند لكثرة الوفيات بسبب امتداد ذلك العرض إليها.

وتسبب السيول الجارفة أحيانا فى الأضرار بمصالح المجتمع فى غزنة سنة ٤٢٢ يذكر البيهقى أنه هطلت أمطار غزيرة فى التاسع من شهر رجب مما أدى إلى طغيان المياه على أجزاء من أسواق المدينة، وتسبب فى إتلافها واقتلاع قنطرة بحوانيتها المجاورة لها، وتدمير سوق الصرافين، فضلا عن المزارع المجاورة للوادى مما أضر بالسكان.

وات الحروب الكثيرة وما أعقبته من ويلات فى هلاك أفراد من المجتمع، وارتفاع الأسعار فى الضروريات، مقابل انخفاض قيمة الكماليات، فلما كان سعر الحريب من الأرض يباع بألف درهم، نجده فى سنة ٤٣١ هـ يباع بمائتى درهم، ثم يهبط إلى ما يساوى مقدارا بسيطا من القمح مع قلة من يشترى. بينما ثمن المن الواحد من الخبز ثلاثة عشر درهما. وقد تسببت الحروب التى جرب ٤٣١هـ، بين السلطان مسعود الأول والسلاجقة فى وفاة أكثر أهل «نيسابور» ونواحيها.

ومما لا شك فيه أن آثار تلك النوازل تنعكس على الحياة الاجتماعية والاقتصادية مباشرة ويكثر الفقر وشكوى الحال إلى الولاة والسلاطين.

المظاهر الاجتماعية:

١ - الطوائف الدينية:

حفل المجتمع الغزنوى بتعدد الفرق الفكرية فى مختلف مجالات الفكر الإسلامى وضم عددا من الفرق. ولعل فرقة أهل السنة والجماعة قد سادت فى معظم أجزاء الدولة الغزنوية، فى إقليم غزنة وبست وخراسان، وبلاد الجبل. ومن مميزاتهم التمسك بنصوص الكتاب والسنة وعدم تأويلها، وهم يحاربون غيرهم من أهل العقائد الفكرية باللسان والقلم، ويؤلبون الدولة عليهم. وقد كان سلاطين الدولة الغزنوية من أتباع هذا المذهب ويحاربون الغلو فيما عداه، وأخذوا بناصر أصحاب هذا المذهب فى دولتهم طيلة فترة حكمهم. ويرى بعض المستشرقين أن هذا المذهب كان يلائم طبيعة عقول الأتراك البسيطة لوضوح ذلك المذهب وينتشر المذهب الشيعى فى أجزاء متعددة من البلاد الغزنوية فى الهند وخراسان خاصة مدن «نيسابور» و«طوس» وبلاد الديلم، وأهل مدينة «قم» باصفهان شيعة خلص يعلنون عدم قبولهم بغير لولاء للأئمة الشيعة، ويذكر المقدسى أنهم كانوا لا يصلون فى الجامع حتى أرغمهم الوالى على ذلك، ومن ظريف ما يذكر أنه بلغ من تشيعهم الإكثار من ألقاب العلويين مثل «أبو جعفر» وتحديا للشيعة عمد أهل أصفان إلى التقلب ب«أبو بكر، عمر، عثمان» مما لا يمكن استعمالهمن أهل «قم» على الإطلاق. ومما يميز الشيعة التزامهم بأسماء أئمتهم مثل «أبو جعفر» «أبو الحسن»، الحسين، زين العابدين» وغيرها واصبحت عادة فيمن يسمى ابنه.

وأخطر فرق الشيعة: الإسماعيلية، ومنهم الباطنية، التى انتشرت فى إقليم الجبل، وكان لها عدد من الدعاة فى الرى، لكن السلطان محمود الغزنوى قتل من ينتمى إليها. وكانت هذه الفرقة قد أسست لها فى خراسان بعض المؤيدين إلا أن السلطان محمود قضى عليهم أيضا. أما الإسماعيلية فقد انتشر دعاتها بكثرة فى إقليم السند، وكان يتزعمها هناك فى القرن الرابع صاحب مدينة «الملتان» ويذكر المقدسى أنه يهوعلون فى الأذان»، وقد قضت عليهم جيوش الدولة الغزنوية، وعلى الرغم من ذلك فقد امتد تأثيرهم فى الهند منذ ذلك التاريخ للآن.

أما الخوارج فقد انتشروا بكثرة فى نواحى «هراة» ومعظم إقليم سجستان»

وأجزاء من إقليم كرمان، وإقليم مكران، ويعرفون هناك باسم «الشراة»، وكان لعم طرق فى المعاملات تقوم على العدل مع الغريب سواء أكان من اتباع مذهبهم أم من غيره. وعادة يفتخرون بأنهم خوارج، وأنه لا ظلم بينهم، ولا يظلمون أحدا، ولا يدينون بالولاء لاحـد، ومن عاداتهم إلـغاء لامنابر فى مـساجـدهم، ولا يتركـون النساء يخرجن من البـيوت نهارا وإن كان هناك حاجة للخـروج خرجن ليلا. وقد سارت هذه الفـئة فى التـعايش مع المجتـمع الغزنوى بحيث لـم تظهر أى نوع من الشغب وكانت ترضخ لوالى الولاية فى سجستان أو مكران.

وفى مـجال الفكر كـان هناك عدة طوائف مـن المعتـزلة، ففى إقليم الجـبل «اصفان» والرى، وهمذان «امتد تأثير فرقة التجارية، والزعفرانة، الذين يتفقون فى بدأ القول بخلق القرآن، غير أن السلطان محـمود الغزنوى حينما فتح ذلك الإقليم أمر بحرق جميع كتب الفلسفة والمعتزلة، والقضاء على أفرادها.

وكان أخطر تلـك الفرق طائفة «الكرامـية»، فـقد اتخذ علمـاؤها من الزهد وإظهار التعـبد وسيلة إلى قلب السلطان محـمود الغزنوى، ولم يظهروا له حقـيقة مذهبهم. وقد مـلأت هذه الفرقة بلاد خراسان وما وراء النهـر وغزنة. وكان زعيم طائفة الكرامية فى ذلك الوقت أبو بكر محمد بن محمشار، الذى ارتقى إلى مرتبة المستشار الدينى للسلطان محمود لا تنفـذ مشورة إلا برأى ها الإمام، وقد استغلت هذه الفـرقة مـساندة السلطان لها فـعملت على إيـذاء فرق أهل السنة والأشـعرية والشيعة فى نيسابور، مما كـان له أثر بالغ على تلك الفرق. غير أن ذلك النصر لم يدم طويلا بسبب تورط الزعيم «ابن مـحمشار» فى قضيـة دينية مع القاضى الحنفى «صاعـدين محمد (أحـد ثقات السلطان أيضا، مما غـير رأى السـلطان محـمود فى الكرامية ولم تحظ بعد ذلك بالقبول.

وكـان التنافس على أشـده بين مـذهب الشـافـعى والمذهب الحنفى، وكـان المذهب الحنفى سائدا فى غقليم المشرق ولـيس فقط فى الدولة الغزنوية، بل تعدى إلى بلاد ما وراء النهر، واهل غزنة يدينون لمذهب أبى حنيفة أيضا، ويذهب بعض المؤرخين إلى أن مرجع ذلك هو أن أبا حنيفة كان من أصل أفغانى. ويعتبر مذهب الشافعى حينذاك المذهب الوحيد المنافس للمذهب الحنفى فى إيران والهند وما وراء النهر، بل لقد بدأ يستقطب بعض رجال الفـقه الحنفى إليه، الأمر الذى أدى أحيانا

إلى التنازع بين الفقهاء واحيانا يثور العام لجل ذلك. وأكثر فقهاء الغزنويين على الصعيد الرسمى من أتباع مذهب ابى حنيفة، وقليل منهم شافعية ولا مجال للأخذ بصحة القصة التى أوردها بعض المؤرخين والتى يقال إنها كانت السبب فى انتقال السلطان محمود الغزنوى إلى المذهب الشافعى بعد أن كان المذهب الحنفى، فالقصة إن لم تكن موضوعة أساسا فهى أقرب إلى الوضع.

على ان المجتمع الغزنى قد اكتوى بنار الطوائف المتعددة، فقد صارت التهمة بالنزعة الطائفية على شخص ما وسيلة لتدميره، واحيانا يتهم بها ذو مال وغنى مما يضطره إلى افتداء نفسه بما يفرضه عليه الحاكم. وكما هو الحال من استغلال زعماء الكرامية لمركزهم السلطان فرموا الناس يتهم فساد الاعتقاد.

٢ - الرقيق:

تزايدت أعداد الرقيق فى قصور «غزنة» يوما بعد يوم، وذلك بفضل الحملات العسكرية التى قام بها حكام «غزنة» الأوائل من «بنى سبكتكين» وقد بلغ من كثرة الرقيق فى بعض الأحيان انخفاض قيمة الرقيق الواحد إلى ما بين عشرة دراهم إلى درهمين. والطريق الثانى لجلب الرقيق كان يتم عن طريق التجارة به فكان «النحاسون» أو تجار الرقيق يجلبونه من جهات بعيدة إما من الهند أو من بلاد الترك والصقالبة وغرها، وكانت أسواق «خوارزم» و«نسابور وبلخ» و«مرو» و«هراة» و«غزنة» و«المنصورة» من البلاد الغزنوية مصادر لاقتناء الرقيق. وأغلى عادة ما يجلب من بلاد الترك، وأحيانا يقوم تجار الرقيق بتعليمهم وتدريبهم على اللغة المحلية ليرفعوا بذلك من أثمانهم.

وقد شارك الرفيق بين أفراد المجتمكع الغزنوى، فى مختلف مجالاتع الحياة الاجتماعية المتعددة، وكانة منهم من لعب دورا فى الحياة السياسية. وقد أدى الترف الذى وصل إليه المجتمع الإسلامى فى القرن الرابع الهجرى فى العالم الإسلامى عامة، وفى الدولة الغزنوية خاصة إلى اقتناء الرقيق أيضا فعنمد السلاطين والوزراء وكبار الدولة والأغنياء إلى اقتناء الرقيق الرقيق حتى جاوزت أعدادهم المئات فى قصور السلاطين والأمراء، وةكان من الرقيق نوع يعرف بالخصى، ويؤتى به لخدمة نساء القصور والكبراء. ويقوم الرقيق بالخدمات العامة فى القصور والمنازل، وفى الحملات العسكرية ويذهب البعض إلى أن سر الإكثار من الرقيق فى صفوف الجند

يرجع إلى عدم رغبة القواد فى خروج النساء مع الحملات الحربية، وكان أصحاب المحلات العامة فى المدن كالفنادق والحانات يستخدمون الرقيق فى تلك المرافق ليقوم بخدمة النزلاء، وكذلك فى المجالس الخاصة لبعض الأفراد فى «نيسابور» وغيرها، فكانوا يشرفون على خدمة الضيوف، فى إعداد مجالس الطعام والشراب، ويقوم بعضهم بتقديم الشراب للضيوف، إلى غيرز ذلك من انواع الخدمات.

وربما كشف بعض الفضلاء والأدباء أحيانا قناع الحياء فى التشبيب والغزل بعض غلمانهم وافتتنوا بهم، ويبدو أن أولئك الغلمان الذين يقومون بمجالس الشراب كانوا يبدون من ألوان الدلال على جمالهم ما يحير عقول أهل الفضل والأدب فجاءت أشعارهم وفقا لتأثير فعل الغلمان.

والذى يقرأ فى أدب تلك الفترة وخاصة ما كتبه الثعالبى فى «اليتيمة» سيقف بلا شك على مدى تهافت الأدباء ومحبتهم لرقيق المجالس وزينتها.

ويلاحظ أن الرقيق فى المجتمع الغزنوى قد ترقى إلى المناصب العليا، وكان محل كلف السلطان واهتمامه، فمثلا الأمير «حسن» المشهور بـ «حسنك» كان أحد غلمان محمود الغزنوى ومحل اهتمامه، فعلمه السلطان ونشأ كاحد أبنائه، وأوفده فى اظحد العوامن على رأس حجيج بلاده، واعتمد عليه فى السفارة لدى الخليفة حين رجوعه من الحج، ثم ولاه منصبه الوزارة حينما عزل الرئيس «أحمد حسن الميندى»، واشتهر غيره من الغلمان الذين بلغوا مناصب ممتازة فى الدولة الغزنوية.

٢ - الأخلاق:

تقدمت الإشارة إلى جوانب من هذا الموضوع لدى الحديث عن فئات وعناصر المجتمع الغزنوى، وتجدر الإشارة هنا إلى الإشارة هنا إلى إعطاء السمات العامة لسكان الأقاليم الغزنوية من حيث الطباع والميول.

وعلى الرغم من اتحاد مصدر القيم الذاتية فى اظقاليم المجتمع الغزوى، بفضل وحدة العقيدة إلا أنه كان هناك، خصائص فى طباع سكان كل إقليم، أشارت إليها بعض المصادر، منها ما هو أساسى، ومنها ما هو مكتسب:

فأهل «خوارزم» يغلب على طبعهم الكرم والبشاشة، والثقة فى الدين ومحبة العلم، وكثرة الأسفار، واللغة المتميزة عن لغة الخراسانيين، والنهمة فى الطعام، وطابع الجد فى أعمالهم ومعاملاتهم. وأهل خراسان، أكثر تعدادا، أهل بأس وقوة، وفيهم الظرف والبلقة فى المعاملة، وميل إلى التفقه فى الين ومعرفة العلوم النظرية والتطبيقية، ومحبة للأدب، ومنهم أهل «نيسابور» ويغلب على طباعهم الخفقة والطيش، ولعل ذلك عائد إلى ظرفهم وحبهم للأدب. وأهل «بلخ» لهم رزانة عقول، وعزم وثبات فبى المواقف، ومتانة فى الراى. وأهل «مرو» يميلون إلى الظرف والأدب ومحبة المزاح وحب للعلم أيضا. ويكثر الطيش والتسرع فى طباع أهل طبرستان، بينما تغلب المرؤة التسامح والشهامة على أهل جرجان. أما الهنود فهم أهل هدوء فى الطباع مع ميل إلى المعرفة والتفقه. ولأهل (غزنة» ظرف ومرؤة ورغبة فى العلم مع الجد والمثابرة، ويظهر العدل والإنصاف فى غرشتسان. وأهل الرى لهم أخلاق كريمة وحسن معاملة مع ميول إلى العلم والفقه، وفى سجستان النجدة والمرؤة والإنصاف وحسن المعاملة والكرم «ما فى الدنيا سوقة أحسن منهم معاملة ولا أقل منهم مخاتلة» وجرت عادتهم على عدم قتل «القنافذ» مع كثرتها، لاعتقادهم بأنها الثعابيين التى تزخر بها منطقتهم.

٤ - العادات الاجتماعية:

حفل المجتمع الغزنوى بألوان شتى من العادات، منها ما هو عام ومنها ما تميز به إقليم عن آخر. فمن عاداتهم الاحتفال بعيدى الفطر والضحى، ويأتى عيد الفطر فى نهاية كل شهر رمضان كما هو معروف، وكانوا يرقبون هلال شوال بكل عناية، حتى إذا حل أول يوم من شوال وهو أول أيام العيد، أظهروا الزينات فى الملابس والمنازل والمطاعم والمراكب، وغيرها، ويجلس السلطان فى ذلك اليوم لاستقبال المهنئين بالعيد وتعد الموائد السلطانية فى أحد بساتين القصر، حيث يجلس السلطان ويحضر معه قواد الأفواج من الجند، ومقدموا الفرسان وكبار رجال الدولة من وزراء وحجاب وكتاب، بينما يجلس الشعراء من المائدة للإنشاد، ثم يقومون إلى مائدة أخرى أعدت للشرب حيث يجلس السلطان وندماؤه والمطربون. من حولهم يغنون بألحانهم وتوقيعاتهم على الآلات. وينقضى ذلك

اليوم في مرح وطرب. ولا تكاد تختلف الصورة عنها في الاحتفال بعيد الأضحى.

ومن الأعياد كذلك عيد «المهرجان» وفيه يقوم الأهلون بتبادل الهدايا كل على قدر طاقته ويجلس فيه السلطان للاستقبال، ويتقدم إليه الأمراء والأنجال بالهدايا، وكذا يفعل كبار رجال الدولة، ثم يجلس كل حسب منزلته في مجلس السلطان، وتأتي الهدايا إلى السلطان في ذلك العيد من أعيان بلاده، ومن الدول المجاورة، وتكون من أخطر الأشياء قيمة. وبعد الاستقبال يقوم السلطان والحضور إلى المائدة التي أشرف عليها بعض الغلمان، وتشمل على أنواع فاخرة من المأكولات من الدجاج المشوي على الأسياخ، والخصى، والبيض المسلوق وما يلزم الملوك في عيد المهرجان من المحمرات، ويأكلون الطعام بالأيدي، ثم يقوم الجميع عقب ذلك إلى مائدة أخرى أعدت للشراب، ويعد لهذه المناسبة نوع من المشروبات المعروفة حينذاك ويعرف بـ «الساتكين»، ويغني المطربون أجمل ألحانهم، وترتسم على وجوه الجميع علامات الفرحة ومظاهر السعد، ويستمر الاحتفال بهذا العيد لمدة خمسة عشر يوما. ومن الجدير بالذكر أن هذا العيد يوافق موسم الورد فيزيد الابتهاج لأن الورد فيما يعدون ضيف لا يلبث أن يرحل بعد أربعين يوما.

ومن الأعياد التي يحتفل بها أيضا عيد «سده» وتسميته المصادر العربية «السذق» وهو في الساس من أعياد «المجوس» إذ كانوا به منذ فجر ديانتهم، ولعل ممن جاراهم فيه الأمراء والسلاطين وكبار الأعيان، وذلك لما فيه من المتعة والترويح النفسي. غير أنه كان للعلماء والأباء في تلك الوقت نظرة أخرى.

ومن مراسم هذا العيد إعداد مراسمه في الصحراء، غذ يجمع الحطب من شجر الطرفاء بكميات كبيسرة والأخشاء ويشكل أكواما عديدة حتى يبدو كالجبل، ويكون ذلك في مكان جميل، ثم يرتب برنامج السلفطان لحضور تلك الليلة التي يحرق فيها ذلك الحطب، فتوقد النيران، ويطلقون من خلالها طيور قد بللوها بالنفط، وجنس آخر من الوحوش، ويحلو هذا المنظر للناس، ويتناولون وسط هذه المظاهر الطعام والشراب، ويستمعون الغناء. وأحيانا ترى النيران من مسافات بعيدة تقدر بالكيلو مترات.

وهناك عيد كان يحتفل به أهالى «غـزنة» فى أواخر أيام شهر شعبان من كل عام هجرى ويسمونه «كلوخ أنذار» ولعل يدل عليه، إذ هو الاستعداد لشهر رمضان المبارك.

ومن عـادات الزواج «الخطبة»، وتتم بين الـسلاطين عن طريق وفـد يرسله السلطان إلى احد الملوك، ويختار لمن يرأس الوفد عادة، أحـد الفقهاء ومعه توكيلر بعـقد الـزواج، ثم يعقـد للسلطات أو احـد الأمـراء على هذه الطريقـة، ويؤتى بالعروس. ولدى قدومـها يأمر السلطان بإظهار الزينات فى البلد فـتزين الأسواق وابواب المدينة واماكن تجـمع العامكة، وذلك احتفاء بمقـدم عروس السلطان. وفى سائر أوساط المجتمع تتم «الخطبة» بوسـيط أيضا ويكون من الرجال أقارب الزوجة أو من إحدى النساء، ثم يتم الزواج حـسب قبول الطرفين واتفاقـها. ومن مراسم الزواج «الصداق» ويعـرف أيضا بـ «المهر» وهو عـنصر أساسى فى العـقدان ويدفع عادة «بالنقد» ويشترط أيضا كماليات أخرى من الحلى وأنواع الملابس. ومما يلاحظ على السلاطين الإسراف فى سياق المهور، يذكر ابن الجوزى أن أحد الغزنويين دفع فى إحدى بنات أمير من السلاجقة أربعمائة ألف دينار ولم ترض أمها بذلك. هذا عدا هدايا العروس وزينتها التى تعادل قـيمة الصداق أحيانا، ويلاحظ الإسراف فى تجهيز العروس من قبل السلاطين، وتتكون أدوات الزينة أحيانا من سبائك العقيان، ويواقيت الـبهرمـان وقطع من الدر والمرجان، وتخـوت الوشى والحبـر، وصوانى الذهب مملوءة من بيـضـات العنبر وأوانى مـن الفضـة، وأطيـاب الكافور والعـود الهندى، وهدايا أخرى من السيوف وغيـرها. وهذا خلاف عادة المجتمع، إذ تزف المرأة إلى بيت الرجل حيث يقـام احتفال بسـيط ووليمة ينفق عليهـا الزوج حسب إمكانياته، وفى بعض بلاد خراسان كان الأب يكدح فى سـبيل إعداد الجهاز لأبنته من نفقته الخـاصة، ومن اجل ذلك اشتكى الشاعر «الفردوسـى» من ضيق حالته. ولعل هذا يشبه ما فعلته حاليا بعض المجتمعات الإسلامية المعاصرة.

وفى «غرشـستان» يفرد للعريس «دست» خاص يتصدر مجلى الحفل، ويؤتى بالعريس على وجهـه غطاء خفيف من القماش. ثم يؤتـى بالنساء والمغنيات وتدق الطبول والدفوف بين يديه ويحضر نساء الجيران، والأرقاب ويرقصن بين يديه أيضا واحدة إثر أخرى فرادى ومثنى وثلاث، والزوج يتمتع بالمنظر الجميل من حوله، ثم

تاتى العـروس آخر الراقـصات وترقص بين يديـه برهة، ثم يخلو المكان ويتركـان لشأنها.

ومن مظاهر الأفراح والاحتفال فى المجتمع الغزنوى، ما جرت عليه عادتهم عندى قدوم السلطان غـلى بلد من بلدان الدولة، أو وصول رسول الخليـفة أو أى وفد خارجى، إذ يقوم أهل البلدة بتزينها، وتنصب لذلك أقواس النصر عبر أبواب المدينة إلى داخلهـا، وتقام قباب الـزينة، فلا ترى إلا الأقواس الواحـد تلو الآخر مزينة بألوان من القماش الجميلة وكذلك القباب، وتقام المحافل للرقص الشعبى هنا وهناك، ويخرج أعيان المدينة إلى الخارج لاستقبال السلطان.

ويستـعرض الجند فى ميـدان خاص. وغذا كان أعـيان الضيف أحـد الوفود كزفـد الخليفة مـثلا فإن الـسلطان يأمر بتزين البلد ثـم يخرج مع الأعيـان، وعقب وصول الضيف، يقوم كـبار العيان والأغنياء بتقـديم النثارات من الدنانير والدراهم الكثـيرة، وقطع من الحلوى والسكر، ولا تـزال تنهال تلك النثـارات على الموكب حـتى يصل مقـره. بينما يبـقى أهالى البلد فى لأفـراحهم عـدة أيام، ولعل ذلك اظهارا للولاء والمحبة من قبل أهل البلد للسلاطين ملوك البلاد.

ومن الهدايا المعروفة والتى تقدم للضـيوف لدى المجتمع الغزنوى هدية «مزد داندان» أى «تعب السنان» ويقـدمهـا صاحـب المنزل لضيفه على حـيب مقـدرته واستطاعـته، وهى عادة من النقـود المستعـملة لديهم، وتقدم للضـيف أيضا هدية أخرى عرفت بـ«هدية الحـمام» وهى تقدم أيضا حسب المقدرة، وقـد حصل رسول الخليفة سنة ٤٢٢هـ على مبلغ عشرين ألف درهم من الفضة وبرسم هدية الحمام، ذلك عدا هدية «النثار» المشار سابقا.

وفى حالة ختان أحد الأمراء فإنها تزين ثصور السلاطين وتحلى بأنواع الفرس المذهبة والتحف الجميلة، وتبث العطور الزكية فى جميع مرافق القصر.

واختلف أنواع الملابس والزياء فى المجتمع الغزنوى لاختلاف ظروف الأقاليم الطبيعية، وتفاضل أوساط المجتمع فى اللباس من فرد إلى آخر. وزى أهل السند، هو لبس المناطق الحارة، يسـتعملون الأرز والميازر لشدة الحـر، ويشمل ذلك معظم مناطق الهند، ويميـل التـجار هناك إلى لبس القـمص والأردية التى تميـزهم عن

غيرهم. وزى أهل «بست» يشبه العراقيين وكذلك أهل طبرستان. والفقهاء والأعيان في لامجتمع يلبسون الطيالس من فوق الطيلسان، ولا يغطى الراس بها، وأهل سجستان يضعون على رءوسهم عمائم أشبه بالتيجان، وانصاف العلماء بمدينة «مرو» يجعلون الطيالس على حد الكتفين، أما ثيات الجند فتبدو بأكمام ضيقة، ولأهل خراسان عادات فى البس صيفا وشتاء ويلبسون المبارز لدخول الحمامات، أما لبس السواد فقد انتشر ذلك الوقت فى إقليمى فارس وكرمانم، بالغضافة إلى الطيلسان والدراريع. وأمراء يلبسون القبية والدراريع الواسعة العرض والجيوب، وتختلف عن دراريع الكتاب، ويعرف الكتاب بالقلنسوة التى تغطيها العمامة من جوانبها. بينما يتباهى الملوك والتجار فى ألوان الملابس من الطيالبس والعمائم، والخفاف، والقمصان، والجباب، والمبطنات، وزيهم كزى أهل العراق.. أما أهل الذمة فقد تميزت عن سائر أفراد المجتمع بلبس الزنانير. ومما يلاحظ على الأزياء أنها تكاد تنفق وتتقارب فى عموم البلاد عدا الأجزاء الحارة التى تميل شعوبها إلى الألبسة الخفيفة. وكان من عادة الشيوخ الطاعنين فى السن صبغ لحاهم بالخضاب فيتقلب لونها إلى الإحمرار، ولا توزال هذه العادة قائمة إلى الآن.

وقد جرت عادة الصوفية فى ذلك الوقت على لبس الثياب الملفوفة بالأزرق وغيره وأحيانا يلبسون المرقعة، ولعل مرجع ذلك إلى رغبتهم فى التميز عن غيرهم بإظهار الزهد والعزوف عن الدنيا. وقد أنكر بعض العلماء فعلتهم هذه.

ومن العادات التى عرفها المجتمع الغزنوى الاحتفال بختم القرآن الكريم، إذ يقام له احتفال خاص، ويخرج الأولاد ممن ختم القرآن مع الأستاذ فى موكب خاص من أفراد المجتمع إلى مقبره البلد وهناك يتلو الطالب عند قبر أحد أقربائه بعض آيات من القرآن دعاء ختم القرآن، ثم تجرى بعد ذلك مراسم الاحتفال الخاص بتلك المناسبة.

وقد عرفت ألوان من اللهو لدى أوساط المجتمع الغزنوى عامة والسلاطين خاصة، وكانت المجالس تعقد لها فى ترات معينة ومنتظمة، ووجدت الملاهى بسبب الرقى الاجتماعى الذى أصاب عامة المجتمع الإسلامى فى القرآن فى القرن الرابع من جهة والاستقرار الذى نعم به مجتمع الدولة الغزنوية.

وقد شاع الغناء فى المجتمع الغزنوى وكثير عدد المغنيين، ولكنهم لم يشتهروا مثل اشتهار مغنى العراق، ولعل اكثر المغنيين والمغنيات من الرقيق، وكان الملاهى فى «غزنة» و" نيسابور" بمثابة مدارس ينشأ فيها الغناء، وقد اشتهر من مغنى السلطان مسعود الأول "عبد الرحمن القوال"، ومن النساء "ستى زرين"، التى كانت تشهدوا بألحانها لذلك السلطان وأهل قصره.

وقد لقت عنده حظوة كبيرة، حتى أصبحت تمثل حاجبه المختص بشئون الحريم.

ومن ألوان اللهو تلك المجالس التى كانت تعقد للشراب بصفة شبه يومية، وخاصة فى حياة السلطان مسعود الأول، وقد تحدث عنها البيهقى، وبين إلى أى حد

بلغ كلف السلاطين بها ودواعى ذلك، ويبدو أنهم كانوا لا يرون فى إظهار ذلك أدنى حرج، ولا ندرى إلى أى حد كان موقف رجال الدين من الفقهاء قد تمادى فى احتساء الشراب حتى يزول إذا عرفنا أن " ابو بكر الحصيرى" وهو من الفقهاء، قد تمادى فى احتساء الشراب حتى جاوز السكر. ولعل رجال الدين المعتدلين لم يقبلوا بذلك الواقع، ولم يعمدوا ايضا إلى غثارة مثل هذه القضايا، ما دام الدولة قد تم لها فتح أجزاء كبيرة مكن الهند ونشر الإسلام، وما دامت لا تزال فى عنفوان قوتها، أما وقد بدت قوة السلاجقة تلوح فى الفق وباتت خطرا يهدد استقرار البلاد، فقد بدأت مظاهر الاستنكار على السلطان من كثير من العلماء ورجال الدولة، وظهر النصح فى مقالة عالم أو وزير أو قصيدة أو قصيدة شاعر.

وقد اتخذ السلاطين من منجالس الشراب أحيانا وسائل أحيانا لكشف ضمائر أقاريبهم ممن لا يؤمن جانبه منهم، وبلغ من تأثير الشرب أحيانا أن يرمى بنفسه فى جحيم المعركة من غير وعى فيذهب ضحية فعلته، كما حدث للقائد "بفراجق" فى إحدى المارك.

وتنظم مجالس الشراب عادة بعد الطعام فى النهار أو الليل، ويحضر المجلس الندماء، من وزراء وكتاب، وشعراء، ومغنين، ومغنيات، ويقوم الشراب عادة غلمان من الترك، ويفضل السلطان كونهم على درجة من الجمال، وربما فتن

أحد الندماء بجمال أحد الغلمان لكن ذلك يظهر فب نوع من الحشمة تقديرا لهيبة المجلس، وذلك بعكس مجالس الآباء والأعيان إذ كان الشاعر يكشف فى نوع قناع الحياء عندما تأخذه النشوة.

ومن مظاهر اللهو نـزهات الصيد، ويشرف عـلى تنظيمهـا أفراد مختـصون لذلك، وكان لتلك النزهات مـوسم معين من العام، وهو فـصل الربيع، ومما يعد لذلك القيـام بحشر الـوحوش فى أماكن مـعينة للاصطياد، ويعـين السلطان وقت الخروج، ويسند تصريف شئون البلاد إلى ثقات رجالـه فى الدولة حتى يعود، ثم يخرج السلطان إلى الصيد ومعه أفراد حاشيته.

على أن الصيد يعتبر من أنواع الرياضة البدنية الشاقة والمفيدة، وقد أفاد منها السلطان مـسعود الأول فى تسـامحه مع النـاس، ويبعث الصيـد قيم الصـبر على الشـدائد، والجلد فى ساعـة العسـرة والاعـتزاز الشـديد بالنفس، وقد كـان هذا السلطان يمارس هذه الرياضـة فى البرد القفـارس، ويصارع الأسود وحده فـإذا ما عجز نادى فى بعض رجـاله، ومما يذكر عنه ظانه قتل ذات يوم ثمـانية من السود وأثنى عليه الشعراء فى ذلك.

وكان من أنواع الرياضة أيضـا حمل الأثقال، وهى فى العادة أحـجار ثقيلة كان الشبان يتباهون فى نقلهـا من مكان إلى آخر، وتكشف عن مدى التحمل لدى الفرد. ومنهـا المصارعـة، والمبارزة التى يتـدربون عليها فى ذلـك الوقت، وألعاب الصولجان، ظغلى غير ذلك من اظنواع الرياضيات الأخرى.

وتظهـر عادات الحـزن عند وفاة الميت ويشـيع جنازته مجـموعـة من الأهل والأصدقاء والمعارف، أما إذا كان أحد العلماء البمشهورين فإنه يشيع جثمانه أعداد كبيرة من البـشر، ويتقدم الرجال عادة أمام الجنازة ويسيـر النساء من خلفها، وفى بعض البلدان كنيسابور مـثلا يخـرجن النساء ويبكين الميت، ويكثـرون من النواح أحيانا، بينما يكتفى البعض بخروج أهل الذكر خلف الجنازة يهللون ويرتلون بعض التواشيح الدينية.

أما النصارى فيعيشـون موتاهم بالنواحى، ودق الطبول ونفخ الزمور، ويسير الرهبان فى المقدمة ويليهم حاملوا الصلبان والشموع ومن خلفهم بقية المشيعين.

وقد جرت العادة فى المجتمع الغـزنوى بالجلوس للعزاء ثلاثة أيام يلبس فيها الثياب البيض كـما فعل المير مسعود الاول عند وفاة أبيـه. اما إذا كان المتوفى أحد العلماء، اقيمت مـراسم العزاء فى منزله، فإذا كان يقوم بالتدريس فى حـياته فإنها تقام فى المدرسة التى كان يعمل بها.

هـ - دولة الأتراك السلاجقة
وبلاد التركستان وأواسط آسيا

إن حركة التريخ فى آسيا الوسطى منذ أول عصوره تتاثر إلى حد بعيد بالدور الذى تلعبه القبائل التركية التى تشكل النسبة العظمى من سكانه. وإن كان ذلك لا ينفى وجود بعض الـعناصر القليلة العدد كـالفرس والأفغـان فى هذه المناطق لكن الأتراك كانت لا ينفى وجود بعض العناصر القليلة العدد كالفرس والأفغان فى هذه المناطق لكن الأتراك كـانت منازلهم فى الـسهـول الواسـعة بين نهـرى جـيحـون وسيحوب وبحر الارال وصولا إلى سيبيريا والتى تمتد من حدود الصين وتمتد غربا حتى شواطئ بحر ريجزر (قـزوين) وقد ظلت هجرات هؤلاء الأتراك إلى شواطئ جيحون لا ينقطع سبيلها صوب الجنوب الشرقى خصوصا إقليم ضجتمد وتركستان الشرقية، وكان السـلاجقـة جزء من هذه الشعوب التى تنسب إلى الترك الذين كانوا يقيمون فى الصحراء الواسعة الشاسعة التى تمتد من حدود الصين حتى شاطئ بحر قزوين وكثرت هجرتهم إلى شواطئ جيـحون خصوصا فى وقت من حدود الصين حتى شواطئ بحر قزوين وكثرت هجرتهم إلى شواطئ جيحون خصوصا فى وقت اتهيار الدولة السامانية.

وتذكر المصـادر أنه فى الفترة بـين عامى (١٠٤١ - ١٠٤٢م) طلب الأتراك الذين كانوا لا يـزالون على الوثنية، والذين كـانوا يعيشـون فى هضبـة التبت من أرسلان خان بن (قلدر خـان) أن يسمح لهم بالاستقرار فى ممتلكاته لما سـمعوا عن عدلة وسعـة صدره ولين حكمة ولكنهم لما قربوا إلى عـاصمته أرسل إليـهم كتاب يدعوهم فيه إلى الإسلام ومن ثم دخلت أسـرة تركية مكونة من عشرة آلاف الدين الإسلامى فى العام التالى ١٠٤٣م، ولقد كانت غزوة (قوة ختاى) Karaa Khitay فى بلاد التركسـتان عاملا التركتـان عاملا قويا على انتشـار الإسلام، ومن ثم كان

لدخول الأتراك السلجوقيين فى الإسلام أهمية عظيمة ويبدو أن سلجوق جد هؤلاء القوم كان أحد أبناء ملك الخزر جنوب روسيا وهى هجرة تركية من القبائل التركية المعروفة بالغزو ولقد كان لاعتناقهم الإسلام أنهار الحاجز الذى كان يفصل بينهم وبين الأمة الإسلامية بل بينهم وبين التاريخ العالمى إذ بدأوا يمدون العالم الإسلامي بقوة جديدة ويعطونه حيوية كبيرة بعد أن دخلوا بطونها فيما بين قلب الصين شرقا وشواطئ البحر البيض المتوسط غربا وفيما بين بحر آرال الاستيلاء على منطقة من أخصب ماطق التركستان وهى بلاد ما وراء النهر وكان السلاجقة قد اظهروا نشاطا ملحوظا فى الجهات التى هاجروا إليها فقاموا بالزود عنها ضد خطر الترك الوثنين واشتركوا فى الدفاع عن ديار الإسلام مع السامانيين وفرصض السيادة على بلاد ما وراء النهر وقد تمكنوا من خلال هذا الصراع السيطرة على المنطقة الخصبة فى بلاد ما وراء النهر وكانت رحلاتهم من بخارى وسمرقند ولقد أطاعتهم عشائرهم ولما خشى أمير بخارى بأسهم لجأوا إلى ملك التركستان (نصراخان) لكنهم عادوا مرة أخرى إلى السكن بالقرب من بخارى وكان السلاجقة قد تحالفوا ما أمير بخارى ضد محمود الغزنوى حيث وقف زعيمهم (أرسلان بن سلجوق) مع هذا المير لكن الأخير غدر بهم وقام بالهجوم عليهم فى قوة ساحقة عند الشاطئ الأيمن لنهر جيحون بين بخارى وخيوة خوفا من بطش أمير بخارى.

ولم تكن هزيمة السلاجقة بسبب ضعف أسلحتهم بقدر ما كانت لما دبره الخوارزميون من مكر وخداع ذلك أن أمير خوارزم تظاهر أول الأمر بصداقته للسلاجقة ولم يتوقع يحتاج السوء بعد ذلك إذ كانوا يعلمون بعداء أمير خوارزم للغزنويين فظنوا بذلك أنه يحتاج إلى مساعدتهم لكنهم اضطروا إلى ترك ذلك الإقليم الذى يقع بين جيحون وسيحون ونزحوا إلى خرسان حيث قدر لهم أن يعيشوا فى أرض فارس القديمة وكان السلاجقة هم أول قوم من الترك استقروا عند حدود إيران (فارس) الشمالية الشرقية كما هو معروف ومشهور فى عام ٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م ظهر السلاجقة عند مدينة مرو هى الأراضى التى تعيش عليها التركمان اليوم وكذلك إلى جوار مدينة نسا (النسائى) وابيورد وهى المنطقة التى انطلقوا منها إلى خرسان. غير أطماع السلاجقة لم تتوقف عند هذا الحد بل شنوا

غارات متعددة فى إقليم خراسان. إذا كان انتقالهم إلى خراسان بداية لمرحلة جديدة من مراحل كفاحهم مما كان ذا أثر قوى فقد أخذوا يدمون قواتهم وينتشرون فى البلاذ المجاورة لهم ويتحينون الفرص للانقضاض على الدولة الغزنوية أو اقتلاع جذورها وقد زاد خطر السلاجقة فى غقليم خراسان فوفد أهل «نسا» غلى السلطان الغنوى شاكين عبث السلاجقة الذين كانوا مفرطين على السلب والنهب حيث لن تتعرض لغارتهم منطقة فارس الشماتلية الغربية وحدها فحسب بل كل بقعة فى الإقليم الذي يتاخم السهول وسار السلطان مسعود الذى قاد الجيش بنفسه لكن انتهى المر إلى الدخول فى صلح مع السلاجقة، لكن قوة السلاجقة كانت ازدياد ذلك لأن سكان مروحين ادركوا ما أصاب الغزنويين من الضعف التام استجابوا لزعماء الأتراك وفتحوا لهم أبواب مدنهم وانضموا تحت لوائهم وكان انتصار السلاجقة على الجند الغزنوى قد أدى إلى ارتفاع مكانتهم وزادت أطماعهم فى ممتلكات الدولة الغزنوية ومن ثم ظل السلاجقة والغزنويين فى الدفاع عن هذه البلاد ووقعت فى رمضان ٤٣١هـ/ ١٠٣٩م معركة حاسمة بين السلاجقة والغزنويين هزم فيها الغزنويون هزيمة تامة.

وبذلك وضع السلاجقة أيديهم على كل إقليم خراسان الذى يعد قاعدة كل العمليات الحربية فى آسيا الإسلامية وأعلنوا قيام دولتهم التى ضمت بلاد ما وراء النهر هذه المرحلة امتد نفوذهم على كل أقاليم فارس وأزالوا حكم البوهيين وكذلك الغزنويين ولقد تحمس السلاجقة تحمسا شديدا للدعوة الإسلامية ومالوا إلى مذهب السنة والجماعة لأنهم دخلوا الإسلام على المذهب السنى وقد انعكس ذلك فى تصرفاتهم يظهرون الولاء للخليفة العباسى (أمير المؤمنين) قد استقبل قائد جموع الترك هذا استقبالا حافلا لأول مرة عام ٤٥١هـ/ ١٠٥٩م وكان هذا الأمير السلجوقى (طغرل) قد ظهر فى بغداد كتابه متواضع من خدام الخلافة. ثم خلفة ألب أرسلان بن طغرل بك وقد استأنف هذا الفتح فى همة ونشاط وكان ألب أرسلان هو اول زعيم تركى قاد فرسانالترك عبر الفترات وأخضع أراضى غرب آسيا وظل الجنس التركى يعيش فى هذه المنطقة حتى كتابة هذه السطور ولا يزال يحكم وتكونت تركيا الحديثة. وهكذا بسط السلاجقة ووطدوا نفوذهم فى هذه

الأقاليم لكن نفوذهم كـان أقوى فى بلاد النهر حيث أحبهم الناس لما أظهروه من التمسك بأهداب الدين والغيرة على الإسلام والتقرب من علماء الدين.

وقد توسع حكم السلاجقة فى عصر ملكشاه بن ألب أرسلان شرقا حتى وصل إلى فرغانه (طشغند) لاسيما أن ملكشاه كان معصرا لحكم (خضرخان) الذى كان يحكم فى تركستان. ولن كانت بخارى وبلاد أواسط آسيا لاسيما التركستان الغربية قد اعترفت بسيادة السلاجقة على هذه الأقاليم إلا أن القسم الشرقى من بلاد ما وراء النهر لم يتعرف بسيادة هؤلاء الأمراء السلاجقة الذ ين كان مركز حكمهم وسلطانهم فى خرسان، لكن السلطان سنجر كان يدرك حقيقة فرض نفوذه على هذه الأقاليم الشرقية والذى كان يرى فى خراسان والجزء الشرقى من العالم الإسلامى أحب البلاد إلى نفسه ومن هنا سار هذا الأمير السلجوقى عام ٥٢٤هـ/ ١١٢٩م، لفرض نفوذه على سمرقند والأقاليم المجاورة لها وإرغام حكامها على الدخول فى طاعته واستطاع سنجر أن يبسط النفوذ السلجوقى مرة ثانية على بلاد ما وراء النهر، لكن لم تمض إلا بضع سنوات حتى كان (عام ٥٣٥هـ/ ١١٤٠م) وقد أعلنت سمرقند خروجها على الدولة السلجوقية، لكن الدخول فى صراع فى تلك المناطق قد أدى على القضاء النهائى على نفوذ السلاجقة ببلاد ما وراء النهر. وقد كان سنجر من أهم حكام خرسان ومن السلاطين العظام وقد كان على خراسان وما وراء النهر.

وقد كان سنجر من اهم حكام خرسان ومن السلاطين العظام وقد كان واليا على خرسان وما وراء النهر فى عهد كل من أخوية يركباروف بن ملكشاه.

وقد ظل سنجر أخوى ملكشاة فى بلاد ما وراء النهر وخراسان يحكم الأقاليم الشرقية فاطلق على السلاجقة الذين يمثلهم سلاجقة خرسان وقد قام بعده فتوحات فى بلاد ما وراء النهر ففتح ترمذ وطخارستان عام ٤٩١هـ وضمها إلى ملكة كما استطاع أن يبسط نفوذه على إقليم ما وراء النهر عام ٤٩٥هـ وبلغت قوته حدا جعلته يتقدم نحو مدينة غزنه ويستولى عليها بعد هزيمة ملكها (أرسلان شاة) الغزنوى عام ٥٠٨هـ. غير أن الحروب لم تنقطع فى عهد سنجر وكانت أخطر الحروب بينه وبين دولتين قوتين نشأتين وظهرتا على مسرح الأحداث السياسية فى

بلاد المشرق وهما الدولة (القرة خطائية) والدولة الخوارزمية وهذه الأخيرة هى التى انتهت حكم السلاجقة فى المشرق.

وكانت قبائل (القرة خطاى) يحكمها كرخان قدر قدم من داخل الصين الشمالية وكان قد تابع رحلته حتى استقر فى السهوب الشرقية ومن نزل فى مدينة أيميل وفرض سلطانه على الإقليم الذى يعرف باسم (ختاى) ثم هاجم كاشغر وختن ثم بدأ يتحرك غربا فى اتجاه فرغانه (طشغند) وبلاد ما وراء النهر. وهناك خاف سنجر من تزايد قوة جارة الشرقى فى هذا الإقليم لاسيما بعد أن عظم نفوذ الدولة حتى أخضعت القبائل التركية التى كانت تعرف باسم (القوغيزة) ثم أخذت فى الاغارة على البلاد الإسلامية فى عام ٥٢١هـ - ١١٢٦ وقامت بعده أعمال مدمرة حتى أخذت أصيب الناس بالذعر واستنجدوا بالسلطان سنجر.

وكان الإقليم الواقع إلى الشمال (الضرقى خوقند) موطن قبائل (القبجاق) (والقرة قرغيز) وكان سنجر قد أثقل كاهلهم بما فرضه عليهم من الخراج. لكن شيوخ هذه القبائل استنجدوا بكرخان القادم من شمال الصين الذى استجاب لهم وسارع بغزو بلاد ما وراء النهر عام ٥٣٦هـ/ ١١٤١.

ولم يجد سنجر بن ملكشاة بدأ من قتال هذه القبائل فتوجه بقواته إلى ما وراء النهر عام ٥٢٥هـ ولما أحس هؤلاء بقوة سنجر وأرسلوا إليه يعتذرون ويتعهدون بالطاعة والخضوع له.

ولكنه صمم على استئصالهم فنازلوه مستميتين بقادة (كرخان) الذى استجاب لهم وسارع بغزو بلاد ما وراء النهر عام ٥٣٦هـ/ ١١٤١م واستطاعوا أن يلحقوا به هزيمة منكرة فى موقعه عند قطوان بالقرب من سمرقند حيث ركن بعدها إلى الفرار تاركا وراءه بزوجته أسيرة ونساءه وكل متاعه فلم يصحبة إلا ثلثمائة من رجالة عبر بهم نهر سيحون فى مشقة بالغة وقدرت خسائر السلاجقة فى هذه المعركة بثرثين ألف رجل.

وقد كانت معركة (قطوان) حدا فاصلا بين عهدين من سلطنة سنجر عهد القوة وسعة النفوذ وعهد الضعف والانهيار فقد كانت ذات آثار خطيرة فى تاريخ السلاجقة، لأن بهذه الهزيمة انتهت إلى غير رجعة شهرة سنجر العسكرية وهو

الذى كانوا يعدونه يوما ما الإسكندر المقدونى الثانى وضاع مع هذه المعركة كل نفوذ السلاجقة ببلاد ما وراء النهر.

وتوالت المصائب على سنجر بعد هذه الهزيمة وكتب عليه أن يركبه العار إذ سقط أسيرا بأيدى بدو التركمان عند مدينة (لندخوى) فأمضى عندهم ثلاث سنوات فى شقاء وبؤس ولكن أفلح فى نهاية الأمر فى الهرب من مجسة ووفاة أجله فى السادس والعشرين من ربيع الول عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٨م وخلفة محمود خان ابن أخيه فحكم سشت سنوات من بعده، لكن خان كاشغر دبر له حيلة لقضاء عليه. ومن ثم قوى أمر الخاطائين وأخذوا يمدون نفوذهم على إقليم ما وراء النهر وكاشغر ووقعت فى أيديهم سمرقند وبخارى وتعهد الخانيون بدفع الخراج لهم، وبهذا صاروا خطرا جسيما يهدد سلاجقة المشرق.

ولقد كان من نتيجة انهزام سنجر فى موقعة قطوان أن تجرأ عليه الدولة الخوارزمية فتمردوا عليه ومنذ ذلك الوقت أخذ نجم السلاجقة يقل تدريجيات. ذلك لأنه فيما كانت خراسان نفسها سقط جزء منها بأيدى الخوارزميين واستولى أمراء الغور (بلادهم فى القسم الشمالى فى بلاد الافغان الحالية) على جزء آخر وهكذا كان مكرخان قد ثبت سلطان على الجزء الأكبر من فرغانه وبلاد ما وراء النهر.

وهكذا انتهى حكم أول أسرة تركية فى بلاد ما وراء النهر.

فهؤلاء السلاجقة وهم أنفسهم من الترك يتفاخرون بما استولوا عليه من أراضى آسيا الغربية ويرون فى ذلك الغقليم الصغير على جيحون غير باهتمامهم فى الغالب.

وقد حكم أعظم أمرائهم (السلاجقة) فى تلك الحقبة من الحضارة التى بدأت باللغة الفارسية تزاحم العربية كلغة الأدب.

وإذا كان السلاجقة من أعظم رعاة الشعر والعلم فقد رأينا لذلك طغرل وملكشاه وسنجر جميعا يعملون على إحياء اللسان الفارسى ولم تكن هذه الأسرة الحاكمة تستخدم اللغة التركية لا يوصفها لسان الحياة العامة وكانت هذه اللغة تعتز بدورها بنهضتها الأدبية فى قسم آخر فى آسيا الوسطى وذلك فى تركستان الشرقية

حيث نجد عند أمراء خوارزم الترك والأمـراء الأقطاعيين الأقوياء من مدمن بلاد ما وراء النهر. ذلك أنه بالرغم أن الحكومة كانت كلها فى الغالب بأيدى الترك إلا ان السكان الترك المستقرين. هناك كانوا على قلة عددية نسبية.

وهكذا أدى السلاجقة الأتراك دورهم فـى العالم الإسلامـى وبلاد ما وراء النهر بالقـدر الذى جعلهم لا يولون هذه المناطق موطـنهم الأول القدر الكافى من الاهتمام حيث كان نجاحهم فى غرب آسيا وسيطرتهم على إقليم واسعة جعلهم لا يلتفتون إلى هذه المناطق وأن كان السلطان سنجر بن ملكشاه قد أبدى اهتماما بهذه المناطق حتى سقطت دولتهم عام ٥٥٨هـ/ ١١٦٤م.

و- الدولة الخوارزمية وبلاد النهر (التركستان)

ظلت بلاد مـا وراء النهر ومناطق آسـيا وبصـفة خـاصة العـاصمة بـخارى وسمرقـند تتعرض طوال الزمن للخطر بسبب أطمـاع جيرانها فى الـشرق والغرب وكانت تلك المنطقة طوال الفترة التى انتهت بسقـوط السلاجقة وحتى الغزو المغولى منطقـة نزاع بين كرخان الاويـغورى شمـال الصين فى الشـرق والخوارزمـيين فى الغرب ونحن هنا نحتار الحديث عن الخوارزمـيين وتاريخهم بالقدر الذى تسمح به طبيعة البحث هذا دون توسع نظرا لاتصالهم الاتصال المباشر ببلاد ما وراء النهر.

وكانت خـوارزم فى زمن السلاجـقة مـجرد من أقاليم الدولة وتـخضع فى إدارتها لطندا وقد أقطعـها ملكشاه بن ألب أرسلان لقائده (توشـتكين غرجه) ولذا أسس الدولة الخوارزمية هذا التركى (توشيكين) وكان أحد كبار قادرة بركباروف قد اختـاره ليكون حاكمـا على إقليم خوارزم ولقبـه خوارزمشـاه عام ٤٩٠هـ وتعنى خوارزمشـاه ملك الخوارزم ومن هنا فقـد أخذت الدولة تظهر على مسـرح التاريخ تدريجيا ولو أن ملوكهم تظاهروا بالخضوع والطاعة للسلاجقة.

وبعد وفاة توشتكين خلفة ابنه محمد قطب الدين الذى حكم خوارزم ثلاثين عام (٤٩١ - ٥٢١هـ/ ١٠٩٦ - ١١٢٧م.

وعندمـا بدأ نجم السـلاجـقـة فى الأفول لـم يعد هـو وغيـره من الأمـراء الأقطاعيين يدينون لهم إلا بالولاء الاسمى.

وقد أسند السلطان السلجوقى سنجر بن ملكشاه ولاية خوارزم إلى ابنه الحاكم (علاء الدين انز) بعد وفاة ابنه محمد قطب.

فمد ظلال الأمن وأفاض العدل وقربه السلطان سنجر وظل على وفاق معه وكان يصحبه معه فى حروبة وظهرت كفايته حيث كان كفؤا واسع الأطماع ومن ثم عمل فى الوقت نفسه على الإفادة من ازدياد قوته ليتحرر من سلطان سنجر حيث إنه لما اطمأن إلى قوته حاول أن يجعل دولته مستقلة استقلالا تاما عن السلاجقة وعمل على توسيع رقعة دولته على حساب الدولة السلجوقية المتداعية.

ولقد خرج الأمير علاء أنز على السلطان سنجر ثلاث مرات وغزا خراسان وكان سنجر يعفو عنه كل مرة فى سماحة تامة وكان قد ثار عام ٥٣٠هـ/ ١١٣٦م واستطاع أن يضم الهضاب الواقعة فى أسفل نهر جيحون إلى ملكه وبذلك بدات مرحلة جديدة من النزاع بين السلاجقة والخوارزميين.

ولقد كان سلوك الخوارزميين هذا من الخطورة بمكان ذلك أنهم بغاراتهم تلك فإنهم مهدوا السبيل لعدو ثالث مشترك لتحقيق أهدافه وكان هذا هو كرخان الذى استولى على كل بلاد ما وراء النهر بعد أن هزم سنجر بن ملكشاة ثم يسير من بعد ذلك فرقا من جيشه غزا بها خوارزم وأنزل بها ضربات شديدة ثم عاد إلى سمرقند.

وكانت كثرة الحروب التى خاضها سنجر للدفاع عن حدود دولته وصون نفوذه وإقرار هيئة السلاجقة هدت قوته وقلت من شوكته حقيقة أنه انتصر فى أكثر هذه الحروب ولكن انكساره أمام الخطائيين وضياع إقليم ما وراء النهر من بعده كان ضربة قوية وجهت إلى الدولة السلجوقية ولكن دخول (كرخان الصين) جعل جهود (علاء أنز) الخوارزمى تذهب ادراج الرياح ومن ثم اضطر إلى أن يدفع الجزية سنوية مقدارها ثلاثون الف دينار لكن الدولة الخوارزمية نفوذها على البلاد التابعة للسلاجقة.

ولكن علاء أنز أمير الخوارزم مات عام ٥٥١هـ/ ١١٥٦م فخلفه ابنه (ابل أرسلان) حاول أن يتخلص من عبء (كرخان الصين) ولكنه فشل أبوه من قبل وفى تلك الحالة بعث عليه القوم وقيادتها فى بلاد ما وراء النهر بوفد منهم عام

٥٥٣/ ١١٥٨م إلى (أبل أرسلان) يستنجدون من مظالم أمير سمرقند واعتداائه. ومن ثم استغل ابن علاء الدين أنز (أبل ارسلان) هذه المطالب وأسرع إلى هناك فى قوة كبيرة وفتحت له بخارى عاصمة بلاد ما وراء النهر أبوابها، لكنه لم يستطيع الاستمرار فى القتال إذ اضطر إلى الانسحاب وعاد إلى بلاده دون أن يحقق شيئا مما كان يعتزم فعله وهكذا ظلت الأجزاء الكبرى من بلاد ما وراء النهر وفرغانه على ما كانت عليه فى أيدى الاويغور وحاكم كرخان.

لكن بعض المصادر التاريخية تعترف بأن الخوارزمين كانوا يسيطرون على مناطق بخارى الغربية وكذلك بلاد أمراء وجند قرا قول.

وفى تلك الفترة التى دامت ست سنوات استطاع (أبل أرسلان) أن يوطد حكمة فى خراسان بعد أن طرد منها آخر سلاطين خراسان وقد مهد انتشار الإسلام حتى حوض القولوجا تكاثر جموع الأتراك عند بحر الآرال وما حوله لقيام الدولة الخوارزمية التى صار لها شأن كبير فى القرنين الخامس والسادس وقد روج من أحوالها أن بلادها كانت أبواب التجارة التى تصل ما بين أواسط آسيا والاقاليم الإسلامية المتحضرة وكان الخوارزميون يعقدون آمالا كثيرة لمد نفوذهم حتى حدود الصين ومعهم حلفاؤهم القيجاف الذين أسلموا على أيديهم بدورهم فى القرن الخامس الهجرى لولا ظهور جنكيز خان.

ونفذت الثقافة الإسلامية إلى الشعوب التركية بأواسط آسيا على أيدى شيوخ الفرس المسلمين فى الغالب.

وتجدد الصراع بشأن السيطرة على أراضى بلاد ما وراء النهر بين الخوارزمين والابغور عام ٥٦٠هـ - ١١٦٤ حين اتهم الاويغور بغزو أراضى أمير خوارزم ومن ثم انطلقت القوات الخوارزمية شركا لكن الابغور الحقوا هزيمة بقوات (أبل أرسلان) لكن أثر الهزيمة كان قويا على نفسية أبل أرسلان فمات من أثر الصدمة فى نفس العام ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م.

وأثر وفاة الأمير الخوارزمى دار الصراع بين أبناء سلطان شاة وتكتش، ودوام الصراع من أجل الجلوس على عرش خوارزم عشر سنوات لكن فى النهاية هذه الفترة استطاع تكتش أن ستولى على مقاليد الامور فى عام ٥٧٠هـ/ ١١٧٤ م

ليصبح من بعد ذلك أعظم أمراء البيت الخوارزمى وتتسع إمارته الصغيرة الواقعة عند مجرى نهر جيحون الأدنى ليضيف إليها أراضى جديدة امتدت حدودها حتى الهند والخليج العربى (الفارسى) وغربا حتى الفرات وشمال الفولجا وكانت خطة تكتش هو أن يمد نفوذه بعد ذلك صوب الغرب ليصبح من بعد ذلك قادرا على متابعة خططه للتوسع شرقا فى كل أراضى بلاد ما وراء النهر وقد تم له تحقيق أهدافه بعد أن استطاع القضاء على الإسماعيلية الشيعية الحشاشين فى حصنهم المعروف باسم (أرسلان كشا) أى مربض الأسد.

وهكذا نجح تكتش فى أن يقيم له دولة لا تقل فى اتساع رقعتها عن دولة السلاجقة الأول أو دول السامانيين وقد دامت فترة حكم تكتش بن ابل أرسلان بن علاء الدين أنز حتى العاشر من رمضان عام ٥٩٦هـ، ١١٩٩م، بعد أن حكم البلاد فترة تصل إلى ثمانية وعشرين عاما وكان قد خلفه حكم البلاد ابنه (علاء الدين محمد خوارزمشاه) بعد أن كان ما يسمى بالخطر المغولى. الا أنه من الثابت أن محمد قطب الدين لم يكن هو ذلك الرجل الذى يحقق وصية ابيه فقد كان هذا المير شجاعا من أولى العزم وقد سار على سياسة أبيه الرامية إلى توسيع حدود دولته فاستولى على معظم إقليم خراسان. ذلك لأن سكان خوارزم كانوا غالبتهم من الفرس لكن الأمراء الخرزمين كانوا أتراك أصلا إلا أن نفوسهم كانت قد أخذت تتشرب ثقافة الفرس وحضارتهم بالتدريج حتى باتوا ينظرون إلى غيرهم من الترك نظرتهم إلى الهمج زكان علاء الدين محمد قطب بن تكتش يترقب الفرصة للاشتباك مع كرخان الاويغور.

وما أن اضطلع هذا الأمير الخوارزمى بشؤن حكومته وكانقد جمع فى حملته ما يقرب من عشرة آلاف فارس واستطاع أن ينتصر على أمير سمرقند واستطاع الاستيلاء على هراه وإقليم الغور وتم له من بعد ذلك القضاء على فتن شتى بخراسان ولقد كانت مساعدة كرخان الاويغور سببا فى إحراز هذه الانتصارات، لكن شاة خوارزم قابل صنيع كرخان معه بعدم الاعتراف بالجميل لكن عندما ظهر رسل الاويغور فى بلاط خوارزم عام ٦٠٦ هـ - ١٢٠٥م، ليطالبوا بدفع الجزية السنوية شعر هذا الخوارزمى علاء الدين محمد الدين وكان الحظ قد تخلى هذه المرة عن كرخان الاويغور وهزم جيشهم هزيمة حاسمة وسقط قائد الاويغور. ولنا

أن نتصور مدى ما زاده هذا النصر من كبرياء السلطان حتى اتخذ لنفسه لقب إسكندر الثانى وقد استبدت به نشوة الإنتصار الكبير على كرخان الاوبغور، فكان تصميمه على الاستيلاء على كل تركستان الشرقية والغربية، لكن لم يكد يبارح شواطئ سيحون حتى كان كرخان قد ظهر بجيشه عند مدينة أترار واستردوها من الخوارزميين بسرعة ثم سارع بحصار سمرقند وكان ذلك دافعا للسلطان الخوارزمى علاء الدين محمد بالإسراع بالعودة إلى بلاد ما وراء النهر وكانت عودته سببا فى رفع الاوبغور الحصار عن سمرقند والتراجع إلى الشمال وانطلق الخوارزميون فى إثر كرخان وجيشه حتى اشتبكوا معهم فى قتال ضارى عام ٦١٠هـ/ ١٢١٣م.

لكن الدائرة دارت على قوات الخوارزميين نظرا لانحياز بعض قواتهم إلى جانب كرخان، لكن هناك أقول تذكر أن كرخان انسحب من ميدان المعركة بسرعة وقد يكون ذلك لأسباب داخلية فى مملكته أو تحرشات من جانب العدو المغولى الذى بدأ يظهر على الجانب الشرقى لاسيما أن اسم جنكيز خان قد بدأ يظهر على مسرح الأحداث فى شرق آسيا ويبدأ يضغط على الأقاليم التركية وكان أمير قبيلة النايمان التركية وهو جنكيز خان والتمس اللجوء عند كرخان وحدثت العديد من المتاعب فى التركستان الشرقية واضطر أمير خوارزم إلى العودة إلى حدوده السابقة وكان كرخان فى شغل شاغل عن الصراع وربما تركى قوى فى الشرق وهو فى الثانية والتسعين من عمره بعد أن حكم فترة تزيد عن أحد وثمانين عاما وربما يكون أطول حاكم فى التاريخ يحكم هذه الفترة الطويلة وكان كرخان يحكم الشعوب التركية التى تقطن المنطقة الممتدة فيما بين الصين وجيحون.

وبعد ذلك وجد الحاكم الخوارزمى علاء الدين محمد بع موت كرخان وليس له من خصم يتهدده بسوء فى الشرق منه أو فى خراسان ومن هنا فقد راحت أطماعه تدفعه دفعا ليمضى فى سبيل الفتح قد ما لكن قوة أخرى كانت تظهر تشكل خطرا عظيما على العالم الإسلامى لاسيما أن هذا العالم فى ذلك الوقت كانت قد مزقته الانقسامات ولم تعد فيه دولة قوية سوى الدولة الخوارزمية وكان الخليفة العباسى الناصر لدين الله يخشى بأس هذه الدولة، وذلك لأنه من المعروف تمام المعرفة أن العلاقات بين خلفاء بغداد والأمراء الخوارزميين كانت على الدوام على غير ما يرام ذلك لأن الحكام الخوارزميين كانوا يتوقون إلى الاضطلاع بالدور

الذى كان للسلاجقة بإزاء خليفة المسلمون من قبل، لاسيما أن خوارزمشاه كان يطمع فى بغداد فسعى إلى تدبير المؤامرات والدسائس للنيل من الخليفة، لكن عندما أعرض الخليفة العباسى عما كانوا يعرضونه عليه من الحماية فدخلوا معه فى عداء سافر ولكن لا يمكن قبول ما أشيع فى ذلك العصر من أن الخليفة العباسى الناصر لدين الله حرض المغول على غزو أعدائه الخوارزميين، لكن الخوارزميين دخلوا معه فى عداء سافر، لا سيما بعد أن أعلن الأمير (علاء الدين محمد) فى اجتماع عام وهام خلع الخليفة العباسى وتنصيب العالم (علاء الملك الترمذى) خليفة للمسلمين مكانه ثم سار لتوه إلى بغداد ليقيم هذا الشيخ فى عاصمة الخلافة بدلا من الخليفة الضعيف لكن كانت هناك معوقات حالت دون دخول الأمير الخوارزمى إلى بغداد فقد اضطر الأمير الخوارزمى إلى أن يعود إلى بلاده دون تحقيق أهدافه بسبب زمهرير الشتاء وكثافة الثلوج فى وديان الجبال بالقرب من همدان ولا يزال العبور عبر همدان وكرمشاة يعد أخطر المسالك شتاء.

وفى ذلك الوقت فإن السلطان الخوارزمى جلال الدين منكبرتى كان يتهم الخليفة العباسى بأنه يحرض على المغول دون أن يمتلك دليلا على اتهامه والخليفة العباسى يعلم يقينا أن غزو المغول الخوارزمية يؤدى بالضرورة إلى الدولة العباسية المتداعية ذلك أنها تقف سدا منيعا يحول بين المغول وبين العراق.

وفى ذلك الوقت كان جنكيز خان يرسل عيونه غربا لجمع الأخبار له توطئة للتقدم لاكتساح أقاليم آسيا الوسطى كان يستخدم عيونه فى لباس تجار حتى يتمكنوا من جمع المعلومات عن أقوى دولة اسلامية فى ذلك الوقت (أترار) وكانت قد وصلت أمير خوارزم رسالة من جنكيز خان أثارت ثأرته بسبب ما جاء فيها من تهديد وأسلوب عنيف يمتهن كرامة الأمير الخوارزمى فأمر بقتل هؤلاء الأسرى وقد كان هؤلاء الاسرى موضع رعاية من جنكير خان وقد كان مقتل هؤلاء من الأسباب الرئيسية التى دفعت حجافل المغول للتقدم فى الأراضى الإسلامية وتدمير كل ما قابلوه فى طريقهم من حضارة وعمران ومعالم (فإن دمهم أريق ولكن كل قطرة منها عنها بسيل جارف من الماء وأن رءوسهم قد سقطت ولكن كل شعرة فيها كلفت مئات الألوف من الناس حياتهم.

لكن عندما علم جنكيز خان بما حدث له لم يستطيع إلا أن يمسك بسيفه ويشهره نحو الغرب حيث خوارزم وبلاد أواسط آسيا والعالم الإسلامى وكل العالم المتحضر بما فيه أوربا وهو الذى حقق الانتصارات الباهرة شرقا فى الصين فكان التقدم غربا وهكذا التقدم غربا وهكذا كان الأمير الخوارزمى المثول الأول عن تلك المصائب التى حلت ببلاد ما وراء النهر والعالم الإسلامى الشرقى كذلك جزء من أوربا منذ اللحظة التى اجتاز فيها المغول نهر سيحون فكانت بلاد ما وراء النهر والتركستان الشرقية أول فريسة تقع فى أيدى المغول.

***

الفصل الرابع
الغزو المغولي لآسيا الوسطى

المغول

نبدأ الحديث بالرد على ما يجول في خواطرنا وهي أسئلة تقليدية تتبادر إلى الذهن من أول وهلة عن المغول. من هم طوائف المغول؟، وما أصل هؤلاء؟، وما هي سابقة حضارتهم؟، ومن أين جاءوا؟، ولماذا استولوا على إيران وعادوا الإسلام؟...

إن الجواب على هذه الأسئلة سيوصلنا إلى حقيقة هؤلاء القوم.

المغول شعب بدوي ينقسم إلى عدد من الطوائف والقبائل عديدة تسكن إقليم منغوليا الذي هو جزء من هضبة آسيا المركزية والشرقية. وكانت هذه القبائل البدوية لا تعرف معنى الحضارة، بل كانت قبائل نصف وحشية، ولم تكن لهم سابقة بمدينة وحضارة. ولشدة بداوتهم كانت كل قبيلة من تلك القبائل تكون وحدة متماسكة من ناحية الجنس واللغة، ويرأسها رئيس يحمل لقب «نويان» تطيعه وتأتمر بأمره، ولذلك كانت حياتهم فطرية بدائية بسيطة لا يتسرب إليها التعقيد، وكانوا يقضون معظم أوقاتهم في المنازعات القبلية وفي البحث عن منابت العشب والكلأ.

لقد حاول كثير من المؤرخين تتبع الأحداث الداخلية والحروب والمشاحنات التي كانت تنشب دائما بين القبائل المغولية حتى يصلوا إلى شعاع يضيء الطريق امامهم، ولكنها كانت آخر الأمر واهية لا ترشد الباحث في كتابة موضوع متكامل عن المغول. ومع ذلك فإن هناك مصادر كثيرة عن تاريخ المغول بعضها دون باللغة الصينية والبعض الآخر بالفارسية وأيضا باللاتينية أو غيرها من اللغات كالعربية مثلا لكنها لا تمدنا بمعلومات كافية عن أصل القبائل المغولية خاصة التاريخ المبكر للمغول، وإن كانت آخر الأمر تعرض سلسلة من المعلومات الناقصة أو المتناقضة التي تعوزها الدقة في نفس الوقت.

ولا شك أن المعلومات عن المغول قبل قيام دولتهم على يد جنكيز خان تبدو

جوهرية حتى نستطيع فهم التاريخ المبكر للإمبراطورية المغولية، وعلاقتها بغيرها من الدول الأخرى، فليس من المتصور أن يخرج جنكيز خان ومعه قبائل المغول والتتار ويؤسس إمبراطورية كبيرة دون أن يكون لها نظام وقوانين تحكم هؤلاء، وإلا لما وصلوا إلى قمة المجد نتيجة فتوحاتهم تلك. إن المغول تعاملوا مع شعوب كثيرة شملت الصينيين والترك - جيرانهم - والإيرانيين والعرب والأوروبيين وغير هؤلاء من شعوب أخرى وأحرزوا انتصارات باهرة وأظهروا مقدرة فائقة فى القتال وسياسة الرعية والشعوب المحكومة، والقليل من تلك الشعوب حتى تلك التى انضوت تحت لوائه بحث فى أصل هؤلاء وكتب عنهم. ومن حسن الحظ أن مؤرخا إيرانيا كان له سبق الفضل فى مدنا بمعلومات وافية قيمة مدعمة بالوثائق عن المغول هو «خواجة رشيد الدين فضل الله الهمدانى»، الذى شغل منصب الوزارة لعدد من إيلخانات المغول فى إيران، وكتابه «جامع التواريخ» الذى دونه باللغة الفارسية وبأسلوب سهل سلس عام ٧١٠ هجرية(١٣١٠م) فيه الشىء الكثير عن أصول القبائل المغولية والتركية وتاريخها.

إن كتاب «جامع التواريخ» يقع فى مجلدين كبيرين، طبع منهما المجلد الثانى المشتمل على تاريخ الدولة المغولية من عهد «أوكتاى قا آن» حتى هولاكو خان بمدينة ليدن عام ١٩١١ ضمن مجموعة «جب التذكارية» بتصحيح المستشرق ادجار بلوشيه، وطبعت منه فى باريس سنة ١٨٤٤ قطعة خاصة عن تاريخ هولاكو خان بتصحيح المستشرق الفرنسى كاترمير، ونشر المستشرق كارل يوحنا الجزء الخاص بتاريخ السلطان محمود غازان خان فى مجموعة جب التذكارية عام ١٩٤٠، كما أن له نسخة عربية مصورة موجودة فى دار الكتب والوثائق العربية بالقاهرة.

وقد رأى ايلخانات المغول تدوين كتاب فى التاريخ - لشغفهم الزائد بهذا الفن - يجمع الروايات التاريخية لجميع الأمم التى تدخل فى إمبراطورية المغولية، أو التى لها علاقة بالمغول من الصينيين إلى الإفرنج (سكان أوروبا الغربية). ونفذ بعض هذا العمل، وكلف القيام به خواجة رشيد الدين فضل الله الهمدانى الذى كان يهوديا وأسلم على أرجح الأقوال وعاونه فى هذا العمل الخطير رجل مغولى عالم بالروايات التاريخية المغولية، واثنان من علماء الصين، وراهب بوذى من

كشمير ومجموعة من علمـاء إيران وأدبائها. وحاول خواجه رشيد الدين فضل الله تسجيل الروايات التاريخـية كما سمعها من رواتهـا بدون تغيير، وعلى ذلك فليس كتـابه من هذه الوجهة تاريخـا علميا بالمعنى المفـهوم فى العصـر الحديث، إلا أنه يشغل فى آداب العالم مكانة ممتازة من حيث اتساع دائرته. وقد قام أستاذنا العلامة الدكتور فـؤاد عبد المعطى الصيـاد بدراسة شخصـية رشيد الدين فضل الـله وكتابه «جامع التواريخ» وأخرج لنا بحوثا ودراسات وتحقيقات قيمة عن المغول وعن رشيد الدين فضل الله وكتابه سدت فراغا فى المكتبة العربية.

وهناك عدد من الكتب باللغات الفارسية والعربية والإفرنجية تعرضت للمغول وتاريخهم لا يسعنا ذكرها الآن، ستعرض لها فى حينها وفى موضوعها.

موطن القبائل المغولية:

كانت القبائل المغولية تعيش فى مسـتهل القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) فى هضبـة منغوليا، الواقعة شـمال صحراء جوبى بيـن بحيرة بايكال فى الغرب وجبال خنجان حاجزا منيعا بين الأقاليم الصينية الحارة وبين الأراضى الباردة فى سيبريا، وكـانت القبائل فى ذلك الوقت تقطن المنطقة الممتـدة من سور الصين العظيم جنوبا إلى بحيرة بايكال شمالا. وفى الجنوب الشـرقى لهضبة منغوليا، تقع صحراء جوبى التى ليـست سوى يسهل متسع مسطح أو متمـوج، تغطية طبقة من الحصباء شديدة الصلابة، إذ جردتها الرياح الشديدة من التربة والرمال حتى ظهرت فى بعض جهاتها مساحات من الصخور أشبه بالجزر فى البحار، وكان من أثر ذلك أن انعدمت الزراعة فى أكثر جهاتها بحيث لم تشاهد، إلا فى أماكن متفرقة.

انعدمت الزراعة فى أكثر جهاتها بحيث لم تشاهد، إلا فى أماكن متفرقة.

إن الظروف القاسيـة أملت على سكان البلاد أن يعيشوا عيـشة رعوية، وأن ينتقلوا من مكان إلى آخر سـعيا وراء الكلأ. وقد امتاز الشعب المغـولى كغيره من القبائل التى تقطن تلك المناطق بصفات متميـزة تنحصر فى الهجرة وعدم الاستقرار فى مكان معين، حـتى أننا نجد المغولى يكن لحرفة الزراعة كـراهية شديدة، وعلى الرغم من أن القبائل المغولية كانت تسكن بعض السـهول إلى جبال، ولا يتركونها إلا إذا انعدم العشب فيها، وأصبح من المعتذر عليهم البقاء مع قطعانهم.

جوهرية حتى نستطيع فهم التاريخ المبكر للإمبراطورية المغولية، وعلاقتها بغيرها من الدول الأخرى، فليس من المتصور أن يخرج جنكيز خان ومعه قبائل المغول والتتار ويؤسس إمبراطورية كبيرة دون أن يكون لها نظام وقوانين تحكم هؤلاء، وإلا لما وصلوا إلى قمة المجد نتيجة فتوحاتهم تلك. إن المغول تعاملوا مع شعوب كثيرة شملت الصينيين والترك - جيرانهم - والإيرانيين والعرب والأوروبيين وغير هؤلاء من شعوب أخرى وأحرزوا انتصارات باهرة وأظهروا مقدرة فائقة فى القتال وسياسة الرعية والشعوب المحكومة، والقليل من تلك الشعوب حتى تلك التى انضوت تحت لوائه بحث فى أصل هؤلاء وكتب عنهم. ومن حسن الحظ أن مؤرخا إيرانيا كان له سبق الفضل فى مدنا بمعلومات وافية قيمة مدعمة بالوثائق عن المغول هو «خواجة رشيد الدين فضل الله الهمدانى»، الذى شغل منصب الوزارة لعدد من إيلخانات المغول فى إيران، وكتابه «جامع التواريخ» الذى دونه باللغة الفارسية وبأسلوب سهل سلس عام ٧١٠ هجرية(١٣١٠م) فيه الشىء الكثير عن أصول القبائل المغولية والتركية وتاريخها.

إن كتاب «جامع التواريخ» يقع فى مجلدين كبيرين، طبع منهما المجلد الثانى المشتمل على تاريخ الدولة المغولية من عهد «أوكتاى قا آن» حتى هولاكو خان بمدينة ليدن عام ١٩١١ ضمن مجموعة «جب التذكارية» بتصحيح المستشرق ادجار بلوشيه، وطبعت منه فى باريس سنة ١٨٤٤ قطعة خاصة عن تاريخ هولاكو خان بتصحيح المستشرق الفرنسى كاترمير، ونشر المستشرق كارل يوحنا الجزء الخاص بتاريخ السلطان محمود غازان خان فى مجموعة جب التذكارية عام ١٩٤٠، كما أن له نسخة عربية مصورة موجودة فى دار الكتب والوثائق العربية بالقاهرة.

وقد رأى ايلخانات المغول تدوين كتاب فى التاريخ - لشغفهم الزائد بهذا الفن - يجمع الروايات التاريخية لجميع الأمم التى تدخل فى إمبراطورية المغولية، أو التى لها علاقة بالمغول من الصينيين إلى الإفرنج (سكان أوروبا الغربية). ونفذ بعض هذا العمل، وكلف القيام به خواجة رشيد الدين فضل الله الهمدانى الذى كان يهوديا وأسلم على أرجح الأقوال وعاونه فى هذا العمل الخطير رجل مغولى عالم بالروايات التاريخية المغولية، واثنان من علماء الصين، وراهب بوذى من

كشمير ومجموعة من علمـاء إيران وأدبائها. وحاول خواجه رشيد الدين فضل الله تسجيل الروايات التاريخـية كما سمعها من رواتهـا بدون تغيير، وعلى ذلك فليس كتـابه من هذه الوجهة تاريخـا علميا بالمعنى المفـهوم فى العصـر الحديث، إلا أنه يشغل فى آداب العالم مكانة ممتازة من حيث اتساع دائرته. وقد قام أستاذنا العلامة الدكتور فـؤاد عبد المعطى الصيـاد بدراسة شخصـية رشيد الدين فضل الـله وكتابه «جامع التواريخ» وأخرج لنا بحوثا ودراسات وتحقيقات قيمة عن المغول وعن رشيد الدين فضل الله وكتابه سدت فراغا فى المكتبة العربية.

وهناك عدد من الكتب باللغات الفارسية والعربية والإفرنجية تعرضت للمغول وتاريخهم لا يسعنا ذكرها الآن، ستعرض لها فى حينها وفى موضوعها.

موطن القبائل المغولية:

كانت القبائل المغولية تعيش فى مسـتهل القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) فى هضبـة منغوليا، الواقعة شـمال صحراء جوبى بيـن بحيرة بايكال فى الغرب وجبال خنجان حاجزا منيعا بين الأقاليم الصينية الحارة وبين الأراضى الباردة فى سيبريا، وكـانت القبائل فى ذلك الوقت تقطن المنطقة الممتـدة من سور الصين العظيم جنوبا إلى بحيرة بايكال شمالا. وفى الجنوب الشـرقى لهضبة منغوليا، تقع صحراء جوبى التى ليـست سوى يسهل متسع مسطح أو متمـوج، تغطية طبقة من الحصباء شديدة الصلابة، إذ جردتها الرياح الشديدة من التربة والرمال حتى ظهرت فى بعض جهاتها مـاحات من الصخور أشبه بالجزر فى البحار، وكان من أثر ذلك أن انعدمت الزراعة فى أكثر جهاتها بحيث لم تشاهد، إلا فى أماكن متفرقة.

انعدمت الزراعة فى أكثر جهاتها بحيث لم تشاهد، إلا فى أماكن متفرقة.

إن الظروف القاسيـة أملت على سكان البلاد أن يعيشوا عيـشة رعوية، وأن يتقلوا من مكان إلى آخر سـعيا وراء الكلأ. وقد امتاز الشعب المغـولى كغيره من القبائل التى تقطن تلك المناطق بصفات متميـزة تنحصر فى الهجرة وعدم الاستقرار فى مكان معين، حـتى أننا نجد.المغولى يكن لحرفة الزراعة كـراهية شديدة، وعلى الرغم من أن القبائل المغولية كانت تسكن بعض السـهول إلى جبال، ولا يتركونها إلا إذا انعدم العشب فيها، وأصبح من المعتذر عليهم البقاء مع قطعانهم.

جوهرية حتى نستطيع فهم التاريخ المبكر للإمبراطورية المغولية، وعلاقتها بغيرها من الدول الأخرى، فليس من المتصور أن يخرج جنكيز خان ومعه قبائل المغول والتتار ويؤسس إمبراطورية كبيرة دون أن يكون لها نظام وقوانين تحكم هؤلاء، وإلا لما وصلوا إلى قمة المجد نتيجة فتوحاتهم تلك. إن المغول تعاملوا مع شعوب كثيرة شملت الصينيين والترك - جيرانهم - والإيرانيين والعرب والأوروبيين وغير هؤلاء من شعوب أخرى وأحرزوا انتصارات باهرة وأظهروا مقدرة فائقة فى القتال وسياسة الرعية والشعوب المحكومة، والقليل من تلك الشعوب حتى تلك التى انضوت تحت لوائه بحث فى أصل هؤلاء وكتب عنهم. ومن حسن الحظ أن مؤرخا إيرانيا كان له سبق الفضل فى مدنا بمعلومات وافية قيمة مدعمة بالوثائق عن المغول هو «خواجة رشيد الدين فضل الله الهمدانى»، الذى شغل منصب الوزارة لعدد من إيلخانات المغول فى إيران، وكتابه «جامع التواريخ» الذى دونه باللغة الفارسية وبأسلوب سهل سلس عام ٧١٠ هجرية(١٣١٠م) فيه الشىء الكثير عن أصول القبائل المغولية والتركية وتاريخها.

إن كتاب «جامع التواريخ» يقع فى مجلدين كبيرين، طبع منهما المجلد الثانى المشتمل على تاريخ الدولة المغولية من عهد «أوكتاى قا آن» حتى هولاكو خان بمدينة ليدن عام ١٩١١ ضمن مجموعة «جب التذكارية» بتصحيح المستشرق ادجار بلوشيه، وطبعت منه فى باريس سنة ١٨٤٤ قطعة خاصة عن تاريخ هولاكو خان بتصحيح المستشرق الفرنسى كاترمير، ونشر المستشرق كارل يوحنا الجزء الخاص بتاريخ السلطان محمود غازان خان فى مجموعة جب التذكارية عام ١٩٤٠، كما أن له نسخة عربية مصورة موجودة فى دار الكتب والوثائق العربية بالقاهرة.

وقد رأى ايلخانات المغول تدوين كتاب فى التاريخ - لشغفهم الزائد بهذا الفن - يجمع الروايات التاريخية لجميع الأمم التى تدخل فى إمبراطورية المغولية، أو التى لها علاقة بالمغول من الصينيين إلى الإفرنج (سكان أوروبا الغربية). ونفذ بعض هذا العمل، وكلف القيام به خواجة رشيد الدين فضل الله الهمدانى الذى كان يهوديا وأسلم على أرجح الأقوال وعاونه فى هذا العمل الخطير رجل مغولى عالم بالروايات التاريخية المغولية، واثنان من علماء الصين، وراهب بوذى من

كشمير ومجموعة من علمـاء إيران وأدبائها. وحاول خواجه رشيد الدين فضل الله تسجيل الروايات التاريخـية كما سمعها من رواتهـا بدون تغيير، وعلى ذلك فليس كتـابه من هذه الوجهة تاريخـا علميا بالمعنى المفـهوم فى العصـر الحديث، إلا أنه يشغل فى آداب العالم مكانة ممتازة من حيث اتساع دائرته. وقد قام أستاذنا العلامة الدكتور فـؤاد عبد المعطى الصيـاد بدراسة شخصـية رشيد الدين فضل الـله وكتابه «جامع التواريخ» وأخرج لنا بحوثا ودراسات وتحقيقات قيمة عن المغول وعن رشيد الدين فضل الله وكتابه سدت فراغا فى المكتبة العربية.

وهناك عدد من الكتب باللغات الفارسية والعربية والإفرنجية تعرضت للمغول وتاريخهم لا يسعنا ذكرها الآن، ستتعرض لها فى حينها وفى موضوعها.

موطن القبائل المغولية:

كانت القبائل المغولية تعيش فى مسـتهل القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) فى هضبـة منغوليا، الواقعة شـمال صحراء جوبى بيـن بحيرة بايكال فى الغرب وجبال خنجان حاجزا منيعا بين الأقاليم الصينية الحارة وبين الأراضى الباردة فى سيبريا، وكـانت القبائل فى ذلك الوقت تقطن المنطقة الممتـدة من سور الصين العظيم جنوبا إلى بحيرة بايكال شمالا. وفى الجنوب الشـرقى لهضبة منغوليا، تقع صحراء جوبى التى ليـست سوى يسهل متسع مسطح أو متمـوج، تغطية طبقة من الحصباء شديدة الصلابة، إذ جردتها الرياح الشديدة من التربة والرمال حتى ظهرت فى بعض جهاتها مساحات من الصخور أشبه بالجزر فى البحار، وكان من أثر ذلك أن انعدمت الزراعة فى أكثر جهاتها بحيث لم تشاهد، إلا فى أماكن متفرقة.

انعدمت الزراعة فى أكثر جهاتها بحيث لم تشاهد، إلا فى أماكن متفرقة.

إن الظروف القاسيـة أملت على سكان البلاد أن يعيشوا عيـشة رعوية، وأن ينتقلوا من مكان إلى آخر سـعيا وراء الكلأ. وقد امتاز الشعب المغـولى كغيره من القبائل التى تقطن تلك المناطق بصفات متميـزة تنحصر فى الهجرة وعدم الاستقرار فى مكان معين، حـتى أننا نجد المغولى يكن لحرفة الزراعة كـراهية شديدة، وعلى الرغم من أن القبائل المغولية كانت تسكن بعض الـسهول إلى جبال، ولا يتركونها إلا إذا انعدم العشب فيها، وأصبح من المعتذر عليهم البقاء مع قطعانهم.

«كوجلوك خـان» أو «بويروق خان»، ومـعنى كوجلوك الملك المعظم والقـوى، أما «بويروق» فمعناه «معطى الأمر»، ومع ذلك فقد كان لكل ملك نايمانى اسم أصلى آخر يختاره له أبواه.

٤ - الكرايبت Kerait: وموطنهم الـواحات الشرقـية الداخلة فى صـحراء جوبى وجنوب بحـيرة بايكال حتى سـور الصين العظيم، وهم شعب شـبه بدوى ينتمى إلى أصول تركـية، وكانوا يدينون بالمسيحـية على المذهب النسطورى، وأدى تحول الكرايت إلى المسيـحية أن أضحوا على اتصال بالتـرك الاويغور، الذين كان بينهم عدد كبـير من النساطرة، فامـتدت مدينتهم إلى الكرايت. وقـد ظلت قبائل الكرايت منذ القرنـيين الخامس والسادس الـهجريين (الحادى عـشر والثانى عـشر الميلاديين) أقوى قبائل المغول، واستطاعوا إخضاع أغلب الطوائف المجاورة لهم.

وتذكر الروايات التـاريخية أن ملك الكرايت اعتنق الدين المسـيحى فى سنة ٤٣٨هـ (١٠٧م)، وأنه قد ذاع أمره فى أوروبا، وراجت الأسـاطير والخرافات عن هذه الطائفة وملكهم.

وحوالى سنة ١٢٧٠م مات «كور ياكوس بن مـير جوزهان» خان الكرايت، وصادف ابنه طغول بعض العقوبات فى الاستـحواذ على ملكه إزاء معارضة أخوته وأعمامه، على أنه ظـفر فى حروبخ على أخوته وأقاربه بمساعـدة «يسوكاى بهادر» والد جنكيزخان الذى صار له بحكم ما تعـاهدا «كين» الصينى. وبهذا صار طغرل أقوى ملك ورئيس قـبيلة فى منغـوليا وقد منحـه إمبراطور كـين - تقديرا له على خدماته وأعمـاله - اللقب الصينى للملك وهو «وانج Wang»، وعرف طغول هذا فى التاريخ بلقبيه الملكين الصينى والتركى وهما «وانج خان».

٥ - المركـيت Markit: وهم من المغول، وكـانوا يسكنون المنطقة الواقـعة شمالى بلاد الكرايت على مجرى نهر «سلنجا» وجنوبى بحيرة بايكال. وكان لهم جيـش قوى ذو بأس شـديد، وعرف عن هؤلاء القـوم ميلهم إلى الشـغب وإثارة الفتن. ولهذا شن عليهم جنكيزخان حربا شعواء اسـتعمل فيها أقصى ما عرف عن المغول من قـسوة وشده، ولم يقف عند هذا الحـد بل أصدر أمره بالقضـاء عليهم جمـيعا، فلم ينج من سيـوف قوات جنكيزخـان إلا القليل. وذكر خواجة رشـيد

الدين فضل الله هذه الواقعة فى كتابه «جامع التواريخ»، وقال ما ترجمته: «لم ينج من سيوفهم أى سيوف جنود جنكيزخان إلا بعض الهاربين، أو من استطاعوا الاختفاء لدى أقاربهم، أو من كانوا لا يزالون أجنة فى بطون أمهاتهم». وذكر العلامة القزوينى نقلا عن صاحب كتاب «جامع برزين» أن شعب المركيت مستقل عن الشعب المغولى لكنه كان قويا وصاحب نفوذ كبير».

٦ - التتار: وهم طائفة كبيرة تتكون من قبائل كثيرة، ويتشعبون إلى شعب كثيرة، أحرزت شهرة كبيرة حتى أن الكثير من المؤرخين يطلقون اسم «تتار» على كافة المغول. وكان التتار يقطنون المنطقة التى تحد شمالا بنهرى «أرخون» و«سلنجا Selenga»، ومملكة القرغيز، وشرقا بإقليم الخطا (الصين الشمالية) وغربا بممالك الأويغور، وجنوبا بإقليم التبت. وبصفة عامة يعيشون فى الجنوب الغربى من بحيرة بايكال حتى «كيرولين Kerulen» وكانوا على صلة بالمسلمين، كما كان من بينهم مسلمون. وقبائل التتار من أشد قبائل الجنس الأصفر بطشا وجبروتا فى اقاليم آسيا الشمالية، ويذكر المؤرخ رشيد الدين فضل الله أن هؤلاء التتار كانوا أكثر قبائل البدو رفاهية وتنعما، وأنهم كانوا أثرياء.

وقبيل ظهور جنكيزخان على مسرح السياسة الدولية استطاع التتار أن يخضعوا أغلب قبائل الجنس الأصفر البدوية، وكانوا يتمتعون بشهرة واحترام زائد نتيجة قوتهم وجبروتهم بحيث أن القبائل التركية على اختلاف مراتبها وطبقاتها واهميتها كانوا يتسمون بالتتر، فأطلق على الجميع اسم «تاتار» أو «تتر» يقول رشيد الدين فضل الله: «إنه لهذا السبب لا زال حتى الآن فى بلاد الخطا والهند والصين ومنشوريا وبلاد القرغيز والباشغر وصحراء القبجاق وولايات الشمال وأقوام الأعراب والشام ومصر والمغرب يطلقون اسم «تاتار» على أقوام الأتراك».

ويعلق بارتولد على ما ذكره رشيد الدين فضل الله عما ذكره عن التتار أنه لم يكن يعرف شيئا عن استعمال ومدلول كلمة التتر قبل العهد المغولى، فهو يتحدث عن التتر كما لو كان شعبا مستقلا ومنفصلا متميزا عن المغول.

وبظهور جنكيزخان على مسرح السياسة الدولية بدأ صراع التتار يهدأ. ولما كان هؤلاء التتار يعادون المغول ويعتبرون من ألد أعدائهم ويناصرون القبائل الثائرة

عليهـم، كان جنكيزخـان ينظر إليهم بحـذر بالغ على أنه ألد أعدائـه وأعداء آبائه وأجداده. فبـعد أن انتهى من القضـاء على القبائل المناوئة له، تفرغ للتـتار، وكان جنكيزخان مدفوعا بدافع الحقد عليهـم والانتقام منهم، فقام ومعه جنوده بالإجهاز عليهم واسـتئصـال شأفتهم، وأصـدر أمرا قاطعـا بألا يترك واحد منهم على قـيد الحياة. وتنفيـذا لهذا القرار صار جنود المغول يتركون كل مـا هو تترى حتى النساء والأطفال، ويشـقون بطون الحبالى اعتـقادا منهم أن التـتار هم سبـب الفتنة وأس الفـساد الذى كان متوارثا عـند المغول. ولم يقف جنكيز خان عند هذا الحد، بل إنه لم يترك فرصة لأى شـخص لكى يقوم بحماية هؤلاء التتـار أو يحاول إخفاؤهم، لكن على الرغم من هذه الأوامـر المشددة، فقد أقبل كثيـر من المغول على الزواج من بنات التتار، وكان النسل الجديد يضم كبار قواد المغول وزعمائهم.

ومما سبق يتضح أن التتار كانوا قبـائل مستقلة عن المغول، ولكن من الغريب أنه على أثر انتصار جنكيز خان على التتـار، أطلق اسمهم عليه وعلى أتباعه، وفى بدء هجوم المغـول على الممالك الإسلاميـة كانوا يعرفـون بالتتار، كـما أطلق اسم «المغول» و«مغل» فـاشتهروا فى التاريخ بـهذين الاسمين، كمـا عرف المغول الذين فتحوا الصـين باسم التتر أيضا (تاتا) بالصينيـة، كذلك أطلق ابن الأثير هذا الاسم على أسلاف جنكيـزخان، ويقـول عنهم فى كتابه الكامل أنهـم تتر. وللتتر لهـجة مغولية خـاصة أدركها محمـود الكشاغرى وتحدث عنها فى معـجمه «ديوان لغات الترك»، وذكر اختلاف اللغة التترية عن اللغـة التركية، ويعنى اختلاف المغولية عن التترية والتركية.

وكان يجاور المغول طوائف من الترك يعيشون حياة بدائية أشبه بحياة المغول، نذكر منهم:

١ - الأتراك الأوريغـوريون: وكانوا يسكنون المنطقـة الواقعـة شمـال شرقى التركسـتـان الحالية. وتذكر الروايات التاريخية، وهى أشبـه بالأساطير أن أوغوز أبا الترك كان يـؤمن بالله ويدين بالوحدانية، ولكن أباه وأعـمامه كانوا كفـارا فنازعوه عقيدته، وقاموا ضده وأرادوا القضاء عليه، فانضم إليه بعض أقاربه، وانحازوا إلى جانبه، وصاروا يساندونه ويعاونونه فأطلق عليهم اسم «أويغور»، وهى كلمة تركية تأتى بمعنى الارتباط والتعاون، فغلب عليهم هذا الاسم.

وقامت الحرب بين الأوغوز والأويغور، انتصر فيها الأوغوز، ومع ذلك فإن الأويغور عاشوا تحت أمره الأوغوز حتى سنة ٧٤٥ ميلادية حيث انتقل إليهم الحكم والسيادة، وتلقب أميرهم بلقب «قلنمان» التى عربت إلى «الخاقان». وكان الخاقان الأويغورى يلقب نفسه بأمير «الاون» أويغور (أى أمير قبائل العشرة) والطقوز أوغوز (أى وأمير قبائل الأوغوز التسعة). واستمرت هذه الدويلة التى رأسها زعيم الأويغور حتى سنة ٨٤٠م، اتحدت فيها التسع عشرة قبيلة، الأويغور والأغوز حتى قضى القرغيز على دولتهم.

وحين غزا القرغيز بلاد الأويغور، أجبروهم على النزوح إلى حوض نهر تاريم، حيث أقاموا لهم دويلة ظلوا يمارسون فيها الزراعة والتجارة إلى أن قدم جنكيز خان وسيطر على المنطقة بالكامل. وكان إلى الغرب من بلاد الأويغور منازل القرلق أصحاب الدولة القراخانية، ويليهم قبائل الأغوز أو الغ منتشرة فى مساحة كبيرة حتى بحر قزوين، ومن هؤلاء السلاجقة والقبجاق والعثمانيون.

ونتج عن ابتعاد الأويغور عن الصين، أن ابتعدوا أيضا عن حضارتها وثقافتها مؤثرين عليها حضارة السعد، فاتخذ ملوكهم لقب «شاه»، كما استعملوا فى كتاباتهم أبجدية ترد إلى الأصول السعدية، فكانت تتلاقى مع الأبجدية البهلوية المشتقة من الأبجدية الآرامية.

وانتشرت الكتابة الأويغورية انتشارا واسعا بين شعوب آسيا التركية حتى بعد سقوط دولتم. وعندما دخل ترك أواسط آسيا فى الإسلام، وما تبع شلك من تغير عقائدهم الدينية ومسايرتهم للحضارة الإسلامية، انفصلوا عن الثقافة والحضارة الصينية. كما استعملوا الأبجدية العربية فيما بين القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين، واستعملت أيضا فيما بين القرنين الثالث والخامس عشر بين شعب دولة دشت القبجاق المعروفة بالقبيلة الذهبية والتيموريين فى كتابه التربة القبجاقية والتركية والجغتائية.

وكان الأويغور، رغم أفول نجمهم السياسى كدولة، يلعبون كأفراد دورا ثقافيا كبيرا وسياسيا بارعا عند دول الترك والمغول، وهم الذين عهد إليهم جنكيز خان تأديب أولاده، كما أقاموا على ديوانه ودواوين أبناءه من بعده. بل وصل

نفـوذهم لدى سادتهـم أن كانوا عـمال المـغول فى أغلب البـلاد الإسـلاميـة التى فتحوها. وكان مما دونوه لجنكيز خان «اليـاسا» وهى القوانين المغولية التى عمل بها المغول والتيموريون زمنا طويلا. كما استعمل ايلخانات فارس من المغول - أعقاب جنكيز خـان وحفدة هولاكـو خان - الكتابة الأويغـورية بدورهم فى تراسلهم مع بعض أمراء أوربا فى أواخر القـرن الثالث عشر الميلادى، فكتبـوا بها إلى بابا روما وفيليب الجـميل ملك فرنسا وإدوارد ملك إنجلترا بغرض قيـام حلف بينهم لحرب المصريين أعداء الطرفين.

٢ - الأتراك القراخطائيون: وهم الذين كانوا يكونون دولة كبيرة قبيل الغزو المغولى، وتقع ما بين مملكة الخوارزمشاهيين فى الغرب ومساكن المغول فى الشرق، وكان شاطئ نهر سيحون يكون الحد الفاصل بين مملكة القراخطائيين وأقاليم الدولة الخوارزمية.

واصل هؤلاء من قبائل الخطا النازحين من شمـال الصين. وقد ورد اسمهم فى المراجع الصـينية منذ القـرن الرابع الميلادى قـبل ظهور الإسـلام بزمن طويل. وحدث فى بداية القرن الرابع الـهجرى «العاشر الميلادى» أن ظـهر من بينهم زعيم قوى أخـضع هذه القبائل لسلطته، ونصـب نفسه إمبـراطورا عليهم من سنة ٣٠٤ حتى ٣١٥هـ (٩١٦ - ٩٢٧م) وسمى نفـسه «تاسو tsu-Tai»، واستطاع خلفه أن يخضع شـمال بلاد الصـين، ولقبت أسرتـه باسم «لياؤو Liao» نسبة إلى الإقليم المسمى بهـذا الاسم. واستـمرت هذه الأسرة تحكم فى الصـين من سنة ٣٠٤ إلى ٥١٩هـ (٩١٦ - ١١٢٥م) أى حوالى قرنين من الزمان.

الحياة الاجتماعية:

أما عن حياة المغول الاجـتماعية وعلاقاتهم الأسرية ونظامـهم المعيشى، فإنه يمكن تلخيصه على النحو التالى:

المغـول فرسان رحل يـعيشـون فى الخيـام، وهم قبـائل من البدو الـرعاة، تحكمهم قوانـين وعادات، ويخضعون لرئيس الـقبيلة أو الطائفة، ويطيـعونه طاعة عمياء، ويأتمرون بأمره. وكانت حياة المغول تتفق مع بداوتهم وفقر بلادهم. ولدينا كتاب قيم يحوى تفاصيل دقيقة عن حياة المغول الاجتماعية للمؤرخ هوارث -How

orth وعنوانه History of the Mongol ألفه فى النصف الثانى من القرن التاسع وطبعه فى لندن عام ١٨٧٦م.

يذكر هوارث أن المغول يعتمدون فى طعامهم على الخيل فيأكلون لحومها ومنتجات ألبانها، كما أنم يأكلون لحوم الحيوانات على اختلاف أنواعها، ويدخل فى ذلك لحوم الكلاب والذئاب والثعالب والفئران، وأيضا يأكلون لحوم الحيوانات الميتة ولحوم البشر خاصة من أعدائهم. وقد ذكر هوارث ذلك صراحة، فقال: «كان من عادة المغول أكل لحوم أعدائهم وشرب دمائهم»، وأيضا «أن المغول فى إحدى غزواتهم فى الصين ضحوا بواحد من كل عشرة رجال فى جيوشهم عندما نفذ طعامهم ليكون طعاما للباقين».

وكان الرعى والصيد عملهم وحرفتهم الرئيسية الذى تدخل الحرب عليه شيئا من التنويع وكانوا عندما تذوب الثلوج ينتقلون شمالا انتجاعا للمراعى الصيفية، كما ينتقلون مع الشتاء جنوبا إلى المراعى الشتوية على جارى عادة أهل السهوب.

أما فى فصل الصيف فلا يأكل المغول من اللحوم إلا قليلا بعد أن يجففوها بطريقة عجيبة، وذلك أنه إذا مات لديهم ثور أو جواد قطعوا لحمه إلى شرائح رقيقة، ويعلقوها فى الشمس والهواء لتجف دون أن يعتريها الفساد. وكان يستخرجون من ألبان البقر والغنم الزبد والجبن، أما ألبان الأفراس فيستخرجون منها نوعا من اللبن المخمر «الرائب» يعرف عندهم باسم «كومس»، وعن هذا اللبن المخمر يقول هوارث: «أن المغول كانوا يضعون لبن الفرس فى قربة ثم يقلبونه بشدة بقطعة من الخشب، وبعد أن يأخذوا منه الزبد بهذه الطريقة، يتركونه حتى يصبح حامضا، ثم يشربونه فيكون لهم منه غذاء لا بأس به».

أما عن الملابس التى كان يرتديها المغول، فإنها كانت بسيطة للغاية تتناسب مع حياتهم البدوية، وكانوا يصنعونها من أصواف الغنم ووبر الجمال، وأحيانا من جلود الحيوان، وتكاد ملابس النساء تشبه ملابس الرجال. ومن عاداتهم عدم استبدال ملابسهم إلا مرة واحدة كل شهر، وفى فصل الشتاء لا يغيرونها أبدا. ونادا ما كانوا يستحمون، لذلك اتصفوا بالقذارة والنتونة والنجاسة، ومما يذكر عنهم أنهم كانوا إذا مروا بمكان فإن رائحتهم تلتصق به حتى مدة طويلة، أما

بيوتهم فكانت رائحتها تزكم الأنوف ولا يطيق أحد البقاء فيها لعفونتها، وقد ذكر ذلك هوارث فقال: «ويقال أنهم كانوا لا يرون غسل ثيابهم البتة، ولا يميزون بين طاهر ونجس».

ولا شك أن اتصالهم بالصينيين فى الشرق والمسلمين فى الغرب جعلهم يتأثرون بشعوب المنطقة التى استولوا عليا وتعايشوا معها فى طرق حياتهم، وتغيرت ملابسهم عما كانت عليه من قبل، وبخاصة تم هذا التحول بعد تأسيس إمبراطوريتهم وخروجهم من أرضهم الجرداء. وذكر بعض المؤرخين أنهم رأوا المغول يلبسون الحرير والفراء الثمينة، وتتزين نساؤهم بالحلى والجواهر، ويهتمون بنظافتهم وهندامهم، كما يفعل أباطرة الصين وملوك وأمراء المسلمين، ولكن كان ذلك فى القرن الثالث عشر الميلادى بعد أن أسسوا إمبراطورية واسعة الأرجاء، وبعد أن أصبحوا سادة وصاروا يستوردون الحرير من الصين وفارس والفراء الثمين من روسيا وغيرها من البلاد الأوروبية التى كانت تدين لهم بالطاعة أو تتصل بهم.

ولم تكن مساكن المغول أحسن حالا من مساكن غيرهم من البدو الرحل، إذا كانت تصنع هى الأخرى من الصوف، وإن كانت تختلف فى طريقة إقامتها، فبينما كانت بيوت البدو غيرهم دائرة حتى لا تجرفها الرياح ولا تنقلب بسهولة عندما تشتد العواصف. وكانت من أجل ذلك دافئة شتاء معتدلة صيفا، وكانت تشبه إناء مقلوبًا قائما على حوائط دائرية على صوف مثبت على هيكل من الألواح الخشبية المتصلة بعضها بقطع من جلود الحيوانات.

أما حاجاتهم ووسائل معيشتهم فكانت بدائية وبسيطة أيضا، وكانوا يضعونها فيما يشبه الصناديق من النسيج المتين المغطى بالصوف حتى لا تعطب، وكانوا إذا عبروا بتلك الصناديق الأنهار أو نزل عليهم المطر يدهنونها بشحم الحيوان أو بلبن البقر حتى لا تتأثر بالماء. ويذكر هوارث: «أن بعض بيوت المغول كانت كبيرة تجرها عربات عند نقلها، يعلق فى الواحدة عشرون بقرة وبعضها صغير يكفى ثور واحد لنقلها، أو تنقل على ظهور الجمال».

وكانت أبواب بيوت المغول تتجه عادة إلى الجنوب تجنبا للرياح القادمة من الشمال والغرب القاسية، وكانت النار تظل مشتعلة دائما فى وسط البيت المغولى،

أما ترتيب هذه البيوت من الداخل فكان بسيطا، ويعلقون على الحوائط الأسلحة والأوانى الجلدية التى كانوا يضعون فيها الألبان ومستخرجاتها، وكان يضعون فى الجزء الداخلى المواجه للباب فراش رب البيت، ويخصصون الجانب الغربى من البيت للرجال والشرقى منه للنساء.

أما عن حياتهم الأسرية فكانت بسيطة للغاية وفطرية، ومع ذلك كان لهم من القوانين والعرف والتقاليد ما يناسب هذه البساطة، أما حياتهم الزوجية فكانت بدائية لا أثر فيها لأعمال التفكير الناضج، فلا هى بالتى تقدر الزواج حق قدره، ولا هى بالتى كانت تقدم للزوجة من الحقوق ما يكفل لها السعادة والهناء. وكان الزواج عندهم عملية تجارية بحتة، ويوضح لنا هوارث ذلك بقوله: «يجب أن تعلم أنه لا يوجد رجل بين المغول له امرأة إلا إذا كان قد اشتراها، ويحدث دائما أن تجتار بناتهم سن الزواج دون أن يتزوجن لأن آبائهن يحتفظون بهن حتى يستطيعوا بيعهن».

ولا يعتبر المغولى المرأة زوجته الحقيقية حتى تنجب له طفلا، أما إذا كانت عاقرا فيمكنه طردها ولا يقدم الزوج مهرا لزوجته حتى يصبح لها طفل، وكانوا يشجعون على الإنجاب حتى يكثر عدد أفراد القبيلة ليقوى من شأنها ويشد من أزرا، وكانت المرأة المغولية كلما أنجبت أكثر زيد فى احترامها، وكان المغول وهم يعيشون فى وسط مجموعة من الطوائف والعشائر القوية يهدفون إلى الإكثار من نسلهم بالتشجيع على الزواج، لذلك صار العرف عندهم عدم تحديد عدد الزوجات كل حسب قدرته وقوته، فكان للفرد المغولى أن يتزوج ما شاءت له رغبته أن يتزوج حتى صار للبعض منهم قرابة المائة زوجة ومن أقرب الأمثلة على ذلك جنكيز خان نفسه، فقد قيل أنه بنى بأكثر من خمسمائة زوجة فى وقت واحد من بنات الأمراء أو الخانات ومع كثرة عددهن كان جنكيز خان يفضل خمسا منهن.

ويروى هوارث أيضا عن الحياة الأسرية المغولية أن الابن فى بعض الأحيان كان يستولى على زوجات أبيه ما عدا أمه، وذلك لأن منزلة الأب والأم تؤول إلى أصغر الأبناء، ومن واجبه أن يشرف على أرامل أبيه ويرعاهن. ومما يجر عليه

اللون أن يدعهن يذهبن إلى منازل آبائهن بعد موت والده. ولم يكن هناك فارق بين الأبناء الشرعيين والأبناء الذين يولدون من السرارى والإماء فى الميراث والحقوق الأخرى. ولم تكن هناك فوارق اجتماعية تحول بين زواج أى رجل مغولى من الفتاة التى يرغبها مهما كانت منزلتها فى المجتمع المغولى.

وكانت القوانين السائدة لدى المغول قبل تأسيس إمبراطوريتهم تظهر عليها الشدة والقسوة لردع المعتدين وحفظ الأمن فى مجتمعهم. وهى التى أقرها جنكيز خان وأضاف إليها أشياء تتناسب مع مكانة المغولى فى البلاد المفتوحة، فقد كانت تقضى بالموت على من يرتكب الزنا أو قطع بضرب من يرتكب سرقة صغيرة ضربا مبرحا قد يؤدى بحياة المضروب فى بعض الأحيان، أما إذا كانت الجريمة سرقة جواد أو شىء كبير، فكانوا يقطعون المجرم نصفين بالسيف إلا إذا كان قادرا على افتداء نفسه بدفع تسعة أمثال الشىء المسروق.

وكان المغول، كغيرهم من الشعوب البدائية القديمة، يدينون بديانة وثنية تعرف بالشامانية، وظلوا يعتنقوها حتى حلت محلها البوذية. وكان المغول طبقا لعقائد الشامانية يعبدون كل شىء يسمو على مداركهم وكل ما يرهبهم، ويدخل الخوف على قلوبهم، فلم آلهة فى النهر والجبل والشجرة الكبيرة، وأيضا لهم آلهة فى الشمس والقمر وفى البرق الخاطف والرعد القاصف، بل وأكثرهم من ذلك لهم آلهة عن يمينهم وعن شمالهم وأمامهم وخلفهم وتحت أرجلهم. وإذا اتجهوا فى صلواتهم صوب الجنوب دل ذلك على احترامهم للنار، وصوب الشرق دل ذلك على احترامهم للهواء، وصوب الغرب دل احترامهم للماء، وصوب الشمال كان فى ذلك احترامهم للموتى.

وكان المغول لا يتقربون إلى هذه الآلهة كما فعل قدامى المصريين أو الإغريق، بل كل ما عثر عليه عندهم كان عبارة عن خيط من أكوام الحجارة والخرق البالية وشعر الحيوانات وجلودها ويسمونها «أوبو»، تقام بجوار الأنهار أو على قمم الجبال أو تحت الأشجار الضخمة حيث تقدم لها القرابين المختلفة. كما كان المغول يصنعون أشكالا آدمية يبعدون الشر عنها، ويزيدون من عدد الحيوانات فيها وإدرار ألبانها أضعافا مضاعفة.

أما رجال الدين عند المغـول فكانوا أشبه بالكهنة عند المصريين القدمـاء طبقة مستنيرة تجيـد علم الفلك وتحدد وقـوع الخسوف والكسـوف فى أوقاتهـا، وتعين للمغول الأيام الصـالحة للعمل وغير الصالحـة له، وإن لم يصل نفوذ هؤلاء الكهنة إلى نفوذ نظرائهم فى مصر القديمة، وكان المغول يأخذون بآراء رجال الدين عندهم قبل أن يقـدموا على عمل هام، يجـمعون جيشا ولا يدخلون حربا إلا بعـد أخذ موافـقتـهم. وكان هؤلاء الكهـان يعتـمدون فـيمـا يدلون به من آراء على أشكال الخطوط والشقـوق التى تظهر على أكتاف الحـيوانات المحروقة، ويعـتبرون الأغنام والوعول هى أصلح الحـيوانات لهذا الغـرض، وخاصة إذا كانـت مقدمة كـقرابين للآلهة.

صفات المغول:

اشتهر المغول بصفات ثلاث وتميـزوا بها دون سائر الشعوب الأخرى، الأولى صفات جـسدية، والثانية صـفات خلقية، والثالثـة صفات حربيـة، وهذه الصفات الثلاث اكتسبهـا المغول نتيجة نشأتهم فى بلاد فقيرة قاسـية المناخ تتناسب مع البيئة التى شبوا فى أحضانها. إن مميزات المغول الجـسدية تتمثل فى الرأس الكبير والوجه العريض والأسنان القـوية والرقبة القـصيرة والصدر الواسع والـساقين القصـيرتين المقوستين وقصر القامة والبشرة الصفراء السميكة.

وتسبب فـقر البلاد وقلة الغـذاء وقسوة المناخ فى نحـول الوجه وبروز عظم الخد وقصر القامة منـذ أمد بعيد. كما أن البشرة السميكة والجفـون المسترخية التى حبـاهم الله بها تقيـهم الرياح العاتيـة التى يتعرضـون لها فى بلادهم المتراميـة فى معظم أيام السنة. أما اعوجاج السيقان فسببه قضاء المغول - رجالا ونسـاء - معظم أوقاتهم على ظهور جيادهم ذات الركاب القصيرة.

وعن صفاتهم الخلقية فإن البيئة التى عاشـوا فيها أضفت عليهم صفاتا خلقية فريدة، فهم كانوا يعيشون عيشـة بدوية وسط قبائل وطوائف كثيرة أقوى منهم عدة وعددا، وأقـسى منهم شراسة وحبـا لسفك الدماء، وكـان لا بد لهم أن يصطدموا بتلك القبـائل حينما كانـوا يعملون على توفير المراعـى لماشيتهم فى فـصول السنة المختلفـة، ولذلك كانت تقوم المعـارك الطاحنة وتشتد أهوالهـا بين القبائل المغـولية على المراعى الخضراء ومجارى المياه.

وفرضت عليهم بيئتهم البدوية وحالة التنقل التى استلزمتها ظروف حياتهم المعيشية أن يدربوا أنفسهم على حب المخاطرة ومواجهة الشدائد بثغر باسم، وأن يغرسوا هذه الصفات فى نفوس أطفالهم منذ نعومة أظفارهم، فكانوا يدربونهم - وهم فى الثالثة من أعمارهم - على استعمال القوس والنشاب. كما كانوا يدربونهم على صيد الأرانب والفئران. وكما يركب الكبار من المغول ظهور الجياد كان الأطفال يركبون الخراف ويتعلقون بها. وهكذا كان ينشأ الطفل المغولى فى طبيعة قاسية وحياة أشد قساوة، لذلك كانت حياتهم حربا مستمرة مع الطبيعة التى أمدتهم بأعظم سلاحين وهما الصبر والجلد، فأعطتهم صفات المحاربين.

وكان المغولى - كغيره من الشعوب سكان البوادى والقفار - صريحا فى الحق جريئا فى إبداء رأيه، لا يتردد ولا يلين، وقد عمل مجتمعه على تنمية هذه النزعة بما فرضه من العادات الموروثة.

أما صفاتهم الحربية، فكان المغول فرسانا بطبيعتهم، وكانوا على اختلاف أعمارهم يقضون حياتهم على ظهور الجياد، ولا يكادون ينقلون قدما على الأرض. ولم يكن الرجال وحدهم هم الذين يختصون بالفروسية، بل إن النسوة من المغول أيضا كن يمتطين الخيل كالرجال تماما. وكن يستعملن القسى والسهام، ويقدرون على البقاء على ظهور الجياد زمنا طويلا، ويذهبن مع الرجال إلى ميدان القتال.

وكانت عادة المقاتل المغولى أنه إذا سار للقتال يحمل كل ما يحتاجه أثناء الحرب، فيحمل آلات لشحذ رماحه، كما كان يحمل الإبر والخيوط لاستعمالها عند الحاجة، ولا يأخذ معه من المؤن إلا قربا من اللبن، وآنية من الفخار ليطهى فيها طعامه وخيمة صغيرة وآلة لحفر الأرض وكيسا من الجلد يحمل فيه ملابسه ويستعمله فى عبور الأنهار.

وكان صبر المغولى يفوق الوصف، فقد كان الطفل منهم يصبر على الجوع يومين دون أن يظهر ضعفا، بل ويحاول ما أمكن أن يتظاهر بالمرح كأنه لا يعانى شيئا. والرجل منهم على الرغم من قوة شهيته التى تدفعه إلى أن يلتهم ما يقدر بخمس كيلو جرامات من اللحم فى الوليمة الواحدة وربع شاة فى اليوم، نجده فى

الحرب يصبر على آلام الجوع، وقد يحدث فى بعض الأحيان أن يسير المغولى مدة عشرة أيام دون أن يتناول أى طعام، وفى هذه الحالة يعيش على دماء جواده، ذلك أن المقاتل المغولى كان يقطع شريانا من شرايين حصانه ويمتص من دمائه ما يسد به رمقه، ثم يسد الشريان ثانية. كما أنه كان يكتفى بما يتناوله من اللبن الحامض (الكومس) الذى يحمله فى قربته، كذلك كانت خيول المغول تشاركهم صبرهم هذا، فكانت لا تحتاج إلى عليقتها من شعير أو فول، بل تحفر الأرض بحوافرها وتأكل ما يظهر من جذور النبات.

كذلك كانت شجاعة المقاتل المغولى مضرب الأمثال، وهد بشجاعتهم أعداؤهم أنفسهم يقول ابن الأثير: «سمعت عن بعض أكابر الكرج وكان قد قدم رسولا أنه قال: من حدثكم أن التتار (ويعني ابن الأثير بذلك المغول لأنه لم يفرق بين التتار والمغول) انهزموا وأسروا فلا تصدقوه، وإذا حدثكم أنهم قتلوا صدقوا، فإن القوم لا يفرون أبدا، ولقد أخذنا أسيرا منهم فالقى نفسه من الدابة، وضرب باسه بالحجر إلى أن مات ولم يسلم نفسه للأسر».

وإذا كان ذلك حال الفرد المغولى داخل قبيلته فإن تجمع المغول كشعب لم يتم إلا فى القرن الثانى عشر الميلادى، ذلك أن المغول كانت تخضع لأسرة «كين» الصينية التى اتخذت من بكين عاصمة لها. وابتدأ تدرب المغول على الشئون العسكرية بعصيان ناجح قاموا به على أسرة كين وحكمهم، فتعلم المغول أثناء الكفاح شيئا كثيرا مما لدى الصينيين من العلوم العسكرية. وما أن وافت نهاية القرن الثانى عشر حتى أصبحوا شعبا مقاتلا من طراز ممتاز ينقصه القائد الذى يستطيع أن يقودهم، فكان ذلك من نصيب أحد المغول من قبيلة قيات هو تيموجين الذى عرف فيما بعد باسم جنكيز خان.

جنكيز خان:

إن الشخص الذى استطاع أن يوحد القبائل المغولية المبعثرة وأسس أعظم إمبراطورية فى العالم عرفها التاريخ كان يسمى فى بداية أمره «تيموجين». ولد تيموجين فى منغوليا عام ٥٤٩هـ (١١٥٥م) فى إقليم دولون بولدق، الواقع على الضفة اليمنى لنهر أونون ويقال أنه أخذ اسمه الأصلى هذا من اسم أمير تغلب عليه أبوه «يسوكاى بهادر، حوالى الوقت الذى ولد فيه تيموجين».

وفرضت عليهم بيئتهم البدوية وحالة التنقل التى استلزمتها ظروف حياتهم المعيشية أن يدربوا أنفسهم على حب المخاطرة ومواجهة الشدائد بثغر باسم، وأن يغرسوا هذه الصفات فى نفوس أطفالهم منذ نعومة أظفارهم، فكانوا يدربونهم - وهم فى الثالثة من أعمارهم - على استعمال القوس والنشاب. كما كانوا يدربونهم على صيد الأرانب والفئران. وكما يركب الكبار من المغول ظهور الجياد كان الأطفال يركبون الخراف ويتعلقون بها. وهكذا كان ينشأ الطفل المغولى فى طبيعة قاسية وحياة أشد قساوة، لذلك كانت حياتهم حربا مستمرة مع الطبيعة التى أمدتهم بأعظم سلاحين وهما الصبر والجلد، فأعطتهم صفات المحاربين.

وكان المغولى - كغيره من الشعوب سكان البوادى والقفار - صريحا فى الحق جريئا فى إبداء رأيه، لا يتردد ولا يلين، وقد عمل مجتمعه على تنمية هذه النزعة بما فرضه من العادات الموروثة.

أما صفاتهم الحربية، فكان المغول فرسانا بطبيعتهم، وكانوا على اختلاف أعمارهم يقضون حياتهم على ظهور الجياد، ولا يكادون ينقلون قدما على الأرض. ولم يكن الرجال وحدهم هم الذين يختصون بالفروسية، بل إن النسوة من المغول أيضا كن يمتطين الخيل كالرجال تماما. وكن يستعملن القسى والسهام، ويقدرون على البقاء على ظهور الجياد زمنا طويلا، ويذهبن مع الرجال إلى ميدان القتال.

وكانت عادة المقاتل المغولى أنه إذا سار للقتال يحمل كل ما يحتاجه أثناء الحرب، فيحمل آلات لشحذ رماحه، كما كان يحمل الإبر والخيوط لاستعمالها عند الحاجة، ولا يأخذ معه من المؤن إلا قربا من اللبن، وآنية من الفخار ليطهى فيها طعامه وخيمة صغيرة وآلة لحفر الأرض وكيسا من الجلد يحمل فيه ملابسه ويستعمله فى عبور الأنهار.

وكان صبر المغولى يفوق الوصف، فقد كان الطفل منهم يصبر على الجوع يومين دون أن يظهر ضعفا، بل ويحاول ما أمكن أن يتظاهر بالمرح كأنه لا يعانى شيئا. والرجل منهم على الرغم من قوة شهيته التى تدفعه إلى أن يلتهم ما يقدر بخمس كيلو جرامات من اللحم فى الوليمة الواحدة وربع شاة فى اليوم، نجده فى

الحرب يصبر على آلام الجوع، وقد يحدث فى بعض الأحيان أن يسير المغولى مدة عشرة أيام دون أن يتناول أى طعام، وفى هذه الحالة يعيش على دماء جواده، ذلك أن المقاتل المغولى كان يقطع شريانا من شرايين حصانه ويمتص من دمائه ما يسد به رمقه، ثم يسد الشريان ثانية. كما أنه كان يكتفى بما يتناوله من اللبن الحامض (الكومس) الذى يحمله فى قربته، كذلك كانت خيول المغول تشاركهم صبرهم هذا، فكانت لا تحتاج إلى عليقتها من شعير أو فول، بل تحفر الأرض بحوافرها وتأكل ما يظهر من جذور النبات.

كذلك كانت شجاعة المقاتل المغولى مضرب الأمثال، وهد بشجاعتهم أعداؤهم أنفسهم يقول ابن الأثير: «سمعت عن بعض أكابر الكرج وكان قد قدم رسولا أنه قال: من حدثكم أن التتار (ويعنى ابن الأثير بذلك المغول لأنه لم يفرق بين التتار والمغول) انهزموا وأسروا فلا تصدقوه، وإذا حدثكم أنهم قتلوا صدقوا، فإن القوم لا يفرون أبدا، ولقد أخذنا أسيرا منهم فالقى نفسه من الدابة، وضرب بأسه بالحجر إلى أن مات ولم يسلم نفسه للأسر».

وإذا كان ذلك حال الفرد المغولى داخل قبيلته فإن تجمع المغول كشعب لم يتم إلا فى القرن الثانى عشر الميلادى، ذلك أن المغول كانت تخضع لأسرة «كين» الصينية التى اتخذت من بكين عاصمة لها. وابتدأ تدرب المغول على الشئون العسكرية بعصيان ناجح قاموا به على أسرة كين وحكمهم، فتعلم المغول أثناء الكفاح شيئا كثيرا مما لدى الصينيين من العلوم العسكرية. وما أن وافت نهاية القرن الثانى عشر حتى أصبحوا شعبا مقاتلا من طراز ممتاز ينقصه القائد الذى يستطيع أن يقودهم، فكان ذلك من نصيب أحد المغول من قبيلة قيات هو تيموجين الذى عرف فيما بعد باسم جنكيز خان.

جنكيز خان:

إن الشخص الذى استطاع أن يوحد القبائل المغولية المبعثرة وأسس أعظم إمبراطورية فى العالم عرفها التاريخ كان يسمى فى بداية أمره «تيموجين». ولد تيموجين فى منغوليا عام ٥٤٩هـ (١١٥٥م) فى إقليم دولون بولدق، الواقع على الضفة اليمنى لنهر أونون ويقال أنه أخذ اسمه الأصلى هذا من اسم أمير تغلب عليه أبوه «يسوكاى بهادر، حوالى الوقت الذى ولد فيه تيموجين».

وفرضت عليهم بيئتهم البدوية وحالة التنقل التى استلزمتها ظروف حياتهم المعيشية أن يدربوا أنفسهم على حب المخاطرة ومواجهة الشدائد بثغر باسم، وأن يغرسوا هذه الصفات فى نفوس أطفالهم منذ نعومة أظفارهم، فكانوا يدربونهم - وهم فى الثالثة من أعمارهم - على استعمال القوس والنشاب. كما كانوا يدربونهم على صيد الأرانب والفئران. وكما يركب الكبار من المغول ظهور الجياد كان الأطفال يركبون الخراف ويتعلقون بها. وهكذا كان ينشأ الطفل المغولى فى طبيعة قاسية وحياة أشد قساوة، لذلك كانت حياتهم حربا مستمرة مع الطبيعة التى أمدتهم بأعظم سلاحين وهما الصبر والجلد، فأعطتهم صفات المحاربين.

وكان المغولى - كغيره من الشعوب سكان البوادى والقفار - صريحا فى الحق جريئا فى إبداء رأيه، لا يتردد ولا يلين، وقد عمل مجتمعه على تنمية هذه النزعة بما فرضه من العادات الموروثة.

أما صفاتهم الحربية، فكان المغول فرسانا بطبيعتهم، وكانوا على اختلاف أعمارهم يقضون حياتهم على ظهور الجياد، ولا يكادون ينقلون قدما على الأرض. ولم يكن الرجال وحدهم هم الذين يختصون بالفروسية، بل إن النسوة من المغول أيضا كن يمتطين الخيل كالرجال تماما. وكن يستعملن القسى والسهام، ويقدرون على البقاء على ظهور الجياد زمنا طويلا، ويذهبن مع الرجال إلى ميدان القتال.

وكانت عادة المقاتل المغولى أنه إذا سار للقتال يحمل كل ما يحتاجه أثناء الحرب، فيحمل آلات لشحذ رماحه، كما كان يحمل الإبر والخيوط لاستعمالها عند الحاجة، ولا يأخذ معه من المؤن إلا قربا من اللبن، وآنية من الفخار ليطهى فيها طعامه وخيمة صغيرة وآلة لحفر الأرض وكيسا من الجلد يحمل فيه ملابسه ويستعمله فى عبور الأنهار.

وكان صبر المغولى يفوق الوصف، فقد كان الطفل منهم يصبر على الجوع يومين دون أن يظهر ضعفا، بل ويحاول ما أمكن أن يتظاهر بالمرح كأنه لا يعانى شيئا. والرجل منهم على الرغم من قوة شهيته التى تدفعه إلى أن يلتهم ما يقدر بخمس كيلو جرامات من اللحم فى الوليمة الواحدة وربع شاة فى اليوم، نجده فى

الحرب يصبر على آلام الجوع، وقد يحدث فى بعض الأحيان أن يسير المغولى مدة عشرة أيام دون أن يتناول أى طعام، وفى هذه الحالة يعيش على دماء جواده، ذلك أن المقاتل المغولى كان يقطع شريانا من شرايين حصانه ويمتص من دمائه ما يسد به رمقه، ثم يسد الشريان ثانية. كما أنه كان يكتفى بما يتناولـه من اللبن الحامض (الكومس) الذى يحمله فى قربته، كذلك كانت خيول المغول تشاركهم صبرهم هذا، فكانت لا تحتاج إلى عليقتها من شعير أو فول، بل تحفر الأرض بحوافرها وتأكل ما يظهر من جذور النبات.

كذلك كانت شجاعة المقاتل المغولى مضرب الأمثال، وهد بشجاعتهم أعداؤهم أنفسهم يقول ابن الأثير: «سمعت عن بعض أكابر الكرج وكان قد قدم رسولا أنه قال: من حدثكم أن التتار (ويعنى ابن الأثير بذلك المغول لأنه لم يفرق بين التتار والمغول) انهزموا وأسروا فلا تصدقوه، وإذا حدثكم أنهم قتلوا صدقوا، فإن القوم لا يفرون أبدا، ولقد أخذنا أسيرا منهم فألقى نفسه من الدابة، وضرب باسه بالحجر إلى أن مات ولم يسلم نفسه للأسر».

وإذا كان ذلك حال الفرد المغولى داخل قبيلته فإن تجمع المغول كشعب لم يتم إلا فى القرن الثانى عشر الميلادى، ذلك أن المغول كانت تخضع لأسرة «كين» الصينية التى اتخذت من بكين عاصمة لها. وابتدأ تدرب المغول على الشئون العسكرية بعصيان ناجح قاموا به على أسرة كين وحكمهم، فتعلم المغول أثناء الكفاح شيئا كثيرا مما لدى الصينيين من العلوم العسكرية. وما أن وافت نهاية القرن الثانى عشر حتى أصبحوا شعبا مقاتلا من طراز ممتاز ينقصه القائد الذى يستطيع أن يقودهم، فكان ذلك من نصيب أحد المغول من قبيلة قيات هو تيموجين الذى عرف فيما بعد باسم جنكيز خان.

جنكيز خان:

إن الشخص الذى استطاع أن يوحد القبائل المغولية المبعثرة وأسس أعظم إمبراطورية فى العالم عرفها التاريخ كان يسمى فى بداية أمره «تيموجين». ولد تيموجين فى منغوليا عام ٥٤٩هـ (١١٥٥م) فى إقليم دولون بولدق، الواقع على الضفة اليمنى لنهر أونون ويقال أنه أخذ اسمه الأصلى هذا من اسم أمير تغلب عليه أبوه «يسوكاى بهادر، حوالى الوقت الذى ولد فيه تيموجين».

وفرضت عليهم بيئتهم البدوية وحالة التنقل التى استلزمتها ظروف حياتهم المعيشية أن يدربوا أنفسهم على حب المخاطرة ومواجهة الشدائد بثغر باسم، وأن يغرسوا هذه الصفات فى نفوس أطفالهم منذ نعومة أظفارهم، فكانوا يدربونهم - وهم فى الثالثة من أعمارهم - على استعمال القوس والنشاب. كما كانوا يدربونهم على صيد الأرانب والفئران. وكما يركب الكبار من المغول ظهور الجياد كان الأطفال يركبون الخراف ويتعلقون بها. وهكذا كان ينشأ الطفل المغولى فى طبيعة قاسية وحياة أشد قساوة، لذلك كانت حياتهم حربا مستمرة مع الطبيعة التى أمدتهم بأعظم سلاحين وهما الصبر والجلد، فأعطتهم صفات المحاربين.

وكان المغولى - كغيره من الشعوب سكان البوادى والقفار - صريحا فى الحق جريئا فى إبداء رأيه، لا يتردد ولا يلين، وقد عمل مجتمعه على تنمية هذه النزعة بما فرضه من العادات الموروثة.

أما صفاتهم الحربية، فكان المغول فرسانا بطبيعتهم، وكانوا على اختلاف أعمارهم يقضون حياتهم على ظهور الجياد، ولا يكادون ينقلون قدما على الأرض. ولم يكن الرجال وحدهم هم الذين يختصون بالفروسية، بل إن النسوة من المغول أيضا كن يمتطين الخيل كالرجال تماما. وكن يستعملن القسى والسهام، ويقدرون على البقاء على ظهور الجياد زمنا طويلا، ويذهبن مع الرجال إلى ميدان القتال.

وكانت عادة المقاتل المغولى أنه إذا سار للقتال يحمل كل ما يحتاجه أثناء الحرب، فيحمل آلات لشحذ رماحه، كما كان يحمل الإبر والخيوط لاستعمالها عند الحاجة، ولا يأخذ معه من المؤن إلا قربا من اللبن، وآنية من الفخار ليطهى فيها طعامه وخيمة صغيرة وآلة لحفر الأرض وكيسا من الجلد يحمل فيه ملابسه ويستعمله فى عبور الأنهار.

وكان صبر المغولى يفوق الوصف، فقد كان الطفل منهم يصبر على الجوع يومين دون أن يظهر ضعفا، بل ويحاول ما أمكن أن يتظاهر بالمرح كأنه لا يعانى شيئا. والرجل منهم على الرغم من قوة شهيته التى تدفعه إلى أن يلتهم ما يقدر بخمس كيلو جرامات من اللحم فى الوليمة الواحدة وربع شاة فى اليوم، نجده فى

الحرب يصبر على آلام الجوع، وقد يحدث فى بعض الأحيان أن يسير المغولى مدة عشرة أيام دون أن يتناول أى طعام، وفى هذه الحالة يعيش على دماء جواده، ذلك أن المقاتل المغولى كان يقطع شريانا من شرايين حصانه ويمتص من دمائه ما يسد به رمقه، ثم يسد الشريان ثانية. كما أنه كان يكتفى بما يتناوله من اللبن الحامض (الكومس) الذى يحمله فى قربته، كذلك كانت خيول المغول تشاركهم صبرهم هذا، فكانت لا تحتاج إلى عليقتها من شعير أو فول، بل تحفر الأرض بحوافرها وتأكل ما يظهر من جذور النبات.

كذلك كانت شجاعة المقاتل المغولى مضرب الأمثال، وهد بشجاعتهم أعداؤهم أنفسهم يقول ابن الأثير: «سمعت عن بعض أكابر الكرج وكان قد قدم رسولا أنه قال: من حدثكم أن التتار (ويعنى ابن الأثير بذلك المغول لأنه لم يفرق بين التتار والمغول) انهزموا وأسروا فلا تصدقوه، وإذا حدثكم أنهم قتلوا صدقوا، فإن القوم لا يفرون أبدا، ولقد أخذنا أسيرا منهم فألقى نفسه من الدابة، وضرب بأسه بالحجر إلى أن مات ولم يسلم نفسه للأسر».

وإذا كان ذلك حال الفرد المغولى داخل قبيلته فإن تجمع المغول كشعب لم يتم إلا فى القرن الثانى عشر الميلادى، ذلك أن المغول كانت تخضع لأسرة «كين» الصينية التى اتخذت من بكين عاصمة لها. وابتدأ تدرب المغول على الشئون العسكرية بعصيان ناجح قاموا به على أسرة كين وحكمهم، فتعلم المغول أثناء الكفاح شيئا كثيرا مما لدى الصينيين من العلوم العسكرية. وما أن وافت نهاية القرن الثانى عشر حتى أصبحوا شعبا مقاتلا من طراز ممتاز ينقصه القائد الذى يستطيع أن يقودهم، فكان ذلك من نصيب أحد المغول من قبيلة قيات هو تيموجين الذى عرف فيما بعد باسم جنكيز خان.

جنكيزخان:

إن الشخص الذى استطاع أن يوحد القبائل المغولية المبعثرة وأسس أعظم إمبراطورية فى العالم عرفها التاريخ كان يسمى فى بداية أمره «تيموجين». ولد تيموجين فى منغوليا عام ٥٤٩هـ (١١٥٥م) فى إقليم دولون بولدق، الواقع على الضفة اليمنى لنهر أونون ويقال أنه أخذ اسمه الأصلى هذا من اسم أمير تغلب عليه أبوه «يسوكاى بهادر، حوالى الوقت الذى ولد فيه تيموجين».

وكان والد تيموجين يدعى «يسوكاى بهادر» رئيس وخان قبيلة «قيات» إحدى قبائل الشهيرة. واشتهر يسوكاى بهادر بين قومه بانتصاره على قبائل التتر المجاورة له والتى كانت تخشاها معظم قبائل وطوائف المغول، فالتف حول رايته عدد لا يستهان به من زعما القبائل المغولية. وتزوج يسوكاى بهادر من نساء كثيرات من شتى الأقوام لكن أشهر نسائه كانت والدة تيموجين، وكان اسمها «أولون فوجين»، وقد تزوجها يسوكاى اغتصابا إذا اختطفها ليلة زفافها فى إحدى غاراته على قبائل الماركيت. ومع أنها كيفت حياتها لوسطها الجديد وأصبحت أما لتيموجين إلا أنها كانت على يقين بأن قبيلتها لابد وأن تهب لأخذ الثأر فى يوم من الأيام مهما طال الزمن. وأنجبت هذه السيدة أربعة أولاد اشتهروا فى التاريخ، ولم تنجب إناثا قط، كما كان ليسوكاى بهادر ابن خامس من زوجة أخرى اسمه «بلكوتى نويان»، وكان دائما ملازما لأخيه جنكيز خان فى حروبه الطويلة.

توفى يسكاى بهادر عام ٥٦١هـ (١٦٧م)، وكان ولده البكر يتموجين لا يزيد عمره على ثلاث عشرة سنة، فترك له وهو فى هذه السن المبكرة أعباء كثيرة ومسئوليات جساما، فكانت تركة مثقلة لا يقوى على حملها طفل فى الثالثة عشر من عمره وبخاصة أنه كان الوريث الشرعى لرئيس القبيلة، علاوة على رئاسة حلف مغولى كان والده قد تزعمه وهزم به الصينيين. وكان أول عمل أقدم عليه حلفاء أبيه أن حلوا الحلف الذى كان يرأسه يسوكاى بهادر والد تيموجين عقب وفاته مباشرة، كما انفض عنه أيضا أكثر الأقارب والأتباع، واستغلت قبيلته صغر سنة ورمته بالضعف ورفضت طاعته، وأعلنت التمرد والعصيان والتفت حول زعيم آخر، فاضطر تيموجين هو وأمه وأخوته أن يهيموا على وجوههم وقضوا فترة من حياتهم يعيشون على صيد الحيوان والأسماك بعد أن تخلى عنهم الناس جميعا وذاقوا مرارة الجوع والفقر والحرمان.

وقد فضلت القبائل المغولية الانضواء تحت راية أحد زعماء القبائل المغولية، وعندما توطد له الأمر لم يشعر براحة طالما بقى هناك من يطالب بحقه الشرعى فى وراثة زعامة يسوكاى. لهذا أخذ يطارد تيموجين، وتمكن فعلا من إلقاء القبض عليه، إلا أنه تمكن من الفرار بمساعدة أحد حراس أعدائه الذى رق قلبه عليه وفك أسره وأطلقه من عقاله.

وقد حبت طبيعة منغوليا الشاب تيموجين سيئاتها وحسناتها فوهبته قوة جسمانية رهيبة وتعطشا لسفك الدماء وحقدا على المجتمع، وذكاء فطريا منذ نعومة اظافره. وكان تيموجين المصارع الأول بين أقرانه، وفى سن الشباب المبكر أحب فتاة تسمى «بوتاى»، وكان ذلك قبيل وفاة والده وكانت تصغره بثلاث سنوات، فكلم والده عنها، وحينما قال الوالد أنها ما زالت صغيرة أجاب تيموجين أنه لابد وأن تكبر ويعلمها الزمن الخبر.

كان تيموجين وهو فى سن الشباب عنيدا، ونظر حوله فقرر أن يعمل بمفرده على الرغم من أنه كان بإمكانه الاستفادة من جهتين عند إفلاته من الأسر والحبس، هما عشيرة والد خطيبته بوتاى ثم قبيلة الكرابييت والتى كانت بين ملكها ووالده علاقات وطيدة ومؤاخاة، وكان والد بوتاى من الزعماء الأقوياء، وكانت صلته بوالد تيموجين لاستعادة ملك والده، لا سيما وأن ملكها طغول المعروف عند الغرب «بالقديس جون Prester John» يعتبر نفسه بمقام الوالد بالنسبة لتيموجين لأنه شرب مع يسوكاى بهادر نخب الصداقة الأبدية التى تحتم على أى منهما بمساعدة أولاد الثانى فيما إذا دعت الحاجة، إلا أن تيموجين تردد فى طلب الاستعانة بأى منهما فى بادئ الأمر وذلك حسب قوله بأن بزيارة المفلس لأصدقائه لا تجلب غير العار والاحتقار، وصمم أن لا يزور طغرل كلاجئ وإنما كحليف.

تمكن تيموجين بشجاعته من المحافظة على مراعى أسرته فتحسنت حالته المادية ووقفت بجانبه أنه بنفسها فى نفر ضئيل من الذين فضلوا البقاء بجوار ابنها، ثم بدأت تتوافد عليه بعض القبائل لما توسمت فيه زعامة مقبلة بعد أن بلغ سن السابعة عشر. كما حاول تيموجين إجبار المنشقين من الأتباع والأقارب على العودة إلى قبيلتهم. وناصبهم العداء، وقبل بعضهم العودة إلى حظيرة القبيلة، أما أولئك الذين رفضوا الانصياع لتيموجين، فإنه اصطدم بهم واشتبك معهم فى قتال رهيب، انتصر فيه تيموجين آخر الأمر. وبعد أن دانت له قبيلة قيات برمتها قرر الزواج من خطيبته بوتاى، ثم خلف لزيارة طغرل، وهو موفور الكرامة طالبا منه التحالف ضد قبائل المركيت التى اختطفت فى إحدى غاراتها زوجته بوتاى أخذا لثأر أمه أولون فوجين الذى مضى عليه ثمانية عشر عاما. وقد تمكن تيموجين من الانتصار على المركيت واستعاد منهم زوجته.

وواصل تيموجين خطة والده فى الزعامة والتوسع على حساب المناطق المجاورة متحالفا مع قبيلة الكرايت وإمبراطورية الصين الشمالية المعروفة بإمبراطورية كين Kin، وأحرز نصرا حاسما على عدوه «تركوتاى»، زعيم قبيلة التايجوت، كما بسط سيطرته على منطقة شاسعة من إقليم منغوليا تمتد حتى صحراء جوبى حيث مضارب عدد كبير من قبائل التتار، ثم عمل بعد ذلك على إخضاع سائر جيرانه من القبائل الأخرى.

إن الانتصارات التى أحرزها تيموجن واتساع نفوذه وفرض سيطرته على القبائل المغولية وغيرها جعلت حليفه رئيس قبيلة الكرايت «أونك خان» ينظر إلى تيموجين الشاب بقلق زائد فدب بينهما الخلاف والشقاق بعد أن كانت بينهما المودة والتحالف، لكن خان الكرايت وقد بدأ يخشى قوة تيموجين أخذ يعمل على وأد أعماله حتى لا يستفحل أمره ويصعب بعد ذلك معاملته، وفهم تيموجين قصد أونك خان وما يدور فى مخيلته وعلم بما يدبر له فى الخفاء، فأخذ أتباعه وغادر المكان دون أن يستأذن من مضيفه وحليفه الذى تبعه وأوقف تيموجين ومن معه من رجال، وحدثت بين الفريقين معركة شديدة انتهت بقتل خان الكرايت وفوز جنكيز خان، وكان ذلك سنة ١٢٠٣م. ثم استولى على عاصمته قرة قورم وجعلها قاعدة لملكه. وأصبح تيموجين بعد انتصاره على خان الكرايت أقوى شخصية مغولية، فنودى به خاقانا، وعرف باسم «جنكيز خان» أى (إمبراطور العالم) من قبل زعماء المغول والتتار، كما اعترف به امبراطور كين الصينى.

واشتغل جنكيز خان فى الفترة من سنة ١٢٠٣ حتى سنة ١٢٠٦ بتوطيد سلطانه والسيطرة على كافة المناطق التى يسكنها المغول والتتار الواقعة بين نهرى أمور فى الشمال الشرقى وتاريم فى الجنوب الغربى، أى كافة المناطق الواقعة خارج السور الصينى العظيم.

وفى سنة ٦٠٠هـ (١٢٠٤م) أغار جنكيز خان على قبيلة النايمان المغولية وهزمهم عند حدود جبال آلتاى، وجرح فى المعركة التى نشبت بين الطرفين خان النايمان «تايانك خان»، وما لبث أن توفى بعد قليل. وبعد الاستيلاء على ممتلكات النايمان، تمكن جنكيز خان من هزيمة أقوام أخرى من المغول كانت تسكن عند حدود التبت والحدود الشرقية للتركستان، وأيضا تمكن فى سنة ٦٠٣هـ من هزيمة

الرغيز، وهم إحدى القبائل التركية القوية المجاورة للمغول والتتر، أما ملك الأويغور فإنه أسرع بتقديم ولائه وطاعته إلى جنكيز خان، ثم صار فيما بعد أقوى حليف له.

واتجه جنكيز خان بعد ذلك إلى إصلاح الشئون الداخلية لمملكته الناشئة، فدعى أول برلمان له «قوريلتاى» عام ٦٠٣هـ (١٢٠٦م) بعد أن وحد منغوليا بأكملها تحت سلطانه. وفى هذا الاجتماع حددت لأول مرة شارات ملكه ونظم إمبراطوريته بأن وضع لشعبه دستورا اجتماعيا متين البنيان ودستورا حربيا لا يقل عنه قوة وصرامة، وتكون أحكام هذا وذاك قانون «الياسا» لذى نفذ المغول ومن انضم تحت لوائهم بكب دقة وقدسوه تقديس الكتب السماوية لأصحاب الديانات المنزلة.

الحرب بين جنكيز خان والصين:

كان لابد من اصطدام جنيكز خان بإمبراطورية الصين، ذلك أن بعض طوائف المغول والترك كانت تتبع أسرة كين الصينية أبان ظهور جنكيز خان، ورأى أن الصينيين لا يكفون عن تحريض القبائل الواحدة منها ضد الأخرى لكى يشغلهم ويلهيهم فيظلون هم سادة الموقف، ومن ناحية أخرى كى يأمنوا شر الغارات التى تشنها عليهم تلك القبائل، فأراد جنكيزخان أن يضع حدا لتدخل أسرة كين الصينية فى شئون القبائل المغولية، فاشتبك مع الصينيين لأول مرة عام ٦٠٨هـ (١٢١١م) واستطاع أن يحرز جملة انتصارات على القوات الصينية، وخضعت له البلاد الواقعة فى داخل سور الصين العظيم وعين عليها حكاما من قبله.

إن الحرب التى شنها جنكيزخان على الصين حشد لها منذ بدايتها حل القوى التى أمكن حشدها من القبائل والعشائر المغولية، حتى أنه لم يبق فى منغوليا سوى ألفين من الرجال. كما خرج الخاقان بنفسه، هو وأولاده الأربعة لقيادة الجيوش المنغولية.

وفى عام ٦١٠هـ (١٢١٣م) عبأ جنكيزخان قواته، وتحركت صوب الصين للمرة الثانية، لكنه لم يتمكن من تحقيق الغلبة عليهم. نعم إنه كان هو المنتصر فى المعارك، ومع ذلك فإنه لم يحرز النصر الحاسم.

ورأى جنكيزخـان ضرورة العودة إلى ضـرورة العودة إلى منغوليـا، لوصول أنباء تفيد أن أعداءه من المغول الفارين يتآمرون عليـه. وقد انتهز جينكيزخان فرصة إرسـال إمبـراطور الصين سنة ٦١١هـ(١٢١٤م) رسـالة إليـه يعرض عليـه الصلح ويحل السلام محل الخصام على أن يضم جنكيز خان كـافة البلاد التى فتحها بحد سيفه في الصين سواء أكانت داخل السور أو خارجه.

وأخيرا اتفق الطرفان «واى ونج Wai Wang» إمبراطور الصين وجنكيزخان، خاقان المغـول على الصلح، وأرسل إمبراطور الصين بعض الهـدايا إلى جنكيزخان بناء على طلبه. وما أن اجتـاز جنكيز خان ترافقه جيوشـه سور الصين العظيم فى طريق عودته إلى منغوليا، حتى عـدل إمبراطور الصين عن فكرة الصلح وشرع فى تقوية حصونه، وتحصين مدنه وقلاعه، واتـخذ أهبة الاستعداد لملاقاة عدوه المغولى ونقل عاصـمة ملكه إلى مدينة أخرى فـى الجنوب لتكون أقرب إلى ساحة القـتال تاركا كـين العاصـمة الأصليـة تحت حكم ابنه. فمـا كان من جنكيـز خان إلا أن استدار بجيوشه وعاد مسرعا إلى الصين وانقض بجيوشه على جحافل الصين التى لم تكن قد أخذت أهبة الاستعداد، واشتبـك معهم فى معركة فاصلة سقطت على أصلها مدينة كـين فى أيدى المغول عام ٦١٢هـ (١٢١٥م). وكان لسقوط عـاصمة الصين فى يد جنكيز خان دويا هائلا، ذلك أن انتصـار جنكيز خان على الصينيين اعتـبر إنذارا للممالك الإسـلامية التى آوت أعـداءه والفارين من وجـهه. وفى نفس الوقت لم تكن الدولة الإسـلاميـة على أهبة الاستـعداد لملاقـاة المغول فى سـاحة الميدان، فزادت هيـبته فى نفوس الجـميع، وعندما عاد جنكيـز خان إلى وطنه سنة ٦١٣هـ (١٢١٦م) استعد لتعقب أعداءه الذين هربوا إلى الممالك الغربية.

جنكيز خان يتجه صوب الغرب:

كان يحـد منغوليـا والصين من جهـة الغرب مبـاشرة مملكة القـرة خطائيين العظيمة التى يتـزعمها «كور خـان» وتشمل المنطقة الواقعـة من برد الأويغور حتى بحر آرال. وبدأت تلك الدولة فى الضعف نـتيجة الغارات التى قامت بهـا القبائل الرحل من المغول وغيـرهم التى فرت من وجه جنكيز خـان، وقضى هؤلاء الغزاة الرحل الجدد على كل سلطة فى مملكة كور خان، كما سـاعد على ضعفها ووهنها

انشقاق كثير من حكامها المسلمين وعصيانهم، خاصة السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه. وخضوع كل من الأمير «أدقوت» الأويغوري لجنكيز خان سنة ٦٠٦هـ(١٢٠٩م)، وهو الذي رافق الجيش المغولي في حروبه في الشرق الإسلامي، وارسلان خان أمير القرلق سنة ٦٠٨ (١٢١١م)، وهو أمير مسلم من الترك خضع للمغول وانضم جنكيز خان.

وكان أهم حدث تم في الغرب فرار كوجلوك خان ابن ملك النايمان مع جمع غفير من أتباعه، والتجائه إلى كورخان ملك القراخطائيين، واشتراكه في أحداث المنطقة عندما شق السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه عصا الطاعة على كورخان بعد أن كان تابعا له، ورفض أن يدفع الضريبة السنوية المقررة عليه. إن صراع كور خان ملك القرا خطائيين والسلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه لم يكن بالأمر السهل، فكلاهما صاحب جيش قوى واستعداد كامل وقدرة على القتال فائقة. فانتهز كوجلوك خان الفرصة - رغم أنه كان لاجئا لا يحق له المشاركة في شئون الدولة المضيفة - وعرض على كور خان إمكانية تكوين جيش من أتباعه المشتتين والوقوف إلى جانبه ضد مطامع السلطان الخوارزمي. وكان كورخان يخشى ضيفه، فهو تركى مثله لكن عقليته مغولية بما تحمل من معاني الغدر واللؤم والخيانة، فلم يوافقه في بادئ الأمر. ومن الناحية المقابلة لم ييأس كوجلوك خان وأخذ يحسن الأمر لكورخان وتعهد بألا يعصى له أمرا. وأخيرا أذن له بتنفيذ خطته واتخذ منه عونا له على الخوارزمشاه في حربه وصراعه المرتقب.

وظهر كوجلوك خان أول الأمر تابعا لكورخان، فجمع جنودا غفيرة من طائفة النايمان، بل وكل مغولي فر من وجه جنكيز خان، وشكل من أولئك وهؤلاء جيشا سرعان ما تكامل عدده وعدته وانضم إليه أيضا حاكم قبيلة المركيت الفار من بطش جنكيز خان وبعض من أتباع كورخان نفسه، حتى صار جيشه أقوى من جيش القرة خطائيين.

استيلاء السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه على ما وراء النهر:

إن الحديث عن السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه يعتبر متمما لموضوعنا عن الدولة القرة خطائية حيث كانت الأسرة الخوارزمشاهية تابعة لكورخان تدفع له

الجزية السنوية منذ استقلالهم وانفصالهم عن الدولة السلجوقية فى عهد السلطان سنجر.

تولى علاء الدين محمد الخوارزمشاه العرش خلفا لأبيه علاء الدين تكش (٥٦٨ - ٥٩٦هـ) وسار على نهجه فى توسيع رقعة بلاده حتى بلغت أقصى اتساع لها فى عهده، رغم أنه ورث تركة ثقيلة للغاية، إذ كان عليه تقوية دولته فى الداخل ليستطيع مواجهة أعدائه فى الخارج الممثلين فى الدولة الغورية والخلافة العباسية والدولة القراخطائية، واتخذ سياسة محددة إزاء تلك الدول الثلاث، فقد كان عليه السيطرة بقوة جيوشه على الأولى، ومحاولة فرض نفوذه الأدبى على الثانية والتخلص من التبعية ودفع الضريبة السنوية الثالثة، والعمل على اقتطاع ما يمكن اقتطاعه من الأراضى الإسلامية الواقعة تحت سيطرة القراخطائيين.

إن تبعية الخوارزميين لدولة القراخطائيين تعود إلى أكثر من نصف قرن على عهد علاء الدين محمد عندما تمكنوا من الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر واستخلاصه لهم وانفرادهم بإدارته بعد انتصارهم على السلطان سنجر السلجوقى فى المعركة التى نشبت بصحراء «قطوان» الواقعة على بعد ٣٦كم من سمرقند فى الخامس من صفر عام ٥٣٦هـ، وتبعية حكام تلك البلاد - وهم من المسلمين - لكورخان. وقد تمكن السلطان آتسز الخوارزمشاه عدو سنجر اللدود وحليف كورخان القرة خطائى أن يستقل بحكم تلك البلاد على أن يدفع مقابل ذلك مبلغ ثلاثين ألف دينار ذهبا، وأن يقدم أيضا ما يحتاجه كورخان من خيل وجنود. واستمر هذا الاتفاق سارى المفعول حتى عصر السلطان علاء الدين محمد حفيد آتسز الخوارزمشاه.

إن الخطة التى سار عليها السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه استغرقت منه قرابة عشر سنوات، استطاع خلالها تقوية جيشه، وتصفية أعدائه ومناوئيه فى الداخل، وترقب الفرصة التنفيذ سياسته تجاه القره خطائيين إلى أن كان عام ٦٠٤هـ (١٢٠٧م) الذى يعد بداية الصراع الفعلى بين الخوارزميين ودولة القرة خطائيين.

انتهز السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه فرصة اتصال عثمان خان الملقب بسلطان السلاطين حاكم سمرقند، وكان تابعا للقرة خطائيين ويدفع لهم

سنويا قدرا معلوما من المال والحيوانات وعرض عليه التخلص من تبعيته لكورخان القرة خطائي، وكان ذلك فى رسالة تضمنت أسف عثمان خان لخضوع المسلمين لأعدائهم فى الدين، وأظهر ألمه من تلك التبعية، وعرض التعاون للتخلص من تبعيته لكورخان، وأن يكون حليفا للسلطان وتابعا للدولة الخوارزمية. وتعهد بدفع ما كان يقدمه لكورخان من أموال وهدايا ويضرب السكة باسم السلطان الخوارزمى ويدعو له على منابر سمرقند وبخارى، وحتى يطمئن عثمان خان الخوارزمشاه على صدق نواياه أرسل بعض أعيان سمرقند وبخارى ليكونوا رهينة لديه.

وافق السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه على ما فى رسالة عثمان خان، ووجد ذلك مطابقا لما يجيش فى نفسه وما يخطط له، وانتهزها فرصة ليتخلص بدوره من التبعية لدولة القره خطائين، تلك التبعية التى تلزمه وألزمت آباءه الثلاثة الذين حكموا قبله بدفع الضريبة السنوية للقره خطائين. وعندما أرسل كورخان مندوبه عام ٦٠٤هـ (١٢٠٧م) فى طلب الضريبة السنوية واستلامها من السلطان الخوارزمى، قتله علاء الدين محمد الخوارزمشاه، وجاهر بالعداء ثم سار بما اجتمع لديه من جيوش وعبر نهر جيحون حتى إذا ما انضم إليه حليفه عثمان خان السمرقندى، سارت تلك الجموع الغفيرة لمنازلة جيش عدوهم المشترك. وبعد أن التحم الجيشان المتصارعان دارت الدائرة على الجيوش الإسلامية، وهزمت هزيمة منكرة، وكان علاء الدين محمد الخوارزمشاه نفسه بين الأسرى، إلا أنه تمكن من الهرب وعاد إلى بلاده.

وفى العام التالى (٦٠٥هـ - ١٢٠٨م) استعد علاء الدين الخوارزمشاه لملاقاة عدوه، وانتصر عليه عام ٦٠٦هـ (١٢٠٩م)، وقتل وأسر عدد غفير من القرة خطائين. وكان ملكهم ويدعى «طاينكوكورخان» شيخا تجاوز المائة من عمره، ضمن الأسرى. ونتيجة لذلك الانتصار الذى أحرزه الخوارزمشاه، وضع الخوارزميون أيديهم على كل بلاد ما وراء النهر، ووصلت حدود الدولة الخوارزمية حتى مدينة أوزكند على نهر سيحون.

وأسند السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه حكم ما وراء النهر إلى حليفه عثمان خان حاكم سمرقند، وزوجه من ابنته، وترك حامية خوارزمية ليضمن ولاء السلطان السمرقندى له. وبهذا الانتصار وصل السلطان علاء الدين محمد إلى قمة

مجده، واتخذ لنفسه بعد هذه الواقعة التى انتصر فيها لقبى «الإسكندر الثانى» و«سنجر» تيمنا بانتصارات الأول وغلبته على ملوك الأرض قاطبة وتفاؤلا بطول عمر الثانى.

ونتيجة لتصرفات جنود الحامية الخوارزمية التى كان قد تركها السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه وإساءتهم إلى شعب ما وراء النهر وتعديهم عليهم حيث كانوا أشبه بلصوص وقطاع طرق، وعدم احترامهم لحكام البلاد الأصليين حيث لم يقيموا لهم وزنا. وتعديهم على الأهالى واستغلالهم لهم أسوأ استغلال، نتيجة لهذا كله ثار عثمان خان على السلطان علاء الدين محمد واتصل بكورخان ليخلصه من نير الخوارزمشاه وأتباعه، وما أن تم له ما أراد حتى أمر بقتل جميع جنود الحامية الخوارزمية، كما قتل كل خوارزمى يسكن بلاد ما وراء النهر، وأمر القصابين بتعليق أجساد القتلى ف محلاتهم وتقطيعها إربا وعرضها على الأهالى، وأهان زوجته ابنة السلطان الخوارزمى، وكاد أن يقتلها لولا توسلاتها، وتزوج عثمان خان من ابنة كورخان القرة خطائى توطيدا لحسن الصلات بينهما وجعل من زوجته السابق ابنة السلطان علاء الدين محمد أمة لها.

وما أن علم السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه بما حدث فى ما وراء النهر وثورة عثمان خان سلطان سمرقند عليه وخيانته له حتى سار على رأس جيش كبير ليثأر لكرامته التى اعتدى عليها فى شخص ابنته وجنوده ورعاياه. وانتصرت الجيوش الخوارزمية على جيوش عثمان خان، واستولت على سمرقند وأباحها السلطان علاء الدين محمد لجنوده ثلاثة أيام بلياليها، أعملوا فيها القتل والسلب والنهب، كما قبض على عثمان خان وقتله. وبذلك دانت له سار مدن ما وراء النهر، وعين على كل مدينة حاكما خوارزميا من قبله.

هزيمة القرة خطائيين على يد كوجلوك خان:

وبذلك جاور الخوارزمشاه أعداءه القرة خطائيين، وأخذ ينظر إليهم بحذر بالغ لما لهم من قوة واستعداد عسكرى كامل، إلا أن دولة القرة خطائيين أصيبت بتصدع أدى بها فى النهاية إلى الاندثار، ذلك أن كوجلوك خان زعيم طائفة النايمان والفار من وجه جنكيز خان التجأ إلى كورخان بحميه من الخاقان المغولى

وتمكن بدهائه من تأسيس قوة عسكرية من غلول طائفته التى نجت من سيف جنكيز خان، وانضمت إليه قبائل أخرى، مما أثار الذعر فى قلب كورخان ملك القرة خطائيين وحدث قتال بين المضيف وضيفه، واتصل كلاهما بالسلطان علاء الدين، بداها كوجلوك خان الذى عرض على الخوارزمشاه التحالف متهزا فرصة الصراع بينهما واستيلاء الخوارزمشاه على ما وراء النهر والعداوة القديمة الدفينة بين الخوارزمشاه والقرة خطائيين. ثم اتصل به أيضا كورخان الذى وجد نفسه فى وضع سيء، وعرض على الخوارزمشاه تناسى العداوة القائمة والاتحاد لمواجهة كوجلوك خان، ولم يرفض السلطان علاء الدين محمد عرض كورخان وتظاهر بقبوله.

وعندما نشب القتال بين القرة خطائيين وكوجلوك وطائفته النايمان الفارة من وجه جنكيز خان، قاد السلطان الخوارزمى جيوشه ووصل إلى مكان قريب من أرض المعركة بحيث رآه كلا الطرفين، وكلاهما يظن أن الجيوش الخوارزمية إنما جاءت لتؤازره. واتخذت الجيوش الخوارزمية أماكنها وهى على أهبة الاستعداد فى مكان قريب من أرض المعركة التى بدأت والسلطان الخوارزمى واقف بين القوتين موقف المتفرج ينتظر رجحان كفة إحداهما على الأخرى لينضم إلى القوة المنتصرة. وما أن دارت الدائرة على جيوش القرة خطائيين، وأسر ملكهم كورخان وزج به فى السجن حيث توفى بعد عامين، حتى أعمل الخوارزمشاه والجيش الخوارزمى السيف فى رقاب البقية الباقية من الجيوش القرة خطائية المنهزمة أو الجنود الفارين من أرض المعركة.

إن الآثار التى نتجت عن تدمير القراخطائيين كانت غاية فى الأهمية بالنسبة للعالم الإسلامى وذات أبعاد خطيرة على مستقبل الدولة الخوارزمية والشرق الإسلامى بعامة، ذلك أن أملاك كوجلوك خان جاورت أملاك الدول الخوارزمية مما جعل السلطان علاء الدين محمد فى موقف لا يحسد عليه، فإن كوجلوك خان فار من وجه جنكيز خان ولابد أن تنشب بينهما معركة مصيرية، فوجهت أنظار جنكيز خان نحو الأقاليم الغربية من آسيا حيث دولة كوجلوك خان عدوه القديم.

أما كوجلوك خان ملك طائفة النايمان المتنصر، فإن اعتلى عرش القرة خطائيين وأخذ يقوى نفوذه على حساب القوى المتناثرة الضعيفة، فأخضع عددا

كبيرا من القبائل، وكان بعضها تابعـا للمغول، فوسع أملاكه حتى شملت الأقاليم الممتدة من بلاد التبت حتى حدود الدولة الخوارزمية.

وكان لابد من صـدام مسلح بين السلطان علاء الدين مـحمد الخوارزمشاه وكوجلوك خان نتيجة تصرفات الأخير تجاه المسلمين فى بلاده، ذلك أنه تصرف مع المسلمين من رعـاياه تصرفات عـدوانية، وحابى البـوذيين دون سواهم من الأديان الأخرى. وكان كوجلوك خان يدين بالمسيحية إلا أنه بعد أن تزوج من ابنة كورخان وبتأثير نفوذها وفرط جمالها استطاعت إقناع زوجها بالارتداد عن المسيحية واعتناق البوذية التى كانت تدين بـها، وأصابه نوع من الهوس الدينى حتى أجبر المسلمين من رعاياه على الارتداد عن دينهم، واعتناق إحدى الديانتين، المسيحية أو البوذية، وإن لم يقبلوا ذلك فعليهم أن يتزينوا بزى الخطائيين. فكان المسلمون يرتضون الحل الأخير مكرهين، ومع ذلك حال بينهم وبـين أداء شعائرهم الدينية، وانقطع الآذان من البلاد وكان يجبر الأئمة وكبار رجال الدين المسلمين على الخروج إلى الصحراء ليناظرهم فى شئون الأديان والعقائد، وكان آخـر الأمر يسفه آراءهم ويتحداهم إلى أن انبـرى له الإمام عـلاء الدين محمد الختنى وجاد له بشـجاعـة وبين له زيف مذهبه، وأقـام الحجج على صحة العقـيدة الإسلامية، فلم يسـتطع كوجلوك خان ورجال الديانة البوذية من الرد على إمام المسلمين فما كان من كوجلوك خان إلا أن أمر بصلبه على باب إحدى المدارس فى مدينة ختن.

وكان السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه ينظر إلى أفعال كوجلوك خان تجاه المسلمين هؤلاء على أنها موجهـة ضده، واعتبر السلطان الخوارزمى أنه حامى الإسلامى والمسلمين وبـدأ العداء يتجسد بين الطرفـين. نادى السـلطان علاء الدين محمـد بأحقيته فى نصف أمـلاك الدولة القرة خطائية المنهارة بحجـة المساعدة التى قدمها لكـوجلوك خان وثمنا لاعتلاء الأخير العـرش، وذلك فى رسالة أرسلها فى هذا المعنى، إلا أن كوجلوك خـان رفض إجابة الخوارزمـيين إلى طلبهم بل انتـهز الفرصـة وهدد السلطان الخوارزمى بشن حرب على الدولـة الخوارزمية. فـرد عليه الخوارزمشاه بأن أعلن الحرب، واكتفت الجـيوش الخوارزمية بدفع وحدات عسكرية لشن هجمات خطافة على أرض الدولة القرة خطائية. ولـم يمنع كوجلوك خان من

التوجه إلى عدوه الخوارزمي إلا اشتغاله بمحاربة المغول الذين بدأوا يندفعون صوب الغرب.

جنكيز خان يقضى على كوجلوك خان:

لم ينعم كوجلوك خان بانتصاره ولم يجن ثماره بعد أن جلس على عرش القرة خطائيين، أو بمعنى أدق بغدره وعدم مروءته، ذلك أن جنكيز خان لم يكن غافلا عن عدوه وابن عدوه اللدود يتركه يقوى ويشتد ساعده ليعود ويهاجمه للأخذ بثار أبيه وثار قبيلته. فلما فرغ من حروبه في الصين سير جيوشه لإخضاع القبائل العاصية التى انضمت إلى كوجلوك خان وساهمت فى تكوين دولته. واشترك فى الحملة قائداه الشهيران: «سوبوتاى» الذى كلف بإخضاع قبائل المركيت التى انضمت إلى كوجلوك خان و«جبه نويان» لقتال كوجلوك خان نفسه، وإحضاره حيا أو ميتا.

وتمكن سوبوتاى من هزيمة قبائل المركيت وأبادها عن آخرها، أما جبه نويان فإنه سار إلى كاشغر، واستولى عليها بسهولة وفر كوجولك خان، ولم يحاول مواجهة المغول فى معركة حاسمة، وصار ينتقل من مكان لآخر والمغول يتعقبونه. وانتهت دولته وتحطمت آماله وصار جبه نويان سيد المنطقة وحاكمها. وكان أول ما فعله الحاكم المغول جبه نويان أن أطلق الحرية الدينية لجميع السكان، فتنفس المسلمون الصعداء واستقبلوا المغول كمحررين لبلادهم. وتمكن بعض الصيادين من اعتقاله وسلمه إلى المغول فقتلوه على الفور، وبعثوا برأسه إلى جنكيز خان فى قرة قورم. ثم أعملوا السيف فى كل من وجدوه من طائفة النايمان حتى قضى عليهم جميعا فى سنة ٦١٥هـ (١٢١٨م).

وتمت سيطرة المغول بعد مقتل كوجلوك خان على جميع القبائل التركية التى كانت تخضع للقرة خطائيين، واحتلوا مناطق أخرى كان كوجلوك خان قد ضمها إلى دولته. وكان لانتصار المغول على غريمهم كوجلوك خان نتائج هامة وسريعة، أهمها على الإطلاق دخول جميع القبائل التركية تحت السيطرة المغولية، وكذلك مجاورة جنكيز خان بهذه القوة النامية الرهيبة أملاك الدولة الخوارزمية، مما أدى إلى حدوث الكارثة الكبرى، لا للدولة الخوارزمية وحدها بل للعالم الإسلامى قاطبة.

العلاقات بين جنكيز خان والخوارزمشاه:

ومما سبق أن استعرضناه، نجد أن جنكيز خان قد أسس دولته على أشلاء القوى القبلية الموجودة فى شرق آسيا، حتى صارت حدود دولته تجاور أملاك الدولة الخوارزمية.

وقد جاورت القوتان، الخوارزمية والمغولية كل منهما الأخرى فى انتظار الفرصة المواتية للوثوب على الأخرى. وحدث فعلا أن قامت بعض المناوشات الحربية أبان احتلال المغول للدولة القراخطائية، ذلك أن السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه، وهو فى طريقه إلى مدينة «جند» فى شتاء عام ٦١٢هـ لمحاربة كوجلوك خان أن اتجه إلى صحراء القرغيز حيث سكن طوائف القيجاق، فقابل وهو فى طريقه فرقة من الجيش المغولى بقيادة «جوجى بن جنكيز خان»، وكانت لدى جوجى وبقية القادة تعليمات من الخاقان بعدم الاشتباك مع المسلمين، فبعثوا برسالة إلى السلطان علاء الدين محمد أخبروه فيها أنهم قدموا إلى تلك النواحى بناء على تعليمات جنكيز خان، خاقان المغول لدفع العصاة وتتبع الفارين.

نظر السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه أمامه فوجد المغول فى عشرين ألف جندى أما هو فكان جيشه يبلغ الستين ألفا. وكان جواب الخوارزمشاه على رسالة جوجى بن جنكيز خان «بأن جنكيز خان إن كان أمرك الا تقاتلنى فإن الله تعالى قد أمرنى أن أقاتلك، ووعد لى على قتالك الحسنى، فلا فرق عندى بينك وبين كورخان وكسلوخان لاشتراككم فى الشرك، فأذن بحرب تتقصد فيها الرماح، وتتحطم فيها الصفاح». ثم أمر الخوارزمشاه جيشه بالهجوم على القوات المغولية، لكنه لم يحسم القتال، ولم يصل إلى نتيجة فى المعارك التى نشبت بينهما، بسبب ما كان يفعله المغول فى المعركة من حركات غريبة، وما لديهم من أساليب فى القتال جديدة، وشجاعة فائقة وجرأة نادرة، مما جعل قادة الجيش الخوارزمى ينظرون إليهم فى دهشة بالغة وذهول تام.

إن المعارك التى نشبت بين السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه وبين المغول بقيادة جوجى لم تكن حربا بمعنى الكلمة، لكنها أظهرت قدرة المغول القتالية وخبرت جنود الخوارزمشاه. وفى الوقت نفسه تركت أثرا سيئا فى ذهن السلطان

الخوارزمى لدرجة أنه بعد ذلك كان يفر من أمام جيوش جنكيز خان فى أى مكان يلتقى فيه بهم. ويقول النسوى: «وتمكن فى قلب السلطان من الرعب والاعتقاد ببسالتهم ما إذا ذكروا مجلسه، يقول: لم ير كرجالهم أقداما وثباتا على مضض الحرب وخبرة بقوانين الطعن والضرب».

وكان السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه منذ فترة يتتبع أخبار جنكيز خان. وزين له قواده هذا العمل، ويبدأ هو نفسه يغتر بقوته وقيادته وما أطلقه عليه أتباعه من ألقاب كان أهمها «ظل الله» و«الإسكندر الثانى» و«سنجر الثانى». وما أن وصلت إليه أنباء استيلاء جنكيز خان على مدينة بكين عاصمة دولة الصين الشمالية، أراد أن يستوضح الأمر فأرسل وفدا من كبار دولته برئاسة الشخص يدعى «السيد الأجل بهاء الدين الرازى» إلى الصين يحمل رسالة الخوارزمشاه إلى جنكيز خان.

استقبل جنكيز خان الوفد استقبالا حافلا، واستضافه ضيافة كاملة، وعندما استأذن الوفد فى العودة أرسل جنكيز خان معه رسالة إلى السلطان ذكر فيها ترحيبه بالوفد، وأخبر السلطان أنه ملك المشرق وأنه يعتبر الخوارزمشاه ملك المغرب، ويأمل أن يدوم بينهما الصلح والسلام وتتوطد أواصر العلاقات بينهما.

ولا شك أن أفعال جنكيز خان لا توضح حسن نيته أو جنوحه للسلم والصفاء مع أى زعيم دولة جاورته، كذلك خططه لا تشير إلا لروح عدوانية، لذلك لم يشأ أن تكون علاقته بجيرانه الخوارزميين مستندة إلى حق السيف وحده، وبخاصة أن مشاكله فى شرق آسيا واضطراره إلى توطيد نفوذه فى الأقاليم الصينية تمنعه من أن يشغل جيوشه فى البلاد الخوارزمية أيضا، فهداه تفكيره إلى عقد معاهدة تجارية مع الدولة الخوارزمية تكون الصلة بينهما وبين الأتراك الخوارزميين، ويستطيع من خلالها معرفة أحوالها ويكون على صلة برجالها، ويميلا على الخوارزميين وتتضمن بعض نصوصها معانى التبعية لدولة المغول.

وفى عام ٦١٥هـ (١٢١٨م) حدث أن استقبل السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه وهو فى مدينة بخارى بعد عودته من الأقاليم العراقية وهزيمته هناك وهو يحاول إخضاع الخلافة العباسية، ثلاثة من التجار المسلمين من أتباعه قادمين

من قبل جنكيز خـان، وهم: محمود يلواج الخوارزمى، وعلى خواجـة البخارى، ويوسف كنكا الأوترارى، وقد حملهم جنكيز خان الكثير من الهدايا مما تنتجه آسيا الوسطى منهـا سـبائك من الفـضـة وبعض الطبور الـثمـينة والأحـجار الكريمـة والمنسوجات الصوفيـة، كما حملوا معهم رسالة وجهـها جنكيز خان إلى السلطان علاء الدين محمـد الخوارزمشاه، جاء فيها: «ليس يـخفى على عظيم شانك، وما بلغت من سلطانك، وقـد علمت بسطة ملكك، وإنـفاذ حكمك فى أكـثر أقـاليم الأرض. وأنا أرى مسـالمتك من جملة الواجـبات وأنت عندى مـثل أعز أولادى، وغير خاف عليك أيضا أننى ملك الصين وما يليها من بلاد الترك، وقد أذعنت لى قبائلهم، وأنت أخبـر الناس بأن بلادى مثارات العساكر ومعادن الفـضة، وأن فيها الغنى عن طلب غيرها، فإن رأيت تفـتح للتجار فى الجبهتين سـبيل التردد، عمت المنافع وشملت الفوائد».

وكان وقع الرسـالة على السلطان شديدا، ودرس مسـتشاروه رسـالة جنكيز خان واستقر رأيهم جميعا على أنها فى طيـاتها معانى التهديد والوعيد فى أكثر من موضع، فقول جنكيز خان أن علاء الدين محمد الخوارزمشاه فى منزلة الابن معناه التبعية لجنكيز خان ولها شواهد عديدة فى المعاهدات التى كتبت بين أمراء آسيا فى ذلك الوقت الذين كانوا لا يعرفون معنى للعلاقات السياسية التى تقوم على المساواة بين الأطراف المتحالفـة. كذلك تعمد جنكيز خان أن يخبـر السلطان الخوارزمى أنه فتح الصين، وأخضع كافة الطوائف التركية ويعتبرهم رعاياه، فاعتبر السلطان علاء الدين محمـد الخوارزمشاه - وهو تركى الأصل والأرومـة - أن هذا القول يحمل معانى التهديد والوعيد لا سيما وأنه تركى.

وأخيرا استقر رأى السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه على عقد المعاهدة التـجارية بينه وبين الدولة المغـولية هو كـاره إبرامهـا، وبدأ التبـادل التجـارى بين الدولتين، ونشطت جموع التجار من المسلمين والصينيين كلتا الدولتين فى التعامل التجارى.

ولم يمض قصيـر وقت على توقيع المعاهدة التجاريـة بين الدولتين، المغولى والخوارزمشاهية حتى أقدم جنكيز خان على إجراء اعتبره السلطان الخوارزمى عملا

عدوانيا لا يصح فعله من رئيس دولة صديقة بينهما اتفاقات ومعاهدات ورسائل متبادلة، بل اعتبرها السلطان علاء الدين محمد استهانة بحقوقه وتعديا على دولته. ذلك أن جنكيز خان قام من جانبه بإخضاع القبائل التركية وغيرها المنتشرة في أواسط آسيا بحجة تأمين الطرق التجارية والضرب على أيدى المعتدين من اللصوص وقطاع الطرق حتى تكون التجارة فى مأمن من شرورهم وعبثهم. وزود الطرق الرئيسية بحراس من قبله، وكلفهم بأن يرافقوا كل تاجر أجنبى يحمل تجارة إلى معسكرات المغول، وكان هؤلاء الحراس يسمون «قداقجية» أى المستحفظون.

نظر السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه إلى أعمال جنكيز خان داخل بلاده واعتبرها عدوانا على بلاده وغضب غضبا زائدا لكنه لم يظهر عداءه السافر، واستمر فى تعامله مع الدولة المغولية لعله يستطيع معالجة الأمر أو احتوائه دون نشوب حرب بين الطرفين.

ثم حدث ما قطع الصلات الودية بين الدولتين وتبدلت العلاقات الطيبة بعلاقات عدائية وخصومة، وذلك إثر حادثة اعتبرت المواجهة الحقيقية بين جنكيز خان والسلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه. بدأ بمسير ثلاثة من التجار المسلمين من رعايا الدولة الخوارزمية ومن أهل بخارى إلى أقصى الشرق حيث معسكرات المغول وبلاط جنكيز خان، يحملون معهم البضائع من الثياب المذهبة والكرباس وغير ذلك. وقد خفرهم حراس الطرق «المستحفظون» المغول وبدلا من أن يتركوهم بعد وصولهم لتسويق بضائعهم قادوهم إلى بلاط جنكيز خان بعد أن وقفوا على ما معهم من السلع، وعرفوا أن مع أحدهم، ويدعى أحمد من الثياب ما يليق بمقام جنكيز خان نفسه. فلما مثل بين يدى الخاقان طلب أثمانا باهظة لبضاعته حنق عليه. وصادر بضاعته ووزعها على أفراد حاشيته، ثم قبض على التاجر، ولما مثل التاجران الآخران أمام جنكيز خان لم يجرؤا على طلب ثمن البضاعة، وتظاهرا بأنهما جاءا لتقديمها هدية للخاقان فما كان من جنكيز خان ألا أمطر هذين التاجرين ذهبا وفضة، وأخذته الشفقة بالتاجر الثالث رفيق الرحلة فعفا عنه.

وأقام هؤلاء التجار فى أراضى الدولة المغولية فترة كانوا فيها موضع التركيم، وعاملهم المغول معاملة ممتازة. ولما هموا بالرحيل أمر جنكيز خان بأن يرسل كل أمير فى دولته، وكل قائد من قواده العسكريين رجلا أو رجلين من أتباعه يحملون

تجارة مغولية إلى غرب آسيا وبيعها فى الأسواق الخوارزمية، وشراء بعض المنتجات التى يحتاج إليها المغول. وقد تمكن هذا الوفد بسرعة وبلغ عدد أربعمائة وخمسين رجلا من المسلحين كما ذكر الجوينى، ونقل عنه دوسون، وإن كان ابن العبرى قد ذكر أن عددهم بلغ مائة وخمسين شخصا فقط ومن جميع الأديان دون تفريق.

وزود جنكيز خان هذه الجماعة العسكرية المتخصصة فى التجسس والاستطلاع وجمع المعلومات بمبعوث مغولى حمله رسالة إلى السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه، جاء فيها: «إن التجار وصلوا إلينا، وقد أعدناهم إلى مأمنهم سالمين غانمين، وقد سيرنا معم جماعة من غلماننا ليحصلوا من طرائف تلك الأطراف، فينبغى أن يعودوا إلينا آمنين ليتأكد الوفاق بين الجانبين وتنحسم مواد النفاق فى ذات البين».

وسار هذا الجمع الغفير قاصدا البلاد الخوارزمية، ووصلت القافلة بكامل هيئتها وتشكيلاتها إلى مدينة أوترار الواقعة على نهر سيحون، وكانت تعد مفتاح التجارة بين شرق آسيا وغربيها. وكان يحكم المدينة فى الوقت الذى وصلت فيه القافلة «اينال خان» والذى يعرف أيضا باسم «غيرخان»، وهو ابن خال السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه وتحت إمرته عشرون ألف فارس.

هال الحاكم اينال خان ورود هذا الجمع من التجار ومن صاحبهم من الرجال العسكريين إلى الدولة الخوارزمية، فخشى الأمر وأدرك أن هؤلاء لم يقصدوا البلاد الإسلامية للتجارة كما يزعمون، وإنما غرضهم التجسس واستطلاع قوة الخوارزميين وتحديد استحكاماتهم. وعندما تأكد أنهم ليسوا من طبقة التجار، وأنهم من العسكريين، كتب إلى الخوارزمشاه يخبره بأمرهم، فأوصى بمراقبتهم، وبعد فترة أمر بمصادرة أموالهم وإرسالها إليه وقتل جميع أفراد القافلة. وفعلا نفذ غايرخان حاكم مدينة أوترار أوامر السلطان الخوارزمى ونفذ المهمة على خير وجه. أما البضائع فقد باعها السلطان علاء الدين محمد لتجار بخارى وسمرقند، وذكر النسوى هذه الواقعة بقوله: «أن هؤلاء قد جاءوا إلى أوترار فى زى التجار، وليسوا بتجار بل اصحاب أخبار، يكشفون منها ما ليس من وظائفهم، إذا خلوا بواحد من العوام يهددونه ويقولن: إنكم لفى غفلة مما وراءكم وسيأتيك ما لا قبل لكم به. وأمثال ذلك حتى أذن له السلطان فى الاحتياط عليهم إلى أن يرى فيهم رأيه.

فحين أرخى عنانه فى الاحتياط عليهم تعدى طوره، وعدى شوطه، فقبض عليهم، وخفى بعد ذلك أثرهم وانقطع خبرهم، وتفرد المذكور بتلك الأموال المعدة، والأمتعة المنضدة، مكيدة منه وغدرا، وكان عاقبة أمره خسرا».

كذلك علق على هذه الواقعة عطا ملك الجوينى مؤرخ المغول بقوله: «إن كل قطرة من دماء هؤلاء التجار قد كفر المسلمون عنها بسيل من الدماء. كما كلفتهم كل شعرة من رءوسهم مائة ألف من أرواحهم»، وأيضا علق على الحادثة المستشرق الروسى بارتولد بقوله: «ولابد أنها درت عليهم أرباحا طائلة ولا سيما إذا عرفنا أن القافلة كانت تتكون من خمسمائة رجل». أما النسوى فإنه ذكر أن أفراد تلك القافلة لم يكونوا تجارا وإنما هم جواسيس، ومع ذلك نجده يقبح ما فعله حاكم أوترار بشأنهم. ونرى أن الحدث الذى أقدم عليه حاكم اوترار بتأييد من السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه كان خاطئا من بدايته، وكان يمكن للخوارزمشاه احتواء المشكلة وإعادتهم إلى دولتهم دون قتلهم أو حتى إهانتهم وأيضا دون شراء المسلمين بضائعهم أو شرائهم بضائع من الأسواق الإسلامية مما يشعر قادة المغول أن الدولة الخوارزمية قد فهمت الغرض الذى من أجله حضر هؤلاء الأشخاص، وأنها حرصا منها على حسن الجوار والسلام أقدمت على هذا الإجراء وأعادت الجواسيس سالمين فتكون بذلك قد أرصدت بابا فى وجه جنكيز خان ولا تعطيه الفرصة لإعلان الحرب أو معاداة الدولة الخوارزمية.

ولما وصلت أخبار تلك المذبحة البشرية إلى مسامع جنكيز خان بسبب تواجد شخص مغولى بعيدا عن الخيام لقضاء حاجة وتمكنه من الفرار، اشتاط غضبا وهاله الأمر، ومع ذلك رغب في تسوية حسابه مع الخوارزميين بالطرق السلمي. فأرسل إلى السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه رسولا من المسلمين يدعى «ابن كفرج»، كان أبوه أميرا من أمراء السلطان علاء الدين تكش والد السلطان علاء الدين محمد، فسار ومعه عضوان آخران من المغول يحملون رسالة من جنكيز خان كلها تهديد ووعيد ويطلب فيها تسليم حاكم أوترار تكفيرا عما حدث. وذكر النسوى نص تلك الرسالة، وقد جاء فيها: «إنك قد أعطيت خطك ويدك بالأمان للتجار، وألا تعرض إلى أحد منهم، فغدرت ونكثت، والغدر قبيح ومن سلطان الإسلام أقبح. فإن كنت تزعم أن الذى ارتكبه ينال خان كان من غير أمر صدر

منك فسلم ينال خان إلى لأجازيه على ما فعل، حقنا للدماء، وتسكينا للدهماء، وإلا فأذن بحب ترخص فيها غوالى الأرواح».

وما أن قرأ السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه رسالة خاقان المغول، حتى أمر بقتل ابن كفرج وميليه، وكان ذلك فى سنة ٦١٥هـ (١٢١٨م)، وإن كان المؤرخ دوجلاس قد ذكر أن الخوارزمشاه لم يقتل الرسل الثلاثة، بل قتل رئيسهم ابن كفرج بمفرده، وأطلق سراح الآخرين، بعد أن حلق لحيتاهما حتى يرويا قصة مصرع الرسول المغولى لجنكيز خان كما شاهداها.

وسواء أقدم السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه على قتل مبعوث جنكيز خان ابن كفرج بمفرده أو معه زميليه المغوليين، فإن السلطان ارتكب حماقة بقتل الرسول ومن معه، وهى بلا شك سنة قبيحة، وعادة غير شريفة، لم نجد لها مثيلا وسابقة فى الإسلام إلا ما ندر، ولابد أن الخوارزمشاه أقدم على ذلك الإجراء تحت ضغوط سياسية ونفسية صعبة، تعود إلى الناحية الداخلية ليس أكثر. وكانت مطالبة جنكيز خان للخوارزمشاه تسليم لينال خان للمغول لمعاقبته على فعلته وإصراره على ذلك. بعد أن أعلن السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه أنه لم يحط علما بالموضوع، وأن حاكم مدينة أوترار أقدم على ذلك دون إذن منه. فوجد الخوارزمشاه نفسه - بعد تصرحاته تلك - مطالبا بتسليم شخص له وزنه السياسى ووضعه الاجتماعى فى الدولة الخوارزمية، خصوصا وهو ابن خال السلطان نفسه وتربطه به أواصر قرابة وصداقة وطيدة، ومن عشيرة أمه تركان خاتون التى فاق نفوذها فى الدولة الخوارزمية نفوذ السلطان علاء الدين محمد نفسه، بفضل سيطرتها على شئون الدولة وأجهزتها الإدارية وتعضيد الجيوش الخوارزمية لها. وكان الظاهرة المتفشية فى عصر السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه تواجد كثير من رجال الدولة من أقرباء تركان خاتون أو من عشيرتها يتفانون فى خدمتها ويأتمرون بأمرها. فإذا فرض وقام السلطان علاء الدين محمد بتسليم اينال خان للمغول كطلبهم، فإنه لا محالة سيواجه ثورة داخلية من جانب رجال الجيش، وإخلال بالأمن قد يؤدى فى النهاية إلى الإطاحة به. أما من ناحية المغول فسوف يعتبرون ذلك تسليما من الخوارزمشاه لهم واعترافا بضعفه أمامه. ففضل قتل الرسل الثلاثة، وبذلك تحددت العلاقات بين المغول والخوارزميين.

وكان قتل الرسل على النحو الذى ذكرناه والطريقة التى تمت بها، بمثابة إعلان الحرب بين الفريقين، فأخذ كل منهما يستعد لمواجهة الآخر. وشرع الخوارزمشاه يستطلع أخبار المغول ويجهز الجيوش ويبنى الأسوار حول المدن، وشغل نفسه ليل نهار برسم الخطط الحربية، حتى صار لا يتكلم إلا فى الموضوع، ولا يكلمه أحد إلا فيه. أما جنكيز خان فإنه انصرف بدوره يستعد لمواجهة الخوارزمشاه، فنظم دولته من الداخل وجيش جيوشه وجهز معدات القتال، وجند لهذا الغرض كل قادر من المغول والتتار والترك فى دولته.

إن مذبحة أوترار تعتبر بداية الصراع الذى جر الوبال على البلاد الإسلامية، حتى أن المؤرخ الديار بكرى عندما أراد تأريخ الواقعة والتعليق عليها قال: «فيا لها من قتلة ما كان أقبحها، أجرت كل قطرة من دماء الرسل سيلا من الدماء». ونفس الشيء ذكره فامبرى فى كتابه حيث قال: «إن كل قطرة من دماء هؤلاء التجار قد كفر المسلمون عنها بسيل من الدماء كما كلفتهم كل شعرة من رؤوسهم مائة ألف من أرواحهم».

الغزو المغولى لآسيا

حملات جنكيز خان على الدولة الخوارزمية وما وراء النهر.

أعد جنكيز خان حملته لمحاربة السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه، وكان يعتقد أن القوات الخوارزمية أقوى وأكبر مما تصور، وشرع يتحرك نحو بلاد ما وراء النهر فى خريف عام ٦١٦ـ (١٢١٩م)، وبرفقته أمراء الرلق والماليق والأويغور. ويرى المؤرخون أن القوات المغولية كانت ما بين ١٥٠ إلى ٢٠٠ ألف جندى. وأن الجيش الخوارزمى كان أكثر من ذلك بقليل، لكن ضعف همة الخوارزمشاه والخلافات التى كانت بين قادة الجيش والدعايات المخيفة عن العدو مكنت جحافل المغول من اكتساح الدولة الخوارزمية فى فترة قصيرة جدا بالنسبة إلى عظم المساحة التى استولى عليها المغول بحد السيف، فهى لا تزيد على أربع سنوات، إذ وصل جنكيز خان إلى الحدود الشرقية للدولة الخوارزمية سنة ٦١٦هـ (١٢١٩م)، وأتم له إخضاع تلك الدولة، وفعل ما فعله بأهلها ومدنها، ثم عاد فعبر نهر سيحون عائدا إلى منغوليا سنة ٦٢٠هـ (١٢٢٣م).

استعدادات الخوارزمشاه وخطته الدفاعية:

اجتمع السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه بالأمراء وقادة جيشه وكبار رجال دولته ليطلعهم على خطته ويعرض عليهم ما ينويه المغول وخططهم واستعداداتهم. واقترح الإمام شهاب الدين الخيوقي الذى كان يعتقد فيه السلطان كثيرا بأن يرسل المندوبين والرسل والرسائل إلى كافة بلاد المملكة لجمع العساكر واستنار الناس للدفاع عن الإسلام وجمع التبرعات والمعونات لإيقاف عبور المغول نهر سيحون، لكن أمراء الجيش لم يستحسنوا هذه الفكرة. ورأوا أنه من الأفضل ترك المغول نهر سيحون واصطيادهم بعد ذلك فى بلاد ما وراء النهر التى لا يعرفون مسالكها، بل وقطع المدد عنهم وإهلاكهم آخر الأمر. واقترح آخرون خطة أخرى أشبه بالسابقة، وأخيرا استقر رأى السلطان علاء الدين محمد على اصطياد المغول فى بلاد ما وراء النهر ووزع جيشه على هذا الأساس بين مدن ما وراء النهر المختلفة فى انتظار قدم المغول.

خطة جنكيز خان فى حربه مع الخوارزمشاه:

وفى شهر رجب سنة ٦١٦هـ (١٢١٩م) بلغ جنكيز خان وجيشه نهر سيحون على مقربة من مدينة أوترار، وتوجه إليها وتظاهر بمحاصرتها وكانت خطة جنكيز خان محكمة للغاية، فلم يشأ مهاجمة الخوارزمشاه من جهة واحدة، بل رأى أن ينقض عليه من جهات أربع، وقسم قواته لهذا الغرض إلى أربع مجموعات، عهد إلى كل مجموعة بمهمة الاستيلاء على جزء معين من إقليم ما وراء النهر. وبهذه الخطة أخذ جنكيز خان أعداءه على غرة، ولم يترك لهم فرصة كافية للاستعدادات لمواجهته وتنفيذ خططهم.

إن المجموعات القتالية المغولية الأربع التى تشكل القوات المغولية، كانت على النحو التالى:

المجموعة الأولى: وكانت تتكون من سبع تومانات (التومان بلغة المغول عشرة آلاف) تحت قيادة ولديه جغتاى واوكتاى، وكان واجب هذه المجموعة الاستيلاء على مدينة أوترار.

المجموعة الثانية: وكانت بقيادة ولده جوجى، وهو الابن الأكبر لجنكيز خان ووجهته مدينة جند، وكانت تعد فى ذلك الوقت إحدى القلاع الإسلامية الهامة الواقعة على نهر سيحون.

المجموعة الثالثة: وكانت تتكون من خمسة آلاف جندى، وقد أمر جنكيز خان عليها ثلاثة من كبار قواده، وكان واجبهم الاستيلاء على مدينتى «بناكت» و«خجند».

المجموعة الرابعة: وكانت تحت قيادة جنكيز خان نفسه ومعه ابنه تولدى. وكانت هذه المجموعة تشكل القسم الأعظم من الجيش المغولى والقوة الضاربة الرئيسية. وكانت وجهتها مدينة بخارى الواقعة فى قلب إقليم ما وراء النهر، وكان من واجبها أيضا التصدى لقوات الخوارزمشاه والحيلولة دون وصولهم إلى المدن المحاصرة على نهر سيحون من ناحية الشرق.

كان هجوم المغول على مدينة أوترار، مفتاح إقليم ما وراء النهر والمدينة التى حدثت فيها مذبحة التجار المغول. وبها اينال خان حاكم المدينة وقاتل التجار، وما أن علم حاكم المدينة بقدوم المغول حتى قام بإصلاح حصون المدينة وقلعتها وزودها بحامية كبيرة، ووكل أمر الدفاع عنها أحد قواده المهرة. وحاصر كل من جغتاى واوكتاى المدينة خمسة أشهر فقد الخوارزميون فيها رباطة جأشهم ونفذ صبرهم خصوصا وأنه لم يصلهم مدد من الخوارزمشاه، حتى فكر القائد الخوارزمى فى التسليم، لكن اينال خان لم يوافق على فكرة تسليم المدينة للمغول، وقرر فى نفس السنة ٦١٦هـ ونهبوها وطاردوا سكانها الذين أصابهم فزع شديد، بينما تقهقر اينال خان إلى قلعة المدينة واحتمى بها نحوا من شهر، فقد فى أثنائها معظم رجاله وعدته وعتاده، ومع ذلك ظل يدافع ويقاتل إلى أن وجد نفسه حاصرا من كل جانب، فقذف بنفسه إلى سقف أحد المنازل والمغول ينظرون إليه، وأخيرا تبعه جنديان مغوليان، ورغم أنه كان لا يملك شيئا يدافع به عن نفسه إلا أنه كان يقوم بقذفهما بالحجارة التى تناوله إياها بعض النسوة. وأخيرا وقع فى أيدى المغول فقادوه إلى جنكيز خان، الذى كان قد عسكر فى ذلك الوقت أمام مدينة سمرقند، فانتقم منه ونكل به بأن أمر بصب كمية من الفضة السائلة فى عينيه وأذنيه، وبذلك

نفذ جنكيز خان وعيده فى قاتل تجاره ورسله، وبسقوط مدينة أوترار سقط مفتاح إقليم ما وراء النهر واهتزت الدفاعات الخوارزمية إزاء هذا الحادث الكبير.

أما المجموعة الثانية التى قادها جوجى، فإنها توجهت إلى مدينة جند، واستولت وهى فى طريقها على كثير من القلاع والمدن الواقعة على نهر سيحون، وتمكن بذلك جوجى من السيطرة على كل مجرى النهر تقريبا. وعندما اقترب من مدينة جند غادرها حاكمها ليلا تاركا لسكانها أمر الدفاع عن أنفسهم وعن مدينتهم. ونصب المغول المجانيق حول المدينة استعدادا لتحطيم أسوارها. وهال سكان مدينة جند قوة المغول واستحكاماتهم التى نصبوها حول مدينتهم، وانقسموا فيما بينهم إلى فريقين، فريق آثر الاستسلام والنجاة بأرواحهم من الوقوع تحت سيوف المغول، وفريق رأى ضرورة الدفاع عن المدينة ورفضوا الخضوع والاستسلام للكفار مهما كلفهم الأمر من جهد ومال وأرواح. وتشاجر الفريقان كل يؤيد رأيه حتى داهمهم جوجى ودخلت الجيوش المغولية المدينة بعد أن استولت عليها عنوة، وسلم من سلم من أهلها، وقتل من قاتل المغول ثم وضع جوجى على المدن المفتوحة حكاما من قبله، وواصل سيره بعد نجاحه الكامل فى ما كلف به وعبر نهر سيحون إلى إقليم خوارزم.

أما المجموعة الثالثة فقد سارت إلى مدينة «بناكت» على نهر سيحون وتمكنت من دخولها بعد أن سلمها الأهالى، وكان المغول قد أمنوهم على أرواحهم وممتلكاتهم لكنهم غدروا بأهلها وما أن دخلوها حتى فصلوا الجند عن الأهالى المدنيين، وأعملوا القتل فى رقاب الفريق الأول، واختاروا من الفريق الثانى خيرة شبابه لينتفعوا بهم فى أعمالهم الحربية. ثم سارت الفرق العسكرية المغولية بعد ذلك نحو الجنوب تجاه مدينة «خجنده» الواقعة على نهر سيحون، فتركها قائدها والتجأ إلى جزيرة صغيرة فى وسط النهر بعيدة عن شاطئيه، فحاصروه حصارا شديدا. ومن الغريب حقا أن المغول استعانوا بقرابة خمسين ألف من شباب الخوارزميين الذين سخروهم لمساعدة الجيوش المغولية، فكلفهم المغول بإحضار الأحجار من الجبال المجاورة وإلقائها فى النهر، وأخيرا لاذ الحاكم الخوارزمى من مكمنه بالفرار متجها نحو الشمال، لكن المغول مركبا بعد أن شحن جنده وأمتعته وسار فى النهر متجها نحو الشمال، لكن المغول كانوا يراقبونه من جانبى النهر

الذى سدوه بقنطرة من السفن، فما كان منه إلا أن امتطى صهوة جواده وقاتل أعداءه قتال اليائس واستطاع الإفلات بنفسه فقط من حصارهم والوصول إلى مدينة خوارزم حيث كان يرابط جلال الدين منكبرتى الابن الأكبر للسلطان الخوارزمى علاء محمد.

جنكيز خان يستولى على بخارى ويبيد أهلا ويجعلها طعمة للنيران:

أما المجموعة المغولية الرابعة والتى كان يقودها جنكيز خان وابنه تولوى، فإنها توجهت إلى مدينة بخارى، واستولت على المدن التى صدفتها فى طريقها وجردتها مما فيها من ذهب وفضة وأشياء ثمينة، وسخرت من يصلح من سكانها فى حصار مدينة بخارى. وعلى الرغم من أن الجيش الخوارزمى الذى وكل إليه أمر الدفاع عن المدينة كان يبل عشرين ألف مقاتل، فإنه ما لبث أن انهار وخارت عزيمته وفقد حماسه أمام استعداد المغول وقوة روحهم المعنوية.

وهاجم المغول المدينة أياما متتالية بعنف وقوة شعر المدافعون فى أثنائها باليأس، وقرروا الانسحاب ليلا، وحتى يخترق المسلمون صفوف المغول قاتلوهم قتالا عنيفا، وحققوا هدفهم فى فتح ثغرة فى جيش عدوهم، وكانت ضربات الخوارزميين قوية حتى أن المغول أرغموا على الارتداد، وبدلا من أن يتتبع الخوارزميون أعداءهم الفارين، نجدهم يفضلون الهرب من المعركة، فعاد المغول وطاردوا المسلمين أثناء هروبهم واشتبكوا معهم فى قتال عنيف بالقرب من نهر سيحون، انتصر فيه المغول وقتلوا كثيرا من جند المسلمين. أما من بقى من الأهالى فى المدينة، فقد خارت قواهم رغم كثرتهم وقرروا الاستسلام، وأرسلوا بدر الدين خان قاضى المدينة مندوبا عنهم رسولا إلى جنكيز خان يعرض عليه تسليم المدينة ويطلب الأمان لسكانها، فلما أجابه جنكيز خان إلى طلبه فتحت أبواب المدينة لجحافل المغول.

ودخل جنكيز خان مدينة بخارى فاتحا ونكث بعهده الذى أعطاه للقاضى بدر الدين خان مندوب شعب المدينة، وبعد أن استسلم أهلها قهرا وهبها جنكيز خان لجنوده، فنهبوها وعاثوا فيها فسادا وارتكبوا من الفضائح والموبقات الشىء الكثير. ثم سار جنكيز خان إلى قلعتها لاحتماء كثير من الجند بها، وادفعوا عن أنفسهم،

وتمكنوا من قتل عدد كبير من المغول ومن المسلمين الذين استخدموا فى حصار القلعة. وهال جنكيز خان كثرة ضحاياه فانتقم من سكان المدينة بأن أخرجهم منها مجردين من أموالهم وأمتعتهم، ثم حمل المغول على المدينة، وأعملوا فيها النهب وقتلوا من صادفهم من السكان أو من كان متوارى ومختبئا من وجههم، ثم أشعلوا النار فى المدينة، فاحترقت بأسرها وصارت طعمة للنيران، بحيث لم يبق من سكان بخارى إلا من كان خارجها قبل دخول المغول أو نزح إلى إقليم خراسان. إن المذبحة التى أقدم عليها جنكيز خان لسكان مدينة بخارى، وضحها لنا أحد الفارين الذين تمكنوا من الوصول إلى خراسان، وقال قولة مقتضبة عبر فيها تعبيرا صادقا عما حدث «آمدند - كشتند - سوختند - بردند ورفتند» وترجمتها «أتوا - قتلوا - أحرقوا - نهبوا ثم هبوا».

استيلاء المغول على سمرقند:

وبعد أن أجهز جنكيز خان على مدينة بخارى قصد سمرقند حاضرة إقليم ما وراء النهر، وصحب معه عددا كبيرا من الأسرى الذين أسرهم من بخارى ليستعين بهم فى حصار سمرقند. ومن المؤسف حقا أن هؤلاء الذين سيقوا لحرب إخوانهم فى الدين قتل منهم جنكيز خان فى الطريق عددا كبيرا، وبخاصة أولئك الذين ظهرت عليهم علامات التعب ولم يقووا على مواصلة السير. وانضم لجيش جنكيز خان أيضا الكثير من الفرق المغولية التى أنجزت أعمالها، واستعد القاهر المغولى بمن معه من رجال وعتاد للإجهاز على مدينة سمرقند.

إن عدد أفراد حامية سمرقند كان مثار نقا لاختلاف الآراء، ذلك أن المؤرخ الإيرانى عطا ملك الجوينى ذكر أن عددهم كان ستين ألفا من الفرس، وذكر ابن العبرى أن حامية المدينة كانت تتكون من مائة وعشرة آلاف فارس، أما ابن الأثير فذكر أنم كانوا خمسين ألفا. وأضاف هيوارث أنه كان بالمدينة عشرون فيلا أعدت للدفاع.

وعلى كل فإن الروح المعنوية التى ظهر بها الخوارزميون واستقبلوا بها أعدائهم - رغم عددهم - كانت تنبئ بسقوط المدينة فى وقت سريع على الرغم من مناعة حصونها وقلعتها ووفرة جنودها.

وما أن ظهر المغول أما أسوار المدينة حتى دب الذعر فى نفوس المحاصرين، وامر جنكيز خان الأسرى من المسلمين يسوقهم جند المغول بالتقدم لاحتلال المدينة، فتصدت لهم فرقة من الجند الخوارزمى سرعان ما حلت بها الهزيمة. كذلك راى فريق من الجنود الخوارزمية من ذوى الأصول التركية أن يستسلموا للمغول، ويعرض الصلح والخدمة فى الجيش المغولى على أساس أنهم والمغول من اصل واحد، فقبل جنكيز خان فكرتهم ووعد بإدخالهم فى خدمته، فخرجوا من المدينة مع عائلاتهم وانضموا إلى المعسكر المغولى. وضيق جنكيز خان الخناق على المدينة وحصارها محاصرة السوار للمعصم فلم يجد المحاصرون بدا من الاستسلام، فخرج قاضى المدينة يتبعه كبار رجال الدين فيها، وقصدوا معسكر جنكيز خان ليعرضوا عليه تسليم المدينة بشرط تأمين سكانها على حياتهم، فوعدهم بالإجابة وتحقيق مطلبهم. وفتحت أبواب المدينة أمام المغول فدخلوها دخول الظافرين. وجريا على عادة جنكيز خان فى خططه العسكرية والإجهاز على أعدائه فإنه أمر السكان بالخروج من المدينة، فخرج بعضهم وتباطأ البعض الآخر، فأعمل القتل فى رقاب الذين لم يخرجوا، كما ذبح كثيرا من السكان الذين خرجوا من بيوتهم طبقا لأوامره، وحجز مجموعة كبيرة أيضا أهداها لأولاده وحريمه وقواده، كما اختار عددا آخر للانتفاع بهم فى الأعمال الحربية، ولما رأى المدافعون بالقلعة ما حل بالمدينة من دمار حاولوا الاستسلام، لكن جنكيز خان استولى عليها عنوة وقتل من كان فيها. وأخيرا سمح القائد المغولى لخمسين ألفا من السكان بالعودة إلى مدينتهم سمرقند بعد أن دفعوا مائة ألف قطعة ذهبية. وهكذا تم استيلاء المغول على سمرقند فى أوائل عام ٦١٧هـ (١٢٢٠م).

كان فتح جنكيز خان لمدينة سمرقند حاضرة إقليم ما وراء النهر نصرا للعسكرية المغولية وتتوجا لأعمال العسكرية. وقبل أن يغادر القائد المغولى سمرقند فرض علىأهلها جزية سنوية قدرها ثلاثمائة ألف دينار وصحب معه إلى قرة قروم ثلاثين ألفا من العمال والصناع والحرفيين من أهالى المدينة ليعملوا هناك.

إن الإجهاز على إقليم ما وراء النهر كان ضربة قاصمة للخوارزميين فى كافة النواحى حيث كانوا يعتبرونهم خط دفاعهم الأول، فانهارت بالتبعية بقية خططهم

الدفاعية ومعنوياتهم وتحطمت نفسياتهم مما سهل على المغول بعد الاستيلاء على أقاليم الخوارزمية الباقية دون عناء.

تسخير إقليم خوارزم:

كان إقليم خوارزم، أهم ولايات الدولة الخوارزمية، وكان من الولايات التى تسيطر عليها تركان خاتون والدة الخوارزمشاه علاء الدين محمد. وكانت تتابع أخبار المعارك والهزائم التى منى الجيش الخوارزمى بنفس مضطربة، وما أيقن الخوارزمشاه علاء الدين محمد بالهزيمة والتشتت رأسها ينذرها بالخطر، وطلب منها أن تتقهقر هى ومن معها إلى إقليم مازندران لتكون فى مأمن من القتال. وفى نفس الوقت أرسل لها جنكيز خان رسولا يستميلها إلى جانبه ووعدها بأن يترك لها ما بيدها من أملاك بعد أن يتم أعماله العسكرية.

وبعد أن سيطرت الجيوش المغولية على ما وراء النهر، قررت تركان خاتون مغادرة إقليم خوارزم مع وصيفاتها وأحفادها أبناء علاء الدين محمد الخوارزمشاه، وحملت معها كل ما تمكن حمله من كنوز قاصده العراق العجمى. وقبل أن تغادر الإقليم أمرت بقتل من كان محبوسا من الملوك عند الخوارزميين، وكانوا بضعة عشر نفرا، ثم سارت بالخزائن وقافلتها النسائية ومن يحرسهم من رجال إلى قلعة «إيلال» بمازندران، لكن المغول كانوا أسرع منها، وما أن بلغهم خبر رحيلها حتى تتبعوها فوقعت أسيرة فى أيديهم، فقادوها وحاشيتها وأبناء علاء الدين محمد إلى معسكر جنكيز خان حيث ظلت أسيرة لديهم، وصحبوها معهم إلى العاصمة «قرة قورم» حيث ماتت هناك سنة ٦٣٠هـ (١٢٣٣م). أما أبناء السلطان علاء الدين محمد الصغار فقد قتلهم جنكيز خان رغم حداثة سنهم، كما أعطى ابنه جغتاى اثنتين من بنات السلطان الخوارزمى فتزوج واحدة منهما، وأهدى الثانية لأحد رجاله المقربين، كما أعطى جنكيز خان ابنة ثالثة من بنات علاء الدين محمد لحاجبه دانشمند.

أما إقليم خوارزم نفسه، فإنه بعد مغادرة تركان خاتون وحاشيتها له فقد خلا من الحكام الخوارزميين، وأى نوع من الإدارة، بوات ينتظر مصيره المحتوم على أيدى المغول خصوصا وأن الملكة فاتها تعيين حاكم على الإقليم.

أما السلطان علاء الدين محمد فإنه انسحب إلى همدان فى نحو عشرين ألفا من جنوده، ولكنه ما أن بلغه خبر أسر والدته وأبنائه وما حل بهم حتى أصابه الهم والهزيمة، ووصل آخر المطاف إلى جزيرة «آبسكون» يقول الذهبى أن السلطان مرض بالإسهال وطلب الدواء فأعوزه الخبر فمات، وأسلم روحه فى ١٣ شوال سنة ٦١٧هـ. فما كان من أولاده الثلاثة جلال الدين منكبرتى، وأوزلاغ شاه واق شاه الا أنهم عبروا البحر إلى إقليم خوارزم لمواصلة الكفاح حيث استقبلوا بمظاهر الفرح والسرور. واستطاع جلال الدين منكبرتى الذى خلف والده أن يجمع جيشا كبيرا لمواجهة المغول، لكنه واجه موقفا صعبا، ذلك أن الجيش الذى تمكن من جمعه كان يتكون من القبائل التركية التى تنتمى إليها تركان خاتون، والتى لم ترض عن تولى جلال الدين منكبرتى الحكم بعد أبيه، فأراد أن يخضع الجيوش الثائرة بالقوة، فتآمروا على قتله، فلم يجد السلطان الجديد بدا من الفرار والنجاة بنفسه من الهلاك، ففر إلى خراسان ومعه ثلاثمائة فارس فقط.

وما أن علم جنكيز خان بقدوم أبناء السلطان الخوارزمى وتجييشهم للجيوش حتى سير جيشا كبيرا قيادة ثلاثة من أبنائه هم: جوجى وجغتاى وأكتاى للقضاء على المقاومة فى خوارزم. ولكى يحاصر جنكيزخان أبناء السلطان الخوارزمى من كل جهة، أمر جيوشه فى خرسان بأن تقف على الحدود الجنوبية للصحراء وعلى أهبة الاستعداد، وكان ذلك فى المنطقة الصحراوية التى تفصل خوارزم عن خراسان. وعسكر سبعمائة فارس مغولى بالقرب من مدينة نسا. وعندما قدم جلال الدين منكبرتى إلى خراسان التقى بالمغول واشتبك معهم وقتل منهم عددا كبيرا لكنه عزم آخر الأمر لقلة رجاله وكثرة أعدائه، ففر إلى نيسابور.

أما أوزلاغ شاه وآق شاه فكان أسوأ حظ من أخيهما جلال الدين منكبرتى، فقد فرا إلى خراسان ولحق بهما المغول بالقرب من نسا، ثم وقعا فى الأسر، وقطع المغول رأسيهما ورشقوهما فى سهمين، ثم طافوا بهما فى جميع أنحاء خوارزم إمعانا فى السخرية بالخوارزميين وإنذار للمتمردين وإرهاب للأهالى المستسلمين.

وتقدم المغول نحو مدينة«جرجانية» حاضرة خوارزم والتى كانت من أكبر المدن الإسلامية وأكثرها عمرانا فى ذلك الوقت، وطلبوا من أهلها التسليم ووعدهم المغول حسن المعامل، وأعلنهم جوجى أن أباه الخاقان أعطاه إقليم خوارزم

ليحكمه، إلا أن الأهالى آثروا المقاومة، وحاصر المغول المدين ستة أشهر، وتكبدوا خسائر جسيمة، حتى أن القادة طلبوا من جنكيزخان المدد ليعوضهم عما خسروه فى المعارك، وأخيرا استولوا على المدينة وأشعلوا النار فى منازلها، وأمر القائد المغولى الأهالى بالخروج من المدينة، وطلب من أصحاب الحرف أن يقفوا فى مكان منعزل، وأعمل المغول السيف فى رقاب من بقى من السكان. وكان على كل جندى مغولى أن يقتل أربعة وعشرين رجلا خوارزميا حتى أنه لم يبق من سكان المدينة إلا الفتيات الصغيرات والأطفال الذين استرقهم المغول. ولم يكتف المغول بما فعلوه فى سكان المدينة، وما أشعلوه من حرائق، بل إنهم فتحوا سدود نهر جيحون فغرقت المدينة وتهدمت أبنيتها وأصبحت خرابا.

وبهذه الطريقة البربرية، أو المغولية الجنكيزية على أصح تعبير، سيطر المغول على إقليم خوارزم، والذى كان لهم معبرا إلى إقليم خراسان لينال ضربتهم التالية.

الإجهاز على خراسان:

بدأ جنكيزخان هجومه على خراسان أثناء عملية إجهازه على لإقليم خوارزم. وكان أول ما فعله القائد المغولى إزاء خراسان أن أمر بإرسال فصائل من جيشه فى ذات الوقت الذى أرسل فيه جيشا إلى إقليم خوارزم ليسد المسالك على الخوارزميين حتى لا يترك لهم سبيلا للهرب وتعرضت خراسان قبل ذلك بفترة يسيره لغزو مفاجئ قام به كل من «جبه نويان» و«سوبوتاى» حينما كان يطاردان السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه، فاستوليا على بعض المدن الخراسانية الهامة مثل نيسابور. وكان جيش الاحتلال المغولى فى خراسان قليل العدد، ذلك لأن القائدين المغوليين لم يهتما كثيرا بإخضاع خراسان قدر اهتمامها بمطاردة الخوارزمشاه وأسرته، ومع ذلك فقد وضع قوادا من المغول على المدن المفتوحة واستسلم الأهالى لهم نتيجة ما سمعوه من فظائع اقترفها المغول فى البلدان الإسلامية التى استولى عليها بحد السيف وبخاصة تلك التى قاوم شعبها المغول. ومع ذلك حاولت المدن الخراسانية الخلاص من الحكم المغولى، مثل قتل الخوارزميين الحاكم المغولى فى مدينة طوس، وإجهازهم على من من بها من جند

وتخليصها من نير المغول، أو بمعنى أدق تطهيرها من دنسهم. واستمر الوضع قائما على ذلك، جيش احتلال مغولي قليل العدد، وأهالي يخشون كارثة تقع على أيدي المغول البرابرة، حتى صدرت الأوامر لتولوى بن جنكيزخان بالسير إلى خراسان في خريف عام ٦١٧هـ - (١٢٢٠م) ومعه سبعين ألفا من المغول. وفي نفس الوقت عبر الخاقان بنفسه إلى الضفة الغربية لنهر جيحون قاصدا احتلال مدينة بلخ، وتم له الاستيلاء عليها عام ٦١٨هـ (١٢٢١م)، ولم يعفها من التخريب، كما لم يعف أهلها من القتل.

وتقدمت طلائع جيش تولوى بقيادة «طغاجار Togacher» زوج ابنة جنكيز خان وتحت أمرته عشرة آلاف جندي، وعسكروا تجاه مدينة نسا، وتمكن المحاصرون من الانفراد بإحدى كتائب المغول، وقتلوا عددا كبيرا منهم من بينهم قائدهم، فحاصروا طغاجار المدينة مدة خمسة عشر يوما استطاع أن يحدث ثغرة في سورها واحتلالها ليلا. وما أن طلع النهار حتى بدأ المغول يثأرون من الأهالي، فأخرجوهم من منازلهم، وأمروا بربطهم الواحد بجوار الآخر وأن يربط ذراع كل رجل وراء ظهره، ثم أجهز المغول على سكان المدينة جميعهم، نساء ورجالا وأطفالا، حتى قيل أن عدد من قتل من سكان تلك المدينة بلغ أكثر من سبعين ألف.

وانتشر المغول بعد ذلك في خراسان، وكانوا كلما حلوا ببلد جمعوا الأهالي وساقوهم أمامهم لمساعدتهم في حصار الأماكن التي يرغبون في الاستيلاء عليها. كما أرغموا حكام المقاطعات وأتباعهم على الاشتراك في أعمال الحصار، بل والقتال، ومن أبى منهم قتلوه شر قتله.

وسار طغاجار بعد مذبحة نسا إلى مدينة نيسابور في نفس السنة ٦١٧هـ، وهاجم المدينة فقتل بسهم من سهام المسلمين، وانسحب من تولى القيادة بعده تاركا عملية فتحها لجيش تولوى.

وكانت المهمة الأساسية لتولوى في خراسان تنحصر في الاستيلاء على حاضرته «مرو» والتي كانت مقر سلاطين السلاجقة، ومن بينهم ملكشاه وابنه سنجر، ثم اتخذها الخوارزميون حاضرة لهم بعد أن استولوا على أملاك السلطان

سنجر فى خراسان. وعندما فر السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه من إقليم ما وراء النهر، أمر بنقل دواوين الحكومة والمصالح العامة ووثائق الدولة من مرو إلى إحدى القلاع الحصينة، ووضع حامية للدفاع عن المدينة وحماية الأهالى الذين يبقون فيها.

الاستيلاء على مرحاضرة الدولة الخوارزمية:

ظهر تولوى أمام مدينة مرو على رأس جيش جرار يتكون من سبعين ألف رجل بينهم عدد غفير من أسرى البلاد الإسلامية التى خضعت للمغول. وكان أول عمل أقدم عليه المغول إبادة قرابة عشرة آلاف رجل من الخيالة التركمان كانوا يعسكرون على مقربة من المدينة بعد أن استدرجوهم فى كمين فقتلوا منهم عددا كبيرا، وفر الباقون، وغنم المغول منهم عددا كبيرا من قطعان الماشية التى كان التركمان قد نهبوها من مرو.

تلى ذلك إحكام حصار المدينة وسد منافذها بقوات مكثفة حتى لا يهرب أحد من أهلها، ووجد حاكم مرو أن لا طاقة له بمحاربة المغول، فأرسل كبار رجال الدين إلى تولوى يعرضون التسليم، بشرط تأمين من فى داخل المدينة، فوعدهم تولوى تحقيق طلبهم. وخرج حاكم المدينة وتوجه إلى معسكر المغول يحمل الهدايا إلى تولوى، الذى استقبله ووعده بتثبيته فى حكم المدينة. وطلب منه رؤية كبار رجال مدينته وأعيانها ليخلع عليهم الخلع ويمنحهم الهبات، فجد الحاكم الخوارزمى فى استدعائهم. ولما حضروا إلى معسكر المغول قيدهم تولوى ومعهم الحاكم المستسلم وطلب منهم إعداد قائمة بأسماء الأغنياء وكبار الملاك الذين جىء بهم إلى معسكر المغول مع نحو أربعمائة من أصحاب الحرف والمهن، وفعلوا ما أراد. ثم دخلت الجيوش المغولية المدينة وطاردت السكان الذين أمرهم تولوى بالخروج، فوعوا جميعا فى فخ المغول بين قتيل وجريح وشريد.

وما أن نجح تولوى فى تحقيق هدفه والاستيلاء على المدينة وتجريد سكانها من أى مقاومة وزع سكان مدينة مرو من الرجال والنساء والأطفال على جند المغول وأمرهم بقتلهم جميعا، ولم يبق من السكان سوى الأربعمائة رجل حرفى الذين أبقاهم المغول للانتفاع بهم فى الأعمال الحربية. وأزال المغول أسوار المدينة ومبانيها

ودمروا قلعتها، ونبشوا قبر السلطان سنجر السلجوقى، وكان بناء فخما ظنا منهم أنهم سيجدون فيه ذهبا وفضة. وهلك سكانها جميعهم الذين قدرهم ابن الأثير بسبعين الفا. أما الجوينى فذكر أن جملة قتلى مرو بلغ مليونا وثلاثمائة ألف، عدا الجثث التى كانت فى أماكن خفية لم يستدل عليها.

ثم أسرع تولوى بعد ذلك إلى مدينة نيسابور، فأتى عليها بعد أن وقف أهلها جميعا يدا واحدة ضد المغول، لكن قوة المغول وكثرة عددهم أفقدتهم رباطة جاشهم، وأرسل الأهالى نوابا نهم من الأئمة وكبار رجال المدينة، وعلى رأسهم قاضى قضاة خراسان إلى معسكر المغول، وعرضوا على تولوى تسليم مدينتهم، وتعهدوا بأن يؤدوا للمغول ضريبة سنوية، لكن تولوى رفض التسليم وقرر الانتقام لمقتل زوج أخته «طغاجار».

ولم يمض قصير وقت حتى تمكن المغول من اختراق حصون المدينة، وإحداث ثغرات عديدة فى حوائطها مكنتهم من دخولها من جميع جهاتها بعد أن أجهزوا على الجنود المدافعين عنها، وتمكنوا من احتلالها والقضاء على البقية الباقية من الرجال المحاربين فيها والإجهاز على من اختبأ فى المنازل ومصارف المياه والشوارع. ودخلت ابنة جنكيز خان أرملة طغاجار يصحبها عشرة آلاف رجل، فقتلوا كل من صادفهم من رجال ونساء وأطفال، ولم يتركوا حتى القطط والكلاب. وحتى يطمئن تولوى إلى القضاء على جميع سكان المدينة ترك بعد رحيله عددا من الجنود لقتل السكان الذين قد يظهرون بعد رحيل الجيش المغولى. وفعلا ظهر عددا منهم كانوا مختبئين بين القتلى أجهز عليهم المغول. وقد قدر عدد من قتل سكان مدينة نيسابور بنحو مليون ونصف المليون.

وانتقل تولوى بعد أن أجهز على نيسابور إلى مدينة هرات - التى كانت تعد آخر مدن خراسان الهامة - وعسكر في سهل خصيب يشرف عليها. وأرسل رسولا من قبله يطلب إلى أهلها التسليم وإلا فسيلقون جزاءا كبيرا، غير أن القتل كان نصب ذلك الرسول، واستعد حاكمها للدفاع عنها. فأمر تولوى بمهاجمة المدينة من جميع جهاتها فى آن واحد. وبعد ثمانية أيام عرض حاكم المدينة التسليم بشرط تأمين الأهالى على أرواحهم، فوافق تولوى على ذلك. وما أن دخل المدينة

حتى أمر بقتل عدد كبير من جند الخوارزميين من أتباع السلطان جلال الدين منكبرتى الذى خلف أباه علاء الدين محمد على حكم الدولة الخوارزمية ومسئولية الدفاع عن الإسلام والمسلمين. كما قتل تولوى أيضا اثنى عشر ألفا من سكان المدينة المدنيين. ولأول مرة نرى تولوى يولى حاكما مسلما على مدينة خوارزمية، وإن كان ذلك الحاكم هو الآخر كان تحت رقابة حاكم مغولى.

وبعد أجهز تولوى على مدينة هرات، تلقى أمرا من أبيه جنكيز خان ليلحق به عند مدينة الطالقان فى أعالى نهر جيحون، وكان الخاقان قد عزم على الرحيل إلى منغوليا. وبذلك خضع إقليم خراسان برمته للمغول بعد أن دمروه تماما.

خضوع الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية للمغول:

انتهت المرحلة الأولى من تحطيم الدولة الخوارزمية، والتى استولى المغول فيها على أقاليم ما وراء النهر وخوارزم وخراسان. وتلى ذلك مرحلة أخرى تتمثل فى مطاردة المغول للسلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه. وقد تولى هذه المهمة القائدان الشهيران «جبه نويان» و«سوبوتاى»، وكانت تعليمات الخاقان لهما بالسير فى اثر السلطان الخوارزمى فإذا وجداه على راس جيش كبير يتجنباه انتظارا لوصول المدد من الجيوش المغولية، أما إذا ركن السلطان إلى الفرار، فيجب عليهما أن يتبعاه بلا تردد.

وقد ظهر اليأس على السلطان علاء الدين محمد بعد أن رأى اكتساح المغول لبلاده، ولت حركته وانهارت مقاومته، كذلك ما لبث أن تسرب اليأس إلى رجال الخوارزمشاه. أما السلطان فآثر الابتعاد عن مسرح السياسة والحرب معا، وبدا يستعد للهرب عازما الرحيل إلى الأقاليم الغربية من بلاد عله يجد الأمن فيها. أما رجاله وقادة جيشه فإن كل واحد منهم بدأ يفكر فى نفسه ويسعى للحفاظ على حياته بعد انهيار الدولة واكتساح المغول للعالم الإسلامى.

وفى نفس الوقت الذى قرر فيه علاء الدين محمد الخوارزمشاه الهروب عقد مجلسا طارئا ضم وزراءه وكبار قادته للتشاور فيما يفعله الخوارزميون لمواجهة الموقف المتدهور. وانقسم المجتمعون فى الرأى، فريق رأى أنه لم يعد هناك من الوقت ما يتسع لحماية بلاد ما وراء النهر وأنه يجب التركيز لحماية الأقاليم الواقعة

غربى نهر جيحون. وفريق آخر رأى وجوب انسحاب السلطان علاء الدين محمد إلى غزنة، وهناك يجمع جيوشه المتفرقة ويواجه بها المغول بعد تنظيمها واستعدادها للقتال، وإن حلت الهزيمة بالجيش الخوارزمى يمكن الانسحاب إلى الهند ومعاودة الكرة مرة بعد أخرى.

وفضل السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه الرأى الثانى، وسار فى طريقة إلى غزنة، لكن حدث وهو فى مدينة بلخ ما دفعه إلى تغيير خطتة والاتجاه نحو العراق العجمى أثر إيعار من وزيره «نظام الملك» الذى زين له الاتجاه إلى الغرب لعله يجد هناك المال والرجال لمساعدته فى محنته لصد المغول. وما أن وصل السلطان علاء الدين محمد إلى مدينة نيسابور، علم أن المغول قد عبروا نهر جيحون، وأنهم يجدون فى البحث عنه، لذلك بادر إلى مغادرة المدينة ويمم شطر العراق العجمى.

وجد القائدان المغوليان جبه نويان وسوبوتاى فى السير للحاق بالسلطان الخوارزمى كتعليمات الخاقان، وكل منهما يقود فرقة من ألف جندى مغولى ليس أكثر، واستولى على مدينة الرى. وقبل استيلائهم على الرى عثروا مصادفة وهم فى الطريق على والدة السلطان «تركان خاتون» التى انسحبت من خوارزم وأرادت أن تعتصم بقلعة فى العراق العجمى، فأسروها ووضعوا أيديهم على ما معها من نفائس وكنوز وجواهر، وبعثوا بهذا كله مع أسيرتهم إلى جنكيزخان. وكان لسقوط مدينة الرى فى أيدى المغول أثر كبير على نفسية السلطان علاء الدين محمد الذى كان حتى ذلك الوقت يفكر فى الطريق الذى ينجيه من الهلاك، وهرب الجنود، وتركوا السلطان بمفرده يواجه الموقف الصعب. كما استولى الفزع على الأهالى، وبدأ كل شخص ينظر إلى نفسه وتدبر حاله والتنصل من المسئولية حتى أصبحت البلاد دون قادة أو حكام، كل يواجه مصيره بنفسه. وعندما دخل المغول مدينة الرى ودوا سكانها مختلفين مع بعضهم. وأصحاب المذاهب الإسلامية فى قمة خلافاتهم فى تفسير بعض نصوص القرآن الكريم مما سهل على المغول الاستيلاء عليها بسهولة ويسر، وقتلوا كل من كان فيها.

موت السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه:

فضل السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه التوجه إلى إقليم مازندران، وفعلا تمكن من الوصول إلى ذلك الإقليم الذى لم يكن قد أصيب بشىء على أيدى المغول، واستقبله أمراء تلك الجهات بكل ترحاب ونزل بينهم بما يليق بمقامه، وكان يرافقه ثلاثة من أبنائه هم: جلال الدين منكبرتى وأوزلاغ شاه وآق شاه. ولما سأل عن قلعة أمينة يمكنه الاحتماء بها، أشاروا عليه بالالتجاء إلى إحدى الجزر فى بحر قزوين لا تبعد كثيراً عن ساحل مازندران. ورأى السلطان علاء الدين محمد نفسه يعمل بتلك المشورة، وانتظر عدة أيام فى إحدى القرى الواقعة على ساحل البحر، لكن المغول لم يلبثوا أن اقتفوا أثره واستدلوا على مكانه وهجموا على القرية، فركب السلطان علاء الدين محمد إحدى السفن وتوارى عن الساحل، وقد أراد بعض الخيالة المغول اللحاق به فرموا أنفسهم فى الماء فابتلعتهم الأمواج.

وأخيراً وصل السلطان الخوارزمى وأبناؤه الثلاثة الذين بقوا له إلى جزيرة «آبسكون» والتجأ إليها، وأقام خيمة نصبها له أحد الأهالى. وقد ساعد أهالى المنطقة الذين كانوا يقيمون على الشاطئ، فقد كانوا يأتونه بما يلزمه من مأكل وما يحتاجه من ضروريات الحياة. وفى نظير ذلك كان السلطان يوصى بإقطاعهم الإقطاعات. ولما استعاد جلال الدين منكبرتى أملاك أبيه بعد بضعة سنين أقر هذه الإقطاعات لأصحابها.

وجد السلطان الخوارزمى وحده فى جزيرة نائية بعيدة عن العمران بل والحياة. وحل عليه التعب والإرهاق. فمرض مما وقع له ولدولته ولشعبه. وما أن علم أن أمه تركان خاتون قد وقعت أسر المغول، وأن بعض نسائه وأطفاله الذين كان قد أودعهم إحدى القلاع قد وقعوا أيضاً أسر المغول وقتلوهم عن آخرهم، اشتد عليه المرض، وما أن شعر بدنو أجله حتى استدعى أبنائه الثلاثة الذين كانوا يرافقونه فى رحلته ووكل أمور دولته إلى أرشد أبنائه جلال الدين منكبرتى، وأعلن أنه الوحيد الذى يستطيع حماية الدولة الخوارزمية وخلع ابنه أوزلاغ شاه الذى كان قد نصبه قبل ذلك وليا لعهده. ومما قال لأبنائه هذه العبارة المؤثرة التى ذكرها النسوى.

«إن عرى السلطنة قد [illegible]مت، والدولة قد وهنت قواعدها وتهدمت، وهذا العدو قد تأكدت أسبابه، وتشبثت بالملك أظفاره، وتعلقت أنيابه وليس يأخذ بثأر منه إلا ولدى منكبرتى، وها أنا وبعد أن قضى السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه فى جزيرة «آبسكون» شهرا، توفى فى ١٣ شوال سنة ٦١٧هـ (١٢٢١م)، ومما يؤسف له أن المحيطين بالسلطان عجزوا عن إيجاد كفن يكفنونه، فقام كل من «سيد شمس الدين محمود بن يلاغ جاوش» و«مهتر مهتران مقرب الدين» رئيس ومقدم الفراشين بغسله، وخلع سيد شمس الدين محمود قميصه وكفنه به. وأمر السلطان الجديد جلال الدين منكبرتى بدفن والده فى نفس الجزيرة.

أما القائدان المغوليان جبه نويان وسوبوتاى فإنهما استوليا على ما مرا به من الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية أثناء مطاردتهما للسلطان علاء الدين محمد، كما تمكنا من الاستيلاء على كل ما كان يحمله السلطان من كنوز وأحجار كريمة وآنية ذهبية وفضية، وبعثا بها إلى الخاقان.

وسارت جيوش المغول إلى همدان التى فتحت صلحا، ثم اتجهت صوب قزوين واستولت عليها أيضاً بعد أن قتل أهلها ما يزيد على أربعين ألفا. وعلى هذا النحو وضع المغول أيديهم على العراق العجمى. واتجه المغول بعد ذلك إلى آذربيجان فى نفس السنة ٦١٧هـ حيث كان يحكمها الأتابك أوزبك بن البهلوان، ففضل مسالمة أعدائه المغول الذين صالحوه بعد أن غمرهم بهداياه من مال وثبات ودواب، ودخل المغول مدينة تبريز عاصمة أذربيجان وحاضره بن البهلوان الذى قبل أن يكون تابعا لهم.

المغول فى غزنة:

بدأ السلطان جلال الدين منكبرتى عهده بأن قرر اتخاذ غزنة قاعدة للنضال الإسلامى ضد المغول. وبدأ يكاتب الأمراء والحاكم ويحثهم على مساعدته بالرجال والعتاد، لكن المغول كانوا يتعقبونه من مكان لآخر لمعرفتهم أنه أقوى الأمراء شوكة وأجراهم على الحرب والنزاع.

وأخيرا وصل جلال الدين منكبرتى إلى غزنة حيث رحب الأهالى، وانضم

تحت لوائه جموع غفيرة من مختلف الأجناس، وتمكن جلال الدين منكبرتى بحسن سياسته وقوة شخصيته أن يؤلف بين جنود غزنة المتنافرين، ومن أخذتهم الحمية والغيرة على الإسلام من المتطوعين، وأتته الأموال من وجهاء المسلمين وفقرائهم على حد سواء الذين أدركوا أن البلاد فى خطر والإسلام فى محنة. وهكذا استطاع جلال الدين منكبرتى تكوين جيش إسلامى قوى بلغ عدده قرابة سبعين ألف فارس.

السلطان جلال الدين منكبرتى يهزم المغول:

فاجأ السلطان جلال الدين منكبرتى فى ربيع عام ٦١٨هـ (١٢٢١م) طلائع جيش المغول الذى كان يقتفى أثره، وانتصر عليه انتصارا ساحقا فى معركة خاطفة، قتل فيها من المغول قرابة ألف رجل منهم، ثم ظهر جيش المغول الاساسى، وكان قوامه ثلاثين ألف رجل. وكان الصراع شديداً والغلبة تتأرجح بين القوتين المتصارعين. وأخيرا انتصر جلال الدين منكبرتى على جيوش المغول بعد أن سالت الدماء وغطت الأدوية القريبة من ميدان القتال، وولت خيالة المغول الأدبار، واصطادهم جنود السلطان وأجهزة عليهم ز وكان انتقام الخوارزميين من المغول شديداً، حيث كانوا يدقون الأوتاد فى آذان الأسرى، وجلال الدين ينظر إليهم ويعلوا وجهه البشاشة بما ظفر.

ووصلت أخبار السلطان جلال الدين منكبرتى إلى بعض المدن الإسلامية التى خضعت للمغول، فظنت أن انتصار السلطان ضربة قاضية لجيوش جنكيزخان، وأن وقت الخلاص قد حان، فثارت فى وجه المغول، وكانت من بين تلك المدن هرات التى اشتعلت فيها نيران الثورة الاستيلاء عليها، وقتل من أهلها مليوناً وستمائة ألف رجل، كما أجهز المغول على كل شىء فيها ولم يسلم من القتل إلا أصحاب المهن والحرف الذين أبقاهم المغول للاستفادة من خبرتهم ونقلهم إلى منغوليا كعادتهم.

ولم ينعم السلطان جلال الدين منكبرتى بانتصاره على المغول، ذلك أنه حدث خلاف بين قادة جيشه، انتهى بشجار بين الأطراف المتنازعة، حتى أن بعض القادة اعتدى على آخرين باللكم والضرب بالمقارع، فانسحب أحد القادة المضروبين

إلى مدينة بشاور، وانضم إليه عدد كبير من الجنود الغورية وتركوا مدينة غزنة بعد أن خابت جميع جهود السلطان لإعادتهم والصلح بين الأطراف المتنازعة. ولما وجد السلطان جلال الدين منكبرتى أن جيوشه قد أصبحت مقصورة على الأتراك الخوارزميين دون الجنود الغورية الذين كانوا يكونون عصب الجيش الإسلامى أدرك أنه لم يعد قادراً على مواجهة المغول، واضطر إلى الانسحاب إلى سهل يقع غربى نهر السند حين علم بقدوم المغول بقيادة جنكيزخان إلى إقليم للانتقام من الهزيمة التى حلت بجيشه فى سهولها.

وجمع جلال الدين السفن ليعبر بها نهر السند هو وجنوده عله يجد مأمنا فى بلاد الهند. وما أن علم البحارة الهنود من أهل السند بمقدم جنكيزخان حتى لاذوا بالفرار بسفنهم تاركين السلطان الخوارزمى وجنوده على الشاطئ ولم يستطع جلال الدين مكنبرتى أن يحصل إلا على سفينة واحدة أمر أن تنقل فيها أمه وزوجه وأولاده الأطفال. لكن المركب ما لبث أن تحطمت وتعذر عبور أسرة الخوارزمشاه. وفى هذه الأثناء وصل جنكيزخان إلى غزنة وجد فى السير لللحاق بجلال الدين منكبرتى ليحول دون عبوره النهر.

وهكذا أجبر جنكيزخان عدوه السلطان الخوارزمى على خوض معركة غير متكافأة، بدأها بأسر مؤخرة جيشه وأجهز عليها، ثم حاول أن يطوق الباقى بقوات تنتشر على شك لنصف دائرة لتسد جميع المنافذ على الجنود الخوارزمية وتحصرها بين نهر السند من جهة والجيوش المغولية من جهة أخرى. ورأى جلال الدين منكبرتى أن يختار أمرين، إما أن يبذل أقصى ما يستطيعه من جهد فينتصر على المغول أو يموت إما بسيوف المغول ورماحهم، وإما غرقا فى نهر السند، وثبت السلطان جلال الدين منكبرتى أول الأمر لهجوم المغول حتى أنه حمل بنفسه على قلب الجيش المغولى حيث يقيم جنكيزخان فمزقه وأصابه بتلفيات شديدة، وكاد الجيش المغولى ينهزم وتدور الدائرة عليه لولا أنه تمكن من كسر ميمنة جيش السلطان، فانهزمت وتبددت. كذلك حلت الهزيمة بالميسرة، ووقف جلال الدين منكبرتى فى القلب ومعه سبعمائة رجل يقاتلون بشجاعة نادرة ويحاولن إحداث ثغرة فى صفوف أعدائهم حتى يهربوا منها.

السلطان جلال الدين منكبرتى يفر إلى الهند كلاجئ وطريد،

ولما لم يجد السلطان جلال الدين مكنبرتى سبيلا إلى اختراق صفوف المغول، ولى وجهه شطر النهر وقذف بنفسه وهو ممتط جواده من ارتفاع عشرين ذراعا، واستطاع بهذه الوسيلة أن يعبر النهر إلى الجانب الشرق، أما جيشه الذى ثبت معه فقتل عدد كبير من جنوده فى المعارك التى نشبت وغرق الباقون الذين حاولوا العبور إلى الضفة الشرقية، وأسر المغول أحد أبناء السلطان وكان طفلاً دون الثامنة فقتله جنكيزخان بيده. يقول ابن الوردى ويؤيده فى ذلك النسوى مؤرخ الخوارزمين ما يلى: «رأى السلطان جلال الدين منكبرتى والدته وأم ابنه وحريمه يصحن بالله عليك اقتلنا وخلصنا من الأسر، فأمر بهن فغرقن، وهذه من عجائب البلايا ونوادر الرزايا».

وهم كثير من الجنود المغولية بعبور النهر واللحاق بجلال الدين، غير أن جنكيزخان أسرع ومنع جنوده من اللحاق بالسلطان. ولما علم جنكيزخان أن عدوه الخوارزمى أمر بإلقاء كل ما كان يمتلكه من ذهب وفضة فى نهر السند حتى لا يقع غنيمة سهلة فى يد المغول، أمر بعض رجاله المتخصصين فى الغوص بالبحث عن الكنوز الخوارزمية، فغاصوا فى النهر وأمكنهم انتشال بعض هذه الكنوز.

وهام جلال الدين منكبرتى على وجهه فى بلاد السند يبحث عن مأوى، ومعه قرابة أربعة آلاف من الجنود الخوارزمية الذين استطاعوا النجاة بأنفسهم والعبور إلى الضفة الشرقية من نهر السند واللحاق بسلطانهم. ومن المؤسف حقاً أن جنود السلطان جلال الدين منكبرتى وكلهم من الترك لم يرعوا حرمة إقامتهم فى بلاد الهند التى استضافتهم شعبها وقدم لهم ما يحتاجونه من مؤن وعتاد وملابس، وتصرفوا وكأنهم فى ديارهم فأغاروا على بعض أقاليم الهند العامرة وخربوها وجمعوا ما بها من ذهب وفضة واعتدوا على النساء واستولوا على عدد وفير منهن، وفرضوا الإتاوات على الحكام والأهالى ونهبوا ما وجدوه أمامهم من ملبس ومأكل وسلاح وغير ذلك من النفائس، وباختصار عاثوا فى البلاد فساداً مما ترك أثراً سيئاً لدى كافة الهنود من المسلمين وغيرهم عن هؤلاء الخوارزميين.

وفكر جلال الدين منكبرتى فى الالتجاء إلى مدينة دهلى عندما علم أن

فصائل تجد في البحث عنه. وما أن علم سلطان دخلي باقتراب السلطان الخوارزمي ورجاله من المدينة عمل على إبعاده بشتى الطرق، فأرسل إليه الهدايا وعرض عليه صداقته، كما عرض عليه ابنته ليتزوج منها، ثم أفهمه أن جو بلاده لا يلائمه، فامتثل السلطان جلال الدين منكبرتي لنصيحة دهلي وابتعد عن المدينة.

إن الفترة التي قضاها السلطان جلال الدين منكبرتي في الهند كانت قاسية للغاية على سلطان مثله، وكثيراً ما كان يظهر بمظهر الكسير الذليل من هول ما أصاب دولته بعامة، وما أصاب أسرته بخاصة، بعد موقعة السند التي فقد فيها كل شيء، أمه وأم ولده وابنه وحريمه وجيشه وأمواله وعرشه آخر الأمر وصار طريداً مطارداً لا يعرف ماذا لا يعرف ماذا تخبئه الأيام.

نهاية جنكيزخان:

عزم جنكيزخان على العودة إلى منغوليا في ربيع عام ٦٢٠هـ (١٢٢٣م)، بعد أن دمر أملاك الخوارزميين وحطم كل محاولة فيها، وجعل البلاد الإسلامية أشبه ما تكون بصحراء جرداء لا زرع فيها ولا ماء، وأباد سكانها وخرب مدنها وأزال عددا منها. كذلك نجح الطاغية المغولي في تشريد السلطان علاء محمد الخوارزمشاه الذي ظل طريدا شريدا تتلقفه مدينة وتلفظه الأخرى، إلى أن مات منكسر الجناح ذليلاً في جزيرة «آبسكون» ببحر قزوين. كما طارد ابنه وخليفته جلال الدين منكبرتي حتى ألجأه إلى بلاد الهند لا يلوى على شيء يتقبل الحسنات والهبات والمواساة. وأصدر جنكيزخان قرارا - قبل أن يبدأ رحلة العودة - بقتل جميع الأسرى الكثيرة العدد الذين تجمعوا في خيام المغول، حيث كانت كل خيمة تضم حوالي عشرين أو ثلاثين أسيراً من الحرفيين والفنانين وكبار الشخصيات والقادة الخوارزميين وغيرهم، فقتلا جميعاً في ليلة واحدة. إن هذه المذبحة لم يعرف لها التاريخ مثيلا حيث سالت دماء هؤلاء الأسرى على شكل نهر سريع الجريان، وأما هؤلاء كانوا من الشباب المسلم الذين أجبرهم المغول على القتال في صفوفهم، أو أصحاب الحرف والفنون أو كبار القوم وعليتهم.

وسارت الجيوش المغولية في طريق التبت أولا، لكن الخاقان أدرك مدى الصعاب التي ستواجهه أثناء عبور الأقاليم الجبلية الوعرة المغطاة بالثلوج، فعاد إلى

بشاور وآثر أن يسلك الطريق الذى سلكه عند قدومه إلى إيران. ولما وصل إلى مدينة بلغ أمر بقتل جميع السكان الذين عادوا وسكنوا المدينة، ثم عبر نهر جيحون فوصل إلى مدينة بخارى ومنها إلى سمرقند حاضرة بلاد ما وراء النهر، فلما وصل إليها خرج كبار رجال الدين فيها لاستقباله، ولما مثلوا بين يديه طلب الدعاء له فى الخطبة، ثم أمر بإعفائهم من الضريبة التى كانوا يدفعونها. وفى سمرقند طلب جنكيزخان أبناءه جميعاً ليكونوا إلى جانبه حينما يرحل إلى منغوليا.

وقضى جنكيزخان شتاء عام ٦٢٠هـ (١٢٢٣هـ) فى سمرقند وضواحيها، ولما حل الربيع بدأ فى السير، والتقى بولديه جغتاى وأوكتاى، والأخير كان فى قافلته أسيرة ملكية هى تركان خاتون أم السلطان علاء الدين محمد وجدة السلطان جلال الدين منكبرتى. وقضى جنكيزخان السنة التالية ٦٢١هـ فى الطريق إلى موطنه الأصلى. وفى هذه الفترة تقابل مع حفيديه قوبيلاى وهولاكو، وكان الأول فى الحادية عشرة من عمره، والثانى كان فى التاسعة. وأخيراً وصل جنكيزخان إلى قره قورم سنة ٦٢٢هـ (١٢٢٥م)، وشرع فى محاربة أعدائه القدامى من القبائل المغولية والتركية وخاصة قبائل التانجوت، كما أعلن الحرب على إمبراطورية سونج الصينية، واشترك جنكيزخان فى هذه الحرب بنفسه، لكنه مات فى سنة ٦٢٤هـ (١٢٢٧م)، ولم تكن الحرب قد انتهت بعد، أثر مرض لزمه نتيجة لرداءة الجو على شاطئ نهر السند أثناء مطاردته للسلطان الخوارزمى جلال الدين منكبرتى، وله من العمر اثنان وسبعون عاما.

***

الفصل الخامس
دولة تيمورلنك فى آسيا الوسطى

أوضاع ما وراء النهر وقت ظهور الأمير تيمور

فى تقسيم البلاد التى استولى عليها جنكيز، صارت بلاد القراخطائيين السابقة وما وراء النهر نصيب ابنه جغتاى، ولم يعص جغتاى اوكتاى وقت خانيته للمغول رغم أنه الأكبر سنابل كان يصدق على خانيه اوكتاى عليه وعلى بلاده وكان يدير بلاده بعون من واحد رؤساء قبيلة البرلاس وهو قراجار نويان ويصل مؤرخو تيمور نسب هذا الفاتح إلى الأمير قراجار نويان البلاسى من ناحية الأب ويعتبرون قراجار الجد الخامس لتمور.

حكم أولاد جغتاى الذين تسمى بالخانات الجغتائيين أو حكام البلاد (اولوس) الجغتائة مدة سنة وثلاثين ومائة عام (من٦٢٤ حتى ٧٦٠هـ/ م) على بلاد ما وراء النهر وقسم من خوارزم وكاشغر وكانت عدتهم نحو الثلاثين وكان من بينهم خانات من أولاد اوكتاى تصادف حكمهم للبلاد الجغتائية وليس لهم ذكر خاص فى تاريخ إيران اللهم إلا بضعة نفر منهم هاجموا إيران فى أيام الايلخانات عن طريق الدربند أو خراسان مثل براق أول خان للبلاد الجغتائية آثر الإسلام دينا لكن رعاياه لم تحبذ عمله هذا فعادت أكثريتهم لديانتها بعد موته.

ودخل الإسلام أحد خلفاء براق وهو (ترمشيرين) (٧٢٢ - ٧٢٧هـ/ م) أكثر الرعايا الجغتائية الإسلام، وأصبح الإسلام من هذا الوقت الدين الرسمى لخانات ما وراء النهر ومغولها.

وفى أوائل النصف الأول للقرن الثامن أصاب خانات الجغتائيين الوهن والضعف وتحكم منهم أحد رؤساء قبيلة البرلاس واسمه الأمير قزغن وكان الأمير (قزغن) هذا يولى ويعزل من يشاء من خانات الجغتائيين وكان لابنه الأمير عبد الله من بعده نفس النفوذ والمنصب إلى أن تمكن من قتل الأمير (حاجى برلاس) من أحفاد (قرجار نويان) والأمير (بيان سلدوز) يعاونه الخان تحت حمايته واستحوذا

على الأمر لكنهما لم يستطيعا إدارة الأمور كما ينبغي فصارت ما وراء النهر رهن الهرج والمرج وثارت الثورات والقلاقل.

وقد حرض وصول أبناء ثورات ما وراء النهر إلى كاشغر حيث كانت شعبه أخرى من خانات البلاد الجغتائية تباشر أمور الحكم (تغلق تيمور) حاكمها وكان من أحفاده (براق خان) على غزو ما وراء النهر وهاجمها تغلق تيمور أحداهما فى عام (٧٦١هـ/ م) والأخرى فى (٧٦٣هـ/ م) وقتل فى المرة الثانية الأمير بيان سلدوز وسيطر على بلاد ما وراء النهر وأناب ابنه الياس خواجة فى إدارة أمورها، فظل يحكمها حتى (٧٦٥هـ/ م) حين طرده عنها (تيمور الكوركانى) والأمير حسين حفيد الأمير قزغن.

أصل تيمور ونسبه:

تيمور ولد الأمير ترغاى أوكوغاى، وهى كلمة تركية بمعنى طير، أما تيمور فهى من تمر أو دمر التركية بمعنى الحديد وأصل المؤرخون نسبة إلى أسرة جنكيز وصحة هذا الادعاء غير معلومة حتى أن هناك شكاً فى أن الأمير (قراجار نويان البلاسى) جده الخامس. ولد تيمور فى شعبان (٧٣٦هـ/ م) اشهر فى إحدى قرى مدينة كش (مدينة سبز) الحالية جنوب سمرقند على مفترق الطرق بين هذه المدينة وبلغ وعاش أيام صباه بين قبيلة البرلاس التى كانت أقرباء لأجداده وأتقن فنون الحرب الشائعة عند القبائل الصحراوية وبين أفرادها وهى عملهم الرئيسى من رسوم الصيد والفروسية ورمى السهام حتى غدا فارسا ماهرا للسهام بطلا، وكان عالى الهمة، طموحا فلم يقنع بذلك وخطا فى طريق العلو والرئاسة.

ذكر أن جد الأمير تيمور كان يظهر كامل إخلاصه للصالحين والفقراء وظل هذا الميل لهذه الطائفة فيه وفى أسرته فكان من أول أمره يبدى الإخلاص للزهاد ومشايخ التصوف وكان يأتيهم ويطلب منهم المدد.

وحياة الأمير الأولى غير معروفة على وجه الدقة، وما يقرب إلى اليقين أنه لم يحدث فى هذه الفترة المبكرة من حياته شىء ذو بال لأنه كان ذا ذاك مغموراً ويحيا حياة أفراد قبيلته العادية لكى يهتم بإثباتها مؤرخ، وإنما بدأت أحداثه التاريخية فى الذكر عام (٧٦١هـ/ م).

ففى عـام (٧٦٢هـ/ م) حينما قام تغـلق خان الأول مرة بغزو مـا وراء النهر كان الأمـيـر تيمور فى خدمة الأمـير حاجى برلاس فلما هرب الأمـيـر حاجى أمام تغلق إلى خراسان كان تيمور برفقتـه أيضاً وبعد مدة وجيزة آب تيمور إلى ما وراء النهر ولحق بخدمة تغلق تيمورخان، وترك خان الكاشغر حكم مدينة كش التى كان رؤساء البرلاس يتـوارثونه إلى تيمور وحينما عـاد تغلق تيمور إلى كاشغـر استقل بحكمه وبعد قليل بسط سلطانه على أغلب بلاد ما وراء النهر.

وفى هذه الأيام استـعان الأمـيـر حسين القزغنـى بجماعة من أمـراء ما وراء النهر الأقـوياء فهزم الأمـيـر (بيان سلدوز) وكان ينقم علـيه قتله عمـه الذى أصابه الحزن فانهـزم بيان إلى بدخشان فـاختارت هذه الجمـاعة من الأمراء الأمـيـر حسينا لإمارة ما وراء النهر ونصبب كل منهم على حكم ناحية منها تحت إمرته واستقر من ضمنتهم الأمير على حكم كش مقر أجداده وفى هذا الحين زوج الأمير أخته بتيمور مؤثره لمصاهرته فسمى تيمور كوركان أى تيمور الصهر.

وبما أن أوضاع مـا وراء النهر أقـترنت بعدم الأمن وكـان الأمراء المتـمردون دائمى الخلافات أحدهم مع الآخر غزا (تغلق تيمورخان) هذه البلاد مرة أخرى فى (٧٦٣هـ/ م) وقتل الأمير بـيان وجعل الأمير حسين يفـر وترك حكم ما وراء النهر إلى ابنه إلياس خواجة وبقى تيمور على حال حكمه لكش.

وبعد فترة تحالف الأمير تيمور حـسين المتوارى بقصد الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر متـعللاً بمظالم التابعين لإلياس خواجـة وهاجم خوارزم لكنه غلب على أمره فركن إلى الفرار إلى خـراسان وبعد أن أسره التركمـان ساكنوا ابيورد وعودته إلى سمرقند وحياته متخفياً بها عـاد أخيراً إلى خراسان وانضم ومعه الأمير حسين إلى خدمة الملك معز الدين حسين كرت.

ولما طلب تغلق تيمور إلى معز الدين كـرت تسليمه هذين الأميرين هربا إلى قندهار زمناً ومنها إلى سيستان فاحتال واليها وهاجمهما وأثناء قتالهما أصيب تيمور بعدة طعنات منا فى عقب قـدمه وكتفه اليـمنى وفقد الإصبعين الآخـرين من كفه الأيمن وأصيبت قدمه اليمنى بضربة ألم ترجعها بعد ذلك إلى حالتها الطبيعية فكان يمشى طوال عمره عارجاً فسمى لذلك بتيمور الأعرج (لنك).

وبعد أن التأمت جراح تيمور أخذ هذا الأمير وحسين القزغنى بعد أن جمعا الجنود والأتباع بلاد ترمد وبلخ وبدخشان وكش من أيدى عمال إلياس خواجة، وتقوى قلباهما بعد أن تناهت إليهما أنباء موت تغلق تيمور وعزم إلياس خواجة ابنه على العودة إلى كاشغر فهاجما الأخير وهزماه وسيطر على ما وراء النهر. ومع أن إلياس انتقم منهما لهذه الهزيمة فى (٧٦٥هـ/ م) واجبروهما على الفرار إلى بلخ إلا أنهما عادا فى (٧٦٦هـ/ م) فاستوليا على ما وراء النهر وقطعت يد الأتراك الجغتائيين تماماً عن هذه البلاد.

وبعد الاستيلاء الأخير على ما وراء النهر وقع الخلاف بين الأمير حسين وتيمور ووافى زوجة تيمور وأخت الأمير حسين فى ذياك التاريخ أجلها فأنبتت قرابة النسب بينهما فأعلن تيمور مناهضته لحسين وجرد جنده يهاجمه فخانه بعضهم مما أجبره على الفرار إلى ابيورد وظل الصراع بين الأميرين قائماً حتى (٧٦٩هـ/ م) إلى أطمأن بعض علماء طقشقند وخجنده للأمير فاصطلحا. ولم يدم هذا الصلح إذ بدأ أحدهما يسيء الظن بالآخر حتى سلم الأمير حسين تماماً إلى تيمور فتخلى عن الرئاسة والقيادة بشرط الإبقاء على حياته فتظاهر تيمور بتأمينه وانفض أمراؤه في أطراف بلخ فى أوائل رمضان من ذلك العام على حسين ولديه فأهلكوهم وصارت ما وراء النهر تحت سيطرة تيمور بلا منازع. ودخل تيمور فى الثانى عشر من رمضان سمرقند (٧٧١هـ/ م) وكون مجلس شورى من الأمراء والكبار والعلماء، ومع أنه لم يلقب بالسلطان ولقب أحد أمراء البلاد الجغتائية وهو (سيور غتمش) بالسلطان لكن رمضان (٧٧١هـ/ م) يعد بداية استقلال الأمير تيمور.

غزو خوارزم (٧٧٢هـ - ٧٨١هـ/م):

كانت خوارزم فى تقسيم البلاد الجنكيزية نصيب جوجي وخلفه عليها أولاده واستولى الحكام الجغتائيون عليها بعد ذلك وضموها إلى أملاكهم.

ووقت استقلال تيمور وجلوس سيور غتمش خان استولى من يسمى حسين الصوفى من قبيلة القنفرات على خوارزم. فأرسل تيمور له ليترك هذا البلد التابع لديوان الحكام الجغتائيين إلى وارثهم سيور غتمش فلم يقبل الصوفى فاضطر إلى مهاجمة خوارزم.

وغزا تيمور خوارزم أربع مرات بين عامى (٧٧٣هـ) و(٧٨١هـ) وغلب فى الأولى حسين على أمره ومات حسرة فترك تيمور حكماً إلى ابن حسين فعصى الابن بعد مدة وقدم إليه وادخله طاعته. والمرة الثالثة وقعت (٧٧٧هـ) والرابعة (٧٨٠هـ) وفى الأخيرة أخذ تيمور خوارزم بعد حصار ثلاثة أشهر ونصف أوائل (٧٨١هـ) وخربها ثم ضمها إلى بلاده.

غزا أرض المغول وصحراء القبجاق فى (٧٧٦هـ - ٧٩هـ):

غزا تيمور بين غزواته لخوارزم شرق ما وراء النهر وشمالها الشرقى أى كاشغر وأرض المغول وصحراء القبجاق مراراً فلما مات تغلق تيمور تسلط أحد أمرائه الأقوياء وهو قمر الدين دوغلات على الأمور واستبد بالحكم فى كاشغر فأفاد تيمور من هذا وأخذ يغير من (٧٧٦هـ) حتى (٧٧٩هـ) على جنود قمر الدين وملكه كلما أمن جانب خوارزم وهزم قمر الدين بضع مرات وألجأه إلى الصحراء القبجاق. وفى (٧٨٧هـ) سيطر على صحراء القبجاء أى المنطقة بين سيحون وبحيرة خوارزم وبحر الخزر وأناب عليها أميراً من أسرة باتو اسمه (توقتمش) وعاد إلى سمرقند.

غزوات تيمور على خراسان فى (٧٨٢ - ٣) و(٧٨٤ - ٥هـ):

ولما مات الملك معز الدين كرات الذى كان على مودة دائمة وصفاء تيمور غير ابنه غياث الدين بير على سيرة ولم يحضر مجلس الشورى الذى عقده تيمور فى رمضان (٧٧١هـ) بسمرقند. وفى (٧٧٨هـ) أرسل تيمور إلى غياث الدين بينما كان يغزر خوارزم ليذكره بالمودة القديمة بينه وبين ابنه، فاستقبل غياث الدين رسوله هذه المرة بترحاب واحكم تيمور أساس المودة بين الأسرتين بتزويج غياث الدين ابنة أخته.

وفى (٧٨٢هـ) اضطربت أوضاع خراسان على نحو ما رأينا فى تاريخ السربداريين شديد الاضطراب وأخذ شاه شجاع وشاه منصور والأمير ولى وغياث الدين والخواجة على بالمؤيد فى الكر والفر فى هذا البلد، فاهتبل تيمور هذه الفرصة لضمه، ولما أطمأن قلبه من ناحية خوارزم نهائياً سير أول صيف (٧٨٢هـ) ابنه ميرن أنشأه ذا الأربع عشرة سنة بعده من كبار أمرائه إلى خراسان ولحق بهم

وبعد أن غلبوا جنود غياث الدين كرت فى نيشابور توجه إلى هراة عن طريق خواف. وبدأ فى منتصف ذى الحجة بحصار فوشبخ (غوريان الحالية) ففتحها ثم فتح هراة أيضاً بعد حصار دام أربعة أيام وأسر غياث الدين وعفا عنه وبعد اغتنامه خزائن ملوك الكرت أتى إلى نيشابور وسبزوار. وفى هذا المكان أتى على المؤيد السبدارى خدمة تيمور وقدم الأمير ولى المستولى على جرجان فى تلك الأيام إليه مطيعاً أيضاً فعاد إلى بخارى وبهذا انتهت الغزوة الأولى له لخراسان.

وبينما كان الأمير تيمور فى مصيفه على حدود بخارى أتاه أتباع لعلى السربدارى وأخبروه أن الأمير ولى ورئيس التركمان فى ابيورد ونسا مع قبولهم طاعته اتفقوا على مهاجمة سبزوار فنهض تيمور فى آخر شتاء (٧٨٤هـ) لعون على السربدارى إلى خراسان وغالف قلعة كلات معقل رئيس التركمان وفتحها ثم ألحق بها قلعة ترشيز التى استولى أحد عمال بنى كرت عاصياً بناء على طلب غياث الدين الذى كان فى ركب تيمور، وفى هذا المكان وصل كتاب من شاه شجاع فحواه إيداع أولاده إليه فأجابه تيمور جواباً مطمئناً.

وارتحل تيمور من ترشيز إلى مازندارن فطلب الأمير ولى الأمان منه فعاد إلى خراسان واحتفظ بغياث الدين وأخيه وابنه من ذلك المكان حبيسين أمام ناظريه فلم يسمح لهم بالعودة إلى هراة، واصطحبهم معه إلى سمرقند وأناب فى هراة عمالاً من قبله.

وفى (٧٨٥هـ) تمر أهل هراة على نواب تيمور فبعث بابنه ميرانشاة من خراسان لقتالهم وجاء بنفسه فى عقبه وأعمل التيموريون الذبح فى الهراتين وأقاموا من جماجمهم منارات. وعند سماع تيمور بثورة أهل هراء أخذ الغضب منه مبلغاً حتى أنه أمر بقتل غياث الدين وأخيه وابنه فى سمرقند وفى خريف (٧٨٥هـ) قصد هراة وأقام يقتل فى أهلها ثانية ويصادر أموال هؤلاء المساكين وبعد أن سكن نار غضبه سلمت له سيستان وبست أيضاً حتى حدود سيستان فعاد إلى سمرقند.

الاستيلاء على مازندان واستراباد فى (٧٨٦ - ٧٨٧هـ):

كانت مازندان حتى عام (٧٥٠هـ) فى يد طبقة من ملوك باوند من الأمراء القدامى الإيرانيين وفى هذا الوقت أردى شخص اسمه (أفراسياب التشلاوى) آخر أمير لهم قتيلاً وجعل من نفسه حاكماً له.

وفى أيام ظهور افراسياب التشلاوى كان أحد السادات الحسينيين وهو السيد قوام الدين المرعشى (من أولاد السيد على مرعش من أحفاد الإمام على زين العابدين) موضع احترام الناس التام فى مازندان، ودخل أفراسياب هذا ضمن مريديه حلقته لعله يزيل من أذهان الناس قبيح فعله بقتل آخر ملك باوندى.

ولم يدم اتصال أفراسياب بقوام الدين لأنه بعد قليل ألقى به فى الحبس ولما أطلق سراحه زاد مريدو الشيخ عن ذى قبل. وفى النهاية هلك أفراسياب فى الحرب التى ثارت بينه وبين قوام الدين فى (٧٦٠هـ وصار قواد الدين حاكم مازندان وأسس أسرة تسمى بالسادات العلوية القوامية. وقد طوع قوام الدين بيد اولاده من عام (٧٦٠هـ حتى (٧٨١هـ) سنة وفاته شطراً هاماً من جيلان وفيروزكوه وكلارستاق ونور وكجور حتى هزار جريب وقزوين.

كان لقوام الدين أربعة عشراً ولداً ولما مات هاجم ابنه الأكبر السيد كمال الدين وخليفته استراباد وجرجان وهما ملك الأمير ولى غلب الأخير فى (٧٨٢هـ) وهزمه إلى خراسان.

وفى الغزوة الثانية لتيمور فى خراسان زين ابن أفراسياب التشلاوى لتيمور فتح مازندان انتقاماً لدم أبيه، وكان تيمور مستاء أيضاً من الأمير ولى فزحف إلى خراسان من بلاد ما وراء النهر للقضاء عليه والسادات القومية فى (٧٨٦هـ) وأتى منها كبودجامه (فيما حول أشرف أو بشهور الحالية). وغلب تيمور الأمير ولياً فى أحارش كبودجامه - وتعقبه فى الرأى. وفى ربيع (٧٨٦هـ) بلغ السلطانية لضمها وكانت لابن السلطان أحمد الجلايرى، وفى أواخر السنة استحوذ على قلعتها. وفى بدايات (٧٨٧هـ) تحرك تيمور إلى آمل وسارى فقدم كمال الدين مطيعاً إليه فأبقى مازندان لأولاده قوام الدين وعاد إلى سمرقند.

هجوم السنين الثلاث (٧٨٨ - ٧٩٠هـ):

لاذ الأمير ولى بعد هجوم جرجاى والرى بالفرار إلى أذربيجان ودخل طاعة السلطان أحمد جلاير، وبعد فترة أتى من طرفة إلى عادل آقا حاكم السلطانية يدعوه إلى طاعة السلطان الجلايرى ويغزو خراسان بعونه، لكنه لم يخرج بشيء من مهمته هذه فعاد إلى تبريز ونصب عليها من قبل الجلايرى.

وموافق هذه الأيام حمل توقتمش خان الذى أبلغه تيمور سلطنة صحراء القبجاق فيما سبق على تبريز عن طريق الدربند فاستلصها من يد الأمير ولى نهبها وعاد إلى صحرائه بعد فرتة من التقتيل والنهب ومات السلطان أحمد أثناء ذلك.

وحثت هذه الأنباء الأمير تيمور إلى التحرك إلى إيران فعبر جيجون (٧٨٨هـ) وقضى ثلاثة أعوام يقاتل ويذبح وينهب فى الولايات بعد شاطئ النهر المواجه لإيران وقد سمى المؤخون المعاصرون هذه الغزوة التى طالت ثلاث سنين بهجوم السنين الثلاث.

وقبل بلوغ تيمور خراسان استصفى عاد آقا بعون أمراء ميرانشاه ابن تيمور وجنوده همدان وألحق بها تبريز من يد أتباع أحمد جلاير وأسر (أمير ولى فى كرمرود) وأهلكه فوصل تيمور إلى مازندان على عجل وبعد أن جدد طاعته كمال الدين القوامى وعلى السرابداريين قصد لصد الملك عز الدين اللورى (٧٥٠ - ٨٠٤هـ) وأصيب فى الهجوم الذى قام به على خرم آباد على المؤيد الأمراء السرابداريين وهلك.

ولما سمع تيمور بعد أن أسر عز الدين أن أحمد جلابر آت من بغداد إلى تبريز وجه ابنه ميرانشاه إليها ثم توجه هو نفسه إليها كذلك. وخلى السلطان أحمد تبريز وكر راجعاً إلى بغداد فتملكها تيمور بلا منازع ثم ألحق بها فى ملكيته آخر صيف (٧٨٨هـ) أرمنيه واستولى على تفليس بهجمة واحدة ودعا ملكها لقبول الإسلام وجلب شروان أيضاً تحت تبعيته بإدخال أميرها طاعته.

وفى أوائل ربيع (٧٨٩هـ) أرسل توقتمش خان ثانية يجند له إلى أران وأذربيجان، فتعقبهم ميرانشاة بأمر من أبيه إلى الدربند واستأسر منهم كثيراً، وخلع تيمور عليهم جميعاً وأعادهم إلى توقتمش وذكره عن طريقهم بسوابق فضله عليه ودعاه إلى ترك الخلاف.

وبعد فتح أذربيجان والكرج وشروان أخذ تيمور مثل بايزيد العثمانى بلاد آرمنية وأرزنة الروم وارزنجان أيضاً وبعث ميرانشاه يتعقب قرا محمد القراقويونلو رئيس تراكمة وان وبايزيد فهرب قرا محمد وفتح تيمور مدينة وان أيضاً بعد حصار سبعة وعشرين يوماً وعاد إلى آذربيجان.

وفى بداية هجوم السنين الثلاث راسل تيمور سلطان زين العابدين ولد شاه شجاع وخلفه يستدعيه إليه بموجب الوصية التى أودع بها شاه شجاع أولاده إليه، فلم يأبه زين العابدين بطلبه ولم يدع مبعوث يعود، فغضب تيمور لهذا وقدم أصفهان لتأديبه عن طريق همدان وكلبايكان. وطلب علماء أصفهان أمان تيمور وتعهدوا بأداء مال إليه.

فقبل تيمور وأرسل بعض أمرائه إلى داخل المدينة لتحصيل المال، فأنزل هؤلاء الأمراء فى جمعهم المال أذى كثيراً بأهل أصفهان ولم يرعوا فى انتهاك حرمات أهلها.

فثار الناس وقتلوا محصلى تيمور ونوابه فى جمع المال بأسوأ حال وقامت ثورة عظيمة بالمدينة. وهاجم تيمور أصفهان وقت الغروب وظل يقاتل أهلها حتى صباح اليوم التالى فلما أدخل أصدر أمره بذبح أهلها وأمر فجمع له سبعون ألف جمجمة فأقام منها هذا السفاك منارات من الجماجم بحيث أقيمت فى نصف قلعة أصفهان ثمان وعشرون منارة من ألف وخمسمائة رأس وفى النصف الآخر أقل قليلاً خلاف المنارات خارج القلعة.

وبعد واقعة أصفهان الأليمة عزم الأمير السفاك الكوركانى إلى شيراز وهرب زين العابدين المظفرى كما مر منها فزعاً وأعتصم بشوشتر لدى شاه منصور فحبسه بها. وفى أواخر (٧٨٩هـ دخل تيمور شيراز بلالأى، ولمل وصلت مسامعه أخبار عصيان توقتمش خان فى هذا الوقت قام بتقسيم البلاد المضفرية بين شاه يحى وعماد الدين أحمد أبى إسحاق حفيد شاه شجاع وعجل إلى سمرقند.

الصراع بين تيمور وتوقتمش (٧٩٠هـ):

فى أيام هجوم السنين الثلاث قصد قمر الدين دوغلات إلى توقتمش لينتقم لهزائمه السابقة فأوعز إليه أن يجعلا بلاد تيمور من الناحيتين موضع هجومها.

وهاجم قمر الدين من ناحية فرغانة وتوقتمش من جهة بخارى بلاد ما وراء النهر فى (٧٩٠هـ وثار أهل خوارزم بتحريض توقتمش على أتباع تيمور. أما قمر الدين فقد لقى الهزيمة من عمر شيخ ولد تيمور ولما سمع برجوع تيمور هرب إلى صحراء القبجان فبلغ تيمور خوارزم وقام بتخريب هذه المدينة إلى حد أنه لم يكن

فيها حائط يستراح تحت ظله وزرعوا الشعير فوق أطلالها ولم يسكنها واحد إلى عام (٧٩٠هـ) مات سيور غتمش خان الذى اختاره تيمور فى (٧٧١هـ) على سلطنة ما وراء النهر وجعل الأمير الكوركانى محمود خان ولد سيور غتمش حاكماً بعد أبيه مراعاة فيما يبدو لحقوق أولاد جغتاى.

وفى شتاء (٧٩١هـ) هاجم خان مرة أخرى ما وراء النهر لكنه هزم أيضاً من عمر شيخ وتعقبه تيمور حتى أرض المغول وصحراء القبجان وعاد إلى سمرقند بعد غزو وقتال فيهما وتحرك فى منتصف صفر (٧٩٣هـ) إلى صحراء القبجاق بعد الاستعداد لهجوم قاطع وفى الخامس عشر من رجب لنفس العام أنزل على شاطئ اتل (الفولجا) الأيسر بتوقتمش هزيمة فادحة وعاد إلى عاصمته بغنائم وأسرى كثيرين.

هجوم السنين الخمس (٧٩٤ - ٧٩٨هـ): ولما عاد تيمور من صحراء القبجاق أناب ابنه ميرانشاه فى حكم خراسان وحفيده «بيرمحمد» فى حكم غزن نوكابل، وبعد خلاصه من مرض شديد أصابه قصد إيران فى رمضان (٧٩٤هـ) لإخماد الثورات التى شبت بها وظل يقاتل فيها خمسة أعوام وتسمى حروبه هذه بهجوم السنين الخمس. وأتى تيمور أولاً إلى جارجان ومازندان وكان السيد كمال الدين القوامى قد آثر العصيان فغلب تيمور جنده وأرسل بالسيد فى سفينة إلى خوارزم وبعد قضاء الشتاء بمازندان اتجه فى صفر (٧٩٥هـ) إلى شوشتر عن طريق الرى والسلطانية وكرهورد (سلطان أباد العراق) وفرشاه منصور المظفرى من أمامه وكان استقبل بشوشتر فى ذلك الوقت صوب شيراز فذهب تيمور فى أثره إليها.

وأورد تيمور كما مر بنا فى تاريخ شاه منصور بالأمير الشجاع المظفرى فى حرب ضروس قرب شيارز مورد الهلاك وأدرك أسرة آل المظفر وترك فارس إلى عمر شيخ وعاد إلى أصفهان. وبعد عدة أيام من إقامته بها توجه إلى أذربيجان وعراق العرب لمقاتلة السلطان أحمد جلاير وقراقويونلو.

وتمكن تيمور من قرا محمد والآق قويونلوية فهزم بشدة وفى شوال (٧٩٥هـ) تحرك تجاه بغداد.

وأخلى السلطان بغداد ولم يكن يطيق مقاومة تيمور وهرب إلى الشام ويم

تيمور إلى فتح قلعة تكريت التى صارت وقتـها عش فساد لعابرى السبيل والقوافل فتـحا بعد لأى شديـد وجعل من رؤوس المدافعين عنهـا منارات، وبعد أن أدخل طاعته واسطا والبصرة سلط طريق الجـزيرة. وفى هذا السفر أصاب سهم قاتل فى ربيع الأول (٧٩٦هـ) عمر الشيخ أثناء قدومـه لملاقاة أبيه على بعد أربعة منازل من بغداد من سـهام أهل هذا المكان، فأرسل تيـمور بابنه بير مـحمد خلفـا لأبيه إلى حكومة فارس.

وغفى هذا السـفر الذى بدأ فى ربيع الثانى (٧٩٧هـ) أنزل على ضـفاف نهر (ترك) فى شمال القفـقازنة بتوقتمش هزيمة ثانية وترك فى عـقبه ولايتى الشركس والقزاق ودخل روسيا واستولى أيضاً على مدينة (موسكو) وبعد إغارته عليها رجع إلى آذربيجان. ثم عمل على إخماد الفتن التى شبت فى غيابه فى نهاوند وسيرجان ويزد وآذربيجان إلى ميران شلاه وقصد إلى سمرقند فى شوال (٧٩٨هـ) وحول فى السنة التالية حكم خراسان وهراة كذلك إلى شاهرخ ابنة الثانى.

فتح الهند فى (٨٠١هـ):

عاد تيمور من هجوم السنين الخمس وكان أول ما فكر فيه بعد ذلك أن يزول الخطأ والفتن أى ما وراء كاشغر والصين الأصلية، لكن لا يعرف لماذا قدم على هذا الغزو فتح الهند فى هذا الآن، ووصل إلى كابل بنيـة جهاد ذلك البلد فى غرة ذى الحجة (٨٠٠هـ) وبعد قتال مع الأفغانيين فى جبال سليمان عبر وادى خيبر ثم عبر السند أوائل (٨٠١هـ).

وكان حكم السند والبنجاب فى هذا الحين للسلطان محمود الثانى من ملوك التغليقين أو أسرة أبناء محمد تغلق وكان مقره مدينة دلهى.

لما عبر تيمور نهر السند بدأ بحصـار قلعة (بطنيرؤ) من قلاع البنجاب الهامة وبعد ستة أيام اجتـاحها فى السابع والعشرين من صفر وقـتل نحو عشرة آلاف من الهنود ثم اتخذ سبيله إلى دلهى.

وتواجه جيش تيمور والسلطان مـحمود فى السـابع من ربيع الثانى (٨٠١هـ) فى (بانى بت) على مقربة مـن دلهى، فى هذه المعركة التى كان النصر الكلى فـيها لتيمـور قتل نحو مائة ألف من أهل الهند بيد جنوده وهرب السلطان مـحمود إلى

دلهى ودخلها تيمور فى العاشر من ذلك الشهر وأخذ جنوده ينهبون المدينة ومكثوا بها خمسة عشرة يوماً. وحين بلغ تيمور أنباء ثورات نشبت بإيران عجل يترك دلهى فقسم بلاد آل تغلق بين قواده جيشه وعاد إلى سمرقند عن طريق أفغانستان.

هجوم السنوات السبع (٨٠٢ - ٨٠٨هـ):

حينما انقلب تيمور إلى سمرقند أنبئ أن ابنه سقط من على جواده فأصيب بارتجاج شديد فى مخه فصار يصدر عنه أمور شاذة ولهذا سلك الرعايا المغلوبون فى الكرج وأذربيجان والعراق طريق العصيان، فتأهب تيمور بحملة جديدة على إيران وبلادها الغربية وزحف إليها. وغزواته هذه التى تسمى بهجوم السبع سنوات هى آخر حروب له.

وكانت الخطوة الأولى فى هجوم الأعوام السبعة وصوله إلى تبريز وبعد تنبيه وبعد تنبيه حاشية ميرانشاه وندمائه وتنظيم أوضاعها قصد الكرج لقتال أهلها الذين استفادوا من الظروف التى جهدت فهاجموا أذربيجان. وبعد أن أوقف الكرجيين على حدودهم وهاجم بلادهم أخبر من آذربيجان أن السلطان العثمانى (بايزيد خان الأول) (٧٩٢ - ٨٠٨هـ) طلب من والى هذه البلاد المال والخراج. وتبادل الجانبان مراسلات يهدد فيها كل منهما الآخر وانتهت بتقديم تيمور أوائل المحرم (٨٠٣هـ) إلى سيواس من بلاد الروم، وبعد حصار عشرة أيام عصف بها واستولى على مدينة ملطية والسواحل الجنوبية للبحر الأسود أيضاً وترك هذه البلاد لجد التركمان الاق قويونلو عثمان البايندرى وعرج على الشام.

فى (٧٩٥هـ) أثناء هجوم السنوات الخمس حينما كان تيمور فى إيران وجه سفيراً من لدنه إلى سلطان مصر الملك الظاهر برقوق من المماليك البرجية يظهر له مودته، فاردى الملك الظاهر مبعوث تيمور قتيلاً واستأثر حارس أحد قلاع أرمينية عن عريق قرا يوسف بن قرا محمد وأتى به إلى مصر وألقاه بالسجن.

فلما فتح تيمور ملطية أرسل آل يولد وخلف الملك الظاهر الملك الناصر فرج (٨٠١ - ٨٠٨هـ) رسلاً يطلبون إطلاق سراح قائد القلعة المحبوس، فلم يبال الملك الناصر بدعوة تيمور كما فعل أبوه من قبل بل وأودع رسله السجن، فلما بلغ تيمور هذا الخبر ركبه الغضب حتى أنه عد الحملة على الشام ومصر أهم من تعقب

السلطان العثمانی، فتقدم من الجزيرة إلى حلب مباشرة وفی التاسع من ربيع الأول (٨٠٣هـ) بلغ قمة هذه المدينة وفتحها فی الحادی عشر منه وأغار على المدينة ونهبها وسلط طريق دمشق بعد مكث خمسة عشر يوماً.

وكانت دمشق إذ ذاك مركز معسكر الملك الناصر وبلغ هذا السلطان بجيش كثيف من مصر دمشق بطلب أهل الشام. ولم يكن بالند للأمير تيمور فبعد حرب قصيرة هرب من الشام آل يمصر فسلم أهل دمشق لتيمور خوفاً من الذبح، فأمنهم تيمور وبعد قليل أمر بنهب دمشق مركز النفائس وسوق الثروة والأمتعة القيمة متذرعاً بأسباب غير وجيهة فقامت فيها فتنة عظمى أصاب فی نتيجتها هذه المدينة الجميلة وأهلها ضربات شديدة.

وبعد فتح الشام عاد تيمور إلى العراق ليقتلع جذور فساد السلطان أحمد جلاير الذی لم ينغلب إليه تماماً وكان دائم الظلم والجور لرعاياه وليضم عاصمته بغداد إلى بلاده.

فی أيام انشغال تيمور فی الهند وغزواته فی بلاد الكرج وسيواس والشام وفق أحمد جلاری بمؤازرة قرا يوسف التركمانی فی أن يستعيد الجزيرة وبغداد لكنه كان كثير الظلم فطرده رعاياه عن بغداد فارتحل السلطان أحمد إلى الموصل وعاش بها مع قر يوسف نحن حماية السلطان العثمانی بايزيدخان.

هاجم تيمور بغداد مع مقاومة واليها الشديدة فی السابع والعشرين من ذی القعدة (٨٠٣هـ) وأمر انتقاماً لقتل بضعة نفر من قواده كانوا قد قتلوا أثناء حصارها بأعمال الذبح فيها إذ جعل كل جندی فی جيشه البالغ عشرين ألفاً يضرب عنق بغدادی ويعطيها إليه ففعلوا كما أمر وفی هذه الواقعة خرب كثير من الأبنية والمدارس والمساجد ببغداد.

ولما فرغ تيمور من فتح بغداد وسائر بلاد العراق شد رحاله إلى قرا باغ لتمضية الشتاء بها وهناك هيأ أموره للحملة على بلاد الروم وقتال بايزيدخان.

حرب أنكورية فی التاسع عشر من ذی الحجة (٨٠٤هـ):

بعد أن أعاد تيمور من العراق هاجم قرا يوسف التركمانی بغداد لكنه هزم من أبی بكر حفيد تيمور ووالی العراق فلاذ بالسلطان بايزيدخان وحرض السلطان على إيذاء الأمراء الأناضوليين الذين رضوا بحماية تيمور وتبعيتهم له. ولم يلق

السلطان بايزيدا فكراً لتقوية جيشه ولا بالا لمنع تيمور لإغتراره بفتوحاته السابقة فى الأناضول مع هزيمته فى سيواس والفرصة التى لاحت له عندما كان تيمور منشغلاً بحروب الشام والعراق، وكان منهمكاً فى الصيد والقنص حتى قبل المعركة بثلاثة أيام ولما انتوى الإسراع لصد تيمور هلك من جنوده نحو خمسة آلاف عطشاً نتيجة ما دبره تيمور إذ قطع عليهم طريق الماء.

وشبت الحرب فى التاسع من ذى الحجة (٨٠٤هـ) جنوب غربى مدينة أنكورية أو أنقرة (عاصمة تركيا الحالية) ودامت من الصباح حتى المساء فى حرارة الصيف، وأجبر السلطان بايزيد على الفرار مع استبساله فى المقاومة بسبب القيظ وهلاك جميع جيشه لكنه وقع فى الأسر فتلقاه تيمور بالاحترام واحتفظ به وظل السلطان فى جيش تيمور إلى أن وافاه أجله فى شعبان (٨٠٥هـ).

وبعد فتح الولايات الأناضول وصل تيمور حتى أزمير وشاطئ البحر المتوسط وهناك أتاه مبعوث الملك الناصر فرج الذى حل به الفرع لفتوحات تيمور وأظهر له تبعية ملكه للأمير صاحب العراق وقبل الملك الناصر من هذا الوقت أن يخطب لتيمور ويسك عملته باسمه.

وعاد الأمير تيمور بعد هذه الانتصارات إلى قرا باغ وبعد تمضية الشتاء فيها توجه إلى مازندران فحطم ثوارها وفى المحرم من (٨٠٧هـ) بعد سبعة أعوام عاد أدراجه إلى سمرقند.

وفى (٨٠٥هـ) أى فى الهجوم على بلاد الروم مات السلطان محمود خان بن سيور غتمش آخر بقية الحكام الجغتائيين والذى رفعه تيمور قبل ذلك إلى السلطة وكان يجالد بسيفه - أى تيمور - باسمه فى الظاهر أو قتل فى رواية أخرى بأمر تيمور. ولم يختر تيمور خانا فى محله وأمر أن تجرى الخطبة والسكة باسمه، ومن هذا الأوان أصاب تيمور فى الحقيقة مقام السلطنة.

موت تيمور فى السابع عشر من شعبان (٨٠٧هـ):

ولما عاد تيمور إلى سمرقند زوج بضعة نفر من أحفاده واحتفل سروراً بهذا الأمر وبالفتوحات التى صارت من نصيبه احتفالات طويلة وتأهب لمهاجمة الصين والتى كان فكرة فتحها تراوده قبل غزوة الهند.

وبعد إعداد مائتى ألف شخص ومثلهم فرسان زحف تيمور ومعه بضعة من قواده وأحفاده فى الثالث والعشرين من جمادى الأولى (٨٠٧هـ) صوب شاطئ سيحون. واتفق إن كان الشتاء فى ذلك العام شديد البرودة حين قام تيمور بقليل من مرض ألم به، فأصيب بالبرد فى (أترا) (فاراب القديمة) على شاطئ سيحون ولما كان إفراط فى شراب العراق سقط مريضاً فى حالة خطيرة وهناك حل به المنون فى السابع عشر من شعبان (٨٠٧هـ) فى سن الحادية والسبعين ودفن بها.

مع أن الأمير تيمور أحد أعظم الفاتحين والغزاة ومن القواد المحنكين المتدبرين وليس فى هذا ريب إلا أنه يقل نظيره فى القسوة والعنف والفظاظة والدهاء. ولا تصح مقارنته بجنكيز لأن جنكيز كما نعلم فصلاً عن جمعه الصفات اللازمة لتملك البلاد وفتحها يمتاز بصفتين الأمير تيمور خلو تماماً منهما الأولى صفة إدارة البلاد المفتوحة ورعاية العدالة والقانون والنظام والترتيب والثانية خلوه من التعصب الدينى وحياده فى مسألة الأديان والمذاهب عند الرعايا المهزومين فى حين أن أعذار تيمور فى غزوة الهند ونهب دمشق كانت أعذار دينية وكان يفرق فى تذبيحه للمهزومين بين المسلم والمسيحى.

وبعث هاتان الصفتان الموجودتان فى جنكيز والمنعدمتان فى تيمور على أن تدوم دولة الأول خلاف دولة الثانى فترات بعد موت مؤسسها وأن يحفظ بلاد جنكيز البلاد الواسعة التى فتحها وامتدت من المحيط الهادى حتى البحر المتوسط فى كمال انتظام ونظام وترتيب تحت أمرهم نحو قرن فى حين أن دولة تيمور كانت كدولة نادر الأفشارى واحد من بعد تيمور ممن خلفوه أن يحافظ على هذه البلاد تحت نظام وإدارة سليمين.

قل اتساع البلاد التيمورية عن الجنكيزية بقليل لأنه إذا كان تيمور قد زاد عن بلاد جنكيز ضمه لبلاد الهند وجزءاً من روسية لكنه لعدم تمكنه من فتح الصين لم يصل اتساع ملكه إلى درجة وسعة البلاد الجنكيزية.

ولم يدع استبداد تيمور بالأمر وعدم اعتنائه بالأمور العادية لبلاده أن يبرز فى عهده وزراء عظام كأيام السلاجقة والايلخانات. أما من شغلوا فى أيام تيمور الوزارة والأعمال الديوانية الأخرى فقد كانوا مجهولين عد أغلبهم منشئين خاصين

بهذا الأمير ولم يشاهد منهم أى نوع من الكفاءة فى إدارة البلاد وقد أهلك أغلبهم تيمور نتيجة لأقل خلاف كان يصدر منهم..

***

الفصل السادس
التركستان تحت حكم الأوزبك

التركستان فى ظل حكم الأوزبك
(٩٠٦-١٠٠٦هـ/١٥٠٠-١٥٩٧م)

تحدثنا فى الفصل السابق عن دور التيموريين الأتراك فى حكم بلاد التركستان وقبلهم كان الحديث عن المغول أتباع جنكيز خان فى حكم هذه البلاد، وكان هذا الفصل عن حكم الأزربك أيضا لنفس الإقليم محور الدراسة، ولكن نسأل سؤال من هم الأوزبك هل هم عناصر مغولية أم تركية أم مغولية تركية فإن الدراسة تقتضى إعطاء إشارة بسيطة عن سلالة هذه العناصر الجنسية وإلى أى القبائل البدوية التى عاشت فى وادى نهر جيحون تنتسب.

ونقول دون الوقوع فى تأويل لكن إثبات لدراسات سابقة وحقائق تاريخية وانتربولوجية اتفق عليها العلماء بأن الأوزبك هم سلالة مغولية تركية مختلفة فهم ليسوا عنصرا مغوليا أو تركيا خالصا، وهذا الاختلاط أو الامتزاج بين العنصرين ليس مستغربا، لا سيما العلاقات والروابط والسكنى المجاورة، أو هناك العديد من الأسباب التى جعلت الاختلاط شيئا عاديا لا سيما منذ القرن العاشر الميلادى إلى الثالث عشر عندما زحفت جحافل المغول على الديار الإسلامية ولكن الزحف المغولى والاختلاط ودخول الإسلام كان من العوامل التى أدت إلى الاختلاط وإلى ظهور عنصر الأوزبك، والقبيلة الأوزبكية فى أصولها الأولى مغولية بها شبهة تركية بالاختلاط والمصاهرة، وقد ظهرت كلمة أوزبك فى الوثائق منذ القرن الثانى عشر الميلادى ١١٥٠ م.

أما عن موطنهم الأصلى فإنه فى الغالب كان عند شواطئ نهر أورال وآسيا أولا، وبعبارة أخرى ما يعرف بأراضى القبيلة الذهبية، وهناك بعض المؤرخون يجعلون موطن الأوزبك فى مرتفعات توران التى تمتد صوب الشرق نحو بحر قزوين (الخزر) وقد لا يكون هذا صحيحا لأن الأوزبك كانوا يرعون قطعانهم إلى

الجنوب من خوارزم، إلا أنهم لم ينفذوا من ناحية الشمال الشرقى إلا أبعد من المجرى الأدنى لسيحون حتى سقوط أسرة التيموريين.

وينسب الأوزبك إلى زعيمهم أوزبك خان Uzbek Khan الذى كان زعيما للقبيلة فى عام ١٣١٣ - ١٣٤٠ م، والذى اشتهر بتحمسه لنشر تعاليم الدين الإسلامى وحرصه على تحويل كثير من قبيلته على هذا الدين، وقد نجح أوزبك على الرغم مما لقيته جهوده من مقاومة شديدة فى تركهم دين جنكيز خان الشامانية Shamanism وقد اعتق كثيرين منهم وتحويلهم إلى ذلك الدين الذى كان من أشد أتباعه ممارسة وصلابة، وإليه يرجع الفضل فى توطيد دعائمه وتثبيت أركانه فى البلاد التى كانت سلطانه، ومما يدل أيضا على نفوذ أوزبك ما نجده من القبائل الأوزبكية فى أواسط آسيا التى اشتقت اسمها من اسمه والتى لا يبعد أن تكون قد تحولت إلى الإسلام فى عهده، ويقال: أنه وضع خطة لنشر الإسلام فى كافة أرجاء روسيا ولكن هذه الخطة لم تصادف نجاحا رغم مما أظهره أوزبك من التحمس فى نشر الإسلام وتفانيه فى الإخلاص له.

وعلى هذا فإننا نجد قبائل الترك المغول التى سكنت المناطق الشرقية لبلاد القبيلة الزرقاء وهو الإقليم الواقع بين الفولجا وبحر آرال تنسب تشريفا لها، وعلى هذا نسب قوم جورجى إلى أوزبك هذا السابق الإشارة إليه فى السطور السابقة وهو تاسع الحكام فى بيت جورجى فيشتهر باسم قبيلة الأوزبك، وفى تاريخ التتار يذكر ان أوزبك كان يكافئ كل شخص ويكرمه، وقبل ظهور أوزبك هذا ظلت هذه القبائل فى منازلهم بعيدين عن مؤثرات الحضارة الإسلامية التى كانت فى بلاد ما وراء النهر على طبيعة البرابرة، ولهم عاداتهم وقد تأثروا بمؤثرات الحضارة التيمورية، وقد ذاع صيت الأوزبك فى السهول الشرقية وذاع باسمها فى تلك الجهات حتى استنجد به الأمراء التيموريون، وقد كان هؤلاء الأوزبك رغم اعتناقهم الإسلام لازالوا على عادتهم وتقاليدهم فى حين كان الأتراك عند جيحون وسيحون يقبلون بالتدريج إلى لغة إيران وآدابها وحضارتها، كان هؤلاء لا يزالون يرفلون فى جلد الماعز والخيول وما لبثوا أن أخذوا بالأساليب الحضارية وتركوا العادات الماضية. وهناك أقوال تذكر أن لفظ الأوزبك يعنى البرابرة الذين يسكنون المناطق الشمالية الشرقية، ثم تبدلوا فيما بعد وقد استخدمهم الأمراء التيموريون

(انظر الفصل السابق) وكان الأوزبك يلبون هذه المطالب، لأنهم يعودون مثقلين بالغنائم.

وأول من ذاع أسمه فى الأوزبك أبو الخير ثم بعد وفاته ظهر اسم ابنه (شيخ حيدر) سلطان الأوزبك لكن راوا فى صفيد أبى الخير (محمد شيبانى) - والذى استطاع الاستيلاء على سمرقند فى عام ٩٠٦ هـ - ١٥٠٣ م لاسيما بعد أن أصبح على رأس قوة من الأوزبك ومن ثم اضطر إلى محاربة التيموريين فى بلاد ما وراء النهر واستطاعوا الاستقرار فى الحدود الشمالية الغربية من بلاد ما وراء النهر وفى تلك المناطق شعر الأوزبك أنهم ينزلون فى بلاد ليست غريبة عليهم وقد تم لهم السيطرة على مدن (أترار، سراه) وكانت هذه البلاد بداية تكوين الدولة الأوزبكية وكان قد اتجه إلى سمرقند عام ٩٠٥ هـ - ١٤٩٩ م، واستمر فى التقدم فى الأقاليم حتى اضطر إلى العودة من حيث أتى، لكنه غامر مرة أخرى عام ٩٠٦هـ، بالزحف على سمرقند فى جيش كبير العدد ومعه زعماء كبار القواد.

وقاومت العاصمة الحصار الذى فرضه محمد شيبانى لثمانية شهور وكان فى إمكانها أن تصد الأوزبك لولا المجاعة التى نزلت بها، وقد دخل المدينة شيبانى من أحد جوانبها فى هدوء، وقد أذهل دخوله أهل المدينة فاستسلمت وكان ذلك فى خريف عام ٩٠٦ هـ - ١٥٠٠ م، وهكذا سقطت سمرقند وسقط معها سلطان الدولة التيمورية وانقض الأوزبك على المدينة، لكن سكانها كانوا قد غادروها وعامل (محمد شيبانى) سكان الدولة التيمورية المقهورة بمنتهى القوة والشدة، لأنه كان يدرك مدى قوة أعدائه التيموريين.

وهكذا غدت بلاد ما وراء النهر كلها فى أيدى الأوزبك بعد قتالهم مع بقايا التيموريين ومن ثم وضع شيبانى خان الأوزبك هدفه نحو خراسان ثم بعد ذلك كابل وغزنه لا سيما بعد أن فشلت خطط التيموريين فى خراسان فى التوحيد فزحف شيبانى إليها فى عام ٩١١ هـ - ١٥٠٥ م، وحقق عدة انتصارات عليهم ليصبح محمد شيبانى من بعد ذلك ولا شيء يعوقه عن التقدم نحو الأقاليم الجنوبية الواقعة على الضفة اليسرى لنهر جيحون، ثم كان التحرك نحو خوارزم وكان على الأزبك أن يواجهوا التركمان واستعدوا بكل قوة لاقتحام أكبر حصون خوارزم، وحقق محمد الشيبانى العديد من الانتصارات وذلك بعد دخوله كابل

وفارس وكل بلاد الأفغان وخراسان وسبستان، وكانت هراة قد فتحت أبوابها للعدو الأوزبكى فدخلها محمد شيبانى فى الحادى عشر من المحرم عام (٩١٣ هـ - ٢٤ مايو ١٥٠٧ م).

وكان الأوزبك قد اكتسحوا كل هذه الأقاليم والبلدان فى سرعة خاطفة وأخذت حصونها تتهاوى فى أيديهم بعد أن انقضوا على الجيش التيمورى فى كل مكان كانوا يذهبون إليه، وعندما توفى محمد شيبانى عهدوا بالحكم من بعده لابنه الأكبر (محمد تيمور سلطان) وهكذا آلت الأمور فى الأقاليم الواسعة هذه إلى حفيد أبى الخير الأوزبكى، الذى عمل من جانبه إلى سجل اسمه فى تاريخ كبار قواد التاريخ كجنكيز خان وتيمور لنك.

وقد تمكن بقوة السلاح من أن يجعل له اسما عريضا فى عالم شرق الدولة الإسلامية وهكذا عهد محمد شيبانى خان إمبراطورية واسعة لأبناء محمد تيمور سلطان بعد أن طرد الأمراء التيموريين جميعا من بلاد ما وراء النهر، وهاجم الأتراك وقد صاروا جميعا فى نطاق دولة الأوزبك، وكان شيبانى خان قد بعث عام ٩١٤ هـ - ١٥٠٨ م، إلى الشاه إسماعيل الصفوى شاه فارس يهدده باحتياج بلاده إن لم يعدل المذهب الشيعى ويمسك عن حمل الناس عليه قهرا، لكن إذاء هذه الرسالة بعث إسماعيل الصفوى صاحب فارس إلى خان الأوزبك يسأله فى لطف أن يمنع جنده من التسرب إلى أراضية جنوب خراسان وكرمان ويوقف عدوانهم، فرد عليه الآخر ردا قاسيا وهكذا بدأت الحرب بين الطرفين وتقدم الشاه الصفوى خراسان ودخل مشهد واقتحم مدينة هراة حتى إذا بلغ مدينة مرو أوقف محمد شيبانى زحفه أمامها.

وكان الشاه إسماعيل الصفوى قد أهمل الرد على الأوزبك فرأى شيبانى من وجهة نظرة هذه الضعف دولة فارس فكان إصراره على التوسع وكان سنه فى ذلك الوقت قد تجاوز الحادية والستين من عمره فتوغل بجميع قوت الأوزبك من خراسان وعندما وصل إلى كرمان وجد رسول من قبل الشاة إسماعيل يحذره من التوغل جنوبا وهناك اشتد التعب بالفاتح الأوزبكى وكان إسماعيل قد أتم استعداداته لخوض غمار حرب طويلة الأجل، وكان الشاة إسماعيل قد تقدم بالفعل إلى مشهد فى جيش عظيم، وكانت هناك أحداث جسام تقع فى بلاد ما وراء النهر

وبينما توقف الأمير الأوزبكى عند مرو يدرس الموضـوع من جميع جوانبه إذ بعدوه الصفـوى يحرز انتـصارات ويطرد القوات الأوزبكيـة وينقض على مؤخـرة الجيش الأوزبكى وكان قد حـان الأوان وقتل الشيبانى الأوزبكى هو وجـميع رجاله، ولم يرجع إسماعيل الصـفوى من قتال أعداءه حتى خضعت له جـميع خراسان وصار نهر جيحـون هو الحد الفـاصل بين الأوزبك ودفن مـحمد الشـيبـانى الأوزبكى بالمدرسة التى أقامها بسمرقند عام (٩١٩ هـ - ١٥١٠ م).

وهكذا ختم نور الزعامة الدينية والاجتماعية فى هذه البلاد حيث نزل محمد شيبان السـهول الشمالية إلى الوديان الزراعية وغدت بلاد مـا وراء النهر قد عزلت تماما، وعـاد نهر جيحون مـرة أخرى الحد الفاصل بـين الثقافة الفـارسية والبيـئية التركية المغولية الأوزبكية.

التركستان بعد وفاة زعيم الأوزبك محمد الشيبانى:

بعثت هزيمـة الأوزبك على يد الفرس الصـفويين الشـيعة الآمـال فى بقايا الجيـش المغولى بالعـودة إلى تولى الحكم فى بلاد التـركـسـتـان بعد أن وقف نهـر جيحون حدا فاصلا بين أطماع الأوزبك ومطالب الصـوفيين لا سيما أن فارس قد أمدت بقـايا التيموريـين ممثلة فى باير عمر شـيخ ميزار حفـيد تيمـور لنك التركى بجيش قوى توغل به فى بـلاد ما وراء النهر حتى سقطت بخـارى ودخل سمرقند وذلك فى منتـصف عـام (٩٢٠ هـ - ١٥١١ م)، ولكن لم تمض أشـهـر قـلائل بسمـرقند حتى تمكن محمـود تيمور بن شيـبانى خان من استـرداد بخارى وإنزال هزيمة قاسـية ببقايا التيـموريين بعد أن كانوا قد تخلـصوا من الجند الفارسى الذى عاد إلى بلاده ممـا دفع (باير) بالاستنجـاد بالصفوى مـرة أخرى الذى أمـده بقوات كثـيفة العـدد واستخدم أسـلوب الإباده التامة، وإيذاء هذه المخـاطر لم يكن أمراء البيت الأوزبكى سوى طلب عقد الصلح مع الـشاة إسماعيل، لكن الصلح لم يتم طويلا لكن أمراء الأوزبك رأوا مـا يهددهم من خطر فجـمعوا جمـوعهم عند بلد (خـجد بوان) واشـتبكوا مع أعـدائهم انتـهى فى رمضـان (٩٢٠ هـ - ١٥١٤ م) بهزيمـة الفرس وحلفـائهم من بقايا التـيموريين ومـقتل قائدهـم (أمير بار أحـمد أصفهـان) وهكذا انتصر الأوزبك على لفرس وجاءت هذه المعـركة التى كان يرمى

الشاة إسماعيل بها إلى حماية خراسان، لكن الأوزبك حققوا انتصارات باهرة وتقدموا عبر ترمذ حتى بلغوا بلخ فلم تمضى إلى أشهر قليلة على انتصار (خجد بوان) حتى كان الأوزبك قد استحوذوا ثانية على كل الأقاليم التى كان جدهم الشيبانى قد كسبها ولم يعمد الأوزبك إلى ارتداد عبر جيحون حتى علموا بقدوم الشاة إليهم وإن كانت قوات الأوزبك قد اندفعت فعبرت نهر جيحون ودخلوا خراسان بعد ان تضطر الشاة الصفوى لسحب قواته لمواجهة حكام القسطنطينية العثمانيين لكن قوات الأوزبك بقيادة عبد الله حاكم بخارى استكمل استعداداته الحربية واستعدوا استعدادا لملاقاة عدوه وقام بغزو خراسان للمرة الرابعة عام (٩٣٥ هـ - ١٥٢٨ م) فى حشد انضم فيه كل أمراء الأوزبك الكبار، وعبر جيحون دفعة واحدة، وكان الأوزبك قد احرزوا الانتصار لكن الجيش الفارسى سار على نهج خطط العثمانيين إلى الاحتماء وراء العجلات الحربية، ورغم ذلك فإن الأوزبك اخترقوا خطوط عدوهم رغم تسلح الفرس بالبنادق ولعجلات الحربية ولكن قوة الفرس تمكنت من تشتيت شملهم فى حين سقط خمسون ألف من الأوزبك وعشرون ألف من الفرس.

لكن فى عام (٩٣٨ هـ - ١٥٣١ م) تقدم عبد الله الازوبكى للمرة الخامسة جنوبا إلى هراه وزحف ابنه عبد العزيز إلى مشهد لكنه هزم على يد الفرس والعثمانيين، وبذلك حانت الفرصة لحاكم الفرس (طهاسب) وبدأ يتجه شمالا بدلا من الغرب نحو إقليم خراسان الذى اغتصبه الأوزبك وهنا لك سارع الأوزبك بترك هذه الديار والعودة إلى بلادهم شمالا.

وآل حكم بلاد ما وراء النهر إلى عبد الله عام (٩٤٠ هـ - ١٥٣٣ م) ذلك لأن عمه الشيخ العجوز (كجكونجى) قد أتاه اجله عام (٩٣٧ هـ - ١٥٣٠) وخلفه ابنه أبو سعيد خان الذى مات بعد ثلاث سنوات، لكن عبد الله هذا توفى عام (٩٤٦ هـ - ١٥٣٩ م) بعد ان حكم ست سنوات فقط، كان قد شرع عام (٩٤٢ هـ - ١٥٣٥ م) وحتى وفاته فى غزوة خراسان وأنه تمكن من انتزاع هراة لكنه كانت آخر غزواته لخراسان غزوة فاشلة عام (٩٤٦ هـ - ١٥٣٩) لكنه حاول إعادة إقليم خوارزم إلى حكم بخارى وسمرقند ولكنه مات وهو يعد عدته لغزو هذه البلاد.

وبعد وفاته حدث إنقسام فى إقليم التركستان وبلاد ما وراء النهر حيث أدت وفاته المفاجئة وهو لم يبلغ السادسة والخمسين من عمره إلى إشاعة الفوضى بين الأوزبك حيث تم تقسيم عرش البلاد بين أبناء (كجكونجى) وأبناء شيبانى، لكن لم يتم لهم الاستمرار فى الحكم ذلك لأن الغالبية العظمى من أمراء الأوزبك فى بلاد ما وراء النهر كانوا قد سئموا القتال المتواصل مع الجانب الفارسى فعملوا على إقامة علاقات سليمة ميعهم وجاءوا بالسلطان عبد العزيز بن عبد الله ليكون له الحكم منذ (٩٤٨ هـ - ١٥٤١ م) بعد أن عاشت البلاد فى صراع من أجل من يكون له العرش والسلطان دام عامين (٩٤٦ - ٩٤٨ هـ)، إلا فترة عبد العزيز هذا كانت فترة قصيرة لكنها استمرت عشر سنوات (٩٤٨ - ٩٥٨ هـ / ١٥٤١ - ١٥١.م) قضاها فى أحياء السنة وبناء المساجد وتعمير المنشأت والوقوف فى وجه المذهب الشيعى للزحف شمالا فى بلاد ما وراء النهر بل أنه لم يتحرك لجنوب جيحون للتوغل فى خراسان إلا مرة واحدة حيث قام بغزو إقليم بلخ، وكانت البلاد قد انهكتها الحروب الأهلية الطويلة، والحروب مع الجانب الفارسى منذ عام (٩١٤ هـ - ٩٤٨ م) طوال أربعة وثلاثين عاما والتركيز على الجهة الجنوبية المجاورة لفارس وإهمال الإزبك لشئون الدفاع عن الدولة لاسيما المناطق الشمالية التى تعرضت لغزو القبائل البدوية التركية القادمة من فرغانه (طشغند).

وسادت البلاد حالة من الفوضى طوال ثلاث سنوات (٩٥٨ هـ - ٩٦١ م) حتى تم اتفاق أبناء البيت الأوزبكى على أن يكون حكم بلاد ما وراء النهر للأمير (برهان خان) أحد أحفاد عبد الله رغم اعتراض الغالبية العظمى من أبناء البيت الأوزبكى ومن ثم سادت الفوضى السهول الشمالية الشرقية حيث برز فى تلك المناطق أحد أبناء زعماء التيموريين يوهو (براق خان) أحد أبناء التيموريين، ومن ثم عم الخراب المناطق الواقعة بين أترار شرقا وبخارى غربا، لكن فترة حكم برهان خان حفيد عبد الله شهدت ظهور احد حفدة أبى الخير مؤسس دولة الأوزبك لكن هذه الفترة لم تشهد هدوء ذلك كأنه فى عام (٩٦٣ هـ - ١٥٥٥ م) دارت حروب بين أطراف أبناء الأوزبك واستطاع بعض الأمراء دخول بخاى، لكن فى عام (٩٧٥ هـ - ١٥٦٧ م) جاءت وفود يقودها أحد أبناء التيموريين وقاموا بغزو بلاد ما وراء النهر من جديد ويلغ هذا الزحف مدينة سمرقند، وتمكنت هذه القوات عام

(٩٨٣ هـ - ١٥٧٧ م) بقيادة (باير خان) من طرد هؤلاء وإرغامهم على الارتداد عبر سيحون بعد أن شاعت الفوضى فى صفوف جيشه، وبهذا لم تخضع فرغانه لحكم الشيبانيين الأوزبك فقط بل سقطت كاشغر وختن أما الجنوب فى بلاد ما وراء النهر فقد تعرضت لهجمات متوالية من بقايا الأسرة المغولية وعظم شأنهم عند طشقند، ومع ذلك فقد بلغ الأوزبك من القوة مع نهاية القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى لم تبلغه من قبل عهد مؤسسها الشيبانى محمد.

وكانت ضغوط الأوزبك على حدود الصوفيين الفارسيين الشرقية قد دفعتهم إلى يعقد صلح من السلطان سليمان القانونى سلطان تركيا عام (٩٦٩ هـ - ١٥٦١ م) وحدثت صراعات داخلية بين أبناء البيت الصفوى الشيعى بين الشاه عباس المعروف بالأكبر فى صراعه مع (خدانبرة) مما دفع الأوزبك للتحرك جنوبا واستيلاء على هراه بعد حصارها سبعة أشهر واشعلوا الدمار فى خراسان، لكن الشاه عباس عندما تخلص من متاعبة اليداخلية وضع هدفه فى طرد الأوزبك من الأقاليم الواقعة جنوب نهر جيحون لاسيما أن العثمانيين قد أخذوا يهددون بلاده مرة أخرى لاسيما أن العثمانيين عملوا من جانبهم على مساعدة الأوزبك فى الشرق الأقصى لانهم سنيون مثلهم كيدا فى الشيعة الفارسية.

وكانت بلاد ما وراء النهر تتعرض لانقسامات داخلية، فنجد أنه فى عام (٩٨٦ هـ - ١٥٧٨ م) كانت هناك حكومة ثنائية فى بخارى وسمرقند، وكان أول من ظهر على سطح الاحداث الأمير عبد الله ليتمكن من القضاء على روح الانقسام ويحقق النصر فى بلاد ما وراء النهر وفى شرقها وغربها وصارت له السيادة من خراسان وطبرستان، وكان طبيعيا أن يسيطر على إقليم سمرقند، ولم يكن عبد الله خان هذا الذى تحمل مسئولية توحيد أراضى الأوزبك يعارض فى الاعتراف بوجود بعض الأمراء الأوزبكيين فى السلطة فى أنحاء أخرى من البلاد، وكان قد حدث نزاع بين السلطان عبد المنعم وبعض الامراء لاسيما بعد أن حدث تحالف بين أمراء خوارزم وسلاطين إيران، وكان هذا التحالف نتيجة لسياسة العداء التى كان يتخذها الأوزبك إزاء الخوارزميين، ومن هنا فإن الاقليم الصغير الذى يقع عند حوض جيحون، الأدنى (ما وراء النهر الصغيرة) قد عانى كثيرا من الصراعات والانقسامات التى ادت به إلى الفقر الحضارى لكن قواتهم العسكرية

بقيت قادرة على صد الهجوم القادم من الشرق من بقايا المغول والصين، أو من الجنوب من الصفويين الفرس بل أنه حتى عام (٩٩٠ هـ - ١٥٨٢ م) ونحن على أبوب القرن السادس عشر الميلادى نجد أن هذه البلاد تعانى حروب مشتعلة مما جعلها تهمل شئون الحكومة الداخلية وساءت حالة أبناء بخارى وسمرقند وبلخ درة مدن إقليم التركستان التركى .

بل أنه فى عام (١٠٠٤ هـ - ١٥٩٠ م) القرن الحادى عشر الهجرى ونهاية القرن السادس عشر الميلادى كان الأوزبك لازالوا يسيطرون على مشهد جنوبا ذلك، لانهم كانوا يشعرون باستقرار الأمر لهم فى هذه المدن والإقاليم، ذلك لأنهم قاموا بالعديد من الأعمال فى تلك الفترة الزمنية التى لازالت تذكر لهم مثل خان الأوزبك فى مشهد، ولكن مع قرب نهاية القرن السادس عشر الميلادى نجد أن الحالة تعود فى بلاد ما وراء النهر لحالة من الهدوء والاستقرار ويتم تنظيم المعالم الحضارية وشاعت شهرة الاقليم وحكامه حتى وفد إليها السفراء من الصين، لكن للحقيقة فان للتقدم الحضارى والثقافى والعلمى لم يبلغ فى عهد الأوزبك (٩٠٦ - ١٠٠٦ هـ / ١٥٠٠ - ١٥٩٧ م)، ما يقرب من ماثه عام ما بلغته هذه المعالم الحضارية الإسلامية فى عهد التيموريين.

ولقد كانت الأسرة الأوزبكية هى تاسع أسرة حكمت بلاد ما وراء النهر (الطاهريين، الصفاريين، السامنيين، الغزنويين، الخوارزميين، والمغوليين الجنكيزيين، الأتراك التموريين، وبقايا المغول والصفويين ثم أخيرا الأوزبك) وإن كانت بعض المصادر تقسم تاريخ المغول والأوزبك كل منها إلى قسمين، ولكن نحن هنا نراهم أسرة واحدة فمن هنا يكون حكم الأوزبك ثامن أسرة حاكمة لهذا الاقليم بعد حكم العباسيين وهى تاسع أسرة كما ذكر ذلك أرمنيوس فاميرى فى كتابة تاريخ بخارى، لكن فترة حكم الأوزبك قد شهدت اهتمام بالغا بالعلوم الدينية الإسلامية وكانت التركية هى اللسان الغالب فى هذه البلاد طوال حكم الأوزبك وإن كانت الفارسية قوية فى الأقاليم الواقعة جنوب حوض نهر جيحون.

وكانت سقوط الأسرة الأوزبكية فى بداية القرن الحادى عشر الهجرى (١٠٠ هـ) قد وضع نهاية لفترة لم تدم أكثر من مائة عام شهدت العديد من

الصراعات والانقسامات بل والحروب الأهلية الداخلية بين أبناء الأسرة التى أسسها أبو الخير وجاء بعده ابنه محمد شيبانى ليسير على نهج أبيه فى بناء الأسرة قوية يكون لها شأن تاريخى على مسرح الأحداث فى بلاد ما وراء النهر والذى كان يحلم بأن يكون له دورا لا يقل عن دور جنكيز خان أو تيمور لنك، لاسيما أن الأسرة الأوزبكية هى عناصر مغولية تركية تأخذ من كل هذين الجنسين لتكون الأسره الأوزبكية نتيجة اختلاط ما بين جنسين، ومن ثم فإن هذه الأسرة والتى تعدد حكم أمرائها إلى الحد الذى لا نستطيع فيه المتابع لدراسة تاريخ هذه الأسرة أن يحدد الفوارق التاريخية بين حكم أى من هؤلاء الأمراء وما هو الشخص الوحيد الحاكم لهذه الاقاليم، ومن ثم فإن فتره حكم الأوزبك لبلاد ما وراء النهر لم تشهد حالة من الاستقرار مثلما حدث فى عهد السامنيين أو الخوارزميين أو التيموريين وإن كان لك لا ينكر وجود بعض المعالم الحضارية الإسلامية التى حالت أن تفضى الروم الإسلامية على هذه الأماكن التى تشكل حجر الزاوية فى الروح الإسلامية فى أواسط آسيا لاسيما أن المدن المشهورة بها مثل (بخارى، وسمرقند، ونسا، وترمذ، ونيسابور، ومرو ومشهد وغيرها) من المدن قد شهدت ظهور العديد من العلماء الذين أثروا الحياة العلمية والثقافية والحضارية واللغوية فى أنحاء العالم الإسلامى.

فالدور الذى لعبه علماء هذه المدن وأبناء التركستان، قد كان لهم دور رائع فى الفقه والحديث والتفسير والتاريخ والفلك والطب والحساب والجبر وغيرها من مختلف العلوم، ذلك لأن دور الأسرة السابقة لحكم الأوزبك قد لعبت دورا فى هذا التقدم العلمى وإن كانت فترة حكم الأوزبك لم تقدم للعالم الإسلامى شخصيات علمية مثلما ظهر فى الأسر السابقة لحكمها بلاد التركستان وبلاد ما وراء النهر.

***

الفصل السابع
الحياة الثقافية فى أسيا الوسطى
أشهر العلماء
علماء بخارى وسمرقند
الإمام البخارى رضى الله عنه (١٩٤ - ٢٥٦هـ) (٨١٠ - ٨٧٠م)

هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخارى، الجعفى ولاهامير المؤمنين فى الحديث وإمام الأئمة، صاحب (الجامع الصحيح) المعروف بصحيح البخارى، الذى اختاره من بين ستمائة ألف حديث، وهو أوثق الكتب واصحها بعد كتاب الله تعالى.

مولده وآباؤه:

ولد الإمام محمد بن إسماعيل فى (بخارى) يوم الجمعة لثلاث عشر ليلة خلت من شوال سنة ١٩٤ هـ. وكان أبوه من أهل العلم والسعة فى الرزق، مشتغلا بالتجارة وقد سمع من حماد بن زيد وابن المبارك، والإمام مالك بن انس فى للمدينة المنورة وسمع منه (والمغيرة) هو أول من أسلم من (آباء البخارى) وكان إسلامه على يد أحد مواطنية واسمه (اليمان) وهو الجد الأعلى للمحدث الحافظ (عبد الله بن محمد بن عبد الله بن جعفر بن اليمن المسندى الجعفى).

ونسب (البخارى) إلى الجعفى، مثل كثير من أهل بلاد ما وراء النهر، الذين انتسبوا إلى هذه القبيلة اليمنية، التى تنتسب إلى (جعفى بن سعد العشيرة بن مذحج ولكثرة من أسلم من الترك على يد هذه القبيلة، قال الشاعر:

وما كانت الأتراك أبناء مذحج إلا أن فى الدنيا عجيبا لمن عجب

وما ذلك إلا أن هؤلاء الاتراك، الذين أسلموا على يد هذه القبيلة اليمنية قالوا نحن أبناء لهذه القبيلة أو كالأبناء.

وقد أخرج هؤلاء الدعاة بفضل صبرهم وإخلاصهم لله - أفذاذا وعباقرة رفعوا شأن هذه الأمة، واعلوا مكانها، وخدموا الإسلام أعظم خدمة.

نشأته:

توفى والد الإمام البخارى وابنه (المبارك محمد) طفل صغير، فرعته أمه أيما رعاية، وذهبت به إلى مجالس العلماء يستمع إليهم، ويأخذ عنهم وهو طفل حدث، حتى قال الإمام (البخارى) عن نفسه: (الهمت حفظ الحديث، وأنا فى الكتاب، وعمرى عشر سنين أو أقل.

عبقريته ونبوغه المبكران:

وكان ممن يذهب إليهم، لاستماع الحديث، فى بخارى المحدث (الداخلى) وروى أن الداخلى قال يوما - فيمن يقرره للناس (روى سعفان عن أبى الزبير عن إبراهيم) فقال الغلام النجيب، الذى لم يجاوز احدى عشرة سنة آنذاك: (إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم) فظن المحدث (الداخلى) أن هذا الطفل يعبث، فانتهره لقلة أدبه مع أستاذه، فقال الغلام الألمعى (ارجع إلى الأصل،إن كان عندك) فعلم الأستاذ من لهجة الغلام الجادة أنه غير عادى فذهب مسرعا ودخل داره، يرجع إلى الأصل، فوجده كما قال (البخارى) فعاد من فوره إلى درسه، وقال للغلام: صدقت.

ويا له من درس بليغ، ما أحرانا أن نلتفت إليه: كيف يقف التلميذ الصغير للأستاذ الكبير ليقول له: أنت على خطأ، حينما يعلم أن ذلك خطأ، ثم كيف ترى الأستاذ الكبير لا يرى غضاضة فى أن يرجع إلى المراجع، ليستوثق من الحقيقة، وهو فى مجلس الصدارة والتعليم، ثم يرجع من فوره، ليخبر الناس أن هذا الغلام الصغير الذى لم يتجاوز الحادية عشرة على صواب، وأنه وهو العالم المحدث الأستاذ - على خطأ.

وهذه هى الجرأة المحمودة، وهذا هو التواضع المحمود: حيث لا يخجل الصغير أن يقول للكبير أنت على خطأ، وحيث لا يستكبر صاحب المكانة أن يطاطىء رأسه للحق، ويقول لقد أخطأت والغلام على حق.

وفى هذه السن الغضة الطرية - تلقى (البخارى) علوم الحديث من أئمته فى بلاده من أمثال: محمد بن سلام البيكندى (وبيكند مدينة تبعد عن بخارى بأربعين

كيلو متر تقريبا) وعبد الله بن محمد المسندى الجعفى (البخارى). . . . وكان شيخه محمد ابن سلام البيكندى يقول: كلما دخل على هذا الصبى تحيرت.

قال البخارى: (فلما بلغت فى سنت عشرة سنة - حفظت كتب ابن المبارك. ووكيع بن الجراح وعرفت كلام هؤلاء) (يعنى أصحاب الرأى من الفقهاء).

وفى هذه السن الغضة، عام ٢١٠ هـ/م، وهو ابن ست عشرة سنة، حج إلى بيت الله الحرام، مع أمه وأخيه (أحمد) الذى يصغر (البخارى) صاحب الترجمة.

وكان (البخارى) فى هذه الرحلة لا يدخل بلدا ألا ويسمع من حفاظها، فسمع فى (بلخ) (وهى عاصمة أقليم باكتيا فى افغانستان اليوم) من الحافظ (مكى بن إبراهيم بن عبد الله بن المثنى الأنصارى) وفى الكوفة سمع من (عبيد بن موسى العبسى) وفى (مكة المكرمة) سمع من شيخها وقارئها (عبد الله بن يزيد المقرى)، وفى بغداد من (عفان بن نافع البهرانى)، وفى (دمشق) من (أبى مسهر عبد العلى بن مسهر الغسانى)، وفى (عسقلان من (ادم بن اياس)، وفى (فلسطين) من (محمد ين يوسف بن وافد الفريانى) (والفرياب قرية من بلاد ما وراء النهر وينتسب إليها الكثير من العلماء وتقع اليوم فى شمال أفغانستان).

ومما تقدم ترى كيف استفاد الإمام (البخارى) الشاب الحدث، فى رحلته إلى الحج، استفادة عظيمة، حيث التقى بأكابر علماء الحديث، فى عصره، وأخذ عنهم واستمع إليهم، ووعته حافظته القوية، التى لا تكاد تفلت شيئا.

قال حاشد بن إسماعيل (كان البخارى يختلف معنا إلى مشايخ البصرة، وهو غلام، فلا يكتب حتى أتى على ذلك أيام فقابلناه بعد ستة عشر يوما، فقال البخارى: قد أكثرتم على، فاعرضوا على ما كتبتم، فأخرجنا، فزاد على خمسة عشر الف حديث، فقراها كلها عن ظهر قلب، حتى جعلنا نحكم كتبنا من حفظته):

وتحدث (البخارى) عن فترة شبابه - قائلا (كنت فى مجلس الفريانى (فى فلسطين) فقال الأستاذ الفريانى: حدثنا سفيان وكان شيخ الفريانى) عن أبى عروة، عن أبى الخطاب، عن أبى حمزة، فلم يعرف أحد فى المجلس من فوق سفيان،

فقلت لهم: أبو عروة هو معمر بن راشد، وأبو الخطاب هو قتادة بن دعامة، وأبو حمزة هو أنس بن مالك).

وهذه الحوادث المتتالية فى صبا الإمام (البخارى) تلقى الضوء على نبوغه البكر، وحفظه العجيب الفذ، معرفته التامة برجال السند ولذا عندما دخل (البخارى) إلى العراق (بغداد) وهو فى شبابه، تسبقه شهرته - إجتمع عشرة من علماء الحديث، وأرادوا إمتحانه، ومدى علمه، فقالوا للبخارى: سيروى كل واحد منا عشرة أحاديث: ونريد منك أن تخبرنا بها، فذكر الأول عشرة أحاديث يقلب أسانيدها، فلما انتهى نظروا إلى البخارى فقال للثانى قل ما عندك، فلما انتهى، قال للثالث: هات ما عندك، وهكذا حتى أتم العشرة أحاديثهم المائة المقلوبة الأسانيد، وقد ظن بعضهم أن (البخارى) يقول: لقد قلت يا فلان، وهو الأول، كذا وكذا، وعدد حديثه المقلوب السند، والصحيح كذا وكذا، ثم انتقل إلى الثانى والثالث حتى على المائة حديث، يعيد كل حديث قالوه، ثم يرد السند الصحيح، فعجبوا لحفظة الأحاديث المقلوبة السند، من مرة واحدة تقال له، أكثر من عجبهم من حفظه للأحاديث بأسانيدها الصحيحة.

تلاميذ البخارى:

وانتهت بعد ذلك إليه رئاسة الحديث، وأخذ عنه الجم الغفير من جهابذة العلماء، منهم الإمام (مسلم بن حجاج القشيرى) صاحب (صحيح مسلم) وهو ثان كتب الحديث الصحيحة، وهو من (نيابور) بخراسان، ونقع - اليوم - فى إيران، والإمام أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذى وهو من ترمذ فى أوزبكستان، ومنهم شيخ الإسلام أبو عبد الله محمد بن نصر وكان من أعلم الناس بالسنن، واضبطهم لها، وأذكرهم لمعانيها، وأدراهم بصحتها، كما وصفه ابن حزم، وهو من مرو عاصمة خراسان (وتقع - اليوم - فى جمهورية تركمنستان).

ومن تلاميذه: الحافظ بن على صالح (جزرة) محمد بن عمرو الأسدى، نزيل (بخارى) وشيخ ما وراء النهر فى الحديث.

ومنهم: الحافظ أبو جعفر محمد بن عبد الله بن سليمان الحضرمى الكوفى الأذرى الثقة (الدراقطنى) وغيره.

ومنهم: ابن خزيمة شيخ الإسلام أبو بكر محمد بن إسحاق السلمى الحافظ، صاحب المصنفات الكثيرة، التى تربو على مائة وأربعين كتابا.

ومن أبلغ ما يوضح مكانة (البخارى) هذه الحادثة، التى يرويها أحد تلاميذ (البخارى) يوسف بن موسى المروزى: قال: (كنت بالبصرة فى جامعها: إذ سمعت مناديا ينادى: يا أهل العلم، قدم محمد بن إسماعيل البخارى، فقاموا إليه، وكنت معهم، فرأيت رجلا شاباً ليس فى لحيته بياض، فصلى خلف الأسطوانة، فلما فرغ احدقوا به، وسألوه أن يعقد لهم مجلسا للإملاء، فسألهم أن يجلس غدا فى موضوع كذا، فلما كان الغد، حضر المحدثون والحفاظ والفقهاء والنظارة، حتى اجتمع قريب من كذا وكذا الف نفس فجلس أبو عبد الله للإملاء، فقال: يا أهل البصرة، أنا شاب سألتمونى أن أحدثكم بأحاديث عن أهل بلدكم تستفيدونها (أى لم تعلموها من قبل فتعلموها منى) فتعجب الناس وأخذ فى الإملاء، روى هذا الحديث عندكم كذا، فأما من رواية فلان فليست عندكم، وهى كذا، فاستفاد منه أئمة علماء البصرة وحفاظها، حيث أعلمهم بطرق للحديث المروى عن أهل البصرة لم يكونوا يعلمونها من قبل.

تكفى هذه لترينا سعة علم (البخارى) بالحديث ورجاله: إذ المفروض أن يكون رب الدار أدرى بشئون بيته: فجاء (البخارى الفذ) وكان أعلم منهم بمروياتهم من الحديث وهو منتهى العجب.

اشتغال البخاري وبالتأليف:

لقد اشتغل (البخارى) منذ بداية شبابه بالتأليف، فقد قال عن نفسه: (طعنت فى ثمان عشرة سنة جعلت أصنف قضايا الصحابة والتابعين وأقاويلهم). وفرغ من ذلك فى سن العشرين وقال فى الليالى المقمرة. وكل اسم فى التاريخ إلا وله عندى قصة ألا أنى كرهت أن يطول.

وكان (البخارى) يقول «لا أجئ بحديث عن الصحابة والتابعين إلا عرفت مولد أكثرهم ووفاتهم ومساكنهم، ولست أروى حديثا من حديث الصحابة والتابعين (يعنى حديثا موقوفا أو مقطوعا) إلا وله أصل أحفظه عن كتاب الله وسنة رسوله».

وقال - رحمة الله - عن نفسه: «أقمت بالمدينة بعد أن حججت سنة أكتب الحديث (وقد حج وعمره ستة عشر سنة) وأقمت بالبصرة خمس سنين مع كتبي أصنف وأحج، وأرجع من مكة إلى البصرة.

وكان (البخارى) رحمه الله - يجمع إلى قوة الحافظة، التى يندر على مدى التاريخ مثيلتها، قوة الإدراك والفهم، وبخاصة لرجال الحديث ورواته، وجمع فى ذلك الرواية والدراية كما يقولون، جمعا لم يتأت إلا للقليل من العلماء على مدى التاريخ.

الجامع الصحيح:

وأعظم مؤلفات (البخارى) هو كتابه (الجامع الصحيح) الذى أختاره من بين ستمائة ألف حديث، مدة ستة عشر سنة، وتحدث (البخارى) عن كتابه العظيم، قائلا: (ما أدخلت فيه حديثا حتى استخرت الله تعالى، وصليت ركعتين، وتيقنت صحته، وقد جعلته حجة فيما بينى وبين الله).

وعدد أحاديثه ٧٢٧٥ حديثا بما فيها المكرر أما غير المكرر فهى ٤٠٠٠ حديث فقد خروجها من ستمائة ألف حديث.

وكان يكتبه - أولا - فى المسودة، فإذا أراد تبييضه حضر إلى مدينة الرسول ﷺ، وجعل يحول تراجمه بين قبر النبى - ﷺ - ومنبره، وكان يصلى لكل ترجمة ركعتين.

وعرض (البخارى) كتاب (الجامع الصحيح) على أئمة المحدثين ن فى عصره من أمثال (على بن المدينى) و(أحمد بن حنبل) و(يحيى بن معين) فاستحسنوه، وشهدوا له بالصحة، إلا أربعة أحاديث.

وللإمام (البخارى) مجموعة أخرى من المؤلفات القيمة، نذكر منها: (الأدب المفرد) و(بر الوالدين) (كتاب الهبة) و(القراءة خلف الإمام) و(رفع اليدين فى الصلاة) و(التاريخ الكبير والأوسط) و(كتاب الكنى) و(كتاب الفوائد) و(خلق أفعال العباد) وكتاب الضعفاء وقضايا الصحابة والتابعين.

وبعض هذه الكتب مفقود - للأسف الشديد - منذ أزمنة متطاولة.

وفاة البخاري:

وعاد (البخاري) أواخر أيامه إلى بلدته (بخارى) وتعصب ضده مجموعة من الحاقدين عليه وأثاروا الغوغاء، فأخرجوه من بلدته، فسار إلى (خرتنك) إحدى قرى (سمرقند) وأقام بها قليلا، ثم توفاه الله، بعد أن قدم للإسلام والمسلمين خدمة عظيمة جليلة القدر، بكتبه، وعلمه وتدريسه، فى كافة المدن الإسلامية المشهورة - آنذاك - وأعظم كتبه وأبقاها أثرا (الجامع الصحيح).

وكانت وفاته عام ٢٥٦هـ (٨٦٩م) وقد ذكر ابن خلكان فى (وفيات الأعيان) أن أكثر من سبعين ألف من الطلبة درسوا (الجامع الصحيح) على يدى الإمام (محمد بن إسماعيل البخارى) أثناء حياته، رحمه الله رحمة الأبرار.

ومن علماء بخارى، الذين يذكرهم التاريخ، ولكن لم يصلوا إلى مكانة (أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى) المتقدم ترجمته، ومع هذا فقد كان لهم دور كبير في نشر العلم، فى بخارى) وغيرها من بلاد ما وراء النهر، ومراكز الحضارة.

الإسلامية على اختلافها نتيجة لتلك الرحلات المستمرة التى لا تكاد تنقطع وتلك الجهود المباركة التى جعلت الأمة الإسلامية، من حدود الصين شرقا، إلى جبال (البرانس) فى شمال أسبانيا غربا، بلادا واحدة يتجه غليها المسلم يقيم فى أي بلد شاء، دون حواجز مصطنعة ولا جوازات سفر، ولا طلب إقامة وإنما هى دار متصلة تسمى (دار الإسلام) يتلقى العلم وينشره فى جميع تلك الديار، بدون فروق أو حواجز، بل على العكس تتهافت القلوب والأسماع، للانتظام فى حلقته والاستفادة من درسه وتمتد إليهم الأيدى بالمحبة والمودة، وتفتح لهم ديار وأبوابهم، وتجلهم وتكرمهم، لأنهم ورثة الأنبياء، وأحق الناس بالتكريم والتعظيم، أينما حلوا وحيثما ذهبوا وانتقلوا، ومنهم علماء بخارى (محمد البذمونى قاضى القضاة) فى عصر إسماعيل السامانى، وقد ظهر بعد وفاة الإمام البخارى، وتوفى هذا القاضى الفقيه سنة ٣٠٤ هـ - (٩١٦م).

ومن هؤلاء العلماء الأفذاذ الذين أنجبتهم (بخارى) شمس الأئمة عبد العزيز ابن أحمد الحلوانى البخارى، المتوفى سنة ٤٢٧هـ / ١٠٣٦م الفقيه الحنفى،

المعروف بإمام أهل الرأى صاحب التصانيف فى الفقه الحنفى وفروعه، نذكر منها كتابه (المبسوط) فى الفقه، (النوادر) فى الفروع، و(الفتاوى) وهى مجموعة فتاوية، (وشرح كتاب أدب القاضى) الذى ألفه أبو يوسف، توفى فى قرية بالقرب من بخارى ودفن فى بخارى.

ومن قرية (طوس) وهى طواويس أحدى قرى بخارى (وهى غير مدينة طوس فى خراسان التى ظهر منها الإمام الغزالى وعمر الخيام) ظهر أبو جعفر رضوان بن عمر الطوسى (من علماء الحديث)، ومنهم الفقيه ظهير الدين محمد بن عمر البخارى الذى تولى الحسبة فى (بخارى) كما تولى التدريس، فترة طويلة ومن كتبه الفتاوى الظهيرية، وتوفى فى بخارى سنة ٦١٩هـ / ١٢٢٢م وأهل بخارى بل وأغلب سكان ما وراء النهر أحناف، ولذا فإن من ظهر منهم فى الفقه كان ذلك على وجه الخصوص فى الفقه الحنفى.

ومن هؤلاء طاهر بن أحمد بن عبد الرشيد البخارى، الفقيه الحنفى، صاحب (خلاصة الفتاوى) والواقعات و(النصاب) وجميعها فى الفقه الحنفى، (ولد سنة ٤٨٢هـ / ١٠٩٠م توفى ٤٥٢ هـ /١١٤٧م) ومنهم علاء الدين عبد العزيز بن أحمد بن محمد البخارى الفقيه الحنفى الأصولى الذى قام بشرح بعض كتب الأحناف المتقدمة فشرح البخارى الفقيه الحنفى الأصولى الذى قام بشرح بعض كتب الأحناف المتقدمة فشرح (المنتخب الحسامى) (أصول البرزودوى) وتوفى سنة ٧٣٠هـ / ١٣٣٠ م ومن هؤلاء أبو حفص البخارى المولود سنة ١٥٠هـ /٧٦٧ م أستاذ الإمام البخارى، وقد أحدث حركة فكرية قوية فى بخارى وما حولها، قال عنه النرشخى فى تاريخ بخارى (ولم يكن أحد مثله فى الولاية، وكان زاهدا وعالما أيضا وصارت بخارى بسببه قبة الإسلام، والسبب هو أن أهل بخارى تعلموا فنشأ فيها العلم وصاروا أئمة وعلماء محترمين وكان هو السبب).

ومن أعلام قرى بخارى عبد الله بن محمد الكلاباذى السبذمونى من سبذمون أحدى قرى بخارى ولد سنة ٢٥٨ هـ / ٨٧٢ م، ورحل فى طلب العلم إلى خراسات والعراق والحجاز، واشتهر باسم الأستاذ وكانت وفاته سنة ٢٤٠ هـ

٩٥٢/ م، وممن اشتهر وظهر من أهل بخارى الشيخ الرئيس ابن سينا الذى ولد فى إحدى قرى بخارى ونشأ وتعلم فى بخارى ثم طاف البلاد، وطبقت شهرته الآفاق.

وعلى الرغم من أن الشيخ الرئيس من مواليد قرى (بخارى) وبها تنشأ، إلا ان أصوله فارسية وليست تركية، وكن هذا لا يمنعنا أن نذكره فيمن نبغ من أهل بخارى فقد سكنها آباؤه، وبها ولد ونشأ وترعرع، وكانت بخارى عاصمة العلوم - آنذاك.

الشيخ الرئيس ابن سينا:

ابو على الحسين بن عبد الله بن سينا، اشهر أطباء المسلمين، على مدار التاريخ وكان كتابه (القانون فى الطب) هو المرجع الطبى الأول والوحيد للأطباء، فى العالم أجمع، لمدة سبعة قرون منقضية، وهو مشهور، عند أهل أوربا، بإسم (أفيسينا) فقد ترجموا - منذ وقت مبكر - كتبه الطبية والفلسفية، وكان (القانون فى الطب) عمدتهم، وعليه كانوا يعلون، وقد طبع باللاتينية خمس عشرة مرة، ومرة واحدة بالعبرية، فى القرن الخامس عشر الميلادى، وكان مقررا فى جامعة (لوفان) حتى القرن السابع عشر الميلادى.

ولد عام ٣٧٠هـ/ ٩٨٠م فى إحدى قرى (بخارى) ونشأ وتعلم فى بخارى وطاف البلاد، وناظر فيها العلماء، واتسعت من قم شهرته، وتقلد الوزارة فى (همذان) ثم حدث أن ثار عليه عسكرها ونهبوا بيته، ففر منهم إلى أصفهان، وبها تفرغ للعلم، وصنف أكثر كتبه وبها كانت وفاته، وله أكثر من مائة مؤلف فى الطب، والفلسفة والمنطق والطبيعيات، والألهيات، ومن كتبه المشهورة يعتبر (القانون فى الطب) (الشفاء) وهو يقع فى أربعة أجزاء و(السياسة) و(أسرار الحكومة المشرقة) والأشارات و(الطير) و(أسرار الصلاة) و(لسان العرب) وله رسالة فى علم (الهيئة) وهى علم الطبيعة - اليوم - ورسالة فى (النبات والحيوان) وهو علم (البيولوجى) اليوم (وأسباب الرعد والبرق) وله شعر جيد وأشهر شعره (العينية) التى مطلعها:

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

ويقال أن (ابن سينا) كان باطنيا، من أهل دعوة الحاكم بأمر الله الفاطمى، واتهم بأنه كان شيعيا إسماعيليا.

قال (ابن القيم) عنه: ابن سينا - كما أخبر عن نفسه - هو وأبوه من أهل دعوة الحاكم، من القرامطة الباطنيين). وهذا باطل وليس صحيح.

وقال (ابن تيمية) عنه: (تكلم ابن سينا فى أشياء من الألهيات والنبويات والمعاد والشرائع لم يتكلم بها سلفه، ولا وصلت إليها عقولهم، ولا بلغتها علومهم فإنه

استفادها من المسلمين وإن كان إنما يأخذ عن الملاحدة المتسببين إلى المسلمين كالإسماعيلية، وكان أهل بيته من أهل دعوتهم من أتباع الحاكم العبيدى الذى كان هو وأهل بيته معروفين عند المسلمين بالإلحاد).

وعلى الرغم من (ابن سينا) كان مهتما فى دينه، إلا أنه كان مجمعا على رئاسته فى الطب، وتتجلى لك عبقرية (ابن سينا) الطبية فى كتابة (القانون) فى الطب، الذى ظل المرجع الأساسى لعلوم الطبية، خلال سبعة قرون (أى منذ القرن العاشر الميلادى حتى القرن السابع عشر) وذلك فى جميع عواصم العالم المعروفة آنذاك، وكان القانون يترجم إلى اللغات الأوربية، وبخاصة منها الأسبانية: حيث كان الأحتكاك بين الحضارة فى الأندلس، وبين سكان أسبانيا المسيحيين على أشده، ومن هناك انتقلت النهضة الأوربية الحديثة كما هو معلوم.

كما أن (القانون) ترجم إلى اللغة اللاتينية، لغة العلم والنهضة، فى ذلك الوقت، وعندما ظهرت الطباعة، فى أوربا طبع خمس عشرة مرة باللاتينية، ومرة واحدة باللغة العبرية، خلال ثلاثين سنة فقط، وذلك منذ عام ١٤٧٠ إلى عام ١٥٠٠م، ثم أعيد طبعه عشرات المرات، بكافة اللغات الأوربية.

وسننقل شيئا (يسيرا) من مقدمة (القانون) بقلم (ابن سينا) حتى تعرف عظمة هذا الرجل، فى المجال الطبى، على وجه الخصوص قال - بعد أن حمد الله، وأثنى عليه، وصلى على نبيه محمد - ﷺ:

«وبعد فقد التمس منى بعض خلص إخوانى ومن يلزمنى إسعافه بما يسمح به وسعى أن أصنف فى الطب كتابا مشتملا على قوانينه الكلية والجزائية اشتمالا

يجمع إلى الشرح الاختصار وإلى إيفاء الأكثر حقه من البيان الإيجاز، فأسعفته بذلك، ورأيت أن أتكلم - أولا - فى الأمور العامة الكلية، فى كلا قسمى الطب، أعنى القسم.

النظرى، والقسم العملى، ثم - بعد ذلك - أتكلم فى كليات أحكام قوى الدوية المفردة ثم فى جزئياتها، ثم بعد ذلك فى الأمراض الواقعة بعضو عضو.

«فأبتدئ - أولا - بتشريح ذلك العضو ومنفعته، وأما تشريح الأعضاء المفردة البسيطة فيكون قد سبق منى ذكره فى الكتاب الأول الكلى، وكذلك منافعها، ثم إذا فرغت من تشريح ذلك العضو - ابتدأت فى أكثر المواضع بالدلالة على كيفية حفظ صحته، ثم دللت بالقول المطلق على كليات أمراضه وأسبابها وطرق الاستدلالات عليها، وطرق معالجتها بالقول الكلى فى حدة وأسبابه ودلائله، ثم تخلصت إلى الأحكام الجزئية، ثم أعطيت القانون الكلى فى المعالجة، ثم نزلت إلى المعالجات الجزئية بدواء دواء بسيط أو مركب، وما كان سلف ذكره من الأدوية المفردة يد فى الجداول، والأصباغ التى أرى استعمالها فيه، كما تقف - أيها المتعلم عليه إذ وصلت إليه لم أكرر إلا قليلا منه..

«وأما الآن فإنى أجمع هذا الكتاب وأقسمه إلى كتب خمسة، على هذا المثال:

الكتاب الأول: فى الأمور الكلية فى علم الطب.

الكتاب الثانى: فى الأدوية المفردة.

الكتاب الثالث: فى الأمراض الجزئية الواقعة بأعضاء الأناس عضوا، من الفرق (قمة الرأس) إلى القدم ظاهرها وباطنها.

الكتاب الرابع: فى الأمراض الجزئية التى إذا وقعت لم تختص بعضو وفى الزينة.

الكتاب الخامس: فى تركيب الأدوية والأقراباذين.

وقال عن الكتاب الأخير «وهذا الكتاب لا يسع من يدعى هذه الصناعة (أى الطب) ويكتسب بها أن لا يكون جله معلوما محفوظا عنده، فإنه مشتمل على أقل

ما لابد منه للطبيب، وأما الزيادة عليه فأمر غير مضبوط، وأن أخر الله تعالى فى الآجل، وساعد القدر - انتصبت لذلك انتصابا ثانيا (وقصده أن يضع فيه كتابا آخر متوسعا فى علم الأدوية والأقراباذين).

وهكذا قسم (ابن سينا) كتابه المرجع، مثلما تفعل كليات الطب اليوم - فتجعل السنة الأولى والثانية لعلوم التشريح، والسنة الثالثة لعلم الأمراض (الباثولوجى) وعلم الأدوية (الفارماكولوجى) وعلم الميكروبات والطفيليات، ثم جعل السنة الرابعة والخامسة للأمراض الجزئية، مثل أمراض النساء والولادة وأمراض الأنف والأذن والحنجرة وأمراض العيون والأمراض الباطنية والجراحة، الخ....

ولم يكتف (ابن سينا) بمعلومات المتقدمين من يونان، وفرس وعرب، وسريان، وهنود يرتبها ويبوبها كأحسن ما يكون الترتيب والتبويب، بل يضيف إليها من ملاحظاته وتجاريه ومشاهداته الكثير الكثير، وفى هذا قال: «ثم تعهدت المرضى وانفتحت على أبواب من المعالجة أكتسبهتها من التجربة».

وهكذا ابن سينا يتعلم من مرضاه بمثل ما كان يتعلم من كتب (أبو قراط) و(جالينوس) وكانت له ملاحظات سريرية وتشريحية خاصة به، أضاف بها إلى الطب إضافات كبيرة، مثل وصفه للتجويف البلورى وصفا دقيقا، ووصفه لالتهاب الأغشية السحائية، ووصفه الدقيق لليرقان وأسبابه، واكتشافه علاج الأنيميا الحادة بنخاع العظام، الذى يعتبر اليوم آخر أنواع العلاج الحديثة لمرض الأنيميا الحادة الخطيرة، وحديثه عن أنواع الأورام والسرطانات، وتفصيله البارع لأنواع شلل الوجه واهتمامه الشديد بالأمراض النفسية والعصبية، وتحدثه بتوسع عن الماخوليا والعصاب، وتحدثه عن العشق، بوصفه ظاهرة نفسية، ومعالجتها، وإيراده طرائف وعجائب فى ذلك.

وفى طب العين تحدث عن طبقات العين الثمانية حديث من شرحها، وعرف أجزائها وطبقاتها، وانتقد (أبو قراط) و(جالينوس) حيث اهتما فقط بعدسة العين، بينما انصب اهتمام ابن سينا على الشبكية التى تنطبع عليها الصور المنعكسة، مثلما تنطبع الصورة فى الكاميرا على الفيلم الحساس.

ولم يترك (ابن سينا) بابا من أبواب الطب إلا تحدث فيه حديث خبير عالم واسع التجربة. ولقد تقدم الطب فى العصور الحديثة تقدما واسعا وأصبح الطب القديم متخلفا عنه بمراحل ولكن يبقى مع ذلك لابن سينا فضل سبقه لعصره، وإتيانه بكثير من العجائب والغرائب.

وللأسف فإن كتاب (القانون) فى الطب لم يطبع بالعربية إلا طبعة واحدة رديئة قديمة، بدون تحقيق، ولا تعليق عليها، وقد قامت دور النشر - أخيرا - بإعادة تصويرها (بالأوفست) وذلك لا يجدى فتيلا.

والواجب هو أن يعاد طبع الكتاب، بعد تحقيقه وشرحه والتعليق عليه، إذ أن الطبيب وطالب الطب - اليوم - قد بعد بهم العهد بلغة (ابن سينا) وتحتاج كثير من المسميات إلى توضيحها للأطباء بلغة العصر، مع ذكر ما يقابلها من أسماء علمية حديثة، لأن أغلب الأطباء العرب يدرسون - اليوم - الطب بلغات أوربية.

وقد ترجم (ابن سينا) لنفسه ترجمة وافية، ذكرها (ابن أبى إصبيعة) فى كتابه القيم (عيون الأنباء فى طبقات الأطباء) ونوجز ذلك - ها هنا - ومن أراد المزيد فليرجع إى الكتاب المذكور.

قال عن نفسه أن من مواليد قرية من قرى (بخارى) وأن أباه من (بلخ) فى أفغانستان وأن أمه من أهل (بخارى) وأن الأسرة انتقلت إلى بخارى وهو طفل صغير، وأنه حفظ القرآن الكريم كله، ولم يجاوز العاشرة، وحفظ كثيرا من الشعر والأدب، فى تلك السن الغضة الطرية، وقال أن أباه كان ممن سمع داعى الباطنية من الإسماعيليين، الذين حكموا مصر باسم الفاطميين، ووافق عونهم وكذلك كان أخوه الأكبر محمد وقال (وكانوا ربما تداكروا بينهم وأنا أسمع وأدرك ما يقولونه ولا تتقبله نفسى).

ودرس (ابن سينا) الفقه دراسة واسعة فى صغره، على يد (إسماعيل الزاهد)، وفى هذا القول ما يدل على ابن سينا لم يعتنق الدعوة الباطنية، وأن أعتنقها أبوه وأخوه، واضف إلى ذلك أن أباه كان قد وجهه - وهو فى تلك السن - إلى تعلم حساب الهند.

ثم قدم (بخارى) رجل يدعى المتفلسف، وهو (أبو عبد الله النائلى) فدرس عليه (ابن سينا) الفلسفة الإغريقية دراسة واسعة، حتى أحرج أستاذه بكثرة مسائلة، ولم يكن الأستاذ المتفلسف واسع الفهم، بعيد الإدراك، فقد ضاق بأسئلة تلميذه الذكى، وطلب منه أن يقرأ كتب الهندسة والرياضيات والفلك والهيئة التى كانت جزءا من الفلسفة اليونانية وحده، ثم يعرضها عليه، فقرأها (ابن سينا) ولم يجد عند أستاذه ما يشفى غليله، وتوجه أستاذه إلى كركانج عاصمة اقليم (خوارزم) وبقى (ابن سينا) فى (بخارى) يدرس هذه الكتب العويصة، دون استاذ، حتى اجادها، ولم يستعص عليه شيء منها، سوى الإلهيات، فقرأها كما يقول أربعين مرة، حتى حفظها، دون أن يفهمها، فلما وجد كتاب الفارابى الفيلسوف المشهور(وهو من فاراب من مدن قازاستان فى تركستان) وجد فيه حلولا لكثير مما أشكل عليه، وكان إذا تحير فى مسألة، كما يقول عن نفسه (ترددت إلى الجامع، وصليت وابتهلت إلى مبدع الكل، حتى فتح لى المستغلق، ويسر المتعسر).

ثم دعاه سلطان (بخارى) لمعالجته، فعالجه ن بعد أن فشل الأطباء فى مداوته وكان ابن سينا إذ ذاك ابن ستة عشر سنة وطلب الشاب العبقرى من السلطان أن يكون جزاؤه على مداوته هو فتح (المكتبة السلطانية) المليئة بخزان الكتب وله أن يأخذ منها ما يريد لمطلعته، فطالع مختلف العلوم، واستوعبها وقد قال عن هذه المكتبة الضخمة التى تدل على مكانة العلم فى بخارى فى عهد السامانيين ما يلى:

(فدخلت دارا ذات بيوت كثيرة فى كل صناديق كتب منضدة بعضها على البعض.

فى بيت كتب علم مفرد.. وطالعت فهرست كتب الأوائل.. وطلبت ما احتجت إليه ورأيت أيضا من بعد.. فقرأت تلك الكتب وظفرت بفوائدها وعرفت مرتبة كل رجل فى علمه).

وقال عن نفسه: (فلما بلغت ثمانى عشرة سنة من عمرى، فرغت من هذه العلوم كلها وكنت إذ ذاك للعلم احفظ، ولكنه اليوم معى أنضج)

وفى هذه السن الغضة الف كتابا جامعا لهذه العلوم، الفه فى عشرين مجلدا، وأسماه (الحاصل والمحصول) وأنهى منه، وسنة واحد وعشرون عاما،

وكان ذلك الكتاب دائرة معارف كاملة ألفها هذا الشاب العبقرى فى سن الثامنة عشرة وانتهى منها فى سن الواحدة والعشرين.

وصف فى هذا السن - أيضا كتابا فى الأخلاق، اسماه (كتاب البر والإثم) ثم انتقل (ابن سينا) إلى (كركانج) عاصمة (خوارزم) ومنها تنتقل فى مدن (خراسان) وتولى الوزارة فثار عليه الجنود، حتى نهبوا عليه بيته، وطالبوا بقتله، فحماه السلطان وعزله من الوزارة، وتفرغ للتأليف وللطلب، فألف مئات الكتب فى مختلف فروع المعرفة، بحيث لم يترك بابا من أبواب العلوم إلا ولجه، حتى حدث ذات مرة أن أجتمع بأبى منصور الحبانى اللغوى، وتكلم ابن سينا فى مسالة من مسائل اللغة، فقال له الجبانى: أنك حكيم فيلسوف، وكذلك لم تقرأ فى اللغة، فامتعض ابن سينا وتفرغ ثلاث سنوات لدراسة اللغة، حتى ألف فيها ثلاثة كتب، وجعلها فى جلد قديم، وأوعز إلى الأمير، وطلب منه أن يبدى رأيه فيها، فنظر فيها (أبو منصور) وأشكل عليه كثير مما فيه فكان (ابن سينا) هو الذى ألفها، فاعتذر له، واعترف له بمكانته العالية فى اللغة، ثم ألف (ابن سينا) كتابه الضخم (لسان العرب) فى عشرة مجلدات فى علوم اللغة العربية.

وقد تأثر (ابن سينا) كغيره من فلاسفة المسلمين بالفلسفة (اليونانية) وعلى الأخص منها فلسفة (أفلاطون) و(أرسطو) و(أفلوطين) وهم مجموعة الفلاسفة الإلهيين من اليونان الذين يؤمنون بآله واحد للكون كله، ولكنهم يجعلونه متفكرا فى ذاته، متعقلا لها، لا يدبر هذا الكون، ولا يصرفه، بل ولا يعلم عنه شيئا - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

ونرى تأثر (ابن سينا) فى أواخر حياته بالصوفية، واتصاله بهم، حتى أن وصيته التى ذكرنها طرفا منها لتلميذه وصديقه (أبى سعيد بن أبى الخير الصوفى) تدل على ذلك دلالة واضحة، فهو يأمره باستحضار ذات الله، جلا وعلا، فى كل لحظة من لحظات حياته، وإلى التفكير فى مخلوقاته، والتدبر فى آياته ويأمره بتنزيه الله تعالى ولا يشغل سره إلا بذكره، ولا فكره إلا باجتلاء آياته، ولا يأنس إلا به، ولا يجعل لذاته إلا فيه، ثم يأمره برحمة المخلوقات وبخاصة منهم المؤمنين،

ويأمره بالصلاة والضيام البر والصدقة، واحتمال الأذى، والصبر على المكاره، والبعد عن الرياء والسمعة والعجب، واخلاص نية، مما نراه فى كتب الصوفية والرقائق، مثل كتاب (احياء علوم الدين) للغزالى، وكتاب (تنبيه الغافلين) للسمرقندى، و(عوارف المعارف) للسهروردى (الرسالة القشيرية) وكتب الشيخ عبد القادر الجيلانى.

وخلاصة القول فى هذا العبقرى، الذى كان أشهر وأعظم أطباء القرون الوسطى وأوسعهم علما وفلسفة، أنه تحول فى أواخر أيامه من الفلسفة إلى الشرع الحنيف والالتزام به بل إلى نوع من الزهد والتصرف أيضا.

وفى أواخر أيام حياته أصيب (ابن سينا) بالقولنج (التهاب الأمعاء الغليظة) واشتد عليه المرض، لتنقله بين (همذان) و(اصبهان)، وهو مريض وقد ضعفت صحته، وكان يعالج نفسه، فلما رأى أن العلة قد اشتدت به - ترك التداوى - وقال (ابن المدبر الذى فى بدنى قد عجز عن تدبيره فما بى حاجة للمعالجة).

ويقال أنه اغتسل وتاب، وتصدق بماله على الفقراء، ورد المظالم إلى أهلها، وأعتق مماليكه، وعكف بقية حياته على قراءة القرآن الكريم، واستمر على هذا الحال حتى توفى بهمذان، فى شهر رمضان ٤٢٢هـ (١٠٣٦م) مما تقدم من ترجمة بعض أعلام (بخارى) مثل الإمام البخارى، وأساتذته، وترجمة الشيخ الرئيس (ابن سينا) يتضح لك أن (بخارى) منذ فتحها المسلمون، لأول مرة، على يد عبيد الله بن زياد، فى عهد (معاوية) ثم أعادوا افتتاحها على يد (قتيبة بن مسلم الباهلى) سنة ٨٦هـ، أصبحت عاصمة من عواصم الحضارة الإسلامية، تشع بنورها فى الأفاق، بل لا نعدو الحقيقة أن قلنا أن (بخارى).

أصبحت تضارع (نيسابور) و(بغداد) و(مرو) و(دمشق) و(القيروان) و(القاهرة) و(أشبيلية) و(غرناطة)، وفى بعض فترات التاريخ كانت (بخارى) تفوقها حضارة وعلما وأدبا وتجارة وصناعة، وكانت تعرف باسم (بخارى الشريفة التقية) ذكر ذلك المستشرق المجرى (فامبرى) فى كتابه (تاريخ بخارى).

وقد كانت (بخارى) إحدى عواصم بلاد ما وراء النهر، منذ أن فتحت، استمرت على ذلك أيام الأمويين والعباسيين، وفى أيام المأمون - استقل (طاهر بن

حسين) قائد (المأمون) بحكم (خراسان) وما وراء النهر، وبقيت فى أولاده، ثم ظهرت الدولة السامانية، وكانت عاصمتها (بخارى) فارتقت فى عهدهم، وازدهرت ازدهارا كبيرا واستمرت على ذلك فى أيام الغزنزيين، الذين كانت عاصمتهم (غزنة) فى أفغانستان اليوم.

صم جاء المغول كالإعصار المدمر، الذى لا يبقى على شيء، فحطم (بخارى) و(سمرقند) و(غزنة) واستمر الإعصار المدمر والطوفان المغولى، حتى أغرق بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية آنذاك فى بحور الدماء على يد هولاكو. ثم انحسر الطوفان فى عين جالوت، وانهزم المغول على يد السلطان (قطز) وقائده الظاهر بيبرس وعادت أمجاد الإسلام وظهرت دولة السلاجقة، ثم ظهر (تيمور لنك) فجعل قاعدة ملكه (سمرقند) أصبحت عاصمة العالم المعروف - آنذاك - وتوارت (بخارى) قليلا، لتعود بعد انتهاء حكم (تيمور لنك) فى عهد الشيبانيين والاشتراخانيين.

وفى القرن الثامن عشر تفككت تلك الدولة، واستقل كل أمير بمنطقة، ودعيت (خانية) فكانت هناك (خانية بخارى) وخانية خوقند (وخانية خوارزم) التى أصبحت تسمى (خيوه) وكانت أكبر هذه الخانيات (خانية بخارى) التى استمرت تقاوم الغزو الروسى القيصرى، ولم تسقط مثلما سقطت بقية الخانيات.

إلا فى عام ١٩٢٢م، عندما هجم عليها الجيش الروس الأحمر بثمانين ألف جندى مسلحين بأحدث الأسلحة، فاحتلوها بعد أن قتلوا أنور باشا قائد جيشها الصغير.

وقد ذكر المستشرق المجرى (ارمينوس فامبرى) صاحب كتاب (تاريخ بخارى) الذى ألفه عام ١٨٧٢م أن (خانية بخارى) كانت على جانب لا بأس به من الحضارة، وأن كان قد دب إليه الاضمحلال وكانت هذه الخانية كما ذكر تشمل:

١ - (بخارى) وضواحيها.

٢ - قضاء (بخارى).

٣ - (ميان كل) وقصبتها (كرمينية).

٤ - (كته كورغان).

٥ - (حصار) مع (شير آباد).

٦ - (سمرقند) وما حواليها من مدن وقرى.

٧ - (قارش) مع (فيض آباد).

٨ - (جهار جوى).

٩ - (قراقول).

وكانت هذه المناطق سابقا تدعى بالصغد، ويمر فيها نهر يعرف بنهر الصغد، ويسمى الآن (زرفشان).

وظهر من المدن والقرى المحيطة ببخارى والتابعة لها كثير من العلماء والأفذاذ، ومن ذلك مدينة (بيكند) ثانى مدن (بخارى) التجارية والتى تبعد عن بخارى بأربعة وأربعين كيلو مترا، وتقع على طريق (أمل) ومرو والتى كانت ذات ثراء واسع.

فى هذه المدينة ظهر المحدث (محمد بن سلام البيكندى) أستاذ الإمام (البخارى) وصاحب المصنفات العديدة، فى علوم الحديث، (ولد سنة ١٦٠هـ - وتوفى سنة ٢٢٥هـ ومنها ظهر المحدث (أبو الفضل أحمد بن على بن عمرو بن على السليمانى البيكندى) الذى عد محدث عصره (توفى سنة٤١٢هـ / ١٠٢١م) وله أكثر من أربعمائة ومصنف، أغلبها فى علوم الحديث.. ومنها - أيضا - ظهر (محمد أحمد البيكندى) أحد علماء الكلام، الذين عرفوا بالاعتزال، وتولى القضاء فى حلب، ثم دخل بغداد، وتوافى بها ٨٤٢هـ / ١٠٨٩م وله مؤلفات، منها (الهدى والرشاد) (وتحقيق الرسالة بأوضح الدلالة) (والرسالة المسعودية) وغيرها..

وفيما يلى - إن شاء الله - سنتناول بالحديث مدينة (سمرقند) ومن ظهر بها من العلماء الأفذاذ، وفحول الرجال.

سمرقند:

ومن بين المشاهد والمزارات فى سمرقند أحتل مكان الصدارة على الدوام قبر قثم ابن العباس ابن عم رسول الله ﷺ الذى جاء إلى سمرقند عام

٥٥هـ/٦٧٥م مع سعيد بن عثمان بن عفان والذى استشهد اثناء فتحها، وهو المزار المعروف باسم مزار زنده (الأمير أو السلطان الحى).

ومنذ ذلك الحين كان ذوو المكانة فى المجتمع من الحكام والعلماء والأولياء يقبرون بجوار ذلك القبر الشريف، وقامت حوله مدرسة لتدريس العلوم الدينية، وقد وصفه ابن بطوطة قال: «وبخارج سمرقند قبر قثم بن العباسين عبد المطلب رضى الله عن العباس وعن ابنه وهو المستشهد حين فتحها، ويخرج أهل سمرقند كل ليلة اثنين وجمعة إلى زيارته والتتر يأتون وينذرون له النذور العظيمة ويأتون إليه بالبقر والغنم والدراهم والدنانير فيصرف ذلك فى النفقة على الوارد وعلى الصادر ولخدام الزاوية.

وعليه قبة قائمة على اربع أرجل ومع كل رجل ساريتنا من الرخام الخضر والسود والبيض، وحيطان القبة بالرخام المجزع المنقوش بالذهب وسقفها مصنوع بالرصاص، وعلى القبر خشب الأبنوس المرصع مكسو الأركان بالفضة وفوقه ثلاثة من قناديل الفضة وفرش القبة بالصوف والقطن، وخارجها نهر كبير يشق الزاوية التى هناك وعلى حافتيه الأشجار ودوالى العنب والياسمين وبالزاوية مساكن يسكنها الوارد والصادر.

وكان يتبع ولاية سمرقند اثنا عشر رستاقا ستة منها جنوبى نهر زرفشان (أى نهر الصغد) وستة شمال النهر، ولكها مناطق زراعية خصبة وكان طول الرستاق الواحد مرحلتين وتمتد مساحة قراه نحو فرسخين، وكانت لمعظم الرساتيق قنوات من النهر لسقايتها بانتظام واشتهرت هذه الرساتيق بمختلف أشجار الفاكهة وبإنتاج اللوز والجوز.

وكانت بعض هذه الرساتيق مركزا لتجمع بعض القبائل العربية فقد نزل (أبو مزاحم سباع بن النضر) من قبيلة بكر بن وائل فى مدينة وذار وبنى بها مسجدا جامعا فى القرن الثالث الهجرى، وتكاثر أولاده بها حتى أصبحت معروفة بهم، وفى وذار حوقل كثيرا، أما الطريق التى تصل بين سمرقند وبخارى والتى تعرف باسم (الطريق الملكى) فقد كانت على الدوام ذات اهمية كبرى وتبلغ ٣٧ فرسخا وتقع على هذا الطريق مجموعة من القرى والمدن مثل (دبوسية وكرمينية

وطواويس) وقد أخذت طواويس اسمها العربى سنة ٩١هـ/ ٧١٠م عندما ابصر العرب الطواويس المنتشرة فى هذه القرية، أما الاسم القديم فهو ارفود الذى كان به معبد للنار فأبدله المسلمون بمسجد جامع، قد ذكر بارتولد أسماء عشرات القرى والمدن الصغيرة التابعة لسمرقند ومنها قرية خرتنك التى بها قبر الإمام محمد ابن إسماعيل البخارى صاحب الجامع الصحيح.

وقد نبغ من (سمرقند) على مدار التاريخ الإسلامى كثير من العلماء والأدباء منهم (محمد بن عدى بن الفضل) «أبو صالح» السمرقندى نزيل مصر المحدث.

المشهور، سمع من محدثى عصره فى دمشق ومصر وغيرها، وسمع منه جم غفير من العلماء، ومات عام ٤٤٤هـ / ١٠٥٢ م ومنهم (أبو بكر أحمد بن عمر بن الأشعث السمرقندى)سكن دمشق مدة، وكان يكتب بها المصاحف من حفظه واشتهر بقراءته للقرآن وتعليمه إياه، وسمع من محدثى دمشق، وسمع منه جماعة، وتوفى سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٦م ومنهم (أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد السمرقندى) أمام الهدى العلامة، من أئمة الحنفية، ومن الزهاد المتصوفين له تصانيف نفيسة، مثل (تفسير القرآن الكريم) و(عمدة العقائد) و(بستان العارفين) وهو فى التصوف و(تنبيه الغافلين) فى المواعظ و(خزائن الفقه فى الفقه) و(شرح الجامع الصغير) فى الفقه أيضا و(عيون المسائل) وهو مجموعة فتاوى فقهية و(النوازل من الفتاوى) و(دقائق الأخبار فى بيان أهل الجنة والنار) و(مختلف الرواية فى الخلافيات بين الأئمة أبى حنيفة ومالك والشافعى و(الرسالة فى أصول الدين) وكانت وفاته سنة ٣٧٣هـ / ٩٨٣م.

ومنهم (شمس الدين السمرقندى) فيلسوف وأديب، ألف رسالة فى آداب البحث المعروفة بآداب السمرقندى، وهى توضح كيفية البحث والمناظرة (وقسطان الميزان) فى المنطق توفى سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م ومنهم (أبو القاسم السمرقندى) توفى سنة ٥٥٦هـ / ١١٦١م وهو (محمد بن يوسف بن محمد العلوى الحسنى السمرقندى) فقيه حنفى، وعالم بالتفسير والحديث والوعظ، من أهل سمرقند، حج سنة ٥٤٢ وأقام عند عودته ببغداد، ومات بسمرقند، له تصانيف كثيرة منه (الفقه النافع) و(جامع الفتاوى) و(الملتقط) فى الفتاوى الحنفية و(بلوغ الأرب من تحقيق استعارات العرب و(رياضة الأخلاق) و(مصابيح السبب) فى فروع الحنفية،

ومنهم (نجيب الدين السمرقندى) عالم بالطب، استشهد فى هراة (فى أفغانستان اليوم) لما دخلها التتار، من كتبه (النجيبيات) فى الطب (والأسباب والعلامات) فى الطب - أيضا - و(أصول تركيب المفاصل) و(مقالة فى كيفية تركيب طبقات العين) و(اغذية المرضى) و(الأغذية والأشربة للأصحاء) و(الصناعة) المقصود الطبية و(غاية الأغراض فى معالجة الأمراض) ومنهم (محمد بن أحمد السمرقندى) توفى ٥٧٥ هـ / ١١٨٠م من أهل سمرقند فقيه حنفى، من كتبه (تحفى الفقراء فى الفروع، ومنهم (علاء الدين السمرقندى) توفى سنة ١١٤٥ م فقيه مشهور، له كثير من الفتاوى وله كتاب (تحفة الفقهاء اشتهرت معه ابنته (فاطمة) وكانت فتاواه تخرج وعليها خط (فاطمة) وخط أبيها ومنهم (علاء الدين السمرقندى) مولده سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥م وفاته ٥٥٢هـ / ١١٥٧ م وهو (محمد بن عبد الحميد بن الحسن الأسمندى السمرقندى) و(اسمند) إحدى قرى (سمرقند) وهو فقيه حنفى مناظر من فرسان الكلام رحل إلى بغداد، وناظر علماءها واشتهر هناك، وله عدة كتب، منها (مختلف الرواية)

فى الفقه، و(التعليقة) فى الفقه أيضاً - وبذل (النظر) فى أصول الفقه، (والهداية) فى أصول الأعتقاد، وله تفسير للقرآن الكريم ومنهم (أبو محمد الحسن بن أحمد السمرقندى) إمام زمانه فى الحديث، ولد فى (سمرقند) سنة ٤٠٩هـ / ١٠١٨م،واستوطن (نيسابور)، وله (بحر الأسانيد فى صحاح المسانيد) جمع فيه مائة ألف حديث قال عنه (الذهبى) لم يقع فى الإسلام مثله) وتوفى سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٨ م ومنهم (أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدى) وهو من أئمة علم الكلام والعقائد وهو عند الأحناف بمنزلة (أبى الحسن الأشعرى) عند الشافعية، فقيه حنفى متكلم، رد على القرامطة والمعتزلة وألف فى ذلك كتاب كثيرة منها (أوهام المعتزلة) (الرد على القرامطة) وكتاب (التوحيد) و(مآخذ الشرائع) فى أصوال الفقه، وكتاب (الجدل) وكتاب وشرح كتاب الفقه الأكبر، المنسوب للإمام (ابو حنيفة نسب إلى «ما تريد» وهى محلة (حى) بسمرقند محدث ومؤرخ شهور، له تصانيف كثيرة، منها تاريخ سمرقند وتاريخ (استر آباد) وهى موطن أبيه، وهى أيضا من بلاد ما وراء النهر، توفى سنة ٤٠٥ هـ / ١٠٦٨ م وله شرح الجامع الكبير و(النتف) فى الفتاوى.

وقد إشتهر من الأطباء الذين ينتسبون إلى (سمرقند) (بدر الدين محمد بن بهرام بن محمد القلانسي السمرقندى) الذى قال عنه (ابن أبى أصبيعة) فى كتاب (عيون الأنباء فى طبقات الأطباء) مجيد فى صناعة الطب، وله عناية بالنظر فى معالجات الأمراض ومداواتها، وله من الكتب: كتاب الأقراباذين، وهو تسعة وأربعون بابا استوعب فيه ذكر ما يحتاج إليه من الأدوية المركبة.

ومنهم (نجيب الدين محمد بن على بن عمر السمرقندى) المتقدم ترجمته، والذى قال عنه (ابن أبى أصبيعة) طبيب فاضل بارع، وله كتب جليلة، وتصانيف مشهورة، وليس المقصود هو التنويه بسمرقند وأشهر من أنجبتهم من العلماء والأطباء على مدار التاريخ.

ومن أهل سمرقند الإمام عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بهرام التميمى بالولاء الدارمى السمرقندى (الدرامى إلى درام بن مالك بطن كبير من تميم أحد أعلام الحديث وحفاظه صاحب سنن الدرامى المشهورة، انتقل فى البلدان لطلب علم الحديث فسمع من مشايخ هذا العم فى خراسان والعراق والحجاز والشام ومصر ثم عاد إلى سمرقند وولى القضاء بعد أن حاول أن يمتنع من ذلك، واستقال بعد أول قضية تعرض عليه، ونحن نعلم كيف كان علماء هذه الأمة الأخيار ينفرون من ولاية القضاء فقد سجن (الإمام أو حنيفة) وضرب ليتولى القضاء للمنصور العباسى،

ورفض ذلك رفضا باتا، كما رفض أحيانا فى شئون القضاء، وكان بعض هؤلاء العلماء يرى الخلفاء وهو لا يعداون فى أموال المسلمين ويجعلون الفئ مغنما ويحتجزونه لأنفسهم ولولاتهم وأنصارهم من دون الأمة فيرون أن تولى القضاء لهم موافقة لهم على ظلمهم، فلذا ينفرون من الحكام والخلفاء ويبتعدون عن أبواب السلاطين رغم ما كان عليه كثير من هؤلاء الحكام من صلاح ظاهر.

وكان الإمام الدرامى أحد هؤلاء العلماء الذين يفرون من تولى القضاء ويتفرغون لنشر العلم وتدريسه، فكان أحد أعلام علم الحديث فى عصره (ولد سنة ١٨١ هـ وتوفى سنة ٢٥٥هـ بمرو أى ٧٩٧ وتوفى ٨٦٩ م له (المسند) فى الحديث و(الجامع الصحيح) المشهور باسم سنن الدارمى وكتاب (التفسير) القرآن الكريم.

علماء نسف

يقول ياقوت الحموى: (نسف) بفتح أوله وثانيه هى مدينة كبيرة كثيرة الأهل والرستاق بين جيجيون وسمرقند، خرج منها كثير من أهل العلم فى كل فن، وهى نخشب نفسها.

«قال الاصطخرى: وأما (نسف) فإنها مدينة، ولها قهندر (لفظ قهندز فارسى، ومعناه القعلة القديمة، وأختص بقلاع المدن) وربض (ضاحية) ولها أبواب أربعة، وهى على مدرج (طريق) بخارى وبلخ، وهى فى مستواه، والجبال منها على مرحلتين فيما يلى كش وأما بينها وبين جيجون فمفازة لا جبل فيها، ولها نهر واحد يجرى فى وسط المدينة وهى مجمع مياه كش، فيصير منها هذا النهر، فيشرع إلى القرى، ودار الأمارة على شط هذا النهر بمكان يعرف برأس القنطرة. . . ولنسف قرى كثيرة ونواح، ولها منبران سوى المدينة، والغالب على قراها المباخس، وليس بنسف ورساتيقها نهر جار غير هذا النهر (نهر كشكادريا) وينقطع فى بعض السنة، ولها آبار تسقى بساتينهم ومباقلهم، والغالب على نسف الخصب» وقد ذكر بارتولد فى كتابه التركستان نقلا عن السمعانى وياقوت والمقدسى أسماء عشرات القرى التابعة لنسف.

مما تقدم من وصف (ياقوت الحموى) يبدوا أن (نسف) تقع اليوم - فى أوزبكستان جنوب (بخارى) فى الطريق إلى بلخ وبلخ فى أفغانستان وبينها وبين نهر جيجون (أموداريا) مفازة هى - كما تبدوا - جزء من صحراء (قره قوم) التى تمتد من حدود «وزبكستان» الشرقية إلى (تركمنستان) وقد خرب المغول نسف مثلما خربوا معظم المدن التى استولوا عليها ثم قامت باسم قرشى التى تعنى القصر بلغة المغول. وذلك لأن الخان كبك وهو من سلالة جغتاى ابن جنكيز خان بنى قصرا قريبا منها فى الإسلام وأصبحوا من حماته بعد أن كانوا ألد أعدائه.

وكم من مدن إسلامية اندثرت أو تغيرت أسماؤها ومعالمها فى المناطق، التى ترزخ تحت الاستعمار الروسى. . وقد ظهر من (نسف) العديد من الجهابذة العلماء. منهم: أبو إسحاق إبراهيم بن معقل بن الحجاج النسفى:

قال عنه ياقوت: كان من أجلة العلماء وأصحاب الحديث الثقات كتب

الكثير، وجمع السنة والتفسير، وحدث عن، قتيبة بن سعد وهشام ابن عامر الدمشقي وحرملة بن يحيى المصرى وروى عنه كثير من العلماء ومات سنة ٢٩٤هـ/٦٠٦م.

ومنهم: الحسين بن خضر النسفى، أحد فقهاء الأحناف المشهورين:

تولى القضاء فى بخارى ونواحيها، وبها توفى سنة ٤٢٤هـ / ١٠٣٣م له مؤلفات عدة منها (الفوائد) و(الفتاوى) وجميعها فى الفقه.

وظهر من نسف: أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفى:

المفسر، الفقيه، المشهور، صاحب المؤلفات الجليلة، والمصنفات العجيبة، مثل (مدارك التنزيل) فى تفسير القرآن الكريم، و(المنار) فى أصول الفقه، و(كشف الأسرار شرح المنار) والوافى فى الفروع، (الكافى شرح الوافى) و(عمدة العقائد فى العقائد) و(كنز الدقائق فى الفقه) و(المصفى) شرح منظومة أبى حفص النسفى فى الخلاف.

وتوفى الأمام أبو البركات سنة ٧١٠هـ / ١٣١٠م بعد أن ترك ثروة علمية لا يزال ينتفع بها إلى يومنا هذا.

ومنهم: أبو الفضل برهان الدين محمد بن محمد النسفى، أحد أعلام التفسير والأصول والكلام..

فقيه حنفى ولد سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م، فى (نسف) وانتقل منها فى طلب العلم وسكن (بغداد) وبها ظهر فضله وعلمه، وبها توفى سنة ٦٨٧هـ / ١٢٨٩م، بعد أن ترك مجموعة من المؤلفات فى التفسير والأصول وعلم الكلام، منها (الواضح) فى تلخيص تفسير الفخر اتلرازى المسمى بالتفسير الكبير، ومنها (الفصول) فى علم الجدل و(منشأ النظر) فى علم الخلاف، (والمقدمة النسفية)، أيضا، فى علم الخلاف، و(القوادح الجدلية) و(شرح الأسماء الحسنى) (وكتاب دفع النصوص والنقود).

ومنهم: خرج الحافظ عبد العزيز بن محمد بن عاصم النسفى النخشى:

ونسب إلى (نخشب) وهى (نسف) كما تقدم وصفه (ياقوت) بأنه أحد الأئمة فى الحديث.

سمع أبا القاسم عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن عمر، وأبا القاسم على ابن محمد الصحاف، وأبا طاهر محمد بن محمد بن عبد الرحيم الكاتب الأصبهانى، وغيرهم كثير من مشايخ الحديث فى عصرهم، وتنتقل فى البلدان، طلبا للحديث، ولعلو السند، كما يفعل مشايخ هذا العلم لا يألون فى ذلك جهدا ولا يدخرون فى ذلك وسعا، والأمة الإسلامية تعينهم على ذلك، ينتقلون من (نسف) أو (بخارى) إلى (سمرقند) و(مرو) و(نيسابور) و(بغداد) و(دمشق) و(مكة) و(المدينة) وكأنهم فى بلدهم لم يفارقونها، ففى كل مدينة يجدون أهلا وأحبابا، ويلقون بشاشة وترحابا لا يصدهم صاد، ولا تطاردهم جوازات واقامات، بل هى دار الإسلام، دار واحدة ممتدة، أينما ذهب وجد أخوة وأحبابا، ووجد شيوخا وطلابا.

قدم الحافظ عبد العزيز بن محمد النسفى إلى دمشق واستقر بها، وروى عنه خلق كثير منهم: عبد العزيز الكتانى، وأبو بكر الخطيب، ثم عاد الحافظ عبد العزيز إلى موطنه (نسف) (نخشب) وبها مات، ولما يبلغ الأربعين، وذلك سنة ٤٥٢هـ / ١٠٦٠م.

ومنهم: أبو العباس جعفر بن محمد المعتز المستغفرى النسفى:

ولد فى نسف سنة ٣٥٠هـ / ٩٦١ م وبها كانت وفاته سنة ٤٣٢ هـ / ١٠٤١ م خطيب نسف وأمامها.. فقيه ومحدث ومؤرخ.. وأما فى الخطابة فقد كان لا يبارى.. وله مصنفات كثيرة منها كتاب «الدعوات» جمع فيها الأحاديث الواردة فى الدعاء وكتاب فضائل القرآن «الشمائل والدلائل ومعرفة الصحابة الأوائل» «والمسلسلات».

وهى أيضا فى الحديث.. وله كتاب «الزادات» وهى زيادات أضافها على كتاب «المختلف والمؤتلف» لعبد الغنى بن سعيد، وله فى التاريخ عدة كتب منها «تاريخ نسف» وتاريخ كش....

ويؤخذ عليه أنه يروى أحيانا بعض الأحاديث الموضوعة من غير أن يبين حالها.

علماء بيهق:

تقع بيهق على المجرى الأسفل هارى (هارى رد) وكان يسمى نهر الروذ لأن مرو الروذ تقع عليه. الذى ينبع من جبال أفغانستان والذى يشكل الحدود بين إيران وتركمنستان. فإذا دخل نهر هارى تركمنستان تغير اسمه إلى تادزهن وهنا يجد رافدا من مشهد فى إيران (وهى مدينة طوس القديمة وسميت مشهد لأن بها مشهد إمام على الرضا).

وتقع بيهق فى الجزء الواقع فى تركمنستان السوفيتية حيث تزول مياه النهر إلا عند اشتداد الأمطار وفيضان النهر.

وهى غير موجودة اليوم فقد اندثرت تلك المدينة التى وصفها (ياقوت الحموى) فى معجم البلدان بقوله:

بيهق أصلها بالفارسية بيهة ومعناها (الأجود) وهى ناحية كبيرة وكورة واسعة كثيرة البلدان والعمارة من نواحى نيسابور تشمل عى ٣٢١ قرية بين نيسابور وقومس وجوين بين أول حدودها ونيسابور ستون فرسخا وكانت قصبتها خسر وجرد ثم صارت سابزوار.. وقد أخرجت هذه الكورة من لا يحصى من الفضلاء والعلماء والفقهاء والأدباء... ومن أشهر أئمتهم:

١ - الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين بن على بن عبد الله بن موسى البيهقى:

من أهل خسر وجرد عاصمة بيهق، صاحب التصانيف المشهورة ولد سنة ٣٨٤ هـ / ٩٩٤م وهو الإمام الحافظ المحدث الفقيه الورع من أجل أصحاب أبى عبد الله الحاكم والمكثرين عنه - ثم فاقه فى فنون من العلم تفرد بها.

رحل إلى العراق وطوف فى الآفاق وألف من الكتب ما يبلغ قريبا من ألف جزء مما لم يسبق إلى مثله. توفى فى نيسابور سنة ٤٥٨هـ / ١٠٦٦م ونقل جثمانه إلى بيهق حيث دفن بها، صنف زهاء ألف مصنف ومن تصانيفه كتاب (المبسوط) وكتاب (دلائل النبوة) وكتاب (مناقب الشافعى) وكتاب (البعث والنشور). وهو

اول من جمع نصوص الشافعى فى عشرة مجلدات. وكتاب الآداب وكتاب فضائل الصحابة وكتاب فضائل الأوقات وشعب الإيمـان وغيرها كثير لا يحصى. قال عنه إمام الحرمين: ما من شافعى إلا وللشافعى عليه منه إلا البيهقى فإن له المنة والفضل على الشافعى لكثرة تصانيفه فى نصرة مذهبه وبسط موجزه وتأييد آراءه. وقال عنه الذهبى: لو شاء البيـهقى أن يعمل لنفسه مـذهبا يجتهد فـيه لكان قادرا على ذلك لسعة علومه ومعرفته بالاختلاف.

وممن نبغ من بيهق على بن الحسين بن فطيمة البيهقى:

من أهل خسر وجرد قصبة بيهق من تـلاميذ الإمام أبو بكر أحمد بن حسين المتقدم ذكـره وقد حرص على طلب العلم وحفظ رغم تقدم سنه فلمـا أصيبت يده فى علة فقطعت أصـابعه فكان يكتب بأصابع قدمـه كتابة واضحـة مقروءة. تولى القضاء فى خسر وجرد وبها كانت وفاته سنة ٥٣٦هـ / ١١٤١م - وكان مولده سنة ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م. وممن ينسب إليها: إسماعيل بن الحسين بن عبد الله البيهقى.

فـقـيـه حنفى زاهـد له عـدة كـتب فى الفـقـه الحنفى تـوفى سنة ٤٠٢هـ / ١٠١١م. له الشامل فى فروع الحنفية والكفاية مختصر شرح القدورى.

وممن ينسب إليها: أحمد بن على بن محمد البيهقى (أبو جعفر)

لغوى عالـم بالقراءات له (المحيط بلغات القـرآن) و(تاج المصادر) توفى سنة ٥٣٣هـ/ ١١٣٨م ومنها على بن زيد بن مـحمد بن الحسين البـيهقى مؤرخ وفـقيه وفلكى ورياضى وفيلسـوف وباحث موسوعى صنف ٧٤ كـتابا وتوفى سنة ٥٤٣هـ ١١٣٨ م ومنها محمـد بن الحين البيهقى (أبو الفضل) كان كـاتب الأنشاء فى عهد السلطان محمود بن سبكتكين الغزنزى. . . جميل الأسلوب له مؤلفات فى التاريخ وكانت وفاته سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م.

دور علماء خوارزم فى نشر الإسلام:

وكانت (خوارزم) (تتصل بجهاتها الشمالية الغربية بسهول (الأستيبس) حيث كانت تعيش قـبائل (البلغار) و(الخزر) فى حوض نهـر (الفلوجا) واتصل بنهم أهل خوارزم وأقاموا المسـتعمرات الإسلامية، ونشروا الإسـلام بين (بلغار الفولجا) وهم يتصلون بروابط قوية مع (بغار نهـر الطونة) «الدانوب» الذين كونوا مملكة (بلغاريا)

القوية (المجر) فى الغرب، وكان الروس وهم من القبائل النورماندية القادمة من السويد، لا يزالون على بداوتهم وكان هجومهم على حوض نهر الفولجا دافعا للسلب والنهب، ولكنهم أخيرا - أستطوطنوا تلك المناطق، وانصهروا فى العنصر الصقلى البلغارى، وتحولوا إلى المسيحية الأرثوذكسية التى كانت عاصمتها (القسطنطينية) (اسلامبول أو أسطمبول بعد أن دخلها محمد الفاتح) وأصبحوا يشكلون سدا فى وجه انتشار الإسلام ن الذى دخل بواسطة أهل خوارزم إلى بلاد (الخزر) طلب أهل (الخزر) العون من أهل (خوارزم) فاشتراط عليهم الخوارزميون أن يسلموا، فأسلموا، وأنقذوهم من غزو الروس الإجلاف، وذلك عام ٣٦٥هـ / ٩٦٥ م، كما كان لسلاطين (خرارزم) الذين كانوا يدعون بالخانات أثر عظيم فى نشر الإسلام، فى مناطق الخزر، وقد توجه السلطان (مأمون بن محمد) من (الجرجانية) «كركانج» إلى بلاد (الخزر) ونشر فيها الإسلام.

وكان سكان (الخزر) يدينون بديانات مختلفة، ولكن السيطرة والحكم كانا لليهود، وكان دخول اليهودية إلى (الخزر) آخر صفحات التبشير بالدين اليهودى، الذى تحول - بعد ذلك - إلى دين قومى لجماعة من الناس، تدعى بأنها من نسل يعقوب - عليه السلام - وبما أن اليهودية انتشرت فى شعوب كثيرة، من قبل، منهم أهل اليمن والأحباش، وأخرهم (الخزر) فإن الرغم بأن اليهود هم - فقط - من نسل يعقوب أمر لا يقره التاريخ مطلقا.

وكان ملك (الخزر) فى عهد (هارون الرشيد) يهوديا على الرغم من أن كثيرا من رعاياه قد تحولوا - فعلا - إلى الإسلام، بواسطة الدعاة إلى الله وبخاصة من أهل خوارزم.

وكانت نصرة أهل (خوارزم) لسكان (الخزر) عندما هاجمهم الروس عام ٣٦٥هـ/ ٩٦٥م هى الحلقة الأخيرة فى قصة إسلام سكان الخزر (طواعية).

ولهذا يغزو الفضل فى إنتشار الإسلام فى هذه المناطق إلى الخوارزميين.

وقد قامت فى (خوارزم) دولة قوية امتد سلطانها ونفوذها، بعد أن ضعفت الدولة السامانية ولكن هذه الدولة القوية اعتراها الترف والضعف - بعد ذلك - فهاجمها (جنكيز خان) على الملك، فقامت دولهم المجزأة التى استطاع أن يقضى عليها (تيمور لنك).

وقد كان للخوارزميين - أيضا - فضل انتشار الإسلام فى جيران الخزر وهو (بلغار الفولجا) وقد سجل التاريخ أن وفدا من مسلمى (البلغار) انطلقوا إلى بغداد، على عهد الخليفة العباسى (المقتدر) سنة ٣٠٩هـ / ٩٢١م وطلبوا من الخليفة أن يرسل لهم العلماء لتعليمهم الإسلام، كما طلبوا منه أن يرسل لهم مجموعة من الخبراء العسكريين ليبنوا لهم القلاع والاستحكامات العسكرية، حتى يصدروا غزوات الروس الهمج.

وكان ممن أرسلهم الخليفة (المقتدر) العالم (ابن فضلان) الذى دون رحلته تلك ونقل عنها (ياقوت الحموى) فى كتابه القيم(معجم البلدان) وفى أوائل القرن العشرين وجدت نسخة من رحلة (ابن فضلان) فى مكتبة (مشهد) بعد أن عدت من المفقودات وكان خط سير الرحلة من بغداد إلى (بخارى) ثم إلى (خوارزم) ثم إلى بلاد (البلغار)، دليلا على خط سير انتشار الإسلام، الذى انتشر مدن - أولا - فى مدن العراق إلى خراسان، ثم إلى بخارى وخوارزم، ثم إلى بلاد البلغار.

وقد وصفهم (ابن فضلان) فى رحلته بأنهم من الصقالبة، وإن كان الباحثون المحدثون يرون أنهم نتيجة اختلاط الصقالبة بالأتراك وبخاصة منهم الخوارزميون، الذين كلن لهم الفضل الأول فى نشر الإسلام بينهم.

وقد سيطر (البلغار) المسلمون على مناطق واسعة من (ديليكى استوك) إلى جنوب (ساراتوف) ومن (موروم) إلى (أوفا) وبذلك كان نهر (الفولجا) بأكمله تحت سيطرة (البلغار) المسلمين، واستمرت دولتهم من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) على القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى)، عندما ابتدأوا فى التحول إلى إمارات متعددة مختلفة.

بدأ الروس بعد ذلك - فى الاستيلاء على مناطق منها، حتى جاء (تيمور لنك) فأخضعها جميعا لسلطانه، وانتشرت فى (البلغار) اللغة التركية التى تكتب بالحرف العربى.

وقد ذكر (بارثولد) فى كتابه (تاريخ الترك فى آسيا الوسطى) أن انتشار الإسلام بين القبائل التركية الدوية، ثم انتشاره - بعد ذلك - فى الخزر، وبلاد البلغار، إنما كان يتم - أساسا - على يد الدعاة إلى الله من الصوفية، الذين كانوا

ينطلقون إلى كل مكان لينشروا دعوة الله بكل حماس وإخلاص وتجرد، وكانت حياتهم البسيطة وزهدهم وحرارة إيمانهم وإخلاصهم للإسلام، كل ذلك يجذب كثيرا من الأقوام الذين كانوا يذهبون إليهم، لنشر الإسلام فيهم.

وقد ذكر من ذلك (بارثولد) فى كتابه (تاريخ الترك فى آسيا الوسطى) أن انتشار الإسلام بين القبائل التركية البدوية، ثم انتشاره - بعد ذلك - فى الخزر، وبلاد البلغار، إنما كان يتم - أساسا - على يد الدعاة إلى الله من الصوفية، الذين كانوا ينطلقون إلى كل مكان لينشروا دعوة الله بكل حماس وإخلاص وتجرد، وكانت حياتهم البسيطة وزهدهم وحرارة إيمانهم وإخلاصهم للإسلام، كل ذلك يجذب كثيرا من الأقوام الذين كانوا يذهبون إليهم، لنشر الإسلام فيهم.

وقد ذكر من ذلك قصة إسلام جماعة من الترك الجفاة الذين يعيشون حياة البداوة، فى سهوب (القرغيز) وغيرها عندما أسلم (ساتوق بغراجان)، وأسلم معه مائتا ألف أسرة (كانت فى الخيام) وذلك على يد جماعة من الدعاة إلى الله من المتصوفة، ومن أهل (خوارزم) وغيرها من المناطق المجاورة.

وقد كان يطلق على (بغراجان) لقب (قاراخان) وهو (سلطان) دولة القاراخنيين التى وصفها محمود الكاشغرى (نسبة إلى كاشغر فى تركستان الشرقية) وكان دخول القاراخنيين فى الإسلام عام ٣٢٣هـ/ ٩٤٣م انتصارا عظيما للإسلام، حيث دخل مليون شخص فى فترة وجيزة فى الإسلام طائعين، على يد هؤلاء الدعاة، من الصوفية، وأنهم أدخلوا شعبين كاملين إلى الإسلام هما شعب (بلغار الفولجا) وشعب (القارخنيين) فى تركستان الشرقية (كاشغر وما حولها).

وقد أسلم قسم كبير من قبائل (الغز) الذين كانوا مقيمين عند مصب نهر سيحون (سرداريا) وذلك - أيضا - بفضل الدعاة إلى الله من الخوارزميين وغيرهم.

وبذلك سجل الإسلام انتصارا عظيما، بدخول شعبين من شعوب الأتراك، وهما (الشعب القراخانى) و(الشعب الغزى) إلى الإسلام (فى القرن العاشر الميلادى) وكان للخوارزميين، فى ذلك كله، جهد مبارك وفضل عظيم، بالإضافة إلى نجاحهم فى نشر الإسلام لدى (بلغار الفولجا) و(الخزر).

وفى العصر الحديث تحولت التركستان إلى خانيات صغيرة وكانت خوارزم إحدى هذه الخانيات، وأصبح إسمها خيوة، وقد سقطت هذه الخانية فى يد الروس، وذلك عام ١٩٢٤م عندما زحفت عليها الجيوش الحمراء، وأخضعتها (خوارزم واقعة فى جمهورية أوزبكستان).

وقد نبغ من أهل خوارزم، عدد كبير من العلماء والفلاسفة والأطباء والفلكيين والرياضيين حتى أن علم (اللوغارتيمات) دائما ينسب فى الواقع إلى الخوارزمى.

إعلام خوارزم:

وفيما يلى سنترجم باختصار لبعض هذه الأعلام:

١ - داود بن رشيد الخوارزمى:

ولد هذا المحدث فى (خوارزم)، وانتقل إلى دمشق وغيرها من عواصم الإسلام، ودرس علم الحديث، على يد أكابر علماء زمانه، مثل الوليد بن مسلم، وبقية بن الوليد، وصالح بن عمرو وتلقى وروى عنه الإمام البخارى، صاحب الجامع الصحيح، الذى سبق أن ترجمنا له فى علماء بخارى، والإمام مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى، صاحب صحيح مسلم، وأبو القاسم البغوى، وتوفى فى دمشق سنة ٢٣٩هـ / ٨٥٣م.

٢ - أبو طالب طاهر جعفر المخزومى الخوقندى الخوارزمى:

وهو - كما ترى من نسبه من أشراف قريش، من قبيلة بنى مخزوم، التى هاجر أبناؤها كم هاجر أبناء القبائل العربية الأخرى، لنشر الإسلام، حتى وصلوا (خوارزم) وأقاموا بها ولقد ولد صاحب الترجمة فى (خوارزم) فى مدينة (خوقند) وتلقى الحديث على يد عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وأشتهر بقراءة القرآن وبالادب، وسكن سمرقند، وتوفى بها سنة ٤٠١هـ / ١٠١٠م، وروى عنه الحديث ابنه محمد بن طاهر.

٢ - أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى الخوارزمى:

ولد أبو الريحان البيرونى فى خوارزم سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٣م، ثم انتقل إلى ضاحية من ضواحيها، وتدعى (بيرون) فنسب إليها، وتوفى سنة ٤٤٠هـ /١٠٤٨م يعد (أبو ريحان محمد بن أحمد البيرونى) أحد نوادر العقل البشرى ونوابغه، شارك باقتدار - فى معظم العلوم المعروفة فى عصره، وألف فيها المؤلفات العديدة الهامة، واشتهر بالفلسفة والفلك والرياضة والتاريخ، وبلغت فهارس أسماء مصنفاته - كما يقول ياقوت الحموى - ستين ورقة، وكان ضليعا فى اللغات الشرقية، فإلى جانب إجادته للغته الخوارزمية كان يجيد اللغات الفارسية، والهندية، والعبرية، والسريانية، أما اللغة التى لم يكن يكتب إلا بها فهى اللغة العربية، التى عشقها ودافع عنها.

يقول فى كتابه (الصيدلة).

(ديننا والدولة عربيان وتوأمان، ترفرف على أحدهما القوة الألهية، وعلى الآخر اليد السماوية).

وكم احتشد طوائف من التوابع، وبخاصة منهم الجيل والديلم فى لباس الدولة جلابيب العجمة، فلم يتفق لهم فى المراد سوق، ما دام الأذان يقرع آذانهم، كل يوم خمسا وتقاوم الصلوات بالقرآن العربى المبين خلف الأئمة صفا صفا، ويخطب لهم فى الجوامع بالإسلام غير منفصم، وحصنه غير منثلم، وإلى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم، فازدانت، وحلت فى الأفئدة، وسرت محاسن اللغة منها فى الشرايين والأوردة وإن كانت كل أمة تستحلى لغتها، التى ألفتها واعتادتها واستعملتها فى مآربها).

ثم يقول: (واقيس هذا بنفسى، وهى مطبوعة عل لغة (الخوارزمية) لو خدل بها علم، لاستغرب استغراب البعير على الميزاب، والزرافة فى العراب، ثم متنقلة إلى العربية، والفارسية، فأنا فى كل واحدة دخيل ولها متكلف، والهجى بالعربية أحب إلى من المدح بالفارسية، وسيعرف مصداق قولى من تأمل كتاب علم قد نقل إلى الفارسى، كيف ذهب رونقه وكسف باله، وأسود وجهه، إذ لا تصلح هذه اللغة إلا للأخبار الكروية، والأسمار الليلية).

فأين اللغة العربية - اليوم - لم تعد لغة العلوم والفنون، بل أصبحت لغة العلم فى جامعاتنا ومدارسنا هى الإنجليزية أو الفرنسية، وانظروا إلى العرب أنفسهم كيف يدرسون الطب، أو الفلك، أو النبات، أو الجيولوجيا، أو أى علم من العلوم (غير العلوم الشرعية) تجدهم فى ذلك يدرسونها بلغة الأفرنج، ويفتخرون بذلك، ولا يريدون أن يعيدوا إلى لغتهم، التى وسعت كتاب الله لفظا وغاية، وما ضاقت عن أى به وعظات وكم من مؤتمرات قد عقدت لإعادة تدريس العلوم باللغة العربة، ولكنها - للأسف - إلى الآن، لم تسفر عن شىء وأنت ترى كيف كان (البيرونى) يشهد للغة العربية بأنها لغة العلم وأن الكتابة العلمية بغيرها لا تقوم بالغرض، ولا تفى بالمقصد، ويتحدث عن اللغة الفارسية يذهب رونقه، ويسود وجهه، ويزول الانتفاع به، ويعد الفارسية لغة للأسمار والحكايات، أما لغة العلم فهى العربية - بلا جدال.

ومن مؤلفات هذا العالم المؤرخ الجغرافى الفلكى الفيلسوف:

(الآثار الباقية عن القرون الخالية).

و(تاريخ الهند).

وجميعها فى التاريخ.

وله فى الفلك والجغرافيا:

(القانون المسعودى فى الهيئة والنجوم والجغرافيا).

و(الإرشاد فى أحكام النجوم).

و(التفهيم لصناعة التنجيم).

و(تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات الأماكن).

وله فى شرح عقائد أهل الهند (تحقيق ما للهند من مقولة فى العقل أو مرزوله)

وله فى الهندسة والرياضة كتاب (استخراج الأوتار).

وغيرها كثير، مثل (الجماهر فى معرفة الجواهر)

و(كتاب الصيدلة).

و(كتاب الاستيعاب فى صفة الأسطرلاب) هو آلة فلكية لمعرفة مواقع النجوم.

و(كتاب لوازم الحركتين) الذى صنفه للسلطان مسعود، والذى قال عنه ياقوت الحموى (وهو كتاب جليل لا مزيد عليه اقتبس أكثر كلماته من آيات من كتاب الله عز وجل).

وللبيرونى كتاب فى الشعر والأدب سماه (مختار الأشعار والآثار). وله شرح لديوان (أبى تمام) أعجب به ياقوت، وقال أنه رآه بخط المؤلف.

وكان البيرونى - أيضا - شاعرا مجيدا، قال عنه الأديب الناقد الصفدى: (يا عجب كل العجب من نظم هذا الرجل هذا النظم، إذ ليس هذا فنه، ولا عرف به فهذا شعر جيد).

وقال عنه ياقوت فى (معجم الأدباء) أنه كان أديبا أريبا لغويا، ولذا ذكره فى (معجم الأدباء).

وهكذا كان (البيرونى رحمه الله - قمة من القمم، التى امتلأ بها تاريخ بلاد ما وراء النهر (التركستان) التى كانت ترزخ - تحت الاستعمار الروسى، فأين هذا الماضى المشرق المجيد مما عليه المسلمون - اليوم - من تخلف وضياع وتمزق؟

٤ - أبو عبد الله محمد الخوارزمى:

يعد (أبو عبد الله الخوارزمى) أقدم كاتب مسلم ألف كتابا موسوعيا (دائرة معارف) سماه (مفتاح العلوم) وتكلم فيه عن جميع علوم عصره، من الطب، والهندسة، والرياضيات، والفلك، والفلسفة، والجغرافيا، وعلوم الهيئة وغيرها من علوم ذلك الزمن. أهدى كتابه إلى وزير السلطان (نوح السامانى) عام ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م.

٥ - أبو بكر الخوارزمى:

ولد فى خوارزم عام ٣٢٤هـ / ٩٣٥م، واشتهر بالأدب، والشعر، والكتابة، وانتقل إلى الشام وأقام بها، وخلد اسمه برسائله الأدبية المسجعة، التى جمعت المدائح، والمراثى، والأهاجى والنظرات الأدبية والحكمية، وطبعت رسائله عدة مرات، وتوفى فى الشام عام ٣٨٣هـ / ٩٩٣ م.

٦ - محمد بن موسى الخوارزمى:

واضع علم الجبر والمقابلة ومبتكر حساب اللوغاريتمات وهو تحريف لاسمه كما يفعل الغربيون عادة، وهو أول من حل معادلات الدرجة الثانية الجبرية. كما اشتهر بعلوم الفلك والتنجيم، وكان أحد الفلكيين (الذين عملوا فى مرصد المأمون). وله كتب فى علم الفلك منها (الزيج) و(العمل بالأسطرلاب) وقد اشترك فى قياس محيط الأرض أيام المأمون مع مجموعة من العلماء المسلمين... ويعتقد أن مولده كان سنة ١٦٤هـ/ ٧٨٠م وكانت وفاته سنة ٢٣٦هـ / ٨٥٠م.

٧ - محمد بن العباس الخوارزمى:

ولد سنة ٣٢٣هـ/ ٩٣٤م وتوفى سنة ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م. يعد محمد بن العباس الخوارزمى من أئمة الكتاب البلغاء، ثقة فى اللغة، وفى معرفة الأنساب، وهو صاحب الرسائل المعروفة برسائل الخوارزمى وله ديوان شعر، وهو ابن أخت المفسر المؤرخ المشهور الإمام ابن جرير الطبرى، أمه من طبرستان، وأبوه من خوارزم واستوطن نيسابور، ودفن بها عام ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م.

٨ - شمس الدين محمد بن إسحاق الخوارزمى:

عالم حنفى، انتقل من خوارزم إلى مكة، وأقام بها، وألف كتاب (إثارة الترغيب والتشويق إلى المساجد الثلاث والبيت العتيق) واستخدم مهارته الفائقة فى الرسم فى تصوير هذه المساجد، ورسمها بمهارة واقتدار (وكان يبيع لوحاته على الحجاج) فانتشرت فى بقاع الأرض وتوفى سنة ٨٢٧هـ/ ١٤٢٤م.

٩ - محمد بن على الهراش الكاثى:

نسبة إلى كاث من مدن (خوارزم)، وهو أديب عالم باللغة وآدابها، واشتهر برسائله البليغة وله عدة مصنفات، منها كتابه (التصريف) (وشرح ديوان المتنبى) (ومجموعة رسائل) (وديوان شعر).

١٠ - الشريف شرف الدين إسماعيل:

من أهل خوارزم، اشتهر بالطب، وكان كما وصفه ابن أبى أصيبعة - فى (طبقات الأطباء) طبيبا عالى القدر، وافر العلم، وجيها فى الدولة، وكان الطبيب

الخاص للسلطان (علاء الدين محمد خوارزم شاه) وقد ألف عدة مصنفات، منها كتابه (التصريف) (وشرح ديوان المتنبى) (ومجموعة رسائل) (وديوان شعر).

١١ - محمد بن محمد الكردري:

الخوارزمى البرازى فقيه حنفى من كردر قرية (بخوارزم) تنقل فى بلاد القرم والبغار وحج واشتهر من كتبه (لجامع الوجيز) فى فقه الحنفية والمناقب الكردرية ومختصر فى تعريفات الأحكام توفى سنة ٨٢٧هـ/ ١٤٢٤م.

١٢ - برهان الدين ناصربن عبد السيد الخوارزمى المطرزى:

عالم فقيه لغوى من فقهاء الأحناف ولد فى الجرجانية (خوارزم) سنة ٥٣٨هـ/ ١١١٤م ووفى بها سنة ٦٤٠هـ/ ١٢١٢م كان راسا فى الاعتزال من كتبه (الإيضاح) و(شرح مقامات الحريرى) و(المصباح) فى النحو و(المعرب) فى اللغة و(الإقناع بما حوى تحت القناع).

١٢ - الإمام الزمخشري:

بهذا الإمام العظيم نختتم ذكر من اشتهر من علماء خوارزم وقراها ن وقد ولد (جار الله محمود بن عمر الزمخشرى) عام ٤٦٧هـ / ١٠٧٥م فى قرية (زمخشر) وهى من قرى (خوارزم) وإليها ينسب، وقد سافر إلى مكة، لطلب العلم، وجاور بها، فلقب جار الله، ثم تنقل فى بلدان العالم الإسلامى، وعواصم العلم، ينهل من ينابيعها الفياضة، ثم عاد إلى الجرنية (كركانج) عاصمة خوارزم وأقام بها ينشر العلم، ويؤلف حتى وافاه الأجل عام ٥٣٨ هـ / ١١٤٤م..

أشهر كتبه (الكشاف) فى تفسير القرآن، وهو أحد أهم المراجع فى تفسير القرآن الكريم، وقد توسع فيه فى الأمور اللغوية، وينكر عليه ميله للمعتزلة، وأخذه بآرائهم ودفاعه عنهم، وعلى الرغم من ذلك، فإن (الكشاف) لا يستغنى عنه طالب علم. ومن أشهر كتبه «المفضل» فى النحو شرحه أبو حيان فى أربعة أجزاء.

وله كتب فى اللغة، منها كتابه (أساس البلاغة) (ومقدمة فى اللغة) وله كتب فى الجغرافيا مثل كتابه (الجبال والأمكنة والمياه) وله كتاب جمع فيه الأمثال وسماه (المستعصى فى المثال) و(القسطاس فى العروض) و(ربيع الأبرار) فى الأدب، (ونكت الأعراب فى غريب الأعراب) والنحو و(أطواق الذهب) و(أعجب العجب فى شرح لامية العرب) وله إلى جانب ذلك - دراية واسعة فى الحديث وله كتاب (الفائق فى غريب الحديث) وهو يدل على تبحره وتوسعه فى علوم الحديث.

وله إلى جانب ذلك كله ديوان شعر جيد، وله معجم عربى فارسى سماه (المقدمة).

الحياة الثقافية

فى أسفيجات وفاراب وإقليم الشاش وفرغانة

أسفيجاب:

اسم بلدة كبيرة من أعيان بلاد ما وراء النهر فى حدود تركستان (الشرقية) ولها ولاية واسعة وقرى كالمدن كثيرة.. كانت من أعمر بلاد الله وأنزهها وأوسعها خصبا وشجرا ومياهها جارية ورياضا مزهرة.. ولم يكن بخراسان ولا بما وراء النهر بلدا لا خراج عليه إلا أسفيجاب لأنها كانت ثغرا عظيما فكانت تعفى من الخراج وذلك ليصرف أهلها خراجها فى ثمن السلاح وعلى المجاهدين والمرابطين فى هذا الثغر... وكذلك كانت المدن القريبة منها مثال طراز وصبران وفاراب وسانيكيث... ثم أتت على تلك النواحى حوادث الدهر وصروف الزمان عندما خربها خوارزم شاه محمد بن تكش عندما خانه بعض أمرائها... وجاءت الطامة الكبرى بورود التتار عليها سنة ٦١٦هـ فأهلكوا من بقى من أهلها وحطموا ديارها وقتلوا رجالها ونساءها فلم يبق من تلك الجنان المندورة والقصور المشرفة غير حيطان مهدومة وآثار من أمم معدومة (وقد كان أهل تلك البلاد أهل دين متين وصلاح مبين ونسك وعبادة.. والإسلام فيهم غض يحفظون حدوده ويلتزمون شروطه (تظهر فيهم بدعة استحقوا بها العذاب والجلاد ولكن يفعل ذلك لعباده ما يشاء ويحكم ما يريد).

وقد خرج من اسفيجاب طائفة من أهل العلم فى كل فن منهم:

أبو الحسن على بن منصور المقرئ المؤدب الأسفيجابى بعد سنة ٣٨٠هـ.

كما خرج منها جماعة من الفضلاء:

علماء فاراب:

(١) إسماعيل بن حماد الجوهرى، المتوفى سنة ٣٩٢هـ:

وهو من أئمة اللغة العربية، وصاحب كتاب (الصحاح) وله - أيضا - كتاب فى العروض ومقدمة فى النحو، سافر من بلدة (فاراب) صغيراً، حتى وصل (العراق) ومنها سافر من بلدة (فاراب) صغيراً، حتى وصل (العراق) ومنها سافر إلى (الحجاز) ثم عاد إلى (نيسابور) بخراسان، وبها أقام، واشتهر، وظهرت علومه اللغوية وأخذ عنه جم غفير من العلماء.

كان مهتما بالطيران، وقد صنع لنفسه جناحين من خشب وصعد إلى سطح دار هونادى فى الناس، لقد صنعت ما لم أسبق إليه، وسأطير ثم ظهر عليه أهل نيسابور ينظرون إليه فتأبط جناحيه وسقط قتيلاً.

(٢) إسحاق الفارابى المتوفى سنة ٣٥٠هـ:

وهو أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم، صاحب (ديوان الأدب) فى اللغة خال إسماعيل بن حماد الجوهرى، وقد انتقل إلى اليمن، وأقام بزبيد.

(٣) أبو نصر محمد بن طرخان الفاربى، المتوفى سنة ٣٣٩هـ:

وهو الفيلسوف، الحكيم، الفلكى، الرياضى، الطبيب، المؤرخ، المشهور، أعظم فلاسفة المسلمين، وأول من نقل كتب (أرسطو) وشرحها، وعلق عليها، وسمى بالمعلم الثانى لأن «أرسطو» كان يدعى المعلم الأول.

انتقل إلى بغداد من (فاراب) وعاش بها، ثم انتقل إلى (دمشق) وبقى بها إلى حين وفاته، وكا يجيد اللغات الشرقية المعروفة فى عصره، وهى: العربية، والفارسية، والتركية ولغة الهند، كما كان يجيد اللغة اليونانية.

تعلم الفلسفة على يد (يوحنا بن جيلان) وتتلمذ على يد (عبد الله بن محمد بن سلمة المقدسى الفارابى) وسمى الحديث بدمشق من (هشام بن عمار) و(عبد الله بن أحمد بن بشير) و(عباس بن الوليد الخلال) و(أبى محمد بن عبد الرحمن الدمشقى) و(دحيم).

وقد روى عنه الحديث (أبو بكر وأبو زرعة) ابنا (أبى دجانة)، (وأبو بكر بن المقرى) وغيرهم.

قال عنه (ابن أبى أصيبعة) فى كتابه (عيون الأنبياء فى طبقات الأطباء):

(وكان رحمه الله فيلسوفًا، وإماما فاضلاً، قد أتقن العلوم الحكيمة وبرع فى العلوم الرياضية، زكى النفس، قوى الذكاء، متجنبا عن الدنيا، مقتنعا منها بما يقوم بأوده يسير سيرة الفلاسفة المتقدمين، وكانت له قوة فى صناعة الطب، وعلم الأمور الكلية منها، ولم يباشر أعمالها، ولا حاول جزئياتها).

وقد كان (الفارابى) - فى أول مرة - ناظرا فى بستان فى دمشق، فقيرا - يسهر الليل، يقرأ، ويكتب، ويؤلف، على ضوء قنديل حارس البستان، ثم ظهر فضله، وعظم شأنه، واشتهرت تصانيفه، وكثر تلاميذه، واتصل بسيف الدولة، وأكرمه إكراما بالغا، وسافر (الفارابى) قبيل وفاته بعام (أى عام ٣٣٨) إلى مصر، ثم عاد إلى دمشق، وتوفى بها سنة ٣٣٩، وصلى عليه سيف الدولة. ويذكر من فضله وزهده أنه لم يكن يتناول شيئا مما ينعم به عليه سيف الدولة، سوى أربعة دراهم، فى اليوم، يقتات ها هو وأهله.

وكان - فى أول أمره - قاضيا، ثم ترك القضاء، ليتفرغ لعلوم الفلسفة، والرياضة والفلك، وغيرها.

وكان له فى علم الموسيقى باع طويل، وهو أول من اخترع القانون، قال عنه (ابن أبى أصيبعة): ويذكر أنه صنع آلة غريبة يستمع منها ألحانا بديعة يحرك بها الانفعالات. ويقال أنه كانت له القدرة على العزف عليها، فيبكى سامعه، ثم يشجيه، ثم ينميه، ويخرج (الفارابى) وسامعه نائما.

وقد شرح (الفارابى) قصة ظهور الفلسفة (اليونانية) وكيف انتقلت إلى الإسكندرية، ثم كيف أخفت الكنيسة كتب (أرسطو) وغيره من فلاسفة الإغريق،

وكيف حاربتها حربا شعواء فى روما، والإسكندرية وجميع أراضى الإمبراطورية الرومانية، إلا شيئا يسيرا من المنطق، استعانوا به فى جدلهم، حتى ظهر الإسلام.

وكانت كتب (أرسطو) مخفية عند رجل، فنسخها منه رجلان، أحدهما من (مرو) والآخر من (حران) فأما الذى من (مرو) فتعلم منه (إبراهيم المروزى) و(يوحنا بن جيلان) وأما (الحرانى فتعلم منه (قويرى) وقام (قويرى) بنشر كتب (أرسطو) وتعليمها، وكذلك فعل (إبراهيم المروزى) و(يوحنا بن جيلان) وتعلم (أبو نصر الفارابى) من (يوحنا بن جيلان) ثم أتم كتب الفلاسفة قراءة، دون معلم، وكانت قراءته، على (يوحنا) فى بغداد، أيام المقتدر.

وصار (الفارابى) أشهر من شرح كتب الفلسفة اليونانية فى التاريخ، وبخاصة كتب (أرسطو) ولقب بالمعلم الثانى، لأن (أرسطو) كان يحمل لقب المعلم الأول. ولم يكتف الفارابى بذلك، بل أضاف إلى مختلف العلوم إضافات جديدة، وهو أول من أوضح علم المنطق بعبارة سهلة، وأول من وضع موسوعة علمية وافية، وأسماها (إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها).

قال عنه (ابن أبى أصيبعة): (ثم له - بعد ذلك - كتاب شريف فى إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها، لم يسبق إليه، ولا ذهب أحد مذهبه فيه، لا يستغنى طلاب العلوم كلها عن الاهتداء به، وتقديم النظر فيه).

ويقول (ابن أبى أصيبعة) (ولا أعلم كتابا أجدى على طالب الفلسفة منه).

وقد استفاد (ابن سينا) من كتب (الفارابى) فائدة عظيمة، وقال أنه استغلق عليه فهم الألهيات من كتب الفلسفة، حتى عثر على كتاب(الفارابى) فى العلم الإلهى، فحل له أشكالها وأبان غامرها، وقرأ (ابن سينا كتب الفارابى) فى الفلسفة، وعليها تتلمذ.

(وللفارابى) دعاء، وابتهال أورده (ابن أبى أصيبعة) وسننقله عنه، لأنه يوضح مذهب الفارابى، وإيمانه بالله على طريقة (الفلاسفة) المسلمين، الذين خلطوا العقيدة الإسلامية ببعض (آراء أرسطو) و(أفلاطون) و(أفلوطين) التى لا تتناقض العقيدة مناقضة ظاهرة، وإليك هذا الدعاء البليغ العجيب:

(اللهم إنى أسألك يا واجب الوجود (وهو تعبير فلسفى شاع عند المسلمين

بعد ان ادخله الفارابى) ويا علة العلل قديما لم يزل، أن تعصمنى من الزلل، وأن تجعل لى من الأمل ما ترضاه لى من عمل، اللهم أمنحنى ما أجتمع من المناقب، وارزقنى فى أمورى حسن العواقب، نجح مقاصدى والمطالب، يا اله المشارق والمغارب، اللهم ألبسنى حلل البهاء، وكرامات الأنبياء، وسعادة الأغنياء، وعلوم الحكماء، وخشوع الأتقياء، اللهم أنقذنى من عالم الشقاء والفناء، واجعلنى من أخوان الصفاء، وأصحاب الوفاء، وسكان السماء مع الصديقين والشهداء، أنت الله لا إله إلا أنت يا علة الأشياء، ونور الأرض والسماء، أمنحنى فيضا من العقل الفعال يا ذا الجلال والأفضال. (وهذه فلسفة أفلاطون وأرسطو وأفلوطين التى تقول بأن الله خرج منه. العقل الفعال، ومن العقل الفعال ظهرت الكواكب السبعة السيارة، ومن الأجرام السبعة ظهرت بقية الأجرام السماوية ومنها ظهرت الأرض والمخلوقات، حسب نظرية الفيض المتسلسلة عبر عشر مراحل التى جاء بها أفلوطين).

هذب نفسى بأنوار الحكمة، أوزعنى شكر ما أوليتنى من نعمة، أرنى الحق حقا، وألهمنى إتباعه، والباطل باطلا، وأحرمنى اعتقاده، هذب نفسى من طينة الهيولى (يعود الفارابى لتعبيرات أرسطو طاليس) إنك أنت العلة الأولى:

يا علة الأشـياء جمعا والذى
كانت به عن فيضه المتفجر

رب السموات الطباق ومركز
فى وسطهن من الثرى والأبحر

إنى دعوتك مستجيرا مذنبا
فاغفر خطيئة مذنب ومقصر

هذب بفيض منك رب الكل من
كدر الطبيعة والعناصر مذنب عنصرى

ويستمر (الفارابى) فى دعائه العجيب البليغ، الذى يخلط فيه دعوات الرسول ﷺ مع تعبيرات الفلسفة اليونانية الألهية، مما يدل على عمق تأثره بها تأثر

عن فهم عميق، وإدراك لأسرارها مع خلطها بما قد يصادم العقيدة الإسلامية مصادمة واضحة أحيانًا.

ولم ينج (الفارابى) فى بعض التعبيرات التى أشرنا إليها، وبخاصة فى اعتقاده أن الكواكب السيارة هى المدبرة للكون، الفاعلة له، وإن كانت أنما تفعل ذلك، لأنها من فيض العقل الفعال، الذى هو من فيض الله.

ويستمر (الفارابى) فى دعائه الذى يظهر فيه خشوعه، وتبتله، كما يظهر فيه سعة علمه سعة واسعة بعلوم زمانه، مع بلاغته وقوة أسلوبه:

(اللهم رب الأشخاص العلوية، والأجرام الفلكية، والأرواح السماوية، غلبت على عبدك الشهوة البشرية، وحب الشهوات، والدنيا الدنية، فاجعل عصمتك مجنى من التخليط، وتقواك حصنى من التفريط، إنك بكل شىء محيط، اللهم أنقذنى من لأسر الطبائع الأربع، وانقلنى إلى جانبك الأوسع وجوارك الأرفع.

«اللهم إنك قد سجنت نفسى فى من العناصر الأربعة، ووكلت بافتراسها سباعا من الشهوات اللهم جد لها بالعصمة، وتعطف عليها بالرحمة، التى هى بك اليق، وبالكرم الفائض، الذى هو منك أجدر وأخلق، وأمنن عليها بالتوبة العائدة بها إلى عالمها السماوى، وعجل لها بالأوبة إلى مقامها القدسى، وأطلع على ظلماتها شمسا من العقل الفعال، وأمط عنها ظلمات الجهل والضلال، واجعل ما فى قواها بالقوة كامنا بالفعل، وأخرجها من ظلمات الجهل إلى نور الحكمة وضياء العقل» إلخ إلخ. . . .

ونجد تأثير هذه الفلسفة اليونانية قويا جدا، لدى جميع الكتاب المسلمين، وبخاصة لدى الفلاسفة والأطباء منهم، وحتى أولئك الفقهاء والمحدثين، فإنهم تأثروا بهذه النظرة، وبخاصة من كتب منهم فى الطب النبوى، من أمثال ابن القيم، والسيوطى، والذهبى، وابن السنى، وأبى نعيم الأصبهانى، والمفقه عبد اللطيف البغدادى، وغيرهم كثر.

ومما تقدم مما ذكرناه من دعاء (الفارابى) وابتهالاته إلى الله سبحانه وتعالى

ندرك مدى تأثير الفلسفة (اليونانية) الألهـية المتمثلة فى فلسفة (أفلاطون) و(أرسطو طاليس) (أرسطو اختصارا) و(أفلوطين).

ونجـد نظرية الفيض الإلهى فـى خلق الأكوان تجـد صداها، لدى فـلاسفـة المسلمين واطبائهم من أمثـال: أبى بكر الرازى، وابن سيناء، ولا شك يعود سبب ذلك إلى جهود (الفارابى) فى نشر الفلسفة (اليونانية الألهية).

وعلى الرغم من أن أبا بكر الرازى («الطبيب الفيلسـوف» وهو غير الفـخر الرازى المفسر الأصولى الفقيه الطبيب المشهور) قد عاصر (أبا نصر الفارابى) بل هو متقدم عليـه فى الميلاد إذ قبل (الفارابى) بست وعشـرين سنة، فإننا لا نستطيع أن نقول أن الفـارابى قد تأثر بأبى بكـر الرازى، التى اهتم أيضا بالفلسـفة (اليـونانيـة) وألف فيها الكتب.

ويبدو من تـاريخ حياة هين الـطودين الشامخـين أن (الرازى) كان مـهتـما بالطب، وبرع فيـه أكثر من اهتمـامه بالفلسفـة، كما أن (الفارابى) اهتم بالفلسـفة أساسا، وكان اهتمـامه بالطب عرضا بسبب اهتمامـه بالفلسفة، ولم يمارس الطب فى حياته قط.

ومع هذا نجد جوانب مشتركة بينهـما إذ أننا نجد فى رسالة صغيرة لأبى بكر الرازى سماها (المدخل الصغير إلى عالم الطب) نظرية الفيض الألهى، كما وضعها (أفلوطين) وهو نفس مـا يقوله به (الفـارابى) أيضا، وأن كان (الفـارابى) بطبيـعة الحالب - أكثـر توسعا فى شرح الفلسفة اليـونانية الألهية - وتقديمـها إلى المثقف المسلم بأسلوب سهل، بعد أن كانت عـسيرة الفهم، صعبة العبـارة، لا يقبل عليها إلا الآحاد.

بل أن فلسفة (أفلوطيـن) و(أرسطو) بالذات لا تنتقل إلى الثقافة الإسـلامية ومن ثم إلى الثقافة الأوربية، إلا عبر ترجمات (الفارابى) وشروحه العديدة لها.

وقد رأينا كيف حرمت الكنيسة قراءة كتب الفلسفة اليونانيـة ما عدا فصول محـدودة من علم المنطق، ولم تستطع أوربا أن تصل إلى الفلسـفة الإغريقـية، إلا عبر ترجمات (الفارابى) وشروحه وتعليقاته العديدة وإضافته الغزيرة.

وهكذا نرى (الفارابى) طودا شـامخا فى مخـتلف العلوم العقلية الفلسـفية،

وتلمذ عليه، وعلى كتبه، أجيال عديدة من مثقفى المسلمين، ومثقفى أوربا، وبرع هذا العلم الشامل فى مختلف فروع المعرفة، وألف فيها حتى بلغت كتبه أكثر من مئة كتاب فى الفلسفة، والسياسة، وعلوم الأحياء، والموسيقى، والرياضيات، والمنطق، والخطابا، والأدب، والتاريخ، وقيادة الجيوش، والفقه، وقد سمع الحديث من أئمة الحديث فى عصره، وقد سمع منه، وروى عنه جماعة من المحدثين، كما يروى عنه (ياقوت الحموى) فى (معجم البلدان) ويا له من طودا شامخ فى مختلف فروع العلم والمعرفة...

الحياة الثقافية فى إقليم الشاش:

يعد إقليم (الشاش) أحد أقاليم ما وراء النهر الستة، حسب التقسيم الجغرافى القديم وتقع اليوم - فى جمهورية (أوزبكستان) بالاتحاد السوفيتى، وعاصمة هذا الإقليم كانت تدعى (بنكث) وتدعى - اليوم - طشقند، و(طشقند) عاصمة (أوزبكستان) وقد اهتم الروس بها منذ أن استولوا على خانية بخارى عام ١٩٢٢م، وكانت (طشقند) تتبعها، وأهملوا (بخارى) و(سمرقند) لأنها أكثر استعصاء على الإذالة.

وقد وصف ياقوت الحموى فى (معجم البلدان) إقليم (الشاش) ونحن ننقل وصفه - هنا بشىء من الاختصار:

(الشاش) إقليم ما وراء النهرين (جيحون) و(سيحون) خرج منها خل من العلماء والرواه والفصحاء، أهلها شافعية على الرغم من انتشار المذهب الحنفى فى معظم بلاد ما وراء النهر ويرجع ذلك إلى أبى بكر محمد بن إسماعيل القفال الشاشى، الذى فارقها، وتفقها، ثم عاد إليها، ونشر بها المذهب الشافعى.

وصفها (الأصطخرى) بقوله: فأما (الشاش) و(إيلاق) فمتصلتا العمل، لا فرق بينهما: ومقدار عرض الشاش مسيرة يومين فى ثلاثة، وليس بخرسان وما وراء النهر إقليم على مقداره من المساحة أكثر منابر منها، ولا أوفر قرى وعمارة، فحد منها ينتهى إلى وادى (الشاش) الذى يقع فى بحيرة (خوارزم) وحد باب الحديد ببرية، بينها وبين (أسفيجاب) تعرف بقلاص، وهى مراع، وحد آخر إلى

تنكرة تعرف بقرية النصارى، وحد إلى جبال منسوبة إلى عمل (الشاش) إلا أن العمارة متصلة إلى الجبل وما فيه مفترش العمارة.

و(الشاش) فى أرض سهلة ليس فى هذه العماة المتصلة جبل ولا أرض مرتفعة، وهي تغر في وجه الترك (المقصود التركستان الشرقية قبل إسلامها) وأبنيتهم واسعة من طين وعامة دور هم يجرى فيها الماء، وهي كلها مستترة بالخضرة، من أنزه بلاد ما وراء النهر قصبتها (عاصمتها) (بنكث) (طشقند) ولها مدن كثيرة وصفها (أبو الربيع البلخى) قائلا:

(الشاش) وبالصيف جنة، ومن أذى الحر جنة

لكنني يعتريني بها من البرد جنة

وقال (البشارى) (الشاش) كورة (إقليم أو مقاطعة) وقصبتها (بنكث).

وإقليم الشاش مرتبط بإقليم إيلاق أوق ارتباط حتى قال عنه ياقوت (وكورته مختلطة بكورة الشاش لا فرق بينهما). ويقول بارتولد وإيلاق هى وادى انجرين والشاش هى وادى نهر باراك المعروف باسم جرجيق.. ولهذا النهر منبعان يخرج أحدهما من جبال بسكام ويخرج الآخر من رستاق جدغل.

وبالقرب من نهر انجزين تقوم مدينة نباكث وبالقرب من فم نهر جرجيق تقوم نجاكث والمسافة التى تفصل بين هاتين المدينتين ثلاثة فراسخ فقط..

ويقول المقدسى أن بناكث لم يكن بها حصن وكان جامعها. فى السوق وقد خربها المغول فى هجومهم المدمر فيما دمروا من مدن العالم الإسلامى ولكن تيمور لنك أعاد بناءها وأسماها شاهرخيه تكريما لأبنه القائد المغوار (شاهرخ) ولا تزال أطلال شاهرخيه (كما يقول بارتولد) ماثلة على الضفة الشرقية لنهر سرداريا (سيحون) عند فم وادى جيشجن. أسفل هذا الموضع تقوم أطلال مدينة بناكث القديمة.

ويصف بارتولد عاصمة إقليم الشاش وهى بنكث (او طشقند الحالية حسب أحسن التخمينات) فيقول: كان يحيط بمدينة بنكث سوران داخلى وخارجى وللسور الخارجى سبعة أبواب وللسور الداخلى عشرة أبواب وكان للشهرستا

والآخر على المريض (الضاحية). . وكان طول البلد فرسخ وعرضها فرسخ. . وكانت المدينة وأطرافها تزخر بالبساتين والرياض.

ويشتهر إقليم الشاش وإقليم إيلاق بمعادنه الكثيرة وخاصة معدن الفضة. . . وكان منجم الفضة على بعد مرحلة من بنكث (طشقند الحالية). . وكانت فضة الشاش تستخدم فى السكة (النقود) طوال العصر العباسى.

ويذكر ياقوت عن أسبره أنها ناحية بأقصى بلاد الشاش بما وراء النهر. . وأنها بلاد يخرج منها النفط والفيروز والحديد والصفر والذهب والآنك. . وفيها جبال الفحم الذى كان يباع الحمل والحملان منه بدرهم واحد فقط. . وكان لهذا الفحم خاصية عجيبة إذ أنه بعد احتراقه يتحول إلى رماد شديد البياض فيستعمل رماده فى تبييض الثياب ويتعجب ياقوت من ذلك قائلا (ولا يعرف فى بلدان الأرض مثل هذا).

أما قصبة إيلاق فهى مدينة تونكث التى عب على الباحثين من أمثال بارتولد (تحديد موقعها) وكانت الأرض المزروعة الواقعة على نهر جرجيق يطوقها من ناحية الشمال حائط يمتد من جبال سبالك إلى وادى سرادريا (سيجون) وقد بنى هذا الحائط لحماية المنطقة من غارات بدو الترك وذلك قبل إسلامهم وقبل فتح السامانيين لأسفيجاب أى قبل عام ٢٢٦/. . وينسب ابن حوقل بناء هذا الحائط مائلة إلى حين بارتولد لها (فى بداية القرن العشرين) على شكل حاجز يسميه الأهالى كمبير دوال أى الحائط العجوز (ويا يلها من تسمية تدل على عمره الذى يزيد عن ١٢٠٠ عام) ويبلغ طول بقايا هذا الحائط المكتشف ٢٤ ميلا يدل على أن طول هذا الحائط كان كبيرا جدا. وقد كان هذا الحائط يصل إلى شط نهر جرجيق على بعد فرسخين فوق بنكث (طشقند).

وعلى النقيض من أشروسنة كان عدد مدن الشاش وإيلاق كبرا للغاية فيذكر الأصطخرى ٢٧ مدينة بالشاش بينما يذكر المقدسى ٣٤ مدينة. . ويذكر الأصطخرى أسماء أربعة وقد وصف ياقوت إيلاق بما يلى:

إيلاق:

مدينة من بلاد الشاش المتصلة ببلاد الترك (المقصود ببلاد الترك (المقصود التركستان الشرقية قبل إسلامها) على عشر فراسخ من مدينة الشاش، أنزه بلاد الله وأحسنها.

وهو عمل برأسه.. وكورت مختلطة بكورة الشاش لا فرق بينهما.. وقصبتها تونكث وبإيلاق معدن الذهب والفضة فى جبالها ويتصل هذا الجبل بحدود فرغانة وقد نسب إليها قوم منهم:

١ - أبو الربيع طاهر بن عبد الله الأيلاقى:

كان أماما تفقه على أبى بكر عبد الله بن أحمد القفال المروزى وأخذ الأصول عن أبى إسحاق الأسفرائينى، مات سنة ٤٦٥هـ/ ٩٧٥م له ست وتسعون سنة.

٢ - أبو عبد الله محمد بن داود بن أحمد الأيلاقى:

الخطيب: من إيلاق، أقام بمرو مدة وأخذ عن الحسن بن مسعود الفراء ثم انتقل إلى نيسابور وسكنها واخذ علم (الخلاف) فى أقوال الفقهاء عن محمد بن يحيى الجيزى. كان أبو عبد الله فقيها صالحا سمع الحديث الكثير من الفراوى وعبد المنعم القشيرى وزاهر الشحامى وطبقتهم ثم قدم مرو وأقام فى المدينة إلى أن مات سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤ ومن أعلام «الشاش» الإمام أبو بكر محمد بن على بن إسماعيل القفال (الكبير) «الشاشى»: ولد ٢٩١هـ/ ٩٠٤م بالشاش، وطلب العلم، بعد أن اشتغل فترة بصنع الأقفال، وارتحل كما يفعل طلبة العلم - فى ذلك العصر - إلى خراسان والعراق ثم عاد بعد أن أصبح علما فى الفقه الشافعى والتفسير واللغة والحديث - سمع الحديث من أبى عروبة، وأبى بكر بن خزيمة ومحمد بن جرير الطبرى، وأبى بكر الباغندى، وأبى بكر بن دريد، وروى عنه الحاكم، وأبو عبد الرحمن السلمى.

له عدة تصانيف: منها (أصول الفقه) و(محاسن الشريعة) و(شرح رسالة الشافعى) وتوفى سنة ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م «وأدب القضاة» ٣م. ومن اعلامها الإمام أبو بكر محمد بن أحمد بن الحسين الشاشى القفال، الملقب بفخر الإسلام:

ولد بقرية (ميافرقين) من أعمال الشاش سنة ٤٢٩هـ/ ١٠٢٧م ورحل - كعادة طلبة العلم إلى (خراسان) و(العراق) وطهر ونبغ فى (بغداد) وتولى التدريس فى المدرسة النظامية أشهر جامعات العالم فى ذلك الزمان، وصارت إليه رياسة الشافعية ببغداد والعراق.

له عدة كتب، منها: حلية العلماء فى معرفة مذاهب الفقهاء) و(المعتمد) و(الشافعى شرح مختصر المذنى) و(الطلاق). والشافعى شرح كتاب الشامل لشيخه أبى نصر بن الصباغ شرحه فى عشرين مجلدا.

وتوفى ببغداد سنة ٥٠٧هـ/ ١١١٤م بعد أن نشر العلم، تدريسا، وتعليما، وكتابة وخطابة. ودفن إلى جانب شيخه أبى إسحاق الشيرازى صاحب التنبيه والمهذب.

ولعل القارئ يلاحظ تكرار لقب القفال فى علماء الإسلام، وبخاصة علماء بلاد ما وراء النهر، و(القفال) لقب (صنعة الأقفال) ونتيجة لهذه الجامعات المفتوحة فى المساجد تحول هؤلاء الصناع المهرة من صنع الأقفال إلى صنع الرجال، ومن التفنن فى طرق الحديد إلى التفنن فى طرق الحديث، والفقه واللغة، والتفسير.

وقد مر بنا ذكر الإمامين: أبى بكر محمد بن على بن إسماعيل القفال: ومحمد بن أحمد بن الحسين القفال، وكلاهما من (الشاش) وسيأتى:

أبو بكر عبد الرحمن بن أحمد القفال المروزى، المشهور بصنع الأقفال، حتى بلغ عمره أربعين سنة، ثم طلب العلم، وصار فيه علما أربعين سنة أخرى، وتوفى سنة ٤١٧هـ/ ١٠٢٦م فى مصر، ودفن عند قبر الإمام الشافعى، وكان علما من أعلام الشافعية فى العراق، ثم فى مصر.

ومن أعلام الشاش أبو الحسن على بن الحاجب الشاشى:

وهو أحد العلماء الاعلام فى الحديث والفقه، طلب العلم فى خراسان والعراق والشام والحجاز، ثم عاد إلى بلاده الشاش يعلم الناس، وكانت وفاته بها.

ومن أعلامها أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم الشاشى:

كان يعد فقيه الحنفية فى زمانه، ولد بالشاش، ونشأ بها، ثم ارتحل لطلب

العلم، وسكن مصر، وتولى بهـا القضاء، وله كتاب (أصول الفـقه) المشهور باسم (أصول الشاشى) وكانت وفاته سنة ٣٢٥هـ/ ٩٣٧م.

ومن أعلام الشاش أحمد بن محمد بن أحمد الشاشى:

وهو ابن فخر الإسـلام محمد بن أحمـد بن الحسين الشاشى المتـقدم ذكره. وكان أحمد قد أفتى فى حياة والـده وحدث. وبلغ مكانة عالية فى العلوم الشرعية وإن لم يصل إلى مكانة والده توفى سنة ٥٢٩هـ/ ١١٣٤م.

ومنهم: أحمد بن عبد الله بن محمد الشاشى:

وهو حفـيد فـخر الإسلام المـتقدم ذكـره تفقـه على ابن الخل شارح كـتاب «التنبيه» للشيرازى، وكانت وفاته سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م.

ومنهم: عبد الله بن محمد ابن أحمد الشاشى:

والد أحمد بن عبد الله الشاشـى. . . وهو أيضا ابن فخر الإسلام الشاشى. ولد سنـة ٤٨١هـ/ ١٠٨٨م وتوفى سنة ٥٢٨هـ/ ١١٣م. ودفن فى بغـداد إلى جانب والده الفخر الشاشى.

ومنهم: عمر بن محمد بن موسى الشاشى:

ولد سنة ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م وتفـقـه بمرو على الإمـام أبى الفـضل اليـمنى وسمع بهـا الحديث من علمائها وتنقل فـى البلاد طلبا للعلم. ومات بقـاشان سنة ٥٢٧هـ / ١١٣٢م.

ومنهم: محمد بن على بن حامد الشاشى:

شيخ الشافعية في عصـره. تفقه على الإمام أبى بكر السنجى فى الشاش ثم استوطن غزنه (فى أفغانستان أيضا) وصنف تصـانيف كثيرة وظهر بها علمه وفضله ثم استدعـاه نظام الملك إلى هراة (فى أفغانستان أيضـا) كان مولده سنة ٣٩٧هـ / ١٠٠٦م ووفاته سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م.

ومنهم: أبو عبد الله محمد بن عمرو محمد الشاشى:

كان فقيها عالما تفقه على الإمام البغوى وحدث عنه وكانت وفاته سنة ٥٥٦هـ/ ١١٦٠م

ومنهم: أبو الليث نصر بن حاتم بن بكر الشاشى:

من أوائل أصحاب ابن سريج. من تلاميذه الإمام أبى بكر محمد بن على الشاشى (القفال الكبير) ومنهم الحاكم الذى قال: كتبنا عنه سنة ٣٣٩هـ/ ٩٥٠م.

(علماء أشروسنة) فيصفها ياقوت بما يلى:

أشروسنة (بالضم ثم السكون وضم الراء وواو ساكنة وسين مهملة مفتوحة ونون وهاء).

أشروسنة بلدة كبيرة بما وراء النهر من بلاد الهياطلة بين سيحون وسمرقند بينها وبين سمرقند ١٦ فرسخا.

قال الأصطخرى: أشروسنة اسم الإقليم وليس بها مكان ولا مدنية بهذا الاسم والغالب عليها الجبال تقع شرقها فرغانة وغربها سمرقند وجنوبها حدود كش والصغانيان وشومان وواشجرد وراشت.

عاصمتها بنجيكث ومن مدنها ساباط وزامين وديزك وخرقانة ينسب إلى أشروسنة عدد من أهل العلم منهم أبو طلحة حكيم بن نصر بن جند بك الأشروسنى.

ويقول بارتولد أن كبرى مدن أشروسنة هى (بنجيكث كما يذكرها ياقوت) وأنها الآن أطلال تقع على بعد ستة عشر ميلا إلى الجنوب الغربى من أوراتبة.

أما ثانى مدن أشروسنة فهى زامين التى تقع على ضفتى نهر يخرج من الجبال القريبة ولم يكن لها سور كعادة المدن القديمة، بل كانت الأسواق على ضفتى نهر وتصل بينهما جسور صغار.. وهى لا تزال باقية باسم سرسندة كما يقول بارتولد..

وأما جيزك أو ديزك فتعتبر ثالث مدن أشروسنة... وكانت تقع فى السهل فى رستاق فكنان واشتهرت بأنها أحد أهم مراكز المجاهدين المعروفين بالمطوعة لأنها

كانت على حدود بلاد الكفار من القبائل التركية الشرقية الذين لم يكونوا قد دخلوا فى الإسلام بعـد. . وكان بها عـدد كبير من الأربطة والخـانات المخصصـة لهؤلاء المجاهدين. . ومن اشهر هذه الأربطة رباط خدايسر الذى بناه الأفشين قائد المعتصم قائد المعتصم.

الحياة الثقافية فى فاغانة

جغرافيتها ومدنها

تقع فرغـانة - اليوم فى جمهـورية (قيرغيـزيا) فى الاتحاد السوفيـتى، وقد أهملت فرغـانة وأصبحت العـاصمة (فرونزى) - (ويقع جزء منها فى جمـهورية أوزبكسـتـان وصف ياقوت الحموى فـرغانة فى معـجم البلدان فقال عنهـا: (مدينة وكور واسعة وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان فى زاوية، من ناحية هيطل من جهة مطلع الشمس على يمين القاصد لبلاد الترك، كثيرة الخيرات، واسعة الرستاق يقال كان بها أربعون منبـرا، بينها وبين سمرقند خمسون فرسخـا، ومن ولايتها خجندة (خوقند) وتقع خوقند حاليا فى شرق جمهورية أوزبكستان.

وبفرغانة فـى الجبال الممتدة بين التـرك وبينهما من الأعناب والجـوز والتفاح وسائر الفـواكه والورد والبنفسج وأنواع الـرياحين، مبـاح ذلك كله، لا مالك له، ولا مانع يمنـع الآخذ منه، وكذلك فى جـبالهـا وجبال كـثيرة ممـا وراء النهر من الفسـتق المباح ما لـيس ببلد غيره. قـال الأصطخرى (فرغـانة) اسم الإقليم، وهو عريض، على سعـة مدنها وقراها وقصبـتها (عاصمتـهـا أخسكيت، وليس بما وراء النهر أكـثر قـرى من فرغـانة، وربما بلغ حد القـرية مرحلة لكثـرة أهلها وانتـشار مواشيهم وزروعهم.

ويصف بارتولد أخسكيت فيقول (باختصار وتصرف):

أخسكيت: قـصبة ولايـة فرغانة تقع فى الجـزء الشمالى مـنها - على شط سيحون (سرداريا) الأيمن ويذكر المقـدسى وابن حوقل أنها كانت مكونة مثل المدن القدمية من قلعة (قهندز) ومدينة (شهـرستان) وضاحية (ربض) وكانت دار الإمارة والحبس بالقلعـة. أما المسجد الجـامع فكان بالشهرسـتان بجوار القلعة (كـما هو

الحـال فى سمـرقند وبخارى) وأمـا مصلى الـعيـد فكان على شط نهر جيحـون (سرداريا).

وكانت الأسواق فى الشهـرستانى وفى الربض. . وكان للشهرستـان خمسة أبواب وكان يسـقى الشهرستـان عدد من القنوات المتصلة بالنهر صب فـى حياض جميلة جوانبها من الآجر والجص مصهرجة.

وكانت المدينة تمتد لأكـثر من ثلاثة فراسخ كما يقول ابن حـوقل. . ويقارنها المقدسى بمدينة الرملة فى فلسطين فيقول أنها أكبر منها بمرة ونصف وكانت البساتين تمتد خارج المدينة إلى فرسخين (الفـرسخ ثلاثة أميال) وفى الجانب المقابل من النهر مروج ومزارع كثيرة تليها رمال تمتد بمقدار مرحلة.

وكان يربط أخـسكيث بالأجزاء الجنوبية لفرغـانة عدد من الطرق فكان هناك طريق مستقـيم يربطها بخوقند مجتازا المفازة والرمال (سـبعة فراسخ) وهناك طريق آخر يربطهـا بخوقند عبر مـدينة باب وهناك طريق يربط أخسكيث بمدينة قـبا يبلغ طوله عشرة فراسخ.

وتقع مدينـة كاسان على بعـد خمـسة فراسخ شـمال أخـسكيث. . وكانت كاسان عاصمة لأمراء فرغانة فى القرن الثامن والتاسع الميلادى.

ويعد القـدسى من مدن فـرغانة وقـراها أربعين ذات مسـجد جـامع. . أما ياقوت فيصف أخسكيث بما يلى:

أخسكيث:

بالفتح ثم السكون وكسر السين المهملة وياء ساكنة وكاف وث مثلثة وبعضهم يقـول بالتـاء المثناة. . اسم مديـنة بما وراء النهر وهـى فرغـانة تقع على شط نهـر الشاش (نهـر سيحون أو سـرداريا) على أرض مستـوية. . بينها وبين الجبـال نحو فرسخ شمالى النهر.

ولها قـهندز وربض. ومقدارها فى الكبر نحـو ثلاثة فراسخ (تسعـة أميال) وبناؤها طين وعلى ربضـها أيضا سـور. وللمدينة الداخلة (الشـهرستـان) أربعة أبواب.

وفى المدينة والربض مياه جارية وحياض كثيرة، وكل باب من أبواب ربضها يفضى إلى بساتين ملتفة وأنهار جارية لا تنقطع مقدار فرسخ (٣ أميال).. وهى من أنزه بلاد ما وراء النهر.

وقد خرج منها جماعة من أهل العلم والأدب منهم:

أبو الوفاء محمد بن محمد بن القاسم الأخسكيثى:

كان إماما فى اللغة والتاريخ.. توفى سنة ٥٢٠هـ/ ١١٢٥م وأخوه أحمد بن محمد بن القاسم كان أديبا فاضلا شاعرا.. وكان مقامها بمرو وبها ماتا. ومن شعر أحمد يصف بلده:

من سوى تربضى خلق الله اللئاما
أن أخسكيث أم لم تلد إلا الكراما

ومنها نوح بن نصر بن محمد الفرغانى الأخسكيثى قدم همذان سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م وروى الحديث عن بكر بن فارس الناطقى وأحمد بن محمد الهروى.. وسمع بالعراق وخراسان والشام.

وتعتبر خجندة ولاية من ولايات فرغانة.. وهى مدينة تتبعها أرياف تدعى الرساتيق وقد كانت خجندة فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وحدة إدارية مستقلة ولكنها غدت بعد ذلك من أعمال فرغانة وكان لخجندة ملك قبل الإسلام. وكانت خجندة من أكبر مدن ما وراء النهر وتخضع لنفس النظام الذى كانت تتبعه تلك المدن أى أنها مكونة من القلعة (القهندز) والمدينة (الشهرستان) والضاحية (الربض).. وفى القلعة كان الحبس وفى الشهرستان يقوم المسجد الجامع.. أما دار الإمارة فكانت فى الربض.. (على غير المعتاد.. لأن معظم المدن القديمة كانت دار الإمارة تقوم فى القلعة).

وقد اشتهرت خجندة بكرومها وبساتينها.. وكان عدد السكان من الكثرة بحيث لم تكن غلة الحقول المجاورة تفى بحاجتهم من الغذاء.. لذا فإن قمح المدينة كان يأتى من فرغانة وأشروسنة. (وتقع خجندة «خوقند» حاليا فى جمهورية أوزبكستان).

وكانت تشق وسط المدينة قناة تأخذ من نهر خوجة بافرغان أحد فروع نهر سرداريا (سيحون). وكانت مدينة كند تعتبر من أعمال خجندة.

وكانت الرحلة من خجندة إلى سمرقند تستغرق ثمانية أيام بالراحلة وتعتبر المنطقة الواقعة بينهما ومسافتها ١٤٨ ميلا ضمن ولاية أشروسنة وكانت المنازل فى هذه الطريق مجموعة من القرى والمدن التابعة لأشروسنة وهى باركث ورباط معد وزامين وساباط وأركند وشاوكث.. ولم عاصمة أشروسنة وهى بنجكث تقع على هذا الطريق..

وقد وصف ياقوت فى معجم البلدان خجندة بما يلى (باختصار وتصرف).

خجندة: بلدة مشهورة بما وراء النهر على شاطئ سيحون (سرداريا) بينها وبين سمرقند عشرة أيام.. وهى مدينة نزهة ليس بذلك الصقع أنزه منها ولا أحسن فواكه وفى وسطها نهر جار والجبل متصل بها.

وفيها يقول الشاعر:

ولم أر بلدة بإزاء شرق ... ولا غرب بأنزه من خجندة

هى الغراء تعجب من رآها ... وهى بالفارسية دل مزندة

وكان سلك بن زياد لما ولى خراسان ليزيد بن معاوية بن أبى سفيان أنفذ جيشا إلى خجندة فهزموا..

وقال الأصطخرى: خجندة متاخمة لفرغانة قد جعلناها فى جملة فرغانة.. وإن كانت مفردة فى الأعمال عنها، وهى فى غربى نهر الشاش (سيحون) وطولها أكثر من عرضها وليس فى عملها مدينة غير كند، وهى بساتين ودور مفترشة ولها قرى يسيرة ومدينة وقهندز (قلعة) وهى مدينة نزهة فيها فواكه تفضل على فواكه سائر النواحى وفى أهلها جمال ومروءة وهى بلد يضيق عما يمونهم من الزروع فيجلب إليها من سائر النواحى من فرغانة وأشروسنة أكثر من سنة ما يقيم أودهم. تنحدر السفن إليهم فى نهر الشاش (نهر سيحون) وهو نهر يعظم من أنهار تجتمع إليه من حدود الترك والإسلام.. وعموده نهر يخرج من بلاد الترك فى حد أوزكند ثم يجتمع إليه نهر خوشاى ونهر أوشى وغير ذلك فيعظم ويمتد

إلى أخسكيث ثم على خجندة ثم على بنكث (طشقند) ثم على بيكند فيجرى إلى فاراب فإذا جاوز صبران جرى فى بريــة تكون على جانبيه الأتراك الغزية حتى يقع فى بحيرة خوارزم (بحر الأرال).

وينسب إليهـا جماعة وافـرة من أهل العلم منهم أبو عمران موسى بــن عبد الله المؤدب عن أبى النصر محمد بن الحكم البزار السمرقندى وغيره.

وتعتبــر مرغينان من أهم مدن فرغانة وذلــك منذ عهد القراخانيين ويصــفها السمعانى كـما ينقله عنه ياقـوت فى معجـمه بأنهـا من أشهر الـبلاد من نواحى فرغــانة. وتليها مـدينة قبا وهــى الآن قرية (كوفـا) وتفوق من حيث الميـاه وعدد البساتين أخـسكيث العاصمة نفسهـا.. وكانت كبقية المدن القـديمة تضم (قهندز) (قلعة) وشهرستان (مدينة) وضـاحية (ربض) وكانت الأسواق ودار الإمارة والحبس بالربض.. أما المسجد الجامع فكان بالقلعة وتقع المدينة على مجرى ماء متصل بنهر سيحون (سرداريا).

ومن مـدن فرغانة أنـديجان والنســبة إليـها أنديجـانى وهى من المناطق التى فتحهـا المسلمون مبكرا رغم أن فرغانة لم تخضع نهـائيا للحكم الإسلامى إلا فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى).

وهناك أسطورة تزعم أن بفرغانة قبر النبى أيوب ولا تزال موجودة إلى اليوم باسم حضــرت أيوب وحولهـا مياه يـستشـفى بها لأنهم يعـتقدون أنهـا هى التى استشفى بها أيو ب عليه السلام.. وتقع حضرت أيوب هذه على بعد ميل ونصف من قرية جلال أباد بالقـرب من مدينة أنديجان ووصفهـا المقدسى، ويذكر بارتولد فى كتابه التركستان نقلا عن جمال قـرشى أن فى منطقة أسبيد بولان بفرغانة قبور الفين وسبعمائة من الصحابة والتابعـين الذين بعثهم عثمان بن عفان رضى الله عنه تحت أمرة محمد بن جرير فاستشهدوا جميعا فى واقعة مع الكفار.. ولا يزال هذا الموضع قائما إلى اليوم كـما يقول بارتولد. كما نجد فى منطقـة فرغانة فى خوقند قبر الإمام عبد الله بن على زين العـابدين بن الإمام السبط الحسين بن على المتوفى عام ١١٣هـ/ ٧٣١م.

وفى رباط سرهنك فى قرية كاخ من أعمال فرغانة نجد قبر فاتح بلاد ما وراء

النهر قتيبة بن مسلم الباهلي ويشير الأهالى إليه باسم مقبرة (الإمام الشيخ قتيبة) فى جلال كدك من أعمال أنديجتن.

ويصف ابن حوقل الأصطخرى مناجم الفحم فى جبال أسبره.. وكانت تباع ثلاثة أوقار (والوقر حمل حمارا) بدرهم فقط. هكذا كانت فرغانة، أما بعد دخلها الروس القياصرة، وذلك عام ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦م فقد أقاموا بها مستعمراتهم، وطردوا سكانها، وبحلول عام ١٣٣٤هـ/ ١٩١٥م - كان الروس قد أقاموا ثمانين مستعمرة روسية، وفى عام ١٣٣٥هـ/ ١٩١٦م - ثار الأهالى ضد القوات الغازية، فأبادت القوات الروسية مائة وخمسين ألفا من الأهالى. وشردت مئات الألوف، الذين فروا إلى الجبال، حيث لاقى العديد منهم حتفهم، نتيجة المجاعة الرهيبة، التى سببتها القوات الروسية بإحراقها المحاصيل، وتكررت حرب الإبادة، بعد أن جاء لينين وقامت الثورة الشيوعية بأبشع مما كانت عليه أيام القياصرة، وأبيد سكان المنطقة الشمالية من إقليم فرغانة (جمهورية قرغيزيا) عن بكرة أبيهم، حتى المواشى والأغنام لم تسلم من الإبادة، ففى المناطق الجنوبية التى بقى فيها القغيز (لأنها أقل خصوبة من المناطق الشمالية) تناقص عدد المواشى من ٦ مليون راس عام ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م إلى مليونى رأس عام ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م وذلك حسب الإحصاءات الرسمية السوفيتية. ولم تترك روسيا حتى أولئك الذين تظاهروا بالشيوعية وساروا فى ركابها من سكان القرغيز، بل أبعدت رئيس وزراء قيرغيزيا (يوسوف عبد الرحمانوف) وأعدمت رزفيلوف وعبد الكريم صديقوف لأنهما طالبا بإشباع سكان قيرغيزيا من حاصلاتها الزراعية قبل إرسال المنتجات الزراعية إلى موسكو. وفرغانة (قيرغيزيا) غنية فى ثروتها الزراعية والمعدنية وأهم حاصلاتها: القطن والشوندر السكرى، والحبوب، والفواكه، وأهم معادنها: الذهب، والقصدير، والتوتياء، والبترول، والفحم، الأنتومنى، والزئبق.

كانت (فرغانة) مسقط رأس علماء أجلاء مثل أحمد بن كثير الفرغانى الذى عاش فى زمن الخليفة العباسى المتوكل، وقد انتقل هذا العالم المهندس من فرغانة إلى بغداد حيث اشتهر فى علم الهيئة، ثم طلبه حاكم مصر إلى القاهرة فأنشأ بها المقياس الجديد لفيضان النيل فى منيل الروضة بالقاهرة. ومن علماء (فرغانة) الذين ينسبون إليها أبو منصور أحمد بن عبد الله الفرغانى الذى ولد عام ٣٢٧هـ/

٩٣٨م، وتوفى سنة ٣٩٨هـ/ ١٠٠٧م انتقل إلى مصر، وسكن بها إلى أن وافته المنية، واشتهر بمؤلفاته التاريخية، منها (سيرة كافور الاخشيدى) وسيرة العزيز (التاريخ). ومنها على بن أبى بكر بن عبد الجليل الفرغانى المرغينانى الذى يعد احد مشاهير علماء الأحناف، نسبته إلى (مرغينان) وهى إحدى قرى (فرغانة) ولد سنة ٥٣٠هـ ١١٣٥م وتوفى سنة ٥٩٣هـ/ ١١٩٤م وكان حافظا مفسرا محققا فقيها أديبا من تصانيفه (بداية المبتدى) وشرحه (الهداية فى شرح البداية) و(منتقى الفروع) و(الفرائض) و(مناسك الحج) و(مختارات النوازل) وفتاويه جمعها فى كتاب أسماه (التجنيس والمزو) ومنها حاجب ابن مالك بن راكين الفرغانى انتقل من بلده فرغانة إلى دمشق وحدث بها عن أحمد بن إبراهيم البالس وأحمد بن حمدون وعمرو بن على وهلال بن العلاء وغيرهم.. وروى عنه سعيد بن الأعرابى ويوسف الميانجى وأبو بكر بن ابى دجانة وأبو القاسم الطبرى وغيرهم وكانت وفاته بدمشق سنة ٢٠٦هـ/ ٨٢١م.

ومنها: أبو الفتح محمد بن إسماعيل الفرغانى دخل نيسابور، وتلقى علوم الحديث ومنها حسام الدين محمد بن محمد بن عمر الأجنسكيثى نسبة إلى (أخسكيث) وهى عاصمة إقليم فرغانة آنذاك وتوفى سنة ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م وهو فقيه حنفى أصولى، له كتاب (المنتخب فى أصول المذهب)، المشهور بالمنتخب الحسامى، الذى شرحه القاسم الجنسكيثى ولد سنة ٤٦٦هـ/ ١٠٧٤م فى فرغانة وهى (أخسكيث) اشتهر بالأدب، وحسن الصنعة فى الكتابة، واختاره الحكام والسلاطين، ليكون كاتبهم، له مصنفات فى الأدب، منها كتابه (الزوائد) فى شرح سقط الزند - للمعرى وتوفى بمرو سنة ٥٣٨هـ/ ١١٣٤م.

***

الفصل الثامن

العمارة فى أسيا الوسطى

العمارة فى سمرقند فى العهد التيمورى

(٧٧١-٨٠٧هـ/١٣٧٠-١٤٠٥م)

سمرقند الياقوتة العظيمة، إحدى كبرى المدن فى جمهورية أوزبكستان الحالية، وأوزبكستان بمعنى أرض الأزبك، وهى كلمة فارسية من شقين: ازبك وتعنى سيد نفسه وستان بمعنى الأرض، وكانت سمرقند عاصمة أوزبكستان، غير أنه منذ أن اجتاحت قوات الجنرال الروسى(كاوفمان) الإمارات الإسلامية فيما وراء النهر عام(١٢٨٥هـ/١٨٦٨م) فى ظل حكم القيصر الكسندر الثالث تحولت العاصمة إلى طشقند بهدف تقليص الدور التاريخى للمدينة الإسلامية، ومنذ ذلك الحين لم تعد سمرقند أكثر من متحف للفن والعمارة.

وسمرقند مدينة مشهورة بجودة هوائها وعذوبة مائها ووفرتها وخصوبة بساتينها وفواكهها الحلوة، وينزل فيها المطر بكثرة فى الربيع والخريف، وتكسو جبالها المحيطة بها الثلوج فى الشتاء، واشتهرت سمرقند عبر التاريخ بالحرير وكان يعرف بالحرير السمرقندى.

وقد ذكرها الرحالة والجغرافيون فى كتاباتهم حيث يقول ابن بطوطة عن سمرقند: "وهى من أكبر المدن وأحسنها وأتمها جمالا، مبنية على شاطئ واد يعرف بوادى القصارين عليه النواعير تسقى البساتين، وعنده يجتمع أهل البلد بعد صلاة العصر للنزهة والتفرج، ولهم عليه مصاطب ومجالس يقعدون عليها، ودكاكين تباع فيها الفاكهة وسائر المأكولات، ويقول أيضا: "وأهل سمرقند لهم مكارم أخلاق ومحبة فى الغريب.

ويصف الاصطخرى سمرقند فى كتابة المعروف بالمسالك والممالك بقوله: "والموصوف من متنزهات الأرض فى صغد سمرقند ونهر الابله وغوطه ودمشق، وصغد سمرقند أشهر الأماكن الثلاثة، وهى أذكى بلاد الله وأحسنها أشجارا

وثمارا، وفى عامة مساكنهم البساتين والحياض الجارية، فلما يخلو مسكن أو دار من نهر جار.

وأورد ياقوت الحموى سمرقند فى كتابه معجم البلدان بقوله: "كأنها السماء للخضرة وقصورها الكواكب للإشراق، ونهرها المجرة للاعتراض، وسورها الشمس للاطباق.

وتقع مدينة سمرقند على ضفاف نهر زرافشان(ناثر الذهب) على بعد حوالى(٢٠٠) كيلو متر شرقى بخارى، وبجوار مدينة سمرقند القديمة (الأثرية) توجد أطلال مدينة افرسيان التى.تعود إلى حوالى (٥٠٠) سنة قبل الميلاد حتى تدمير المغول لها عام (٦١٧هـ/ ١٢٢٠م) وكان فى نهاية القرن الأول الهجرى/ بداية القرن الثامن الميلادى قد استولى عليها القائد العربى (قتيبة بن مسلم الباهى) وبعد الفتح أنشأت مدينة جديدة فى الجنوب الغربى منها هى مدينة سمرقند التى أصبحت مركزا صناعيا هاما لإنتاج الورق، وقد عرفت أيضا صناعة الفخار والزجاج، حيث أظهرت الحفائر الأثرية عن وجود بقايا لأفران الفخار والزجاج، كما كشفت عن بقايا المسجد الكبير الذى أحرق أثناء غزو المغول لها.

وقد عادت لسمرقند مرة أخرى شهرتها العالمية فى عام(٧٧١هـ/ ١٣٧٠م) عندما استولى عليها الإمبراطور المغولى تيمور لنك واتخذها عاصمة له، وقد أحاط المدينة بسور طوله (٧) كيلو متر وجعل لها أربعة أبواب:

باب الصين الذى يقود إلى الشرق، وباب بخارى المدينة التوأم (بل المدينة الأم) إلى الشمال، وباب النوبهار إلى الغرب، حيث كان يوجد معبد بوذى فى الزمن القديم، والباب الكبير أو باب كش (كيش) إلى الجنوب الذى يرتبط باسم بلدة كش، موطن تيمور الأصلى.

وجعل بقلب المدينة ميدانا عرف بميدان ريكستان (وتعنى المكان الرملى) كان مقرا للسوق الرئيسى الذى يموج بالرواج التجارى وتتوقف فيه القوافل المتجهة بين الشرق والغرب.

وشيد بالمدينة العديد من المبانى تمثلت فى عدد من القصور، وقلعة، ومسجد يحمل اسم زوجة بى بى (بيبى) خانم، ومدرسة، كما أنشأ مدينة جنائزية(شاهى

زندة)، وضريحا (جور أمير) وغيرها، غير أنه للأسف لم يتبق من عمائر تيمور في سمرقند إلا القليل.

وكما هي سنة الحياة في انهيار أمم وقيام أخرى، فقد ظهر على مسرح الأحداث أوائل القرن (٧هـ/ ١٣م) في منطقة آسيا الوسطى المغول الذين بدأ طوفان زحفهم على ممالك السلاجقة تحت قيادة جنكيزخان في حوالي سنة (٦١٥هـ/١٢١٨م) وتمكن هذا القائد في مدة وجيزة من هزيمة السلاجقة وغزو مدينتي سمرقند والري العاصمة في عام(٦١٧هـ/ ١٢٢٠م)،ثم امتد نفوذهم ليشمل باقي شرق العلم الاسلامي.

وعندما دخل المغول سمرقند كانت واحدة من أكبر وأزهى المدن الخوارزمية وأكثرها رجاء، فحاصروها وقتلوا حاميتها من الجند الخوارزمية، ثم أمروا أهلها بعشرات الآلاف بالخروج من ديارهم ومساجدهم، حيث تم ذبحهم بدون تفرقة بين رجل وطفل وامرأة وحطموا كافة مساجدها وأشعلوا فيها النيران، ونهبوا المدينة وأسواقها ومتاجرها حتى بدت المدينة كمدن الأشباح الخاوية.

وعن خراب المدينة على يد جنكيزخان يصف ابن بطوطة ذلك بقوله: "وكانت على شاطئه (يقصد وادي القصارين السابق ذكره) قصور عظيمة، وعمارة تنبئ عن علو همم أهلها، فدثر أكثر ذلك... وكذلك المدينة خرب كثير منها، ولا سور لها ولا أبواب عليها، وفي داخلها البساتين.

وقد استطاع فرع من الأسرة المغولية أن يستقل بحكم إقليم بخارى غرب تركستان ويعرف هذا النوع بأسرة (برلاس) من سلالة حنكيزخان، وفي أواخر القرن (٨هـ/ ١٤م) ظهرت هذه الأسرة المغولية على مسرح الأحداث السياسية (٧٧٢ - ٩٠٨هـ/ ١٣٧٠ - ١٥٠٢م) متمثلية في أحد الحكام المحليين الأقوياء ويدعى تيمور لنك (أى تيمور الأعرج)، الذى ولد بالقرب من كش(كيش) في شهر سيز (المدينة الخضراء) من أعمال ما وراء النهر في٢٥ شعبان سنة ٧٣٦هـ/ ٨ إبريل ١٣٣٦م، وأبوه الأمير تارغاى (أورتغاى) والى كيش ونواحيها، وقد اعتلى العرش سنة (٧٧١هـ/ ١٣٧٠م)، وكان مركز حكمه في أول الأمر مدينة كيش السابق ذكرها جنوب سمرقند، وقد تميز بالذكاء والحكمة والشجاعة والدهاء

وسرعة الحركة وخفتها وسيطرته على جنده سيطرة مطلقة، وكان متوسط القامة، كبير الرأس، نضر البشرة، وقد ابيض شعره فى سن مبكرة، وأصاب جرحان فى قدمه ويده مشوهة بعض الشئ، وتوجد تصاوير له رسمها فنانون من الفرس والهنود وجلها محض الخيال.

وقد تسمى تيمور بعده ألقاب منها (كروكان) أى تيمور المليح، والأمير الكبير، وصاحب قران، وفى عام (٧٩٠هـ/١٣٨٨م) لقب بالسلطان، كما لقب بعد وفاته(جنت مكان) أى ساكن الجنة، وكان لتيمور عدة زوجات حيث تزوج من أميرتين صينيتين يطلق عليهما ابن عربساه اسم الملكة الكبرى، وتزوج أيضا من تومان ابنة الأمير موسى والى نخشب (نقشب)، والوجاى تركمان خاتون حفيدة الأمير قزعان، ومن جلبان، وهى امرأة نادرة الحسن

قتلها لذنب توهمة، وكان لتيمور سرادرى كثيرات، وكان له من الأولاد أربعة ذكور.

وقد مرض تيمور فى ١٠ شعبان٨٠٧هـ/١٢يناير١٤٠٥م، وشعر بدنو أجله وهو فى طريقه لفتح الصين بعد أن عبر نهر جيجون، فأوصى بكل ما يريد، وتوفى فى ١٥ شعبان ٨٠٧هـ/١٧ يناير١٤٠٥م بالغا من العمر إحدى وسبعين سنة قضى منها ست وثلاثون سنة فى الحكم قضاها بين حروب وفتوحات، ووضع جثمانه فى تابوت من الأبنوس وحمل بعد ذلك بشهرين إلى سمرقند حتى احتفل بجنازته ودفن فى ضريح ضخم يعد آية من آيات العمارة يعرف باسم جور أمير.

وقد تمكن من وضع اسمه فى التاريخ الوسيط كواحد من أكثر القادة دموية وشراسة، فقد تغلب على أقاربه من أسرة برلاس وحطم كل خصومه وهدد كل أعدائه وكان المسلمون أول ضحاياه حيث دمر إمبراطوريتهم فى الهند وبلاد ما وراء النهر ثم اتجه إلى إيران والعراق فغزاهما وانتصر على الدولة المظفرية ودولة الكرت فى إيران، ودولة آل جلاتر فى العراق، وبذلك خلف تيمور الأسرة الأيلخانية المغولية (أبناء عمومته) فى حكم إيران والعراق، بعد أن فتح تبريز عام (٧٨٨هـ/١٨٨٦م) وبغداد عام (٨٠٤هـ/١٤٠١م)، ووصلت جيوشه فى عام (٨٠٦هـ/١٤٠٣م) إلى آسيا الصغرى وتمكن من هزيمة الأتراك العثمانيين الذين

خلفوا السلاجقة الأتراك فى حكم بلاد الأناضول وأسر سلطانهم بايزيد الأول، وهزم المماليك فى حلب وحماة ودمشق دون أن يتمكن احد من رفاقه وتفادى مذابحه، ولهذا تعتبر وفاة تيمورلنك انفراجا للعثمانيين والمماليك على حد سواء.

وقد خرب تيمورلنك شيراز ودلهى ودمشق وحلب وحماة... وغيرها وذبح أهلها واتخذ من سمرقند عاصمة له، وظلت كذلك طوال حياته حتى نقل من ابنه شاه رخ(٨٠٧ - ٨٥١هـ/ ١٤٠٥ - ١٤٤٧م) مركز الحكم إلى عاصمة جديدة هى مدينة هراة، وعلى الرغم من قسوة تيمور لنك فى تدمير المدن إلا أنه اهتم برعاية الفن وظهر فى عهده الفن المعروف بالفن التيمورى، ووصلت البلاد فى عهده إلى درجة كبيرة من الثقافة الفنية، وصارت عاصمته سمرقند أضخم وأعظم عاصمة فى الشرق الإسلامى، حيث استقدم لها العمال المهرة من جميع ولايته، وقد ملئت بالعمائر الضخمة، وجعل منها سوقا يؤمها الناس من جميع الأجناس، ولم يخر وسعا فى تشجيع التجارة والصناعة وقرب له العلماء.

تابع النهضة الفنية والمعمارية قمة ازدهارها عند تشجيع وعناية الحكام بها، ومن هؤلاء الحكام الذين اهتموا بالفنون والعمارة تيمورلنك، الذى على الرغم من شهرته وقسوته كما سبق ذكره فى تدمير المدن الكبيرة المعاصرة له، مثل: دلهى، شيراز، دمشق، حلب، وحماه وغيرهما، إلا أنه اهتم بعاصمته وقاعدة ملكه سمرقند (٧٧١ - ٨٠٧هـ/ ١٣٧٠ - ١٤٠٥م) ويذكر المؤرخون أنه فعل ذلك لكى يجعل عاصمته تصبح عروس الشرق الإسلامى فى المدينة والفنون، حتى أنه ذهب إلى حد اعتبار الاشتراك فى عمائر فرضا على مهرة البنائين والصناع فى الأقاليم المختلفة من دولته.

وعلى الرغم من مرور (٦٠٠) سنة على وفاة العاهل إلا أن الآثار الباقية فى مدينة سمرقند تدل على ما كانت عليه هذه المبانى من عظمة وفخامة، لأنها كانت تطورا طبيعيا لما كانت عليه فى العصرين السلجوقى والأيلخانى، فقد تأثر المعمار السمرقندى عند تشييده للعمائر فى العهد التيمورى بالمبانى والعناصر المعمارية والفنية التى كانت معروفة فى عمائر هاتين الدولتين فى منطقة بلاد ما وراء النهر وغيرها، حيث يعتبر أحد الورثة الشرعيين لتلك الطراز من العمائر والفنون. ولذا

جاءت عمائره فى تلك الفترة غاية فى الروعة والإتقان نتيجة تمرسه على بنائها لفترة طويلة بلغت حوالى ثلاثة قرون وربع(٤٤٧ - ٧٧٢هـ/ ١٠٥٥ - ١٣٧٠م) هى عصر الدولتين السلوجوقية والايلخانية.

غير لأنه للأسف لم يتبق من تلك المبانى الكثير بسبب الحروب والكوارث الطبيعية (الزلازل) من جهة، ومن جهة أخرى بفعل ما كان يقوم به الأهالى من استخدام الأحجار وطوب تلك المبانى بعد هجرها مثلما حدث بالفعل فى مدينتى سامراء والفسطاط، وغيرهما، ولكن المبانى الباقية توضح بجلاء ما كانت تتسم به من تناسق وروعة وفخامة فى التخطيط والزخرفة.

أ - مسجد بى بى (بيبى) خانم:

تميزت عمارة مسجد الجامع فى سمرقند فى العهد التيمورى بالضخامة والاتساع كما كان الحال فى عهد السلاجقة والايلخانيين، حيث شيد مسجد بى بى خانم الجامع على النسق الذى كانت بدايته فى مسجد الجمعة فى مدينة أصفهان، وإلى إقامة الوزير نظام الملك حوالى سنة (٤٦٦هـ/ ١٠٣٧م) فى عهد السلطان ملك شاه، ثم أصبح هو الطراز التقليدى لعمارة المساجد التى شيدت بعد ذلك فى إيران ومنطقة آسيا الوسطى.

يقع مسجد بى بى (بيبى) خانم الجامع فى الجهة الشرقية من ميدان يكستان الذى يتوسط مدينة سمرقند، وبالتحديد فى شارع طشقند، وقد بنى أواخر القرن (٨هـ/ ١٤م) فى أعقاب حملة تيمور لنك المظفرة إلى الهند سنة (١ ٨٠هـ/ ١٣٩٩م)، وتم بناؤه سنة (٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م) قبل شروعه فى حملته على الصين التى مات فيها، حيث قام تيمور لنك بوضع أساس المسجد وكان فى ذلك الوقت قريبا من البوابة الشمالية للمدينة، ويحمل المسجد اسم زوجة تيمور لنك الكبرى(سراى ملك خوانم) التى عرفت باسم بى بى خانم، وذلك راجع كونها مدفونة بالقبلة الملحقة بالمسجد خلف إيوان القبة، وليس كما يزعم البعض أن بى بى خانم هى التى شيدته لزوجها، وهذه التسمية من المؤكد أنها جاءت بعد دفنها فيه لأنه كان يعرف وقت إنشائه بمسجد سمرقند الجامع، ومسجد الشاه.

وتخطيط المسجد على شكل مستطيل طول كل ضليعة الجنوبى الشرقى

والشمالى الغربى (١٦٧م)، ويتوسطه صحن مكشوف مستطيل مساحته (٧٤×٦٤م) كان مبلطا بألواح من المرمر والفسيفساء الخزفية، وبوسط الصحن توجد فوارة (ميضأة) للوضوء، ويتوسط كل ضلع من أضلاع الصحن إيوان.

الإيوان الجنوبى الغربى: هو أكبر الإيوانات، وهو إيوان القبلة، الخاص بصلاة الجمعة نظرا لكبر مساحته، وهو يفتح بكامل اتساعه على الصحن، ويغطيه قبو مدبب كبير من النوع ذى الأربع مراكز، وعلى جانبى فتحته توجد مئذنتان كل منهما ذات ثمانية أضلاع، ويزين جدار القبلة زخارف هندسية منفذة بالآجر المطلى بالمينا الزرقاء، ويتخللها آيات قرآنية بالخط الكوفى، وكان فى مقدمة إيوان القبلة كرسى كبير لتلاوة القرآن الكريم من الرخام محمول على تسع دعامات صغيرة، وهو يتكون من عدة ألواح يعلوها منشورين كل منهما على شكل مثلث قائم الزاوية، وقد زينت بالحفر بأشكال الزهور والكتابات النستعليق التى تشير إلى أنه صنع فى منتصف القرن (٩هـ/ ١٥م) بأمر من أولغ بك حفيد تيمور لنك، ولكن عقب زلزال (١٨٧٥م) نقل الكرسى ووضع فى صحن المسجد.

وخلف إيوان القبلة توجد قبة ضخمة قطرها (٢٠م) وارتفاعها (٤٠م) مما يشير إلى ضخامتها، تقوم على رقبة اسطوانية زينت ببلاطات القاشانى ذى اللون الفيروزى، وقد دفنت بهذه القبة سراى ملك خانم زوجة تيمور لنك الكبرى ابنة الحاكم المغولى خان كازان، المعروفة باسم بى بى خانم والذى ارتبط اسمها بالجامع، وإلى جانب دفن عدد من النساء من سلاسلة التيموريين، ولكن أقدم القبور جميعا هو قبر بى بى خانم.

الإيوان الشمالى الشرقى: يقع فى مواجهة الإيوان السابق، ولكنه أقل حجما، مغطى بعقد مدبب، وبصدره فتحة باب تؤدى إلى كتلة المدخل الرئيسى، ويطل الإيوان على الصحن بكامل اتساعه، وهو يشبه فى ذلك الإيوان المقابل لإيوان القبلة فى المدرسة المستنصرية ببغداد (٦٢٥ - ٦٣١هـ/ ١٢٢٧ - ١٢٣٤م).

أما الإيوانان الجانبيان الشمالى الغربى والجنوبى الشرقى فمتساويان فى المساحة وهما اقل حجما من إيوان القبلة، ويغطى كل منهما قبلة مزينة ببلاطات القاشانى التى صنعت خصيصا لتغطى هذه القباب، وتزينها الزخارف النباتية

والهندسية، والكتابية، وهذان الإيوانان لا يفتحان على الصحن بكامل اتساعهما ولكن كل منهما منغلق ويربط بينه وبين الصحن فتحة باب تفتح فى الصيف وتغلق فى الشتاء؛ لأن هذين الإيوانات كانا مخصصان للتدريس للطلبة وذلك راجع إلى طبيعة الظروف المناخية فى منطقة آسيا الوسطى التى تزيد فيها البرودة وتكثر فيها الأمطار فى فصل الشتاء نسبيا.

والمساحات المحصورة بين الإيوانات الأربعة تشغلها عدة غرف كانت تستخدم لإلقاء الدروس لطلبة العلم جانب استخدامها كمقر لسكن الأساتذة والطلاب والقائمين بالعمل فى المسجد، حيث يجاور إيوان القبلة من كل جانب أربع غرف، ويجاور الإيوان المقابل له من كل جانب سبع غرف، أما الإيوانان الجانبيان فعلى جانبى كل منها تسع غرف، وهى مختلفة المساحات ويتقدم جميع الغرف من جهة الصحن مساحات مغطاة بأقبية تبدو فى مظهرها كأنها إيوانات صغيرة تشرف على الصحن مباشرة بدون حواجز بصدرها أبواب تؤدى إلى تلك الغرف التى يبلغ عددها ثمان وخمسون غرفة سفلية ترتكز أسقفها على (٤٠٠) عمود رخامى، يعلوها طابق ثانى له نفس عدد الغرف ولكنها تطل على الصحن بعقود مدببة، تعلو فتحات المساحات التى تتقدم الغرف السفلية، ويغطى الغرف العلوية، قباب خواذاتها مفصصة ومغطاة بالقاشانى الأزرق.

أما كتلة المدخل التى يتم الوصول منها إلى داخل المسجد فهى تقع فى منتصف الواجهة الشمالية، وتبرز عن سمت الواجهة بحيث تبدوا فى مظهرا كمن الخارج على هيئه إيوان ضخم مهيب ارتفاعه (٢٢,١٥م) يصدره فتحة باب متوجة بعقد مدبب هو ترديد لفتحة الباب السابق ذكرها بالإيوان الشمالى الشرقى للمسجد، ويغلق على هذا الباب مصاريع من الخشب المصفح بمعادن نفيسة، ويعلوا فتحة الدخول لوح رخامى نقش به تاريخ البناء وسلالة نسب تيمور لنك، وكانت بأعلى واجهة كتلة المدخل آية قرآنية ضخمة الكتابة كان يشاهدها القادمين على بعد ميلين وتقرأ: "وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل"، وعلى جانبى فتحة كتلة المدخل توجد مئذنتان مثمنتان عظيمتا الحجم والارتفاع، ويزين كتلة المدخل والمئذنتان زخارف استخدم فيها الرخام والأحجار المنقوشة وبلاطات القاشانى والفسيفساء.

وإلى جانب ذلك يوجد فى أركان المسجد الخارجية أربع مآذن مستديرة بواقع مئذنة فى كل ركن، يتم الوصول إليها من داخل المسجد، وبذلك يكون عدد المآذن بالمسجد ثمان مآذن، أربع مآذن، فى الأركان، واثنتان بطرفى كتلة المدخل، واثنتان بطرفي إيوان القبلة، مع العلم بأن المئذنتين اللتان على جانبى كتلة المدخل أكثر ضخامة وارتفاعا من باقى المآذن.

مما سبق تتضح مميزات وسمات عمارة المساجد الجامعة أو المسجد المدرسة فى وسط آسيا بصفة عامة وسمرقند بصفة خاصة فى عهد تيمور لنك التى توجز فى أن تخطيط المسجد يتكون من صحن مكشوف تحيط به أربعة أيونات أهمها وأكبرها إيوان القبلة، وأن للمسجد مدخل ضخم كبير تذكارى، كما تعددت المآذن التى بنيت بالآجر المغطى ببلاطات القاشانى، ومزينة بالكتابات المنفذة بالخط الكوفى المربع بقطع صغيرة من القرميد، إلى جانب الزخارف النباتية والهندسية، وهى الزخارف ذاتها التى نجدها حول إطارات عقود الأيونات، وداخل الايونات، وعلى رقاب القباب، وكتلة المدخل إلى جانب الخط النستعليق.

كما استعملت بلاطات القاشانى المتعددة الألوان والتى يغلب عليها اللون الأزرق اللازورد والفيروزى والتركواز فى تكسية القباب والجدران إلى جانب الجص المزين بالألوان.

ولم يبق المسجد على حاله بل تعرض لانتكاسات تتمثل فى أن تشييده كان على عجل إلى جانب جسمه الضخم الكبير، مما أدى إلى حدوث انهيارات فيه منذ السنوات الأولى لإنشائه كما ساهمت الزلازل فى تشوية وانهيار قبابه، وزادت من تصدع عقوده وايواناته، حتى دمر زلزال سنة(١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م) جزئين كبيرين من كتلة المدخل ما زالا موجودان فى صحن المسجد.

وتقوم الحكومة الاوزبكستانية بترميم هذا المسجد إلى جانب مدرسة تيمور لنك وآثار أخرى فى سمرقند بمناسبة الاحتفال بمرور (٦٠٠) عام على وفاته باعتباره بطلهم القومى.

ب - الأضرحة فى سمرقند فى عهد تيمورلنك:

إذا كانت منطقة إيران ووسط آسيا قد عرفت الأضرحة فإن أقدم ما وصل إلينا فى مدينة بخارى بالقرب من سمرقند، وهو ضريح إسماعيل بن أحمد السامانى الذى توفى عام (٢٩٥هـ/٩٠٧م) وتخطيطه مربع الشكل واستخدم فى بنائه الآجر فى ترتيب زخرفى جميل، وتغطية قبة قطاعها عقد نصف دائرى وإلى جانب هذا الطراز عرفت نفس الفترة تشييد نوع آخر من الأضرحة على شكل برج ضريح جنبادى قابوس فى إقليم جرجان شمالى غرب نيسابور سنة (٣٩٧ - ٣٩٨هـ/١٠١٦ - ١٠١٧م) وبدنه نجمى الشكل وتغطية قبة مخروطية.

وظل الطراز الأخير من الأضرحة معروفا فى الدولة الغزنوية (٣٥١ - ٥٨٢هـ/ ٩٦٢ - ١١٨٦م) حيث وصلنا منه برجين أحدهما ينسب إلى السلطان مسعود الغزنوى (٤٨٩ - ٤٢١هـ/٩٩٨ - ١٠٣٠م)، والآخر للسلطان سعود الثالث (٥٠٨هـ/ ١١١٤م).

وفى العصر السلوجوقى بعد ذلك (٤٤٧ - ٥٥٣هـ/ ١٠٥٥ - ١١٥٧م) ظلت الأضرحة البرجية هى المستعملة ولكن يرجع الفضل إلى السلاجقة فى تطوير شكلها، وكانت على شكلين مختلفين الأول: على شكل برج له قبة نصف دائرية، وكان يدفن فيه رجال الدين والحكام وذوى السلطان مما أكسبه طابعا دينيا، والثانى: برجى مغطى بقبة مخروطية، وكان يدفن فيه الحكام، وهو يشبه فى شكله برج السلطان محمود سالف الذكر.

وفى العصر الايلخانى لم يطرأ تغيير على نموذج الضريح السلجوقى المشيد على هيئة برج وتعلوه قبة هرمية(مخروطية)، كما هو الحال فى ضريح بمدينة مراغة، ينسب إلى إحدى بنات هولاكو، غير أنه عاد للظهور الضريح ذو القبة الصريحة، ومن أمثلة ذلك ضريح الجانو الذى شيد فى مدينة سلطانية فيما بين عامى(٧٠٧ - ٧١٦هـ/ ١٣٠٧ - ١٣١٦م) وهو عبارة عن مبنى مثمن الأضلاع تعلوه قبة قطاعها عقد مدبب ذو مركزين.

وفى العهد التيمورى (٧٧٢ - ٨٠٧هـ/ ١٣٧٠ - ١٤٠٥م) اختفى بناء الأضرحة التى على شكل أبراج ولها قباب مخروطية، وشاع بناء نوعين من

الأضرحة الأول: الأضرحة المربعة ذات القباب الصريحة ولها أمثلة فى جبانة شاهى زنده مثل ضريح تومان أقا، وأمير زاده وشرين بيكه، وتوغلوتكين، والثانى: طراز جديد جمع بين الطرازين السابقين من أمثلته ضريح جور أمير، وأضرحة أخرى فى الجبانة السالفة مثل ضريح شادى ملوك آقا.

١ - جبانة شاهى زنده:

شاهى زنده: معناها الملك الحى، وليس المقصود بذلك تيمورلنك ولكن المقصود هو (قثم بن العباس) عم الرسول ﷺ، الذى استشهد عام (٥٧هـ/٦٧٦م) فى إحدى الغزوات التى سبقت فتح بلاد ما وراء النهر، وتقول الأسطورة المتداولة هناك أن قثم عندما سقط شهيدا، أخذ بين يديه رأسه المقطوع ونزل بها إلى بئر عميق تؤدى إلى حديقة تحت الأرض ولا يزال حيا هناك حتى الآن. وهو يستشهدون على صدق القصة بالآية الكريمة المحفورة على قبره البديع وهى قول الله تعالى: " ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون" ونظرا لهالة التقديس والاحترام التى تحيط به فقد اعتبر المكان بقعة مباركة كان يدفن فيها الأمراء والأميرات والشخصيات الهامة، ولذا وقع الاختيار على هذا المكان ليكون مدفنا لبعض أفراد الأسرة التيمورية.

ويعود إنشاء جبانة شاهى زنده إلى القرن(٥هـ/١١م) واستمر الاهتمام بها حتى القرن(١٣هـ/١٩م)، وكانت تحتوى على عدد كبير من المبانى الجنائزية والمساجد والمدارس اشهرها مدرسة (تمجاش بوجران) التى كانت أكبر المدارس الدينية خلال العصور الوسطى فى تلك المنطقة، وكانت هذه المبانى تصور بصدق مجمل مدرسة ما وراء النهر المعمارية وتطورها، غير أنه دمرت معظم هذه البنايات عبر القرون، ولم يتبق منها الآن سوى عشرون مبنى، وتعود أغلب المبانى الباقية بحالة جيدة إلى القرنين (٨ - ٩هـ/١٤ - ١٥م) فى الفترة مابين (٧٧٨ - ٨٩٣هـ/١٣٧٦ - ١٤٣٥م) ويحيط بهذه الجبانة سور ويتصدرها مدخل مهيب شاهق الارتفاع قام بتشييده حفيد تيمور لنك أولغ بك سنة (٨٩٣هـ/١٤٣٥م)، غير أن تيمور لم يدفن بها ودفن فى ضريح(جور أمير)، كما دفن معه بعض أقربائه المباشرين فى بلاد ما وراء النهر خلال النصف الأخير من القرن (٨هـ/١٤م) والنصف الأول من القرن (٩هـ/١٥م).

ومن دفن فى مقبرة شاهى زندة من أسرة تيمورلنك شقيقتاه الأميرة (شرين بيكه آقا)، والأميرة (تركان آقا)، وابنة أخت أو أخ تيمور الأميرة (شادى ملوك)، ومن زوجاته الأميرة (طوغلو تكين)، والأميرة (نزمان آقا)، والأميرة (تومان آقا) هذا إلى جانب قثم بن العباس عم الرسول ﷺ، كما دفن فى ذات المقبرة عالم الفلك القاضى زاده الرومى معلم أولغ لنك وأمير سمرقند فيما بعد، وأمير زاده الذى لم يعرف من هو بعد.

والزائر لجبانة شاهى زنده بعد الدخول من البوابة الرئيسية للجبانة يجد (٣٦) درجة صخرية، يتم الوصول عن طريقها إلى حارة ضيقة فى نهايتها يقع ضريح قثم بن العباس عم الرسول ﷺ، ويتقدم ضريح القثم مجموعة من الغرف مزينة بالجص ومغطاة بأسقف خشبية ترتكز على أعمدة خشبية وعلى جانبى الحارة يوجد(١٦) ضريح بعضها تمثل عمارة الأضرحة فى العهد التيمورى، والأضرحة نوعان الأول: مربع الشكل وله واجهة رئيسية بها كتلة المدخل مثل ضريح تومان آقا (٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م)، وضريح شرين بيكه آقا (٧٨٧هـ/ ١٣٨٥م) وضريح أمير زاده (٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م)، والثانى: مضلع الزوايا ولده مدخل كبير مثل ضريح شرين بيكه إحدى زوجات تيمور الذى أنشئ بعد الأول بحوالى عشر سنين، وتتميز واجهات الأضرحة التى بها المداخل بأنها مرتفعة، بحيث تحجب ورائها فى بعض الأحايين خوذات القباب.

وقد تميزت قباب الأضرحة فى هذه الجبانة بالتنوع الزخرفى الأخاذ فبعضها له تكسيات خارجية من البلاطات الخزفية المزججة والمنقوشة بالزخارف الملونة، والفسيفساء الخزفية الملونة، وبعضها الأخر تزينه زخارف مجسمة فى الحجر وكأنها إحدى نباتات الصبار وقد جاء تنفيذ الزخارف المتنوعة النباتية والهندسية والكتابية غاية فى الدقة والإتقان، مما يجعلها وافية لأسلوب الزخرفة فى العهد التيمورى.

ولم تقتصر الزخرفة فى بعض أضرحة جبانة شاهى زندة على تزيين خوذات القباب ورقابها بالقاشانى والفسيفساء من الخارج، بل امتد ذلك ليشمل واجهات الأضرحة وكذلك كتلة البوابة الرئيسية الجبانة، حيث كسيت ببلاطات القاشانى والفسيفساء الزجاجية المنقوشة والمطلية بدقة متناهية غاية فى الرقة والإبداع يغلب عليها الألوان الأزرق والفيروزى والأحمر والأبيض والذهبى والأسود، يتضح فيها

الاهتمام الزائد الذى يليق بمكانة أصحابها حتى يمكن القول بحق إنها بمثابة متحف أصيل للطلاء الزخرفى، ويتضح لنا ذلك من خلال الآثار التالية.

٢ - ضريح شادى ملوك آقا:

يعد هذا الضريح هو أول أعمال معمار قام به تيمور لنك، ليس فى شاهى زندة فقط بل وفى سمرقند كلها، ويعود تاريخ إنشائه إلى سنة (٧٧٢هـ/ ١٣٧٠ - ١٣٧١م) وقد دفن فيه كل من ترقان آقا فى سنة إنشائه، ثم لحقت به شادى ملوك آقا فى العالم التالى (٧٧٣هـ/ ١٣٧٢م) ويغلب على الشريح اسم شادى ملوك، ومن حسن الحظ أن بقى مسجل عليه اسماء المعماريين اللذين شيداه وهم شمس الدين فخر الدين من سمرقند، وزين الدين من بخارى.

ويتكون الضريح من مثمن سفلى مبنى بالآجر بالقاشانى الفاتح والداكن اللون، وقد نتج عن هذا الاختلاف اللونى كتابات بالخط الكوفى المربع، وقد فتح بأحد أضلاع المثمن مدخل بعقد مدبب ذى أربعة مراكز، أما الأضلاع الأخرى فقد فتح بكل منها فتحة شباك مستطيلة، ومتوجهة بعقد مدبب فى مركزين، وترتفع جلسات الشبابيك عن أرضية الشارع بمقدار كبير، وزينت كوشات عقود الشبابيك بالتناوب برخام خالى من الزخرفة، وفسيفساء خرفية ويعلو كل شباك منطقة تأريخ مستطيلة ملبسة بالرخام الخالى من أى زخرفة، ويعلو المسن رقبة مستديرة قصيرة تأتى فوقها قبة منخفضة مزينة ببلاطات القاشانى.

٢ - ضريح شرين بيكه آقا:

شيد هذا الضريح فى سنة (٧٨٧هـ/ ١٣٨٥م)، وقد قام بتصميمه المعمار استو على نصيفى، وهو يتكون من مربع سفلى بالآجر، بوسط كل ضلع من أضلاعه من أعلى فتحة شباك مستطيلة متوجه بعقد مدبب ذى مركزين، ويعلوا التربيع مثمن فوق رقبة اسطوانية ممتدة مزينة بزخارف كتابية بالخط الكوفى المنفذ ببلاطات القاشانى، ويجد بالرقبة أربعة شبابيك مستطيلة، يقع كل شباك منها فوق شباك من شبابيك المربع السفلى للضريح، ثم تأتى بعد ذلك خوذة القبة التى ترتكز عند اتصالها بالرقبة على صف من المقرصنات، وكان يغطى القبة بلاطات من القاشانى ولكنها تساقطت.

٣ - ضريح أمير زاده:

بقى هذا الضريح سنة (٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م)، ويتميز بأن له مدخل ضخم، بواسطة فتحة بعقد مدبب ذى أربعة مراكز، وتزينه بلاطات القاشانى وقطع الفسيفساء الملون والكتابة النستعليق، ويصدر كتابة المدخل فتحة باب تؤدى إلى ضريح مربع تغطيه قبة مخصوصة كأنها نبته صبار، والضريح بقبته منخفض عن كتلة المدخل.

٤ - ضريح تومان آقا:

يرجع تاريخ إنشاء هذا الضريح إلى سنة (٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م)، وهو يتبع فى طرازه القباب السمرقندية ذات الرقبة الاسطوانية الممتدة، وهو عبارة عن مربع سفلى تزينه بلاطات القاشانى، ويعلو التربيع السفلى منطقة انتقال مثمنة، فوقها رقبة اسطوانية مستديرة ممتدة تزينها قطع الفسيفساء وبلاطات القاشانى ثم تأتى بعد ذلك خوذة القبة التى قطاعها على هيئة عقد مدبب ذى أربعة مراكز، وهى مغطاة ببلاطات القاشانى، ويتم الوصول إلى داخل هذه القبة عن طريق كتلة مدخل يتوسطها عقد مدبب ذو أربعة ذو أربعة مراكز، كانت مزينة ببلاطات القاشانى، لم يتبق منها إلا أجزاء قليلة، ويصدر حجم المدخل فتحة باب مستطيلة متوجه بعقد مدبب، وهنا نجد كتلة المدخل أقل ارتفاعا من رقبة القبة.

ولو أننا عقدنا مقارنة سريعة بين جبانة شاهى زنده بسمرقند، وجبانة المماليك المعاصرة لها فى القاهرة نجد ثمة اختلاف، فالأخيرة لم يضمها سور واحد له مدخل كما هو الحال فى شاهى زندة لأن المماليك لم يفكروا قط فى تخصيص جبانة تضمهم جميعا. ولكن نرى أن كل سلطان أو أمير كبير قد ابتنى لنفسه مجمعا دينيا خيريا خاصا به يتكون فى الغالب من مدرسة أو مسجد أو خانقاه وسيل يعلوه كتاب، وقبة ضريحية له ولأولاده، إلى جانب خلاوى (طباق) للطلبة، وحوش لدفن العتقاء والمقربين، ومربع لمد السماط، وأحيانا قصير (أى قصر الصغير)، كما هو الحال فى المجموعة البنائية لكل من السلطان اينال (٧٩٤ - ٧٩٥هـ/ ١٣٩٢ - ١٣٩٣م) والسلطان برسباى (٨٣٥هـ/ ١٤٣٢م) والسلطان قايتباى (٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م) والأمير كبير قرقماس (٩١١ - ٩١٣هـ/ ١٥٠٦ -

١٥٠٧م) كما شيدت فى بعض الأحايين أضرحة مفردة مثل ضريح كل من عبد الله الدكرورى (٨٧١هـ/ ١٤٦٦م) وتنكز بغا حوالى (٧٦٠هـ/ ١٣٥٩م) وغيرهما، كما تختلف مقابر سمرقند بأنها كانت تبنى بغرض إضفاء القداسة وهالة الاحترام للمدفون بها، فى حين كانت مقابر المماليك مجرد مبانى ملحقة بمنشآت ذات طابع خيرى للخدمة العامة.

غير أن يلاحظ أن أسلوب بناء الأضرحة فى شاهى زندنه يشبه إلى حد كبير يثير الدهشة الأسلوب المتبع فى الأضرحة والقباب المصرية لها تقريبا، ولعل ذلك راجع كما سبق ذكره إلى هجرة كثير من الصناع والبنائيين من تلك الأصقاع إلى مصر ومشاركتهم فى تشييد هذه المبانى.

فإن خصوبة مصر ورغد العيش فيها ثم بعدها عن أخطار المغول الذين قامت عواصفهم من وسط آسيا تكتسح الأقطار وتلتهم الناس، قد جعلت من الديار المصرية خير ملجأ يتوفر فيه الأمن والعيش، فهاجر إليها كثير من الفرس وأهل العراق والشام فى القرن (٧هـ/ ١٣م) مما جعل تأثيرات معمارية وزخرفية تظهر فى مصر فى ذاك القرن والذى يليه، ومن أمثلة ذلك استخدام الخوذة المفصصة التى تشبه العمالة التى تكسوها بلاطات خزفية خضراء اللون بأعلى مئذنتى جامع الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة سنة (٧٣٥هـ/ ١٣٣٥م)، قنتى خوند سمرا (التربة السلطانية والمؤرخة بالقرن(٨هـ/ ١٤م).

كما ظهر بمصر فى تلك الفترة نوع من القباب عل بمثال القباب السمرقندية لها رقبة تتميز بالطول، والخوذة من غطاءين حيث يبدأ تكويرها من الداخل من عقد شباك الرقبة بينما يبدأ التكوير من الخارج على مسافة كبيرة من عتب الشباك المذكور، ووجد ذلك فى القبة التى تعلوا الضريح الواقع بالركن الغربى من مدرسة الأمير صرغتمش الناصرى (٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م) والقبة التى تعلوا المحراب فى إيوان القبلة بنفس المدرسة، ولهذه القبة نظيرا آخر أرقى منها هو قبتا خون سمرا (التربة السلطانية) السابق ذكرها بصحراء السويطى وقبة يونس الدوادار بالخطابة (قبل ٧٨٣هـ/ ١٣٨٢م).

ومما يؤكد هجرة المعماريين والفنايين ما ذكر من أن مهندس خانقاه بيبرس

الجاشنكير (٧٠٦ - ٧٠٩هـ/ ١٣٠٦ - ١٣١٠م) كان مغوليا، كما قام معمارى فارسى قدم من تبريز ببناء مئذنتى مسجد قوصون على مثال المئذنة التى عملها خواجا على شاه وزير السلطان أبى سعيد فى جامعة بمدينة توريز (تبريز) من بلاد فارس، وكانت على شكل مئذنة خانقاه قوصون المنشأة سنة (٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م) وهى باقية إلى الآن بالقرافة الصغرى، كما يرجع أن المعمارى نفسه هو الذى قام ببناء مئذنتى مسجد الناصر محمد بالقلعة.

وعلى أى حال إذا كان هناك تأثير معمارى وزخرفى فارسى فلم يكن من جانب واحد، حيث كانت هناك اتصالات سياسية وحضارية وعن طريقها انتقلت بعض التأثيرات فى مصر والشام باعتبارهما من أجزاء الدولة المملوكية إلى فارس ووسط آسيا، من ذلك ما ذكره المقريزى فى حوادث سنة (٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م) من أن السلطان المنصور قلاوون جهز "هدية سنية إلى بركة ومبلغ ألفى دينار برسم عمارة جامع قرم وأن تكتب علية ألقاب السلطان وجهز حجار لنقش ذلك وكتبتها بالا صباغ، وهذا يدل على انتقال التأثيرات المملوكية إلى العمارة المغولية مثلما حدث بالعكس.

وإذا كان لين بول يقرر أن القباب البصلية ذات الرقبة الممتدة هو الشكل المفضل فى بلاد تركستان وفارس والعراق ثم انتقل إلى مصر فهذا صحيح، ولكن نود أن نقرر أيضا أنه بناء على النص السابق الذى ذكره المقريزى يرجح أن التفصيص الذى عرفته تلك المناطق هو تأثير مصرى، حيث كان لمصر قصب السبق فى هذا منذ العصر الفاطمى فى قبتى عاتكة والجعفرى (٥١٤ - ٥١٩هـ/ ١١٢٠ - ١١٢٥م)، وقبة السيدة رقية (٥٢٧هـ/ ١١٣٣م) وغيرهم، وحتى العصر المملوكى الجركسى، ثم ظهر مرة أخرى فى العصر الحديث فى إحدى قبتى جامع كعب الأخبار بالناصرية، كما أن القبة البصلية التى أصلها العقد المدبب المنفوخ ذو الأربعة مراكز المعروف خطأ بالعقد الفارسى هو أيضا عقد مصرى الأصل ظهر فى العصر الفاطمى فى زيادة الخليفة الحافظ فى الأزهر سنة (٣٢٩ - ٣٦١هـ/ ٩٧٢م)، ووجوده فى هذا الأثر يسبق أقدم الأمثلة فى فارس بنحو قرن من الزمان إذ يؤرخ المثل الموجود فى رباط مالك فى فارس بالنصف الثانى من القرن (٥هـ/ ١١م).

غير أن مباني سمرقند تتميز بأنها أكثر براعة فى استخدام بلاطات القاشانى والفسيفساء الخزفية فى تزيين الواجهات والقباب، ولعل الإجابة تكمن فى أمصر ليس بها الطينة الجيدة لصناعة البلاطات الخزفية والفسيفساء والخزفية، وأن ما صنع منها لم يكن جيدا، ولا تخرج عن كونها بلاطات ذات لون واحد، أخضر أو أزرق أو أبيض زينت بها بعض القباب، ولكنها لا ترقى لبلاطات سمرقند وغيرها من آسيا الوسطى وإيران.

٥ - ضريح جورأمير:

يقع ضريح جور أمير (جورى مير) فى حى روح أباد إلى الجنوب من ميدان ريكستان قرب بوابة بخارى، إحدى بوابات مدينة سمرقند القديمة، وهذا الاسم لا يطلق فقط على الضريح المدفون به تيمورلنك، حيث أن هذا الضريح ليس مفردا، لكنه يطلق على مجموعة بنائية الضريح جزءا منها وتتكون المجموعة من خانقاه ومدرسة متقابلتان وفناء مربع مكشوف على ثلاثة جوانب منه قاعات، وفى أركانه الأربعة أربع مآذن، قام بتشييدها من قبل محمد سلطان، حفيد تيمورلنك والقريب إلى قلبه الذى كان يؤهله لتولى الحكم بعده قرب نهاية القرن (٨هـ/ ١٤م)، وعندما مات محمد سلطان على حين غرة فى طريق عودته بحملة عسكرية فى آسيا الصغرى سنة (٨٠٥هـ/ ١٤٠٤م) وعندما لحق به تيمور فى نفس العام الذى تم فيه تشييد الضريح، دفنا الاثنان فى قبرين متجاورين، وفى وقت لاحق دفن معهما أبناؤه وأحفاده بما فيهم أولغ بك الذى أشرف على إكمال الضريح، وكان تيمورلنك قد أوصى من قبل وفاته بأن يدفن عند قدمى أستاذه ومعلمه (ميرسيد بركة) فجئ بجثمان الرجل من بلده (انخوى) فى أفغانستان ودفن فى الضريح ووضع قبر تيمور بمحاذاة قدميه.

وقد انعكست على تصميمات الضريح ونقوشه كل سمات عهد تيمورلنك من القوة والجبروت والترف والجمال، ولفناء المجموعة مدخل ضخم مزين بالفسيفساء من إنشائه أولغ بك عليه توقيع من قام ببنائه الذى جاء بصيغة عمل العبد الضعيف محمد بن محمود البناء الاصفهانى سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة ويحيط بالمجموعة سور من الرخام محفورا حفرا دقيقا وقد انتهى تعمير البناء فى عهد أولغ بك.

وقد انهارت العديد من المبانى بعد تشييدها مباشرة، وعلى وجه الخصوص المنزل (الاستراحة) والمسجد (المصلى)، والمآذن التى انهارت سنة (١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م) ثم أضافت هزة أرضية سنة(١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م) ضربة أخرى قاسية للمدموعة حيث لم يتبق سوى الضريح وإطلال المدرسة والخانقاه ومئذنتين، وهذا الضريح ذو شهرة واسعة، ربما يرجع ذلك إلى طرازه المعمارى البديع، أو إلى كونه المدفن الذى يرقد به جثمان تيمورلنك، وربما يرجع إلى العاملين بها.

المدارس فى سمرقند العهد التمورى:

اهتم تيمورلنك بتشييد المدارس ومن ذلك مدرسته فى سمرقند التى شيدت سنة(٨٠٣هـ/ ١٣٩٩م)، وهى متهدمة ألان وتدل بقاياها أنها تتبع هى الأخرى طراز المدارس السلجوقية، ويتشابه تخطيطها إلى حد كبير مع تخطيط مسجد بيبى(بى بى) خانم، حيث أن تخطيطها عبارة عن صحن أوسط مكشوف تعامد عليه أربعة أيونات على جوانبها حجرات مقببة من طابقية تطل على الصحن ببوائك ذات عقود مدببة من النوع ذى الأربعة مراكز، ترتكز على دعامات (أكتاف) وكانت هذه الحجرات مخصصة للدرس والتحصيل وسكنى الطلاب والأساتذة، وتتميز واجهة المدرسة الرئيسية بأنها شاهقة الارتفاع لان المعمار يصبغ الفخامة على كتلة المدخل فيجعلها مرتفعة وتزينها على جانبيها منراتان أسطوانيتان مرتفعتان.

ولاغرو فى ذلك أن يؤثر على تخطيط المسجد الجامع والمدرسة فى بعضها البعض، فإذا نظرنا إلى مصر فى العصر المملوكى بشقيه البحرى والجركس نجد أنه لا يمكن التفريق بين تخطيط كل من المدرسة أو المسجد أو الخانقاه، حيث تخطيط كل منها عبارة عن صحن أوسط مكشوف بوسط كل ضلع من أضلاعه إيوان وفى الأركان توجد مدارس فرعية وغرف الطلبة كما هو الحال فى مدرسة وجامع السلطان حسن (٧٥٧ - ٧٨٨هـ/ ١٣٨٤ - ١٣٨٦م)، وخانقاه ومدرسة الظاهر برقوق (٧٨٦ - ٧٨٨هـ/ ١٣٨٤ - ١٣٨٦م) بالنحاسين، أو درقاعة وسطى على جانبيها أيونات وسدلتان قايتباى بقلعة الكبش (٨٨٦ - ٨٩٦هـ/ ١٤١٨ - ١٤٩٠م)، ومدرسة بصحراء المماليك (٨٨٠هـ١٧٥٤م).

القصور والمنازل والخيام:

تشير المعلومات القليلة المعاصرة التى جاء ذكرها فى بطون بعض كتب المؤرخين إلى أنه كان بسمرقند فى عهد تيمورلنك العديد من الدور الخاصة الأنيقة والقصور السلطانية تتناثر على امتداد مساحة شاسعة تمتاز ببساتينها الرائعة، تمتد إلى مسافة خمسة أو ستة أميال أو أكثر، وإلى جانب ذلك كانت توجد عشرات الآلاف من الخيام التى كانت مسرحا للحفلات الكبرى والسمر، ويذكر وصفها بما ورد فى قصص ألف ليلة وليلة، غير انه لم يتبق شىء من هذه الدور أو القصور أو الخيام، وكل ما يعرف عن عمارة هذه المبانى كما سبق ذكره من خلال كتب المؤرخين، وبالرغم من قلتها التى لا تشبع نهم الباحث فى مجال الآثار والفنون ولكنها توقفنا على جانب مهم من حضارة تلك المدينة من ناحية المبانى المدنية الاجتماعية.

أما بالنسبة للقصور: فكانت تقع فى وادى (كان كل) الذى يبعد ميلين إلى الشمال الشرقى من مدينة سمرقند فى سهل ترويه قنوات متعددة، ويقع على مقربة من نهر زرفشان، وكان عدد هذه الخيام يقرب من خمسة عشر ألفا أو يزيد، ولا ينزل بها رجال البلاط فحسب، بل وكذلك الشعب على اختلاف طبقاته، وإلى جانبها كانت توجد المحال التجارية الأنيقة والمصانع يمارس فيها الصناع حرفهم والحمامات وبها المياه الساخنة.

وأول خيام كانت تضرب هناك خى خيام الأسرة الحاكمة، وتتوسط فى الغالب المعسكر الذى كان ينتشر على هيئة المروحة، وتتفرع الخيام الأخرى عن تلك المجموعة الوسطى، وكان لكل وزير ولكل أسرة مكانه المخصص له، فمنهم من كان ينزل ناحية اليمين أو ناحية الشمال أو فى الصف الأول أو الثانى أو الثالث كل حسب مكانته فى نظام محكم لا تعرف الفوضى طريقها إليه، حتى كان يبدو (كان كل) الجميل هذا فى وقت قصير مذهل والأعلام الملونة العديدة ترفرف فوق خيامه، وكأنه حوض من الأزهار الفاتنة يداعبها النسيم.

وقد تعددت أشكال الخيام فمنها ما كان على أشكال الناقوس، وهو الشكل التى كانت عليه خيام الترك وهو الغالب، ومنها ما كان على شكل الخيمة العربية المستطيلة، أو على شكل الخيمة الفارسية المربعة التى تعرف باسم سرا برده(قصور الستائر).

وكانت الخيمة الرئيسية الخاصة بالحاكم تتميز بأن لها سقف على هيئة القبة ترتكز على سبعة قوائم (دعائم) زرقاء مذهبة فى استدارة، ويلفها جميعها نسيج من الحرير على هيئة الرواق، وإلى جانب ذلك كانت توجد أروقه ذات أعمدة على جوانب الخيمة كلها، ولكن بكل رواق ستة أعمدة، وقد استخدم فى عقد هذا البناء كله ما يزيد على الخمسمائة من الجدائل والأصفر والأبيض، وكانت أرض الخيمة تفرش ببساطة أحمر مشغول بالذهب وزخارف أخرى من الحرير أبدعها الذى فى الجزء الأوسط وبأركانه أربعة نسور كبيرة قد نشرت أجنحتها، وكانت هذه الخيمة تبدو للرائى من بعيد وكأنها قلعة، وكان يحيط بالخيمة بعد ذلك سور عال ملون فى بعض أجزائه، وتزينه الشرفات والأبراج الصغيرة.

وإلى جانب هذه الخيمة كانت هناك خيام أرخى لا تقل فى روعتها وفخامتها كانت تنزل بها السلطانة وكبار الأميرات، وكان بعضها مغطى بالحرير الأصفر أو القرنفلى منها وهو على فرسه، وكان يسدل عليها الأبسطة الموشاة بالذهب والفضة، وكان لها نوافذ يسدل عليها نسيج من سندس سميك حين تنفتح، وعلى جانبيها ستائر أخرى من الحرير تستجدم لتمنع عنها أشعة الشمس.

وعلى هدى الآثار القليلة الباقية فى سمرقند من ذلك العهد يتضح أن المؤرخين لم يبالغوا فيما ذكروه عن هذه القصور والخيام.

مما سبق لنا يتضح لنا أن العمارة فى سمرقند فى العهد التيمورى تميزت بعدة سمات هى:

أولا: من حيث المواد الخام المستخدمة فى بناء العمائر وزخرفتها:

١ - تميزت منطقة بلاد ما وراء النهر بما فيها سمرقند بأنها غنية بأنواع ممتازة من الأحجار، ما بين جيرية ورملية وجرانيتية ورخام ومرمر، ولهذا جاءت المبانى المشيدة من تلك الأحجار البديعة فى صلابتها واستجابتها للنحت والزخرفة فى آن واحد، وأنها ذات متانة وجمال، فالجدران والبوابات والأعمدة والدعامات والعقود تقوم متينة محكمة، مما مكن البناء والمزخرف على ابتكار أسلوب مميز.

٢ - كما وجد الآجر (الطوب المحروق) الذى استخدمه المعمار بدرجة لا تقل مهارة عن استخدامه للأحجار، فقد وجد صناع الآجر بهذه المنطقة أتربة

ورمالا ممتارة أجادوا حرقها ومزجها وإخراج أشكال وألوان منها فى غاية المتانة والصفاء، وقد أبدع البناؤن فى استخدام هذا الآجر فى البناء والزخرفة على نحو لا يضارعهم فيه إلا البناءون الأندلسيون الذين استخدموا الآجر فى بناء الواجهات العقود والأعمدة والقباب ومناطق انتقالها والازارات والمآذن، إلى جانب استخدام الآجر فى عمل أشكال زخرفية من مجرد تشكيل أوضاعا الآجر.

٣ - إلى جانب ذلك استخدم الجص، ولم يستخدم هذا كما هو الحال فى عمائر العصور الإسلامية الأخرى كمادة تغطى الجدران لتخفى هيئة الآجر أو اللبن أو تسد شقوقها أو أرضيته لعمل بعض الزخارف، بل استخدم هنا بطريقة مبتكرة حيث استخدم لتغطية مساحات صغيرة وسط زخارف الآجر لإضافة زخارف من ألوان أخرى، وقد ينقش الجص على هيئة الآجر نفسه، أى إن الجص يستخدم هنا كعنصر أساسى لا كمال هيئة العناصر المعمارية ذاتها.

٤ - وأيضا برع معماريو سمرقند كما هو الحال فى منطقة وسط آسيا وإيران فى استخدام بلاطات القاشانى والفسيفساء الخزفية نفى تغطية الجدران والقباب ورقابها وكان يقصد من ذلك إدخال نوع جديد من التلوين لزينة المبانى، لأن الجص لا يقبل الألوان إلا إلى حد معين، ولكن ألوان القاشانى تمتاز بالصفاء والعمق والثبات، ويقال أن القاشانى دخل فى زخرفة العمائر الإسلامية فى القرن(٨هـ/ ١٤م) عندما فقد الجص طلاوته واحتاج المعماريون إلى مادة جديدة، على حين قل بل ندر استخدام الرخام فى تغشية الحوائط، ومن الأمثلة القليلة التى استعمل فيها الرخام مسجد تيمورلنك فى سمرقند المعروف ببيى(بى بى) خانم، وضريح شادى مملوك.

ثانيا: من حيث الخصائص والمميزات المعمارية الفنية:

١ - بالنسبة للمداخل تميزت بأنها ضخمة وبارزة ومرتفعة، يتوسطها عقود من النوع المدبب ذى الأربعة مراكز، كما فى مسجد بى بى خانم وضريح جور أمير، وهى متأثرة فى ذلك بالمداخل الإيرانية التى عرفت منذ القرن(٥هـ/ ١١م) فى مسجد الجمعة بأصفهان، ولم يظهر هذا النوع من المداخل فى مصر، ومن جهة أخرى فإن المداخل تؤدى إلى داخل المنشأة مباشرة وتقع على محور واحد مع إيوان

القبلة، على عكس مداخل القاهرة التى تشتمل على دركاة تلى فتحة الدخول، ثم ممر منكسر يصب فى الصحن كما فى مدرسة صرغتمش وخانقاه شيخو، ومدرسة السلطان حسن، ومدرسة الظاهر السلطان برقوق وغيرهم، وللمنشأة السمرقندية مدخل واحد رئيسى على عكس مصر التى يوجد بمنشآتها فى بعض الأحايين أكثر من مدخل مثل مسجد الظاهر بيبرس بالظاهر، ومسجد الناصر محمد بالقلعة، وخانقاه فرج بن برقوق بصحراء المماليك.

٢ - أما المآذن فى منشآت العهد التيمورى فقد تميزت بتعددها فى المنشأة الواحدة كما فى مسجد بى بى خانم، وضريح جور أمير، فى حين هذا الأمر لا يوجد فى منشآت القاهرة، فيما عدا محاولة وحيدة سبقت الإشارة إليها فى مدرسة السلطان حسن ولكنها باءت بالفشل، وتوجد المآذن فى أركان البناء أو على جانبى كتلة المدخل، وهى إما مستديرة أو مثمنة ولكن يغلب عليها الشك لا لمستدير (الأسطوانى)، وهى تستدق كلما ارتفعت لأعلى، ولا يكون للمئذنة فى معظم الأحايين إلا شرفة واحدة فى نهايتها تقوم على مقرصنات أو دلايات مما يكسب المئذنة شكل المنار، وهذه المآذن تختلف عن سائر المآذن التى بناها المسلمون فى الشام ومصر وشمال أفريقيا والأندلس فى أنها لا طوابق لها ولا نوافذ، فهى بناء شاهق بنى وليس فيه سلالم تؤدى إلى دورات يقف فيها المؤذن لأنها لم تكن تستخدم فى الآذان بسبب ارتفاعها الكبير، وإنما كان المؤذنون يؤدون مهمتهم من فوق سطح المساجد.

ونظرا لتجاوز المعمارى الحد فى ارتفاع المآذن لهذا كان لابد من توسيع قاعدة المئذنة على الأرض وتعميق أساساتها حتى تتحمل هذا الارتفاع، وكان لابد له أيضا من فصل المئذنة عن البناء لأنها أصبحت بناءا قائما بذاته لا يهمل وصله بالمبنى، ويعود ظهور هذا الطراز من المآذن وآسيا الوسطى إلى زمن السلاجقة.

وهنا يمكننا أن نقول أنه ربما كان بناء المآذن فى الطراز السلجوقى وما بعده متأثرا بالأضرحة البرجية التى عرفتها إيران منذ حكم الأسرة السامانية (٢٦١ - ٣٨٩هـ/ ٨٧٤ - ٩٩٩م)، ويعد ضريح (جنبادى قابوس) أكبر وأقدم مبنى معروف من هذه الأضرحة البرجية التى ظهرت فى العمارة الإسلامية فى إيران فى العهود الأولى، وقطر هذا البرج(١٥,٢٥م) وارتفاعه (٥٠,٤٠م) ويضيق قطر المبنى

تدريجيا كلما ارتفع لأعلى، وقد شيده حاكم إقليم جرجان الذى يدعى قابوس شمالى غرب نيسابور فى حوالى سنة (٣٩٧ - ٣٩٨هـ/١٠١٦ - ١٠١٧م) ومع أن فكرة تشييد هذه المبانى كانت بغرض استخدامه كضريح الا انه من المعتقد أنه كان رمزا لقوة الحاكم السياسية، كما كانت المآذن الاسطوانية، الشاهقة الارتفاع التى تستدق كلما ارتفعت لأعلى رمز الفخامة وقوة ومتانة البناء إلى جانب كونها تعنى الرمز السابق وهو هيبة الدولة والحاكم السياسية.

٣ - تميزت القباب السمرقندية بأن أغلبها يقوم على رقاب عالية اسطوانية اكثر مما هو مألوف عند تشييد القباب فى مناطق كثيرة من العالم، كما تميزت بشكلها البصلي المفصص بعد أن كانت فى العصر المغولى ذات شكل بصلى خفيف. والمآذن والقباب السمرقندية قد تكون من الحجر المنقوش بالزخارف أو من الآجر غير المطلى ذى الألوان المتعددة، أو بالآجر المطلى بالدهاء والفسيفساء المصنوعة منه، حيث وصل الفنان بهذا الأسلوب إلى أطيب النتائج التى بلغت حد الإتقان والإبداع، وقد تغطى بمربعات من القاشانى ذى رسوم تحت الدهان، أو لنجوم من القاشانى يملأ ما بينها من الفراغ فى زيادة الألوان التى استعملوها فكانت الفسيفساء تشمل الألوان الأزرق والأخضر والأصفر والأسمر والأحمر والأبيض.

٤ - تميزت مساجد ومدارس سمرقند بأن تخطيطها عبارة عن صحن أوسط مكشوف مربع أو مستطيل تحيط به أربعة أيونات بعضها مغطى الأخر مغطى بقباب، وعلى جوانبها مجموعات من الغرف، ويتميز أيون القبلة، بأنه أكبر الأيونات حيث يحتوى على محراب للصلاة ومنبر للخطبة وتقام فيه صلاة الجمعة كما فى مسجد بى بى خانم.

٥ - عنى الفنان السمرقندى فى العهد التيمورى، كما كان الحال فيما سبق باستخدام المقرصنات فى تزيين العمائر عناية تذكر بما نهجه زملاؤهم فى الطراز الأندلسى المغربى، كما فى قصر الحمراء، ولكن بشئ من البساطة دون المبالغة التى تفقد العمائر الاتزان والحشمة.

* * *

الفصل التاسع

مراكز التجارة فى آسيا الوسطى

من أهم المراكز التجارية التى كان لها دورها الهام فى تجارة آسيا الوسطى:

١ - بخارى: بالضم أعظم مدن ما وراء النهر وعاصمة إقليم الصغد الدينية، يشقها نهر الصغد وحولها العديد من المدن، أشهرها نومجكث والأنهار والأسوار والأبواب، يقول المقدسى (أنه لم ير ولم يسمع فى الإسلام عن بلد أحسن مظهرا وظاهرا من بخارى إذ تحيط به الخضرة من جميع جوانبها، وهى من أحسن البلدان عمارة وأكثرها حدائق ومنتزهات، وهى معبر الطريق إلى خراسان) وكان يحيط بها سور محكم تتوسطه قلعة بخارا التى تميل إلى الشكل المربع. كما كان لهذه المدينة سبع بوابات حديدية فى حين كان للقلعة بابان وللضاحية عشرة مداخل، مما أعطاها حصانة استراتيجية قوية.

وتعتبر بخارى من أقدم المراكز التجارية فى آسيا الوسطى فقد كانت سوقا رئيسيا يلتقى فيه أجارة الصين، وآسيا الوسطى، وأوروبا عبر طريق الحرير فضلا عما كان بها من مصانع كبيرة للحرير والديباج والمنسوجات القطنية، وأجود أنواع الأبسطة والمصنوعات القطنية والذهبية، كذلك كانت مركزا مهما للصيرفة يستبدل فيه سكان آسيا الوسطى سكتهم وعملاتهم بواسطة أهلها حتى لتسمع إلى اليوم المثل القديم (أشد يقظة من سمسار بخارى) وهذا المثل يعبر عن مدى دقة وتمرس أهل بخارى وحرصهم ويقظتهم فى استبدال النقود وقدرتهم وتفوقهم فى الاشتغال بصناعة المال.

وكان لموقع بخارى، وتحصينها الممتاز، واهتمام حكامها بها خاصة السامانيين أثر فى أن تتبوأ مكانة تجارية كبيرة، وتصبح مركزا تجاريا هاما، فكانت من أنسب المدن التى تقوم بها التجارات، خاصة وأن جميع الجغرافيين والرحالة الذين تحدثوا عنها ذكروا موقعها المحصن وسكانها الين أهلوها لأن يكون بها حركة تجارية كبيرة، فهى دار الإمارة وكانت أسواقها ومحالها مفروشة باللآجر، وأسواقها فى ربضها وهى أقرب مدن ما وراء النهر إلى خراسان، فمن كان بها فخراسان أمامه،

وما وراء النهر ظهره، وهى بلد واسع فيه أخلاط من الناس من العرب والعجم والترك والصينيين.

وساعدت الأنهار الداخلية على ازدهار حركة التجارة الداخلية فى بخارى، حيث لم تكن بخارى مركزا تجاريا خارجيا فقط، بل مركزا تجاريا داخليا، أى داخل خراسان، وآسيا الوسطى، فقد استخدم التجار نهرى جيحون وسيحون وغيرها من الأنهار كنهر الشاش، ونهر الصغد الذى ينفذ من سمرقند إلى بخارى والذى يعرف بنهر بخارى ويتشعب منه أنهار عديدة، منها برش، وبشمين الذى يحمل التجارات لى سمرقند.

وساعدت الطرق التجارية التى وفر لها الحكام الأمان الكامل ازدهار حركة التجارة فى بخارى، فإلى جانب طريق الحرير العظيم، كانت هناك طرق تجارية تخرج من بخارى إلى آمل، ثم يعبر تهر جيحون بالسفن لى مرو ثم سرخس ثم طوس وهرات وصولا إلى نيسابور فى خراسان. ولقد زاد اهتمام السلاطين والملوك ببخارى، وغيرها كمراكز تجارية هامة فأقاموا الربط والخانات لإقامة واستضافة التجار فقد أجمع معظم الجغرافيين والرحالة على وتأصل صفة الكرم والمروءة فى أهل ما وراء النهر، حيث أقاموا آلاف الربط، والخانات والحمامات، والفنادق، التى كانت مقسمة وفق أنواع التجارات، فيقصد كل تاجر فندقه، بما يعلم انه يغلب على أهله من أنواع التجارات.

وكثيرا ما تجمع التجار القادمون من المدن والبلاد المجاورة وأقاموا الخانات التى كانت منوى لهم كما اتخذوها مخازن لبضاعتهم يقول ابن حوقل: (وترى الغالب على أهل الأموال [الأغنياء] بما وراء النهر صرف نفقاتهم إلى الرباطات وعمارة الطرق، وليس من بلد ولا منهل مطروق ولا قرية آهلة إلا وفيها من الرباطات ما يفضل عمن ينزل به ممن يطرقه، وبلغنى أن بما وراء النهر زيادة على عشرة آلاف رباط وفى كثير منها إذا نزل النازل أقيم علف دابته وطعامه إن احتاج إلى ذلك).

وكذلك انتشرت الخانات والأربطة، فى جميع أنحاء بخارى نظرا لارتباطها الشديد بالتجار، وبضائعهم، وعادة ما يرتبط الخان بوجود الرباط، ووجود الفنادق، والحمامات العامة فى الأسواق وكانت هناك فنادق أو خانات يسكنها أهل

اليسار (التجار) وأهل البضائع والأموال الغزار، كذلك كان هناك فنادق وخانات مخصصة لأهل المهن وأرباب البضائع، أو غير الماسير من التجار فهناك الحوانيت، والحجر المملوءة بالأساكفة، والخزازون، والحبالون إلى غير ذلك.

كذلك وجدت الأسواق التى كانت دائما فى الأرباض، أو داخل المدن وهى من المراكز التجارية الهامة، التى انتشرت فى بخارى وأهمها، ما كان قائما على مقربة من البواب التى تطل على المسالك القريبة من طريق الحرير، أو على مقربة من دور العباد كالمساجد حيث يجتمع الناس، وكانت معظم الأسواق مغطاة بالآجر والحجارة. بعضها تشقها الأنهار مما يسهل وصول البضائع إليها يقول المقدسى (كانت أسواق بخار واسعة تشبه أسواق الفسطاط)، وكانت أسواقها مقسمة لى حارات صغيرة كل منها مخصص لسلعة مختلفة، وذلك طبقا للنمط الآسيوى السائد، وكانت الأسواق أما يومية أو شهرية أو سنوية، فقد وجد فى بخارى سوق شهرى يجرى فيه البيع والشراء فى المواشى والثياب والرقيق وسائر الأمتعة من النحاس والأوانى وغيرها.

ويذكر الترخشى صاحب كتاب تاريخ بخارى. أنه كان يقام ببخارى كل عام، حتى بعد الإسلام، سوقان كبيران للرعى والصور، كان مرد ذلك إلى العادات السائدة أيام كان أهل بخارى يعبدون الأوثان إذا كانوا يشترون أوثانهم من هذه الأسواق.

وكان أشهر ما صدرته بخارى، كمركز تجارى إلى خراسان، والصين والهند، والشام، والعراق، وأوروبا، المسلك، والزعفرات، وثياب تعرف بالبخارية ثقال الأوزان، غليظة السلك، مبرمة الغزل، فيرغب العرب فيها كذلك كانت تصدر الثياب القطنية المصنوعة فى بخارى إلى سائر الآفاق والتى كانت تستحسن فى كافة المناطق والأقاليم، وكذلك البسط وثياب الصوف فى غاية الحسن، ومقاعد ومصليات تستحسن فى كافة الأقاليم والمناطق، وكان يرتفع منها بطيخ فائق يحمل إلى الآفاق، وثياب الفرش كانت تفرش فى حجرات الضيوف، وكان ينسج فى مصانعها حزم الخيول، وتبدبغ فيها جلود الضأن، ويرتفع منها الشحم ودهن والرأس الذى يحمل إلى كل الآفاق.

وكانت بخارى غنية بالمراعى والسفوح الجبلية التى من السهل أن ترعى فيها أعداد كبيرة من الدواب والأغنام والماشية، ولذلك فاضت ثروتها الحيوانية عن حاجة أهلها، فصدرتها، هذا إلى جانب الرقيق الذى نقل إلى سائر البقاع خاصة أقاليم الشام وخراسان وغرب العالم الإسلامى، فخير الرقيق رقيق ما وراء النهر فيه بلادة جيدة الجوارى والغلمان يقول المقدسى مصر بهى رشيق كثير الرقيق.

أما عن الواردات التى كانت تأتى لبخارى، فمعظمها كانت من خراسان وذلك بحكم قربها منها، إذ لا يفصلهما سوى نهر جيحون، فكان يجلب إليها الجلود المدبوغة المستوردة من الجوزجان أحد كور خراسان، والأرز وبعض المنسوجات القطنية، والصوفية، والبطيخ الذى كان يحمل هدايا وبعض الآلات والأثاث من طبرستان والرى.

واستوردت بخارى كمركز تجارى، العاج، والأبنوس من الهند، والورق من الصين وكذلك الحرير وظلت بخارى محافظة على مكانتها الرفيعة فى أوائل الشطر الأول من العصور الوسطى، ولكن فى سنة ٦١٦/١٢٢٩م أدركها الغزو المغولى فدمرت ونهت عن آخرها، ولم تعد بخارى إلى سابق عهدها إلا فى ختام القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى فى عهد تيمور لنك حينما اتخذها مع سمرقند مقرا له.

٢ - سمرقند: بفتح أوله وثانيه، ويقال لها بالعربية سمران، أى مدينة المسرات، وهى قصبة إقليم الصغد وعاصمته السياسية، يصفها المقدسى بقوله (بلد سوى جليل عتيق، ومصدر بهى رشيق، رضى كثير الرقيق، وماء غزير بنهر عتيق، تحمل إليها المتاع من كل فج عميق، لها أربعة أبواب باب الصين، وباب بخارى وباب كش وباب بمنهار).

وتقع سمرقند أعلى نهر جيحون، جنوبى وادى الصغد على نحو ١٥٠ ميلا من بخارى على مسافة قصيرة من ضفة النهر الجنوبية، ولها قلعة مرتفعة عن الأرض، وأسفلها قرب النهر أرباض كثيرة، تحف بها البساتين والأشجار، وقل دار تخلو من بساتين تكثر فيها أشجار السرو، وبها الكثير من الأسواق والحمامات، فكانت أسواقها مجمع التجارات، ذاخرة بالسلع الواردة إليها من جميع الأنحاء، وكانت سمرقند فرصة تدارية عظيمة لبلاد ما وراء النهر ففيها أسواق كبار، وفيها

من المدن العظام، الكثيرة المليئة، بالمحال والحمامات، والخانات، والمساكن، تتصل بها الأسواق والسك والمحال وصنوف التجار وأسواقها مفروشة بالحجارة.

وسمرقند من أجل البلدان وأعظمها قدرا وأشدها امتناعا وأكثرها رجالا يجرى فيها وحولها الأنهار كنهر (ررفشان أى ناشر الذهب) ونهر ناسف وصفها الإدريسى بقوله مدينة لها شوارع ومجالات متسقة وفنادق وحمامات وخانات، وعليها سور تراب منيع، يحيط بها خندق، ولها أربعة أبواب، ولها عدة رساتيق، مثل الدبوسية، وأربحين، وكش، ونسف وغيرها، ومدينة توفر لها كل هذه المميزات من أسواق، وطرق، وخانات وتحصينات جديرة أن تصبح مركزا تجاريا هاما.

ومعظم أسواق سمرقند كبار مثل سوق الصيارفة، والصفارين، وكثير من الخانات التى نزلها التجار للإيواء وتخزين البضائع، فمعظم جهاز ما وراء النهر التجارى يقع بسمرقند، ثم إلى سائرا لكور، فإلى جانب طريق الحرير الذى ورد ذكره كثيرا فى الكتب المعاصرة ورد ذكر سمرقند على أنها مدينة القوافل التجارية الهامة، وثم طريق كان يأتى منسمرقند ليعبر نهرا الصغد إلى زامين فى أشروسنة، ثم يتشعب، فكان الفرع الأيسر يتجه إلى الشاش وسيحون، والأيمن على فرغانة، وهناك طريق أخر من سمرقند يمر بيزكك مارا بإقليم سيحون ليتلقى بالطريق الآتى من زامين إلى الشاش، إلى جانب نهر الصغد الذى كان يمثل أهم الطرق النهرية فى سمرقند وبخارى، وهو نهر منبعه جبال البتم، ويستمر فى جريانه حتى سمرقند ومنها ينفذ إلى بخارى، وقد ظلت سمرقند من حيث الرفعة وعدد السكان أولى أولى مدن ما وراء النهر قاطبة، وهذه المكانة التى نالتها سمرقند إنها ترجع قبل كل شىء إلى موقعها الجغرافى الفريد قاطبة، وهذه المكانة التى نالتها سمرقند إنها ترجع قبل كل شىء إلى موقعها الجغرافى الفريد عند ملتقى الطرق التاجرية الكبرى القادمة من الهند (مارة ببلخ) ومن إيران مارة بمرو ومن أراضى الترك وخاصة فى عهد الدولة السامانية هذا إلى جانب حصانتها وقد أعطانا الفقيه الهمذانى أقدم وصف لسمرقند الإسلامية، فقال يحيط بها سور طوله أثنا عسر فرسخا وبه أثنا عشر بابا إلى جانب أن قلعتها كانت لداخل المدينة بعكس بخارى التى كانت قلعتها داخلها وكانت بخارى تتصل بسمرقند عن طريق يسمى (الطريق

الملكى) أو (شاه راه) بالفارسية حيث كان ذا شهرة تجارية كبيرة مما يسهل حركة التجارة بينهما.

وقد لعبت سمرقند دورا بارزافى تجارة أسيا الوسطى مع الصين والهند وأوروبا، والشام، وخراسان والعراق، ففى إحدى ضواحى سمرقند المعروفة (وذار) كانت تقوم صناعة الأنسجة القطنية التى تمتعت بسمعة واسعة واشتد الطلب عليها فى العراق وغيرها، وأكثر ما اشتهرت به الكاغد السمرقندى الذى أستوردت صناعته من الصين، والذى صدرته إلى كل الأفاق، فكان يصدر منها ثياب حمر ودبياج وقز. وكان الصفارون يصنعون القدور العظيمة من النحاس، وغيرهم يعملون الركب والسيور وأحزمة السرج، ويحمل منها اللوز والبندق، والمناديل، وسمرقند مجمع رقيق ما وراء النهر وخير الرقيق فيما وراء النهر كان يربى بسمرقند، وهى جيدة الجوارى والغلمان، فكما قال المقدسى (مصر بهى رشيق كثير الرقيق)... وقد لعبت سمرقند دورا تجاريا مهما كمعبر لذلك الرقيق الخارج منها، أو الآتى إليها، من بلاد الترك إلى خراسان، وباقى البلدان الإسلامية، كذلك كان بسمرقند صناع مهرة فى صناعة المعادن حتى أصبح الدرع السمرقندى، مشهورا فى كافة أنحاء أسيا، ولشهرته وصل إلى الصين وأصبح المحاربون فى الصين لا يستخدمون إلا هذه الدروع.

وقد عرف عن أهل سمرقند مهارتهم فى صناعة الزجاج، وخاصة الزجاج الملون المستخرج من أحجارها، وجبالها وقد أشار ابن حوقا إلى جبل صغير يعرف بكوهك يمتد إلى سور سمرقند، تستخرج منه أحجار وطين يستعملان فى صناعة الأوانى، والنورة، والزجاج، ولجودته صدرته سمرقند إلى الصين بصفة خاصة، بعدما كانت الصين تحمل عليه من الغرب، وكذلك برع أهل سمرقند فى الحفر على الخشب واشتهرت المشغولات الخشبية السمرقندية فى كافة المدن المطلة على طريق الحرير.

واشتهر رستاق (اوفر) فى سمرقند بتربية المواشى، فكانت تجلب منه المواشى والبغال، والحمير، والأغنام إلى سائر الأنحاء خاصة بلاد الترك الخزلجية.

وبحكم قرب سمرقند من خراسان حيث لا يفصلهما سوى نهر جيحون فقد نشطت حركة التجارة بين البلدين، واستوردت سمرقند من خراسان الجلود المدبوغة

التى كانت تجلب من الجوزجان وهى إحدى كور خراسان والتى تأتيها القوافل بصنوف التجارات، كما كان بجانب إلى سمرقند الأرز، والزبيب والمنسوجات والبطيخ المقدد والذى كان يحمل كهدايا، كما استوردت سمرقند كمركز تجارى هام من خراسان العمل المازى من أصبهان، ذلك العمل النفى الذى كان يهدى إلى الخلفاء، كما استوردت الزعفران وخاصة زعفران أصفهان فهو أذكى رائحة وابين نفعا.

ويرجع سبب الخراب المؤقت الذى حل بسمرقند إلى المغول، فقد خربوها سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م حتى أن ابن بطوطة لما زارها فى القرن الثامن الهجرى قال لا سور لها ولا أبواب عليها وأكثر دورها خراب، وقد استعادت سمرقند مجدها السابق بعد ذلك بقليل خلال القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى، حيث اتخذها تيمور لنك عاصمة له، فجددها وشيد فيها المساجد، وأقام الأربطة).

٣ - كش: بالفتح ثم التخفيف، وهى شهر سبز الحالية أى المدينة الخضراء وينطقها الأهالى (شرسيز) كانت يوما - كما قال اليعقوبى أعظم مدن الصغد لكنها تدهورت على عهد السامانيين بسبب ارتفاع شأن بخارى وسمرقند وهى من أشهر مدن الصغد التجارية. لها حصون وقلعة وريض، وأسواقها فى ريضها، وهى مدينة خصبة جدا، تنضج فيها الفواكه أسرع مما تنضج فى سائر بلاد ما وراء النهر، وهى مدينة، محاطة بالأسوار والأبواب، يصدر منها الملح المستخرج من الأرض إلى خراسان، وفى جبالها العقاقير الكثيرة، ويسميها ياقوت الكشانية.

ومما زاد من أهميتها كمركز تجارى مهم وجود نهرين كبيرين بها، هما نهر القصارين، ويخرج من جبال سيام، ويجرى فى جنوب المدينة، والآخر نهرا سروذ يخرج من رستاق كشك روز حيث تم اتخاذهما من الطرق التجارية المهمة المؤدية إليها وهى مدينة جليلة كثيرة الأهل، عامرة بالناس، والتجار وأسواقها كثيرة مفروشة بالحجارة.

٤ - نسف: بفتح أوله وثانيه، ثم وفاء، من أهم مدن إقليم الصغد كانت تسمى نخشب، فعربها العرب نسف، وهى مدينة نفيسة لها قلعة أورياض توجد فيها الأسواق وهى مجمع طريق سمرقند التجارى، كما أنها على مدرج طريق

بخارى إلى بلخ، وهى المدينة المعروفة الآن باسم (قرشى). كثيرة الأسواق جيدة الأعناب والمزارع الطيبة وهى تقع على بعد مسافة ميل ونصف الميل، فى منحدر نهر أسفل كش من ناحيتها الغربية وقد ربطة الطرق البرية الرئيسة التى ربطت نسف بمدن إقليم الصغد الرئيسية كبخارى وسمرقند، فقد كان يربطها ببخارى طريق طوله تسعين ميلا، عليه الكثير من الربط والخانات للتجار، كما ربطها بكش طريق يدخل الجبال، ثم طريق أخر بسمرقند عن طريق كش وقد ساعدت هذه الطرق على تنشيط حركة التجارة الداخلية بين مدن الأقليم وخارجه.

٥ - **مدينة تمجكت أو الطواميس**: كتبها ياقوت تمشكت: بضمتين، وسكون الشين المعجمة، وفتح الكاف، مدينة صغيرة فى شمالى غربى بخارى، وهى أعظم مدن بخارى التجارية لها سوق، ومجمع تجارى عظيم ينتابه الناس من أقطار خراسان فى وقت معلوم من السنة، ويحمل منه الثياب المصنوعة من القطن إلى سائر أنحاء العراق وكن السوق يقام لمدة عشرة أيام كل عام، ويزيد عدد زواره على عشرة آلاف نسمة.

٦ - **بيكند**: بالكسر وفتح القاف وسكون النون، بلدة بين بخارى وجيحون، وهى أشهر مدن بخارى التجارية، كان يقام فيها سواق الكرابيس، وهو سوق أوقفت غلته كل شهر سبعة آلاف درهم على الضعفاء والأرامل والأيتام يقول ياقوت (غير أن بها من الرباطات مالا اعلم ببلدا من البلدان مما وراء النهر أكثر منها)، فقد كان عددها ألف رباط لإقامة التجار، وتخزين بضائعهم وقد اشتهرت بيكند قديما بكونها مركزا تجاريا كبيرا يشهد لهذا، تجارتها معالصين، وتجاراتها البحرية مع البلاد الواقعة على بحر قزوين، فقد كانت تسمى مدينة التجار، وبلغ من شهرتها التجارية بعد الإسلام أنه كان لكل قرية من قرى بخارى، رباط للقوافل عند باب بيكند حتى بلغ عددها ألف رباط.

٧ - **أشيتخن**: بالكسر ثم السكون، وكسر التاء المثناه، وياء ساكنه، وخاء معجمة مفتوحة ونون، مدينة تقع على بعد سبعة فراسخ من سمرقند، لها قلعة وأرباض، وأنهار تأخذ من نهر زرفشام (الصغد) وهى مشهورة بكثرة زروعها ونعتها الأصطخرى بأنها قلب الصغد لخصبها، وقد اشتهرت بكثرة الأربطة التى نزلها تجار خراسان والصين والعراق والترك.

٨ - بنجيكث: بضم دولة وسكون ثانية، وكسرا لجيم وياء ساكنة، وفتح الكاف وتاء مثناه، أحدى مدن سمرقند، على بعد تسعة فراسخ منها، جنوب نهر الصغد وما زالت قائمة حتى اليوم بأسم بنجكند كثيرة الثمار خصبة بها شجر اللوز والجوز، وتمتد حقول القمح على الأنهار، مما أهلها لتصبح مركزا تجاريا مهما فى آسيا الوسطى.

٩ - الكشانية: أوكشانى من مدن سمرقند وهى أقدم مدن الصغد لأن أهلها كلهم تجار من ذوى اليسار والثراء.

١٠ - الترمذ: بالفتح ثم السكون، وفتح التاء مدينة على نهر جيحون وإحدى من الصغاينان يضرب النهرسورها، وهى مدينة مشهورة من أمهات المدن، أهلة، واسعة بأمره لها قلعة وربض وأسواقها مفروشة بالآجر، كما يجرى بها نهر الصعانيان الذى تجرى فيه المراكب حاملة التجارات.

١١ - أمل: تقع على شط نهر جيحون، وهى مدينة حسنة متوسطة لها بساتين وعمارة، وهى كثيرة الضياع غالية الخراج مظللة الأسواق، وصفها الإدريسى بقوله (مدينة حسنة متوسطة القدر لها بساتين وعمارة وبها ناس وتجارة، ومنافع وجبايات كفاية، قريبة من خراسان فكانت مركزا تجاريا لتجارات ما وراء النهرو العراق، والشام، وأسيا الصغرى).

١٢ - أما إقليم خوارزم: أحد أقاليم ما وراء النهر الشهيرة فتحيطه الصحراء من كل جهة، ويتصل ببلاد الترك الغزية مما يلى الشمال والغرب، واشهرمدنه الجرجانيه أو أركنج، وتقع فى الجانب الغربى من جيحون، أى الجانب الفارسى، وهى متجر الأتراك الغزية والأخرى كاث، وتقع فى الجانب الشرقى، أى الترك من النهر، ومنها تخرج القوافل إلى جرجان، وبلاد الخزر وخراسان.

(أركنج) أو كركانج الحرجانية: بالضم ثم السكون، وكاف أخرى وبعد الألف نون ساكنة، يلتقى بها ساكنان ثم جيم، قصبة خوارزم ومدينتها العظمى وقد عربت فقيل الجرجانية، ثم أطلق عليها المغول والترك أسم أركنج وهى مدينة كبيرة عامرة، تعتبر أهم مدينة على الضفة الشرقية لنهر جيحون تخرج منها القوافل إلى جرجان، وخراسان، وتقع على نهر كثير يخرج من نهر جيحون، ويجرى محاذيا له، بها الأسواق المليحة والشوارع الفسيحة.

وأهم تجارتها التى صدرتها الطعام والحبوب والفواكه، والقطن، والجبن واللبن وفى أسواقها أشهر أنواع الفراء وأغلاها، وتجلب إليها من بلاد البلغار الواقعة على حوض نهر الفولجا عبر طريق الحرير، كذلك كان يصدر منها فراء السمور والثعالب والسناجب والفلك، وأبو عرس، وتصنع فيها الحلل الطويلة، والقصيرة، ويصدر منها جلود الأرانب والماعز المدبوغة، وجلود الحمر الوحشية.

وكان يصنع فيها الشمع، ولحاء شجر الحور الأبيض، المسمى التوز الذى كان يتخذ غلافا للزروع، وغراء السمك وأسنان السمك، والعنبر والخلنج والعسل والبندق، والسيوف والدروع والقسى، كما كان يصنع فيها اليسيط، وثياب اللحف، والديباج المنسوج، من القطن والحرير، وتحمل منها المقانع من القطن والحرير والثياب الملونة وتنحت فيها السفن من جذوع الأشجار التى تتخذ للملاحة فى الأنهار الصغيرة وكانت أهم التجارات فى خوارزم جلب الرقيق حيث كانوا يشترون أو يسرقون، أولاد، وبنات الأتراك، وبعد تعليمهم وتأديبهم بآداب الإسلام، ينقلون منها إلى سائر بلاد الإسلام المختلفة، متولين بها أجل مناصب الدولة ووظائفها.

ومما ساعد على أهميتها التجارية الطريق التجارية، التى تمر بخوارزم فهناك طريقان بأيتان من الجنوب، ويجتمعان فى أركنج، فيذهب أحدهما شمالا إلى أركنج، قاطعا الصحراء والآخر يذهب من مرو مارا بخراسان ويقطع الصحراء حتى يصل إلى الطاهرية على نهر جيحون.

كما كان هناك طريق آخر من أركنج إلى هزارسب كما كان هناك طريق من كاث على الجانب الغربى من النهر، وأشهر تجارتها هى الأغنام التى كانت تباع فى ميدان فسيح وقد ظلت أركنج وكركانج مدينة تجارية مزدهرة حتى عصر السامانيين الذين حولوا اتجاههم واهتماماتهم نحو بخارى وسمرقند وبيكند وغيرها وفى القرن الثانى عشر الميلادى/ السابع الهجرى، اكتسبت كركانج أهميتها التجارية مرة أخرى كعاصمة لدولة شاهات خوارزم القوية وفى سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م زار ياقوت الحموى الجرجانية أوكركانج على ما سماها به، قبيل أن يكتسحها المغول بقيادة جنكيز خان وقال فيها لا علم أنى رأيت أعظم منها مدينة ولا أكثر أموالا وأحسن أحوالا، ولكن الغزو المغولى لها سنة ٦١٧هـ/ ١٢١٩م دمرها فقال عنها ياقوت

الحموى، لم يبق فى ما بلغنى إلا معالمها. وقتلوا جميع من كان بها، ولكنها نهضت من كبوتها حيث أبتنى الناس قريبا منها سنة ٦٢٨هـ / ١٢١٩م قال ابن الأثير وعمروا مدينة تقارب مدينة خوارزم، عظيمة عرفت بخوارزم الجديدة وصفها ابن بطوطة أن أهلها أهل الصناعات الدقيقة كالحداد، والنجار، وأنهم يبالغون فى صناعاتهم، والسكاكون يعملون الآلات من العاج والأبنوس، ونساؤها يعملن بالأبرة صناعات مليحة، كالخياطة والتطريز والأعمال الدقيقة، التى كانت تصدر إلى كافة الأنحاء، قال القزوينى، ومن عجائبها زراعة البطيخ الذى لا يوجد مثله فى شىء من البلاد حلاوة وطيبا، والذى كان يحمل إلى خراسان والصين وبلاد الخزر.

أما كاث: بعد الألف ثاء المثلثة، ومعنى الكاث بلغة أهل خوارزم الحائط فى الصحراء من غير أن يحيط به شىء، قصبة أخرى لخوارزم ولتزال قائمة إياليوم وكانت تسمى شهرسان، على الجانب الشرقى فى إقليم ما وراء النهر، وكانت الطرق التجارية المارة بينها وبينبلاد الروم، وسجستان، وخراسان عامرة لا تنقطع فيها المنازل والبساتين وكان عادة تجارتهم فى الرقيق الأتراك، وأقتناء المواشى وكان أهلها مياسير، وأسواقهم حافلة بالخيرات والتجارات، وأكثر رقيق الصقالبة والخزر وما والاهما، مع رقيق الأتراك والأوبار من الفنك والسمور والثعالب وغير ذلك من أصناف الأوبار يحط وبهم ينزل ولهم تجار يدخلون بلاد الخزر والصين لاستخراج الخزور وكاث ناحية خصبة كثيرة الأطعمة، والحبوب، والفواكة ويصدر منها ثياب القطن والصوف التى تصل إلى الآفاق، وأهلها أكثر أهل خوارزم إنتشارا وسفرا أى تجارا مما ساعدها على أن تصبح مركزا تجاريا هاما.

وفى القرن ٨هـ / ١٤م إجتاح تيمور لنك خوارزم وتركها قاعا صفصفا بعد حصار دام ثلاثة أشهر، إلا أنه أمر بتجديدها سنة ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م فاستعادت مكانتها التجارية مرة أخرى، كحلقة وصل بين خراسان وبلاد ما وراء النهر والصين وأوروبا.

الطاهرية: أول حد خوارزم مما يلى آمل فى جنوبى جيحون، يربطها به نهر تجرى فيه السفن بالتجارات يسمى نهر عاوخوراه وتفسيره أكل البقر مما ساعد على

أن تكون مركز تجارى داخلى مهم فى إقليم خوارزم، وهى تحتل أطلال مدينة كتمنجى الحالية واشتهرت الطاهرية بزبيبها لكثرة البساتين فيها وكانت موضعا تجاريا مهما.

خيوة: سماها ياقوت (خيوق) بفتح أوله وقد يكسر، وسكون ثانية، وفتح الواو وأخرة واو، بلدة من نواحى خوارزم، ازدهرت فى عهد الأمراء الأوزبك بعد تيمور لنك ٩٠٦ - ١٠٠٦هـ/ ١٥٠٠ - ١٥٩٧م، وحجبت مدينة أركنج، وصارت قصبة خوارزم، وشمل اسمها مع الأيام الإقليم كله وظلت مركزا تجاريا مهما لحصانتها وموقفها الفريد على ناحية من نهر جيحون.

هزارسب: ومعنها بالفراسية ألف فرس وهى قلعة حصينة ومدينة جيدة، تقع فى موضع ذو شأن كبير، حافظ على اسمه منذ الفتح الإسلامى سنة ٩٦هـ / ٧١٤م حتى اليوم، قال عنها ياقوت والذى زارها سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م فيها أسواق كثيرة وبزازون وأهل ثروة، وكان الماء محيطا بها كالجزيرة، وما أهلها لتصبح مركزا تجاريا مهما قربها من جيحون عن طريق قناة سميت باسمها (قناة هزارسب) تجرى فيها السفن حاملة التجارات.

زمخشر: بين نوزوار، والجرجانية، كانت فى القرن ٤هـ/ ١٠م لها حصن وخندق وأبواب، وهى على بعد أربعة أميال من أركنج الجديدة، ولد فيها الإمام الزمخشرى صاحب التفسير المعروف سنة ٤٦٧هـ/ ١٠٧٥من ومات سنة ٥٣٨هـ/ ١١٤٤م، وتعرف أطلالها اليوم باسم زمكشر وكانت زمخشر مدينة عامرة أهلها بالسكان المياسير فيها سوق كبير.

مذمينية وخليجان: تقع على ضفة نهر جيحون الغربية، وخليجان تقع على شواطئ بحر آرال نفسه، وعند مصب نهر جيحون، وهو موضع يقطنه الصيادون، تصاد منه كمية كبيرة من الأسماك، تصدر من خوارزم إلى غيرها من البلاد.

وقد اشتهر إقليم خوارزم بكثرة الأربطة التى تقام لإيواء التجار ونزلهم، مثل رباط طوفان وجكرنيد، ورباط باهان، ورباط ميان شاه، ورباط جعفر، ورباط بود ورباط سورات، ورباط دهان سيثر وغيرها.

أما المراكز التجارية فى إقليم اشروسنة: هذا الإقليم الذى يقع شرق سمرقند ورضه سهول وجبال، حد الشرقى (باميـر)، (الفامر)، وقصبته مدينة بونجكث، وهو من أقاليم نهـر سيخون (سـيردريا) أو نهر جكارتس أو الشـاش كما يسمـه الترك.

بونجكث - بنجيكث: بضم أوله، وسكون ثانية وكسـر الجيم، وياء ساكنة، وفتح الكاف، وتاء مثناه، قصبة إقليم أشروسنة وهى مـدينة كبير لها ربض وعليها سور داهل ربضها أسواق عامرة وتجارات قائمة، وهى بلد خصيب بها الماء العزير، والبساتين، ولها أربعـة أبواب وبها ستة أنهار تجرى فيها مما سـاعدها على أن تتبوأ مركزا مهما فى عالم التجارة، ومن مدنها مرسمندة التى كان يقام بها أسواق شهيرة يرتادها الناس من أمكان بعيدة، رأس كل شهر كما يأتى إليها أهل النواحى المحيطة كمـا كان يقام فى بونجكث سـوق كل ثلاثة أشهر أيام الربيع، وتكون أسـعاره من أرخص الأسعار وتعـتبر أطلال مدينة أو راتبـه الحالية هى إطلال بنجكث عـاصمة أشروسنة.

زامـين: بعـد الميم المكسـورة ياء سـاكنة، ثانى مـدن أشـروسنة فى الكبـر والأهمية، ما زالت قائمة إلى الشرق من بونجكث، وهى على طريق خراسان الآتى منبخارى وسمرقند، كما تقع أيضـا على طريق فرغانة إلى الصغد والمدينة لها اسم آخر وهو سرسنده وهى مدينة عـامرة، كثيرة البشر، مما يتيح الفرصـة لقيام التبادل بينهـما وبين غـيرها من المدن، فـهى عامـرة بجمـيع ما يحـتاج إليـه من المتـاجر والصناعات وتقع زامـين على ضفتى نهر مـخرجه ليس بعيدا مـن الجبال، وتصل بينهمـا جسور صغـيرة، مما سهل عمليـة التجارة، فكان لوقـوع زامين على طريق فرغانة الشاش، وسمرقند أثره فى جعلها مركزا تجاريا مهما.

مرسمنده: وهما مما يلى خجندة وبعض الجـغرافيين كالأدريسى ضـمها إلى مدن أشر وسنة وبعضـهم الأخر مثل ابن حوقل يذكرها أنها من مـدن جبال البتم، إلا أنهما يجـمعان على أن بها فى رأس كـل شهر سوق مشـهور ويأتى أهل تلك النواحى للبيع والشراء، وهى سوق مشهورة على طريق فرغانة إلى الشاش.

وذكرها اليعقوبى باسم أرسمنده ومنهـا كان يستخرج الحديد الذى تصنع منه الآلات والأسلحة ويصدر إلى جميع البلاد فيصل بغداد عبر طريق الحرير.

ساباط: من مدن إقليم أشر وسنة وتعتبر من المراكز التجارية المهمة نظرا لوقوعها على ملتقى الطرق الداخلية بين مدن إقليم فرغانة وأشر وسونة الشاش وبعض مدن إقليم الصغد، وما زالت ساباط قائمة وهى بين زامين وبونجكث فى طريق فرغانة.

ديزك أو جيزك: المدينة الثالية بأشر وسنة، وكانت تقع فى السهل فى رستاق فنكان فلكان، وقد اشتهرت بأنها كانت مركزا للمجاهدين، ولذا فقد شيد بها عدد كبير من الرباطات والخانات للمرابطين والتجار، كان أشهرها رباط خدايسر الذى بناه الأفشين قائد الخليفة المعصتم ٢١٨ - ٢٢٢٧هـ /٨٣٣ - ٨٤١م، وكان على بعد ٤ أميال من المدينة.

وقد ساعد إقليم أشر وسنة ليصبح من أهم مراكز التجارة فى آسيا الوسطى وقوعه على نهر سيحون أو نهر جكارتس العظيم، الذى سماه العرب سيحون، على أنه أسمه الأكثر شيوعا كان نهر الشاش (تاشكند) لوقوع هذه المدينة المهمة بالقرب من ضفافة، وعرفه المغول باسم كل زريان ثم أطلق عليه الترك اسم سيردريا، أو سيرصول (نهر سير) وقد ذكر البلدانيون العرب أن نهر سيحون صالح لسير السفن كنهر جيحون، ونهر سيحون يجمد شتاء مدة أطول من جيحون وكانت القوافل التجارية تعبره، وكان يعد نحو ثلثى جيحون.

وقد اشتهرت مراكز التجارة بأشروسنة بتجارة الرقيق الذى كان يجلب إليها وكان أهم عمل لمن يقصدها من التجار، وذكر المقدسى إنه كان يصدر من ديزك فى أشر وسنة البنود، والجياد، والأقبية وكان أغلب الرقيق فى العراق ومصر والشام من رقيق أشر وسنة.

ومما ساعد على حركة التجارة فى هذا الإقليم ارتباطه بغيره من أقاليم آسيا الوسطى كالصغد وفرغانة والشاش بعدة طرق مهمة، منها طريق خراسان وهو طريق يواصل اتجاهاه شمال سمرقند فيعبر نهر الصغد، ومنه إلى زامين فى أشروسنة، حيث يتشعب فكان الطريق الأيسر يذهب إلى الشاش وسيحون، والأيمن إلى أعالى سيون وفرغانة، وكان الطريق من زامين شرقا إلى الشاش راسا يعبر سيحون، وهناك طريق آخر من سمرقند يمر بديزك إلى إيلاق، ومنها إلى مدينة بركى أميركى، آخر مدينة إسلامية فى بلاد الترك فى القرن ٤هـ / ١٠م.

ويمثل إقليم الشاش: بمراكزه التجارية المهمة أهمية تجارية كبرى فى أسيا الوسطى ويقع على ضفة نهر سيحون اليمنى أى الشمالية الشرقية غرب إقليم فرغانة، والخرائب المعروفة اليوم بتاشكند القديمة هى موضع المدينة التى سماها العرب شاش، والفرس (جاج)، كانت فى العصور الوسطى أعظم المدن العربية الإسلامية فيما وراء سيحون، وكان يقال لمدينة الشاش بنكث، وذلك على غرار كثير من أسماء المدن فى بلاد ما وراء النهر، فى أن لها تسميتين إيراينه وتورانية.

وقد أحاط بالشاش سور بهيئة نصف دائرة يصل ما بين نهر الترك بالشرق وسيحون بالغرب، ود لحقها الدمار فى أثناء غزوات المغول وأحياها التيموريين، وهى من أهم الأقاليم التجارية فى آسيا الوسطى. ويقصد بالشاش وادى نهر يرك أو (جرجيق).

ومن أهم مراكزها التجارية:

بنكث: بالثاء المثلثة، قصبة أقليم الشاش، وسميت تشكنت أو أسكى تشكند ثم طشقند (الحالية)، جليلة المقدار، كثيرة العمارة، والتجارات الواسعة، عليها سور حصين، وأكثر أسواقها العامرة فى الربض، وساعة الرقعة، فسيحة المنازل أقل بيت فيه بستان، وكان لربها من نهر الترك أثر كبير فى جعلها مركزا للتجارة الداخلية، وبها لصناعة الورق، وكان يصدر منها المسك والزعفران والجوز واللوز.

إيلاق: أخرة قاف، مدينة من بلاد الشاش المتصلة ببلاد الترك، من أنده بلاد الله وأحسنها، ليس بخراسان وما وراء النهر على مقدارها فى المساحة (٢٤٠) أكثرها منابر، وقرى عامرة، من مراكزها التجرية تونكت وميدنة صبران والشاش وإيلاق،؟ لا فصل بينهم فى العمارة والبساتين، وهى مدينة تجتمع بها الغزية للصلح والهدنة، والتجارات، وتع إيلاق المدينة الثالثة التى تضم دار دار لضرب العملة فيما وراء النهر بعد سمرقند وبخارى وأكثر أسواقها فى الريض، ولها نهر يسمى نهر إيلاق استخدم كطريق تجارى بحرى، وهى متصلة بالشاش، وتشمل على أكثر من عشرين مدينة. ومن أهم مدنها خاشت أو خاست بلاد الذهب والفضة فى جبالها المتصلة بحدود فرغانة.

اسبيجاب: من مدن الشاش الشهيرة واعتبرت مركزا تجاريا مهما لأنها مدينة محصنة بسور له عدة أبواب أسواقها فى المدينة، بها التجارات الشهيرة، وكانت ولاية أسبيجاب هى الأرض المزروعة الواقعة فى حوض نهر أريس، وروافده فى عهد السامانيين وهى نفسها قرية سيرام الحالية، وكانت بها مجموعة كبيرة من الرباطات التى اتخذت مأوى للتجار ونزلا لتجارتهم مثل رباط السمرقنديين، ورباط قراتكين.

بلاساغن: قصبة خانات التركستان فى القرنين ٤، ٥ هـ / ١٨٠م.

الطراز: أحدى مدن الشاش، وهى مدينة محصنة جليلة، كثيرة البساتين ولها أربعة أبواب، وهى متجر المسلمين الأتراك الخزلجية، لوقوعها على حدود بلاد الترك والتجارة بين المسلمين الأتراك والكفار مشروطة بتوقيع اتفاق وهدنه بين هؤلاء وأولئك وتتمثل هذه المعاملات التجارية فى الأمتعة والسائمة والأوبار وغير ذلك.

فاراب (أترار): بع الألف راء، وأخره باء موحدة، ذكرها الطبرى، باسم أطرار بنده، وهيم ن أشهر مدن الشاش على شاطئ نهر سيحون الأيسر فى تخوم بلاد الترك، كانت بها أحياء من الترك الغزية، والقارلوقية، ممن دخلوا فى الإسلام فى عهد المأمون العباسى (١٩٨ - ٢١٨هـ / ٨١٣ - ٨٣٣م) وهى مسقط رأس الفيلسوف المشهور أبى نصر الفارابى (ت ٣٣٩هـ / ٩٥٠م)، ويذكر المسعودى أن نهر سيحون، فى نواحى فاراب كان يغمر مساحة كبيرة من الأرض، وأن القرى كانت تصبح كالقلاع على رؤوس التلال، حتى كان الأهالى يلجأون إلى استعمال الزوارق للاتصال ببعضهم البعض، وكان الترك الغز يفدون إلى فاربات للاتجار، أو لعقد معاهدات الصلح، وكان لتحصيناتها القوية، ومراعيها الخصبة أثره فى ازدهار التجارة بها، وقد ترك لنا الكرديزى وصفا لطريق التجارة من بنكث إلى مساكن الكيماك على ضفاف نهر أراتيش، ففى وقت السلم كانت الحبوب تنتقل لى بنكث من وراء النهر على نهر سيردنيا إلى بلاد الكيماك وغيرهم عبر فاراب.

جمكنت جميكنت: أوجموكت كما كتبها المقدسى وقال فيها كبيرة عليها حصن، والجامع، فيه والأسواق بالربص.

شوغر: مدينة كبيرة واسعة عليها حصن،ليها سوق كبير، ما زالت قائمة إلى هذا اليوم باسم (حضرة التركستان) أراويسى.

سوران - صبران: بالفتح ثم السكون، وآخرة نون، بليدة فيها قلعة عالية، وراء نهر سيحون على مرحلة يوم من شمال شوغر، وما زالت قائمة حتى اليوم، وكانت ثغرا للغزو، وهى مجمع الترك الغزية للصلح، والهدنة، والتجارات لها قلعة حضية محكمة الدفاع تحيط بها سبعة حصون.

جند: بالفتح ثم السكون، ودال مهملة، بينها وبين خوارزم عشرة أيام قريبة من نهر سيجون، من مدن الإسلام الكبرى فى بلاد التركستان، وكان بحر آرال كثيراً ما يذكر على أنه بحر جند وهى قصب الغز التى سماها العرب: القرية الجديدة (أو الحديثة)، وعرفت فى الأزمنة الأخيرة باسم ينفكس، أو ينكى شهر أى المدينة الجديدة بالتركية.

بلاساغن: السين مهملة، والغين معجمه، بلد عظيم فى سهول الترك وراء نهر سيحون، قصبة خانات التركستان فى القرنين ٤، ٥هـ / ١٠، ١١م قرب كاشغر على حدود الصين مما سهل حركة التجارة إلى بلاد الصين.

كاشغر: بالقتاء السكاكنين، والشين معجمة، والغين أيضا، وهى مدنية وقرى ورساتيق، يسافر إليها من سمرقند، وهى فى وسط بلاد الترك، آخر حدود الترك المسلمين على حدود الصين، وكان لقربها من الصين فى كونها مركزاً تجارياً مهماً عبر طريق الحرير.

أما إقليم فرغانة: فيعتبر من أشهر المراكز التجارية فى آسيا الوسطى فى إنتاج الخيول الفرغانية التيعرفت لدى الصينيين بالخيول السماوية، التى ولدت فى الماء، وحملت الحكام شبه الأسطوريين إلى السماء، حيث يخلدون حسب الأسطورة، وبسبب تلك الخيول أرسل أباطرة الصين إلى فرغانة جيوشهم لإحضارها بالقوة بعد أن رفض ملك (كوقند - خوقند أو فرغانة إرسالها بالحسنى، عبر طريق الحرير العظيم، أو مقابل الحرير الذى كان أهم سلعة تنقل على هذا الطريق، خاصة فى الصين حيث ظلت الصين زمنًا طويلاً تحتفظ بسر ترتبه دودة القز وصناعة الحرير، وكان أقليم فرغانة يسمى إلى وقت قريب بخانية خوقند، وقد أعادت إليه الحكومة الروسية رسميًا أسمه القديم، ومن أهم مراكزه التجارية:

إخسيكث: بالفتح ثم السكون، وكسر السين المهملة وياء ساكنة، وكاف وثاء وبعضهم يقوله بالتاء المثناه، وهى أخشيكت التى سماها ابن خرداذبه، وابن حوقل مدينة فرغانة، وهى قصبة الإقليم مدينة واسعة كبيرة على شط نهر الشاش وهى على شمال النهر والوصول إليها والخروج منها إلى غيرها من المدن أمراً يسيراً، مما يسهل على التجار معاملتهم التجارية حيث سلعهم التجارية تحملها القوارب والسفن، كما أنها تقع على أرض مستوية، مما سهل إقامة الأسواق، ولها قلعة وارباض، والأسواق فى المدينة والربض وعلى الربض سور، وللمدينة أبواب وكل باب من أبوابها يؤدى إلى بساتين وأنهار جارية فتكون الطرق البرية إليها سهل وقد دمرت فى أثناء الغزو المغولى ٦١٦هـ/ ١٢١٩م، ولكن تيمور لنك، جددها وعرفت باسم أخسى فى أيام السلطان بابرشاه مؤسس الدولة المغولية التيمورية فى الهند.

ومن أهم المراكز التجارية بإقليم فرغانة والتى كان لها دورها فى التجارة مع بلاد الترك المحيطة بإقليم وراء النهر من جهة الشرق كل من أوزكند وأوش أكبر مدينتين على الثغور التركية، فأوزكند مدينة محصنة، لها ريض، وأسواق، وكانت مركزا للتجارة مع الترك فهى متجر باب الأتراك وكان يخرج منها طريق تجارى يؤدى إلى منقطة يدى صوه، وكانت أكثر عصورها ازدهارا فى عهد الفراخانين عندما أصبحت المدينة عاصمة لجميع بلاد ما وراء النهر، وعلى عهد القراخطاى وخانات أل جغتاى الأول، كانت أوزكند مقرا لخزانة الدولة، مما يدل على أهميتها التجارية، اما أوش فهى مدينة حسنة البقعة، على ضفة نهر يعرف بها ولها، ريض كبير، وأسواق جامعة، يأتى إليها الترك الكفار بتجاراتهم فى فترات السلم.

أما أنديكان (أو أنديجان الحالية) والتى اتخذها كيدوخان، حفيد أغتاى بن جنكيز خان، عاصمة لفرغانة فى النصف الأخير من القرن السابع الهجرى، الثالث عشر الميلادى فيها سواق كثيرة وعامرة، وهى أندكان بضم الدال المهملة - كما ذكرها ابن حوقل وياقوت.

قبا: بالضم تلى أخشيكت فى الكبر مدينة من أنزه المدن، كثيرة الأسواق والبساتين وصفها المقدسى بأنها أرحب وأوسع واطيب وأنزه وأعجب من

أخشيكث، وهى مدينة وسطها ميدان، وجامعها فى الأسواق الشهيرة حتى قال الحكماء فرغانة (قبا)، وهى الآن قرية كوفة.

مدينة أشتيقان: تقع فى نصف الطريق بين أخشيكث وقبا. وأسواقها عامرة وهى مثل أوزكند متجر الأتراك.

نصر آباد، وتسخان، وزاركان: من مدن فرغانة الشهيرة بتجارتها كما وصفها المقدسى، فنصر آباد مدينة كبيرة، التفت بها الأشجار، بناها أحمد بن أسد بن سامان لابنة نصر، وتسخان كبيرة آهله وجامعها فى سوق تجار الأنسجة القطنية (الكرابيس)، وهى أشحان عند المقدسى، أوتسحان، أو آنتشخان أى بيت النار، أما زاركان فتكثر بها زراعة الأرز، المياه بها بستان كثير الشجر.

نقاد: أكبر قرى فرغانة، وقد اشتهرت بثروتها المعدنية التى صدرتها إلى كل البقاع، فكان يوجد بها معادن الذهب والفضة، والزئبق والزفت القار، الفيروزج والآنك (الرصاص).

كاسان أو قاسان: بالسين المهملة وآخره نون، ما زالت قائمة لليوم، وصفها الجغرافيون الأولون بإنها تقوم فى ناحية مسماه باسمها، وعلى بابها نهر يلتقى هو وسيحون عند أخسيكث.

شكت أوسكت: بكسر أوله وثانيه، وآخره تاء مثناه من فوق، من قرى أوزكند من أقصى بلاد فرغانة، وهى أوسع مدن فرغانة، قال عنها المقدسى، أنها كثيرة الجوز حتى ربما وجدت ألف جوزة بدرهم وأسواقها عامرة فى وسطها.

نسيا العليا والسفلى: كان بها أكبر عدد من المدن التجارية، تقع فى جنوب نهر سيحون، يقال لها كورة نسيا أو نسائية، العليا فى الجبل والسفلى تحتها، وأسواقها عامرة ومن مدنها التجارية خوقند التى صارت فى الأزمنة الحديثة قصبة فرغانة ونسبت إليها خانتيها.

كند: بالضم ثم السكون، مدينة كبيرة، لأهلها سفن يسافرون فيها فى نهر سيحون للتجارة، وهى التى عرفت باسم كند باذام (أى مدينة اللوز) على ما ذكر القزوينى لأن بها لوزا كثيراً وهو لوز عجيب ينقشر إذ فرك باليد وهى مدينة كن بدم الحالية.

أما خجندة: بضم أوله، وفتح ثانيه ونون، ثم دال مهملة، وهل يلد مشهور فيما وراء النهر، أولى مدن فرغانة من الغرب مجاورة لها في غربي نهر الشاش، من كبريات مدن ما وراء النهر، وأهلها أهل سفن يسافرون فيها للتجارة في سيحون وأسواقها كثيرة الجوز، والجامع في السوق.

وفرغانة أشهر مدن أسيا الوسطى في استخراج معادن الذهب والفضة بناحية نقاد واخشيكت ويرتفع منها الزئبق والفيروذج والحديد والصفر والأنك وبها قرية باسيرة جبل الحجارة السود التي تحترق كالفحم وتبيض برمادها الثياب، والذي كان يصدر إلى آسيا الوسطى وخراسان والصين، وأوروبا، وبلدان الخلافة الإسلامية، وفي جبال فرغانة شجر الطبرخون الذي يحمل بزره إلى الآفاق، كما يصدر منها النوشادر، والأعناب والجوز والفستق وسائر الفواكة ويصدر منها أيضا الزيبق إلى سائر الأنحاء، وكذلك النفط والحديد إلى جانب الرقيق، واشتهرت فرغانة بحجر الإرحاء والفحم الحجري للوقود، وكان يصدر من بساتينها ويحمل إلى الآفاق الأعناب والتفاح والجوز، ومن الرياحين الورد والبنفسج، ويصدر منها الأرز والكتان والقطن ويستخرج من فرغانة نوع من الأحجار سوداء اللون تحترق مثل الفحم، فإذا احترق اشتد بياض رمادها فيستعمل في تبيض الثياب، وهيبلاد النوشادر الشهيرة مما أعطى إقليم فرغانة أهمية تجارية كبرى وقد زعمت الرواية الشعبية بأن وجود قبر النبي أيوب عليه السلام، بها، وهو الآن موضع المياه، التي يستشفى بها والمعروفة باسم حضرت أيوب الواقعة على مسافة ميل ونصف من قرية جلال أباد، كما قيل أن بفرغانة قبور ألفين وسبعمائة من الصحابة والتابعين قرب أسيد بولان، كان قد أرسلهم الخليفة عثمان بن عفان فاستشهدوا جميعا في معركة دارت رحاها بين المسلمين والكفار الأتراك، ولا يزال هذا الموضع قائما حتى الآن تحت نفس الاسم، كما يوجد خوقند مشهد الإمام عبد الله حفيد الإمام الحسين بن علي وشقيق الإمام محمد الباقر ت ١١٣هـ / ٧٣١م، ويعد قبر قتيبة بن مسلم الباهلي، الفاتح العربي المسلم، لبلاد ما وراء النهر والذي استشهد في ٩٦هـ / ٧١٥م موضعا من مواضع الزيارة في هذه المدينة ويؤكد ذلك ذكر قتيبة بن مسلم في رباط سرهتك من قرية كاخ وكذلك إشارة الأهالي حتى يومنا هذا إلى قبره، في دائرة جلال كدك من أعمال أنديجان، مما جعل فرغانة مزارا دينيا يفد

إليه الناس من كل أقاليم ما وراء النهر وخارجه، ومعلوم ما يحمله الناس معهم من تجارات، وما يبتاعونه من أسواق تلك المدن.

كما ساعدت الطرق البرية التى ربطت من فرغانة بعضها ببعض، وكذلك بغيرها من مدن أقاليم ما وراء النهر، على عملية التبادل التجارى، وكان يربط أخسيكت بالأجزاء الجنوبية لفرغانة عدد من الطرق، وكان هناك طريق مستقيم يربطها باشتيقات وهناك طريق آخر يخرج من أخيكث قصبة فرغانة إلى أوش شرقا، ثم أوزكند. وهناك طريق من زامين إلى فرغانة مارا بيوبحكث قصبة أشرسنة، ويمر بمدينة خجندة ويظل محاذيا لضفة نهر سيحون الجنوبية إلى أن يصل إلى أخسيكت قصبة فرغانة كما كانت فرغانة تتصل بإقليم الصغد وخاصة سمرقند عن طريق العديد من الطرق التجارية التى حملت تجارات تلك البلاد من شتى الأصناف والألوان.

وقد ارتبطت آسيا الوسطى ببلاد التبت والهند ارتباطا وثيقا، حيث كان يجتاز أراضيها وأراضى جغنان، وبوخان، وبذخان، والوخش، طريق التجارة المتجه إلى بلاد التبت، أعنى المجارى العليا لنهر السند التى كان يقطنها أهل التبت والتى كان يجلب منها المسك، فازدهرت التجارة مع الهند عن طريق المراكز التجارية الآتية:

الختل والوخش: الختل بضم أوله، وتشديد ثانية وفتحة، حلف نهر جيحون، والوخض بالفتح، ثم السكون، والشين معجمه، وهما كورتان غير أنهما مجموعتان فى عمل واحد وهو نهر جريان، ونهر وخشاب، ومن أهم مدن الوخش هلاورد ولاوكند بالقرب من كركان شبه الحالية، ومدن الختل كاربنك، وهلبك وسكندره وفارغر ومنك أكبر مدنه والختل كورة واسعة كثيرة المدن والخير وهى على حدود الأقاليم الصغدية قصبتها هلبك قرب مدينة خلال الحالية، ومن أكبر مدنها هلاورد ومنك وهما مدينتان عامرتان بالأسواق، والتجارات، وكذلك مدينة لاوكند بها أسواق وتجارات أما مدينة منك فبها أسواق، وصناعات وعمارة كثيرة حسنة الأسواق كثيرة الخيرات والمنافع وقد ارتبطت هذه البلاد ببلاد الهند عن طريق التجارة المتجه إلى بلاد التبت فى المجارى العليا لنهر السند، وكانت شومان

من مدن الوخش الشهيرة بالتجارة، حيث كانت بها أسواق قائمة، وخيرات دائمة، ولها سوق منيع وتشتهر الختل بالدواب الكثيرة التى تصدر منها إلى الآفاق.

بدخشان: بفتحتين، والخاء معجمه ساكنه، وشين معجمه محركة، وألف ونون، والعامة يسمونها بلخشان بالام، فى الجنوب الشرقى من بلاد ما وراء النهر، فى أعلى طخارستان، تقع على طريق التجارة القادم من التبت فى المجرى الأعلى لنهر جيحون، وقد أشتهرت بذخشان بمراعيها الجيدة وديانها الواسعة الخصبة وطقسها الرائع، أما وضعها فتقع فى وادى جيحون ونهر بذخشان حيث تقوم مدينة فيض آباد (فيزاباد) قصبة البلاد الحالية. وصفها الإدريسى، بقوله مدينة خصبة. بها أسواق وفنادق وحمامات وتجار وأموالم تصرفة وهل على نهر جرياب وبجبالها دواب كثيرة، ونتاج كثيرة، ويجحلب منها الخيل والبغال وترتفع منها الحجارة وات الجواهر النسية التى تشابه الياقوت الأحمر وقد اشتهرت بذخشان منذ القدم بأحجارها الكريمة لاسيما معدن البلخش المقادم للياقوت ويجلب منها اللاوزرد والذى يستخرج بكميات كبيرة ويحمل إلى سائر الأقطار فيعمها كثرة ولا شىء يفوقه وتستورد المسك عن طريق وخان من أرض التبت بالهند والذى يذوق ويعمل منه فصوص الخواتم ومنها يدخل التجار أرض التبت بتجارتهم وقد وصف المقدسى احجارها بقوله (بها معدن اللازورد والبلور وحجر البازهر) وحجر القتيلة (الآسبست) وهو شىء يشبه البردى لا تحرقه النار يوضع فى الدهن فيقد كما تقد الفتيلة ولا ينقص ويصنع منه الخوان حيث ينسج منه مناديل غلاظ للخوان، فإذا اتسخن وأريد غسلها ألقيت فى النار فتخرج نظيفة وهناك حجر يجعل فى البيت المظلم فيضىء أدنى شىء منه ولعل هذا الحجر نوع من الحجر الفسفورى المضىء، وفيها حجر البجاذى وهو حجر كالياقوت، وكانت كل هذه الأحجار تصدر إلى الخارج، وهذا أهم ما اشتهرت به بذخشان.

وخان: فى شرق بذخشان فى أعالى جيون، فى الطريق إلى التبت، وبينها وبين التبت مسافة قريبة تبلغ ثمانية عشر يوما، وكانت تتاخم بلادا يقال لها السقيفة أو (دكران - أو كرام) وبها معادن الفضة التى لا نظير ها فى الكثرة والطيب، وفى أوديتها ذهب تبر يسيل مع الماء فى وقت جرى السيول من كثرته،

وكانت قوال الرقيع من أواسط آسيا تجتاز هذه البلاد إلى خراسان ومنها إلى أسواق المدن الإسلامية فى الغرب، فهو موطن الرقيق والمسك.

الصغانيان: بالفتح، وبعد الألف نون، ثم ياء مثناة من تحت، وآخره نون والعجم يبدلون الصاد جيم فيقولون (جغانيان) ولاية عظيمة بما وراء النهر، إلى الغرب من نهر الوخش، يحدها من جنوبها نهر جيحون، سماها العرب بنفس الأسم وكتبت الفارسية جغانيان، وكان وادى جيحون تشغله فى العصور الوسطى مقاطعة صغاينان التى كان حاكمها يحمل فى العهد السابق للإسلام لقب (صغان خدات) ويذكر المقدسى أنه كان بصغانيان كان ما يقرب من ست عشرة ألف قرية، وكانت العاصمة تعرف بالقباذيان على أول نهر يلتقى بجيحون غرب وخشاب، وصفها ابن حوقل بقوله هى أصغر من الترمذ بكثير، وتسمى فزة ويرتفع منها الفوة، الذى يحمل إلى بلاد الهند، تشغل الموضع الذى تشغله حاليا دينو، التى تعتبر إلى اليوم المركز الرئيسى للمنطقة بسبب أهميتها التجارية، وموقعها الاستراتيجى الممتاز وصفها المقدسى بقوله والصغانيان مدينة كبيرة، قرب الترمذ، خبز رخيص، ولحم كثير، وماء غزير، وأسواق عامرة لطيفة، على أسرار بلا طيقان، وعامة أهلها صوامون يعملون الأكسية التى تحمل إلى الآفاق، وتعرف الآن باسم مدينة سر آسيا الحديثة.

شومان: بالضم والسكون، وآخره نون، بلد بالصاغانيان من وراء جيحون، إلى الجنوب من القباذيان، حيث قلعة شومان أو الشومان العظيمة الإسلامية، التى يكثر حولها الزعفران ومنها يصدر إلى سائر الآفاق، كانت فى أيام ياقوت الحموى، من الثغور الإسلامية أمام الترك، وقد لعبت دورا فى حروب تيمور لنك، وسميت باسم حصار شادمان أو حصارك، وتعرف اليوم بحصار أيضا وفى أوقات السلم كانت عمليات التبادل التجارى تتم فيها بين الترك الكفار والمسلمين بانتظام.

طخارستان: بالفتح، وبعد الألف راء ثم سين ثم تاء مثناه من فوق وهى ترخستان العليا والسفلى، تقع بين بلخ وبذخشان وقد أخذت أسمها من شعب الطخاريين الذين قضوا على مملكة بقتيريا اليونانية، وكانت هذه المقاطعة تمتد فى

عهد السيادة العربية من ضفاف أمودريا حتى سمرات هنودكش الجبلية ومن أشهر مدنها ومراكزها التجارية الطالقات، التى تعتبر أكبر مدن طخارستان جميعها، ولا تزال محتفظة باسمها (ممثلا فى طالخان) إلى أيامنا هذه وتصنع بها اللبود الطالقانية التى تصدر إلى الآفاق وتعتبر مدينة خلم أشهر وأهم مدن الطخارستان سواء من ناحية التجارة، أو من الناحية العسكرية؛ وهى تقع على ضفة نهر يحمل نفس الاسم، وهى أوتاش قرغان الحالية، وكان يمر بوادى خلم أكثر من درب مطروق. يؤدى إلى جبال هندوكش، وكانت هذه الدروب والطرق يطرقها التجار من الهند إلى آسيا الوسطى، والعكس.

باب الحديد: المشهور، وهو مضيق فى الجبال فى طريق كش ونخشب فى الصغد، وقد وصفه الرحالة الصينى هوين تسانك وكان قد زار الهند، ٢٩م بصفته حاجا بوديا، وقد روى أن هذا المضيق فى أيامه يسد بأبواب قابلة للأنطباق، وتشد بالحديد، وقد خلق بهذه الأبواب أجراس حديد، وقد تكلم البلدانيون العرب عن مدينة بهذا الوضع سماها اليعقوبى بمدينة باب الحديد، وذكر أيضا أنه يقال لها بالفارسية دراهنين، واشتهرت باب الحديد بأسمها الفارسى (دربند آهنين) منذ أيام تيمور، أما تسميتها التركية (مهلفة)، وقد قطع هذا الطريق كلافيجو السفير الأسبانى إلى بلاط تيمور لنك سنة ٨٠٨هـ / ١٤٠٥ن، وقال ان هذا الطريق قد قدته يد الإنسان، وترتفع الجبال على جانبيه إلى علو كبير، والدرب فيه طريق ممهد جدا، ويقال لهذا الدرب أبواب الحديد، وهو يحازى بلاد سمرقند من ناحية الهند، وكانت أبواب الحديد تدر دخلا كبيرا على المسيطرين عليها لأن كل التجار القادمين من الهند يمرون بهذا الدرب.

أما جبال البتم الشهيرة الشاهقة المنيعة، والغالب عليها النزهة والخضرة، وهى قرى آهلة بالسكان، وبها حصون منيعة، وفيها معادن الذهب والفضة، والزاج والنوشادر الذى يصدر إلى الكثير من الأماكن وبقاع الأرض. وهى تتصل سمرقند وبخارى وإقليم الصغد عن طريق نهر يسمى نهر مسخا، يصب فى نهرى الصغانيان وفرغانة.

وقد ارتبطت هذه المراكز التجارية ببعضها البعض عن طريق مجموعة كبيرة من الطرق البرية والنهرية سهلت عملية التبادل التجارى، وقد ذكر البلدانيون

العرب هذه الطرق بالتفصيل، وعلى رأسها طريق الحرير العظيم كما قلنا، والذى بفضله استطاع سكان آسيا الوسطى إقامة علاقات تجارية، وثقافية مع الهند والصين وإيران وآسيا الصغرى، ومن خلالها مع اليونان، وروما، وأوربا.

وهناك على سبيل المثال طريق على نهر جيحون يصل ما بين بيكند وبخارى فى محاذاة نهر الصغد اليسرى إلى سمرقند، وهناك آخر من ترمذ ويتشعب هذا الطريق إلى طرق مختلفة، إحدها إلى الشمال ليدخل من الصغانيان والقباذيان، ومنها إلى قنطرة الحجارة المشهورة، ليعبرها ويصل فيها إلى الختل، وهناك طريق من زاميس إلى فرغنة ويعبر هذا الطريق بيجكت قصبة أشروستة حيث ينعطف إليها، كما يمر بمدينة خجندة، ويظل محاذيا لصفتى نهر سيحون الجنوبية إلى أن يصل إلى أخيكث قصبة فرغانة إلى جانب العديد من الأنهار التى اتخذت كطرق تجارية هامة كنهر الشاش ونهر الصغد ونهر سرخاب.

ومن الطرق الخارجية التى ربطت هذه المراكز بغيرها طريق يخترق خراسان إلى بلخ، ثم يعبر جيحون إلى ترمذ وعندها يتشعب إلى طرق مختلفة، ففى الشمال يتخلل الصغانيان والقباذيان، وآخر إلى ترمذ، وهناك ينعطف إلى كش وبخارى كما أن تجارة بلاد ما وراء النهر كانت تصل إلى الهند عن طريق خراسان حيث لعبت خراسان دور الوسيط عن طريق بلخ، عبر جبال البامير التى كانت بداية الطريق الهندى العظيم للتجارة، أو ما يسمى طريق التوابل حيث كانت بلخ تتوسط طريق الحرير، وتعتبر فى الوقت نفسه رأس جسر على الطريق المؤدى إلى داخل الهند، وأنطاكيا، ودمشق وروما، ثم يتابع الطريق سيره إلى مدينة القوافل (مرو)، وذلك عبر معبر جبلى قصير نسبيًا من كاشغر إلى أرض فرغانة، عند أعالى نهر سيحون.

كما يمكن لتجارات ما وراء النهر أن تصل إلى الصين من طراز إلى نوشجان الأعلى، وهو حد الصين وبينهما مسيرة خمسة عشر يومًا للقوافل.

كما كانت تخرج من آسيا الوسطى أو تأتى إليها تجارات من بلاد الترك عن طريق مدينة الطراز، وهى على الحدود مع بلاد الترك الغزية كذلك تخرج تجاراتهم من أسبيجاب حيث الطرق التى تسلكها القوافل بالتجارات.

كما تخرج القوافل التجارية من آسيا الوسطى إلى الهند عن طريق بذخشان التى كانت تتصل ببلاد القنوج من الهند، كما أن هناك بعض الطرق المتجهة من أسيا الوسطى، إلى بلاد الروم، عبر خوارزم، وكذلك كان هناك طريق تجارى يمر بإقليم ما وراء النهر، يأتى من الشرق عبر طريق شمالى من مدن السهوب التركية، فجنوبًا إلى ما وراء النهر، فشمالاً حول بحر قزوين، وغربًا عبر السهوب لى بلاد القرم، وبعد ذلك يسير فى الصغد إلى القسطنطينية التى كانت من الأسواق الرئيسية للسلع الآتية من آسيا الوسطى.

وقد وفر الحكام والأمراء والملوك والسلاطين والخلفاء، الأمن والأمان، على طول هذه الطرق، مما أتاح للقوافل التجارية العمل بكل أمان وإطمئنان.

وقد خلفت هذه المراكز التجارية نوعًا من العلاقات الخارجية، والداخلية، فى داخل آسيا الوسطى وخارجها، فقد كانت الصين أقدم الدول التى تبادلت التجارة عبر هذه المراكز التى انتشرت كما قلنا عبر طريق الحرير، ولعل أبلغ أثر لهذا التبادل التجارى عبر هذه المراكز بين ما وراء النهر والصين، هو انتقال العقيدة المانوية من الصين إلى آسيا الوسطى، عبر طرق التجارة مع التجار الصينيين الذين كانوا يجوبون بلاد ما وراء النهر، إلى جانب انتقال سر صناعة الحرير إلى مدن آسيا الوسطى، ومن أهم المدن الصينية التى كان يقصدها التجار الصينيون تشانج آن، ولو يانج، وقد تبادلت الصين مع مراكز التجارة فى آسيا الوسطى الفواكه، والأسلحة والدروع، والغلمان، والحرير والمفروشات والبروسلين أما مع خراسان ثغر المسلمين لفتح آسيا الوسطى والذى لم يفصله عنها سوى نهر جيحون، فقد كان لسهولة الاتصال أثره فى عملية التبادل التجارى، وكذلك الهند التى أستوردت منها مراكز التجارة فى آسيا الوسطى، التوابل، والمسك، والعطور وغيرها.

أما مع العراق، فالعراق منذ أقدم العصور من المراكز التجارية الهامة يقصدها التجار من كل الأنحاء، وزاد من أهميته التجارية بناء بغداد، لتصبح عاصمة للخلافة الإسلامية، ومركزا تجاريًا للعالم الإسلامى كله، فبحلول سنة ١٣٣هـ / ٧٥٢م نظم العباسيون خدمات بريدية تصل إلى ما وراء النهر، كما جددوا محطات القوافل واستراحات الخيل على طول الطرق، وأضافوا إليها محطات

أخرى مما سهل عملية التبادل التجارى بين بغداد وآسيا الوسطى، كذلك كان هناك طريق يخرج من بغداد إلى خراسان، ويخترق بلاد ما وراء النهر إلى الصين مما سهل نقل البضائع، فقد كانت أسواق بغداد حافلة بغرائب السلع التى كانت تحمل إليها من هذه البلدان.

وهكذا نرى أن معظم مراكز التجارة فى آسيا الوسطى قد تحققت وتوفرت ها كافلة المميزات التى جعلتها من أهم مراكز التجارة العالمية، فى آسيا الوسطى، مثل قوة التحصين والموقع، وكونها مأهولة بالسكان، ووقوعها على الطرق النهرية والبرية والبحرية، وأهمها طريق الحرير، وكذلك كان بها فائض من مواردها، وزراعتها، وصناعاتها، إلى جانب الأمن والأمان الذى وفره الحكام، وقد توفر ذلك كله فى كل المراكز التجارية سواء على المستوى الداخلى أو الخارجى، مما أهلها لتصبح من أهم مراكز الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى.

***

قائمة المراجع

إبراهيم إبراهيم عامر: العمارة فى سمرقند فى العهد التيمورى، بحث نشر حولية ندوة الآثار الإسلامية فى شرق العلم الإسلامى القاهرة سنة ١٩٨٨م.

أحمد بوريبوى أحمدوف، زاهد الله منروف العرب والإسلام فى أوزبكستان (تاريخ آسيا الوسطى من أيام الأسر الحاكمة حتى اليوم)، دار الرقى؟، بيروت، بدون. أحمد تونى عبد اللطيف: الفتح الإسلامى لبلاد ما وراء النهر وانتشار الإسلام هناك بحث نشر ضمن إبحاث المؤتمر الدولى والمسلمون فى آسيا الوسطى والقوقاز.

بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، ترجمة د / أحمد السعيد الهيئة العامة للكتاب، سنة ١٩٩٦م.

تركستان من الفتح الغربى إلى الغزو المغولى، ترجمة صلاح الدين هاشم، الكويت سنة ١٩٨١م.

حسن أحمد محمود: الإسلام فى آسيا الوسطى بين الفتحين العربى والتركى، الهيئة العامة نكتاب سنة ١٩٧٢م.

عبد الشافى محمد عبد اللطيف: الفتح الإسلامى لبلاد ما وراء النهر وانتشار الإسلام هناك بحث نشر ضمن أبحاث المؤتمر الدولى (المسلمون فى أسيا الوسطى والقوقاز) جامعة الأزهر سنة ١٩٩٢م.

عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية ترجم عن الفارسية د/ محمد علاء الدين منصور، القاهرة، ١٩٩٠م

عبد الفتاح مقلد الغنيمى: الإسلام والمسلمون فى جمهورية آسيا الوسطى دار الأمين ١٩٩٥م.

محمد أحمد محمد: بخارى فى صدر الإسلام، دار الفكر العربى، ١٩٩٢م.

محمد على البار: المسلمون فى الاتحاد السوفيتى عبر التاريخ ج١، ج٢، دار الشروق بيروت ١٩٨٣م.

محمـد عبد العظيم يوسف: طغـرلبك وتأسيس الدولة السلجوقـية، رسالة ماجستير غير منشورة، آداب الزقازيق، سنة ١٩٩١م.

الفتح الإسلامـى لإقليم الصند، بحث نشر ضـمن حولية معـهد الدراسات الآسوية، الزقازيق ١٩٩٧م.

السلاجـقة، تاريخه من السـياسى والعسـكرى، عين للدراسات والبـحوث القاهرة سنة ٢٠٠١ يسرى الجوهرى - آسيا الإسلامية، دار المعارف ١٩٧٣م.

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
الفصل الأول	
آسيا الوسطى (الأطار الجغرافى والتاريخى)	٥
الفصل الثانى	
الفتح الإسلامى لآسيا الوسطى وعوامل نشر الإسلام	٤٧
الفصل الثالث	
الدويلات المستقلة فى آسيا الوسطى	٨٣
الفصل الرابع	
الغزو المغولى لآسيا الوسطى	١٥٣
الفصل الخامس	
دولة تيمور لنك فى آسيا الوسطى	٢١١
الفصل السادس	
التركستان تحت حكم الأوزبك	٢٢٧
الفصل السابع	
الحياة الثقافية فى آسيا الوسطى	٢٣٧
الفصل الثامن	
العمارة فى آسيا الوسطى	٢٩٥
الفصل التاسع	
مراكز التجارة فى آسيا الوسطى	٣١٩

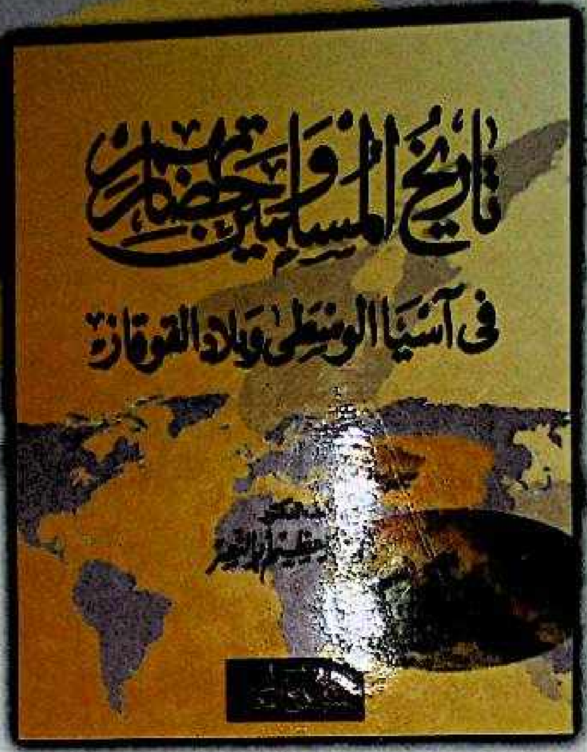

الناشر
شركة نوابغ الفكر
للنشر والتوزيع والتصدير
عمارة ١٩ القطامية (القاهرة)
هاتف : ٢٥٩٣٦٤٠٢ ، فاكس : ٢٧٨٦٥٥٥٣
e-mail : nawabgh__elfakr@hotmail.com